ألكسي فاسيلييف

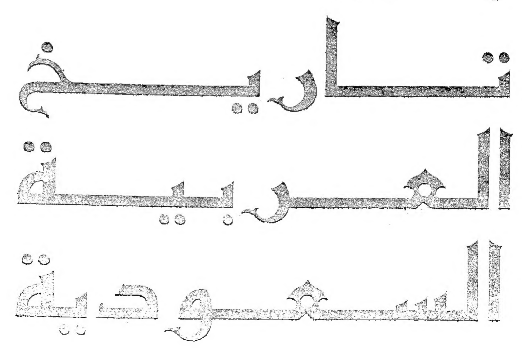
تاريخ العربية السعودية

من القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن العشرين



طبعة منقّحة ومزيدة

اليكسي فاسيلييف



هذا الكتاب:

صدر هذا الكتاب باللغة العربية لأول مرة عام ١٩٨٢، وكان صدوره حصيلة جهد بحثي قام به المؤلف خلال عشرات السنين، واعتُبر منذ ظهوره وحتى الآن، الكتاب الأكثر توثيقاً، وبالتالي أهمية، لتاريخ العربية السعودية، حيث يعرض المؤلف فيه وبالتفصيل مختلف مراحل تكون الدولة وتطورها، مستنداً في ذلك إلى **جهد توثيقي ضخم يغطي أكثر من ١٧٠ صفحة تحوي أكثر من ١٧٠٠ هامش توثيقي.**

وفي هذه الطبعة **الجديدة المنقّحة والمزيدة**، يتابع المؤلف رصد الأحداث والتوقعات في العربية السعودية، إنطلاقاً من التغيرات التي حدثت على الصعيد العالمي خلال الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين. إنه بحق الكتاب **الجامع** عن العربية السعودية، ولن يكون الكتاب **المانع** عنها.

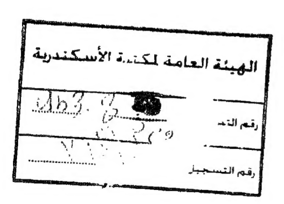
تصميم الغلاف: عباس مكي

تاريخ العربية السعودية

أ ـ فاسيلييف

أ ـ فاسيلييف

تاريخ العربية السعودية



شركة المطبوعات

للتوزيع والنشر

بناية الوهاد ـ شارع جان ـ دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت ـ لبنان

هاتف: ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠ / ٢ ٣٥٠٧٢١
فاكس. ٠٧-٥٢٢١ -٩- ٣٥٧ / ٩٦١١-٦٠٢٠٢٩
تلكس ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٥ م

المقدمة

تتمتع العربية السعودية في العالم المعاصر بنفوذ اكبر بكثير مما يفترضه عدد سكانها الاصليين، وهو حوالى ١٢ مليون نسمة في اواسط التسعينات.

فهي تمتلك حوالى ثلث موارد النفط المكتشفة خارج اطار روسيا وآسيا الوسطى والصين. وقد غدت اكبر منتج للنفط واول مصدّر له. وعندما وجدت الطبقة الحاكمة السعودية نفسها عاجزة عن استثمار العائدات الخيالية من هذه المادة الخام في داخل البلاد صارت من اكبر مصدري الرأسمال ايضا. وتفوق الملوك والامراء من آل سعود على اغنى طواغيت المال في الولايات المتحدة واليابان واوروبا من حيث الاحجام المطلقة لثرواتهم. ان القرارات التي تتخذ في الرياض، بالرغم من انها ليست مستقلة دوما وغالبا ما تكون اضطرارية ومفروضة من القوى الخارجية، انما تؤثر بصورة مباشرة او غير مباشرة على ميزان المدفوعات في الولايات المتحدة الاميركية والكثير من الدول الاخرى وعلى وتائر تطورها الاقتصادي ومستوى التضخم النقدي ومستقبل الدولار، وعلى سير النزاع العربي الاسرائيلي ونتائجه وعلى استقرار بعض انظمة الحكم في البلدان النامية.

وكان السبب في اكبر صدام مسلح بعد انتهاء «الحرب الباردة»، ونعني به حرب الخليج، لا يقتصر على غزو العراق للكويت، بل ينطوي على خطر احتلال العربية السعودية وتجزئتها.

ويضاف الى العوامل الاقتصادية والمالية الفريدة دور العربية السعودية بوصفها مهد الاسلام. ففي اراضيها الحرمان الشريفان الرئيسان في الاسلام - مكة المكرمة وفيها الكعبة التي يتجه المسلمون نحوها اثناء اداء فريضة الصلاة

ويتوجهون اليها لاداء فريضة الحج، والمدينة المنورة وفيها قبر الرسول. ان تصاعد الصراع بين الحضارة الغربية المسيحية والحضارة الاسلامية وتعمق الصحوة الاسلامية في العالم الاسلامي يضفيان صبغة دينية على الكثير من النزاعات السياسية والاجتماعية الجارية فيه وكذلك على الحزازات والعنعنات القومية والخلافات الدولية. ولذا تزداد في العالم الاسلامي اهمية العربية السعودية ـ سادن الحرمين الشريفين.

لقد تعرضت البنية الاجتماعية والاقتصادية في العربية السعودية لتغيرات سريعة في غضون حياة جيل او جيلين. فقد التصق الاقتصاد الرأسمالي السوقي الدخيل بالمجتمع العشائري الاقطاعي التقليدي الذي لم يكن متهيئاً للتحويلات ولم تكن لديه لا الكوادر ولا المؤسسات الحكومية والاجتماعية ولا النظام الحقوقي المناسب لهذا الغرض. وبدأ في العربية السعودية، التي يحكمها واحد من اعتق الانظمة في المعمورة، انفصام ممض في الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والقانون والسيكولوجيا الاجتماعية، فثمة مجتمع جديد ناشئ يعجز التصنيف المعتاد عن وضعه في الخانة التي تناسبه.

وبديهي ان تقترن زيادة الاهتمام بهذا البلد بزيادة المطبوعات المكرسة له.

فخلال الاعوام العشرين الاخيرة ظهرت في روسيا (والاتحاد السوفييتي سابقاً) كتابات كثيرة عن العربية السعودية في مؤلفات مستقلة وفي الصحف والمجلات، وهي مذكورة بالتفصيل في الطبعة الاولى من كتابنا «بيبليوغرافيا العربية السعودية» وفي طبعته الثانية التي ستصدر قريبا. ولكن منذ صدور الطبعة الاولى «لتاريخ العربية السعودية» لم تظهر مؤلفات جديدة في تاريخ المملكة، شأن كتابنا هذا، تطور البلد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي منذ تأسيسه في اواسط القرن الثامن عشر الميلادي حتى تسعينات القرن العشرين.

والطبعة الحالية مزيدة ومنقحة وتتناول الاحداث حتى بداية التسعينات حيث عاد الاستقرار الى المملكة بعد هزات حرب الخليج. ولعل مرحلة التسعينات تشكل ميدانا للبحث امام الاقتصاديين وعلماء الاجتماع والساسة والصحفيين اوسع منه

أمام المؤرخين، وذلك لأن احداث الاعوام الاخيرة لم تترسب وتتبلور بالقدر الكافي لبحث تاريخي صرف.

لقد اعتمدنا في اعداد هذا الكتاب على عدة مجموعات من المصادر. وفي مقدمتها مصنفات تاريخية عربية وضعها مؤلفون من انصار آل سعود والوهابية وكذلك مؤلفون معادون لهم ومراقبون محايدون. ونستدرك هنا فنقول اننا استخدمنا مصطلح «الوهابية» كما جرت العادة في الدراسات الغربية للدلالة على الحركة الدينية السياسية التي نشأت بالجزيرة العربية في القرن الثامن عشر، علما بأن المصطلح المذكور لم يلق انتشارا في العربية السعودية نفسها.

ثم تأتي مؤلفات ابن عبد الوهاب واتباعه وأبرز فقهاء الجزيرة العربية. وتتكون المجموعة التالية من المصادر من مذكرات الرحالة الاوروبيين والدبلوماسيين والعلماء ورجال المخابرات الذين زاروا الجزيرة العربية والاقطار المجاورة لها في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين. وتلقي وثائق الادارة البريطانية ـ الهندية الاضواء على بعض قضايا القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتتضمن المطبوعات السعودية الرسمية معلومات عن الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والنظام الحقوقي في البلاد. ويمكن اعتبار بعض المطبوعات الاميركية التي تحوي معطيات اجتماعية عن العربية السعودية في عداد المراجع. كما اعتمدنا على الوثائق التي تحتوي على معلومات عن العربية السعودية والمحفوظة في ارشيف السياسة الخارجية لروسيا وارشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي السابق.

المصنفات العربية. لا يوجد بين المصنفات المعروفة لدينا الا كتاب واحد الفه شخص تابع تطور الحركة الوهابية ودولة السعوديين منذ السنوات الاولى لنشوئهما. ونعني كتاب «تاريخ نجد المسمى روضة الافكار والافهام مرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام» لمؤلفه حسين بن غنام. وهو فقيه من الاحساء توفي عام ١٨١١ . في الجزء الاول يستعرض ابن غنام بعض مؤلفات محمد بن عبد الوهاب. وفي الجزء الثاني يسرد تاريخ حروب الوهابيين خلال نصف قرن، من عام ١٧٤٦ حتى عام١٧٩٦

كان ابن غنام من انصار تعاليم ابن عبد الوهاب. وهو يعتقد ان الله ألهم الوهابيين للقيام باعمالهم، وان الشيطان كان وراء خصومهم. ويضطر المرء الى جمع المعلومات عن البنية الاجتماعية والسياسية للدولة السعودية الاولى حبة حبة. ومع ذلك فان مصنف ابن غنام يعتبر مرجعاً فائق الاهمية. فالمادة التي يحتويها هي حصيلة متابعة شخصية للمؤلف او مستقاة من منابعها الاولى.

والمصنف الثاني هو «عنوان المجد في تاريخ نجد»من تأليف المؤرخ عثمان بن بشر النجدي الحنبلي، وهو من فقهاء واحة شقراء في منطقة الوشم والمعروفين في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. لقد عايش الكثير من احداث الجزيرة بعد الفترة التي توقف عندها مصنف ابن غنام. وقد توفي ابن بشر في ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ .

كان ابن بشر متمسكاً هو الآخر بالوهابية، لكنه تميز عن سابقه بسعة آرائه. فقد ادرج ابن بشر في مصنفه وقائع قيمة عن بنية الدولة السعودية الاولى وعن الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. والتاريخ الذي يستعرضه ابتداء من عام ١٧٤٥ يقترن بجولات الى فترات تاريخية اقدم ويختتم ابن بشر مؤلفه بوصف احداث عام ١٨٥٤ .

وتتوافق التواريخ التي يوردها ابن بشر في امور كثيرة مع تواريخ ابن غنام. ويسجل ابن بشر النص الكامل لقصيدة سلفه بمناسبة وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتي وردت في «تاريخ نجد». الا انهما يقدمان في بعض الاحيان وصفا متبايناً لوقائع بعينها، ويركزان على احداث مختلفة فلا تتوافق تواريخها وارقامها على الدوام. وربما لم يكن ابن بشر مطلعاً على مؤلف ابن غنام. وعلى اي حال فهو لا يذكر في المقدمة اسمه بين المؤرخين الذين يعرفهم. وعندما يورد خبر وفاة ابن غنام يعدد مزاياه كفقيه وشاعر، دون ان يذكر كلمة واحدة عن مؤلفاته التاريخية.

ويمكن تدقيق صحة معلومات ابن غنام وابن بشر بمقارنتها مع الوقائع التي اوردها الاوروبيون. ولم يطلع المؤرخون العرب والاوروبيون على هذين المصنفين الا في القرن العشرين.

ومما يثير الاستغراب ان المستشرقين الذين كتبوا عن جزيرة العرب لم يلتفتوا الى وقائع تاريخ الدولة السعودية التي اوردها المؤرخ الفرنسي ف. منجين في ملحق كتابه «تاريخ مصر في عهد محمد علي». وكان منجين قد وضع تلك الوقائع استناداً الى معلومات حصل عليها من حفيد ابن عبد الوهاب، الذي نفي الى مصر بعد خراب الدرعية عام ١٨١٨، وعلى ما يبدو، من وهابيين آخرين.

ويتضمن مؤلف ف. منجين «تاريخ مصر» معلومات قيمة عن مجتمع الجزيرة، وهي معلومات مستقاة من تقارير الادارة المصرية في نجد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر.

وخلال السنوات الاخيرة لفت انتباه المستشرقين وبعض المؤرخين العرب كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب» ومخطوطته الاصلية محفوظة في المتحف البريطاني. وتعتبر اغلبية الباحثين ان هذا الكتاب مغفلاً. وهو عبارة عن سجل في ٧٦٤ صفحة يشمل فترة من تاريخ الجزيرة العربية تبدأ على وجه التقريب من العقد الرابع للقرن الثامن عشر وتنقطع فجأة عند احداث كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٧ . ويعبر واضع السجل عن احترامه لابن عبد الوهاب، ولكنه يعتبر مذهبه بدعة، وقد استند في ذلك الى رأي شيوخ من البصرة والزبير.

يتكون «لمع الشهاب» من رؤوس اقلام ولمحات كتبت استناداً الى روايات اشخاص شاركوا في الاحداث والى اشاعات وخرافات. ولكن ذلك لا يحرم هذا المصنف من جملة مزايا لا جدال فيها، وهي مزايا تجعله يحتل مرتبته بين المصادر العربية الثلاثة لتلك الحقبة، ونعني كتابي ابن غنام وابن بشر وعرض منجين لسجل الوهابيين. فهذا المصنف الذي وضعه شخص غير متفق مع الوهابيين، ولكنه موضوعي لدرجة كافية، يعتبر قيماً بسبب استقلاليته وخلوه من الصبغة الرسمية. ويتضمن «لمع الشهاب» معلومات اضافية حول طائفة من القضايا: طابع العلاقات الاقطاعية والقبلية في الجزيرة، والتجارة والصنائع في نجد، واشكال الشريعة عند القبائل البدوية، وتنظيم السلطة وجهاز جباية الضرائب والنظام القضائي، والقوات في الدولة السعودية الاولى.

ومما لاشك فيه ان مؤلفات ابن عبد الوهاب المخطوطة من اقدم المصادر التي ظلت محفوظة حتى الآن. اثنان منها ـ «كتاب التوحيد» و«كتاب كشف الشبهات في التوحيد» ـ يتفقان من حيث أحكامهما الاساسية مع ما نشر مؤخراً من مطبوعات. الا ان مؤلفات ابن عبد الوهاب التي صدرت في القرن العشرين قد تعرضت لتعديلات كبيرة من المحققين والمراجعين او طبعت استناداً الى صياغات اخرى لهذه المؤلفات نفسها.

ويمكن الحصول على معلومات اضافية عن الحركة الوهابية والدولة السعودية الاولى وعلى مواد للتثبت من صحة الوقائع المعروفة من مؤلفات المؤرخين الحجازي احمد بن زيني دحلان، واليماني محمد بن علي الشوكاني، والعماني سليل بن رزيق، والمؤرخ المصري الشهير عبد الرحمن الجبرتي، والبحراني محمد بن خليفة النبهاني، والعراقي عثمان بن سند البصري، وكذلك ابراهيم الحيدري البغدادي.

وبعد ابن بشر واصل تسجيل التواريخ النجدية ابراهيم بن صالح بن عيسى الذي ولد في شقراء عام ١٨٥٣ ـ ١٨٥٤ . فان مصنفه «عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في اواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر» يتناول الاحداث المنتهية عام ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ ، ولكنه كتبه او انجزه في عهد مؤسس العربية السعودية المعاصرة عبد العزيز (ابن سعود) الذي يمتدحه في مدخل الكتاب. ولم نتمكن من العثور على هذا المصنف. لذا اعتمدنا على كتابة «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد».

وهناك مصنف احدث هو «عنوان السعادة والمجد فيما استظرف من اخبار الحجاز ونجد» لمؤلفه عبد الرحمن بن الناصر. ويتناول الاحداث حتى منتصف ثلاثينات القرن العشرين. وقد استخدمنا هذا المرجع بصورة غير مباشرة، عن طريق عرض مضمونه الذي قدمه المستشرق الانجليزي فيلبي وبعض المؤرخين العرب.

ومن المصادر الهامة مصنف ضاري بن فهيد بن رشد، فهو يعبر عن وجهة نظر شمر بشأن الاحداث في نجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع

القرن العشرين. و«تاريخ ملوك آل سعود» في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لمؤلفه الامير سعود بن هذلول احد افخاذ آل سعود.

وخلال السنوات الاخيرة بدأ استخدام عدة مصنفات مخطوطة واحدها بقلم البسام استندنا اليها عند اعداد المواد المكرسة لتاسيس المملكة العربية السعودية في الثلث الاول من القرن العشرين.

وتشكل **مؤلفات محمد بن عبد الوهاب واتباعه** مجموعة من المراجع الهامة جداً لدراسة المذهب الوهابي، وقد وصلتنا في العديد من المستنسخات التي يحفظ بعضها في مكتبات ومتاحف اوروبا الغربية. وقد ورد عند ابن غنام او ابن بشر او كليهما ذكر المؤلفات التي تعبر عن جوهر الوهابية: «كتاب التوحيد» (وهو اقدم تلك المؤلفات، وضع في ثلاثينات القرن الثامن عشر) و«كتاب كشف الشبهات في التوحيد» و«كتاب الكبائر» و«مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله اهل الجاهلية» و«مختصر سيرة الرسول». اما مؤلفات ابن عبد الوهاب الاخرى، ومنها «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد» و«أصول الايمان» و«فضل الاسلام» و«نصيحة المسلمين باحاديث خاتم المرسلين» و«الاصول الثلاثة وأدلتها» و«الرسائل»، فهي عديدة وقد ادرجها كارك بروكلمان في مراجع كتابه «تاريخ الادب العربي».

وقد طبعت مؤلفات ابن عبد الوهاب استناداً الى المستنسخات المبكرة العائدة الى اواخر القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر، مع انها، على ما يبدو، قد روجعت فيما بعد. ثم ان المعلومات التي جمعها المستشرقون الاوروبيون عن مذهب الوهابيين تطابق على العموم الاصول المعروضة في هذه المراجع.

وقد اشتهر عبدالله، وهو ابن مؤسس الوهابية، بتأليف كتب في الفقه ايضاً. ومنها «الرسالة» التي نشرت في الترجمة الانجليزية لاول مرة نقلا عن مخطوطة عربية عام ١٨٧٤ في «مجلة جمعية البنغال الآسيوية» (المجلد ٤٣، الجزء الاول، ص ٦٨ ـ ٨٢) (وذكرت المجلة، خطأ هنا، ان المؤلف هو حفيد محمد بن عبد الوهاب). ثم نشرت في مجموعة «الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية» التي صدرت عام

١٩٢٣ / ١٩٢٤ . وتعتبر«الرسالة» ذات قيمة لانها غير مثقلة بالاستشهادات والاحاديث والتعليقات وتعبر بدقة عن بعض اصول الوهابية.

وكتب عبد الرحمن بن حسن، حفيد محمد بن عبد الوهاب، في امور فقهية كثيرة. فكان مؤلفه «فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد » عبارة عن تعليق ضاف على مؤلف ابن عبد الوهاب «كتاب التوحيد». وتتجاوب مع تعاليم الوهابية أيضاً «رسالة»الفقيه النجدي، احمد بن ناصر بن عثمان، من اعيان آل معمر.

ان العثور على **مؤلفات خصوم الوهابية** الآن اصعب بكثير مما في السابق. وبالاضافة الى مؤلفات ابن زيني دحلان وابن رزيق، تجدر الاشارة الى مخطوطتين في المسائل الاصولية محفوظتين في مكتبة توبينغين في المانيا الاتحادية. وهما «رسالة في رد ابن عبد الوهاب» لمحمد بن عفالق الحنبلي الاحسائي و«المشكلات المضية ردا على الوهابية»لابن السويدي.

كتابات الاوروبيين الذين زاروا الجزيرة العربية والبلدان المجاورة في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. كان الرحالة الدانمركي نيبور اول من حمل انباء الوهابيين الى اوروبا قبل اكثر من مائتي عام.

وفي سبعينات القرن الثامن عشر زار الرحالة والعالم الموسوعي فولني الشام وفلسطين، ولكنه لم يصل الى الجزيرة العربية. ومع ذلك تتميز كتاباته عن البدو الاعراب المترحلين على مقربة من غزة واحاديثه عن قبائل الجزيرة بدقة الملاحظة والاحكام.

وفي عام ١٨٠٧ زار الحجاز ومكة مخبر نابليون، وهو اسباني اسمه باديا اي ليبليخ انتحل لنفسه اثناء تجواله اسم علي بك.

ويحتل بوركهاردت مكاناً بارزاً بين الرحالة. وهو سويسري الاصل يحمل الجنسية البريطانية، وكان مندفعاً برغبة عارمة في التجوال. وكانت الحجاز التي وصلها عام ١٨١٤ ـ ١٨١٥ مجرد مرحلة في تجواله. وقد جمع معلومات كثيرة جداً عن الجزيرة العربية وعن حياة العرب مستنداً الى احاديثه الشخصية مع الحجازيين

والنجديين. ولم يكتف بوركهاردت بدراسة تاريخ الوهابيين ومذهبهم وتركيب الدولة السعودية الاولى، بل تناول كذلك العلاقات الاجتماعية والشريعة عند البدو والحضر على حد سواء، كما اهتم باشكال الاسرة والملكية وجباية الضرائب. وكانت الثقافة الواسعة التي يتحلى بها هذا الرحالة وسعة افقه الى جانب النزاهة العلمية قد ساعدته في تأليف كتب لولاها لبقيت معلوماتنا عن الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شحيحة للغاية. ويجدر بنا ان نذكر بين مزايا بوركهاردت الكثيرة اسلوبه الممتع الذي لا يترك سبيلاً امام الضجر المرهق في مطالعة الكثير مما كتبه الرحالة الاوروبيون.

وفي عام ١٨١٩ عبر الضابط البريطاني ج. سادلر شبه جزيرة العرب من القطيف الى ينبع.

وكتب الاوروبيون عن الجزيرة العربية من البلدان المجاورة ايضاً. ويحتل مرتبة الصدارة بين هذا النوع من المؤلفات «تاريخ الوهابيين» الذي اصدره عام ١٨١٠ ل. كورانسيز القنصل الفرنسي في حلب. وكان كورانسيز قد شارك مع مجموعة من العلماء في حملة نابليون على مصر ثم استقر في حلب، حيث عاش ثماني سنوات. ويتضمن كتابه معلومات غير قليلة عن التاريخ السياسي لدولة السعوديين وبنيتها ومذهبها. الا ان كتاب كورانسيز «تاريخ الوهابيين» لا يخلو من الاخطاء والاحكام غير الموزونة.

وجمع المدفعي الفرنسي ج. رايمون الذي كان في خدمة والي بغداد مواد في العراق وضمنها تقريراً بعث به الى وزارة الخارجية الفرنسية.

وكان بريجيز، المعتمد السياسي لشركة الهند الشرقية في البصرة (اعتباراً من عام ١٧٨٤) ثم في بغداد، قد نشر مذكراته بعد مرور عدة عقود على عودته من الاقطار العربية.

وقد وصلت الى الصحافة الروسية معلومات عن الوهابيين بالاساس عن طريق اوروبا الغربية. ومن اقدم الكتابات التي تم العثور عليها(بعد طبع «رحلة» فولني) ما

نشرته مجلة «بشير اوروبا» (فينسك يفروبي») بالروسية عام ١٨٠٣: «قدر للجزيرة العربية ان تكون مهد الثورات الاسيوية. الامام الجديد هناك عبد الوهاب لديه الآن... قوات غفيرة وهو يقترب من مكة». وفيما بعد نشرت «مجلة المنوعات الادبية» (١٨٠٥) ومجلة «بشير اوربا» (١٨١٩) مقالات القت الاضواء على الاحداث في الجزيرة العربية.

ويقدم **الرحالة الاوروبيون** الذين زاروا شبه جزيرة العرب بعد ج. سادلر في القرن التاسع عشر مادة غنية ممتازة لايضاح حياتها الاجتماعية والسياسية. فهم يضيفون الى ما كتبه بوركهاردت وفولني ونيبور والمؤرخون العرب ويثبتون شيئاً فيه او ينفون شيئاً آخر فيساعدون على دراسة مجتمع الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وفي ثلاثينات القرن الماضي زار الضابط البريطاني د. ولستيد عمان وجاب ساحل الجزيرة. وفي الوقت نفسه تقريباً زار الفرنسي م. تاميزيه الحجاز وعسير، وفي الاربعينات تجول العالم الفنلندي فالين في ربوع الحجاز وشمال الجزيرة، وزار الانجليزي ر. بارتون في الخمسينات الحجاز وبادية الشام. وفي عام١٨٥٤ زار الفرنسي ش. ديديه مكة. وفي عام١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ تسلل عضو سلك الجزويتين (اليسوعيين) المخبر الفرنسي و. بلغريف الى اواسط نجد وزار عاصمة الدولة الوهابية الجديدة ـ الرياض، وكذلك القصيم والاحساء. وقد ابديت الشكوك مراراً في حقيقة رحلة بلغريف، وذلك بسبب عدم دقته، ولكن هذه الرحلة تأكدت الآن بالفعل.

وكان ل. بيلي المقيم البريطاني في بوشهر قد زار الرياض عام ١٨٦٤ ـ ١٨٦٥. وفي ذلك الوقت تقريباً زار الايطالي ك. غوارماني شمال نجد.

وتجول العالم الاثري والكاتب الانجليزي دوتي في شمال نجد والحجاز عام ١٨٧٦ ـ ١٨٧٨ . ويعتبر مؤلفه تحفة في ادب الرحلات الانجليزي. والمعلومات التي يوردها دوتي غنية جداً.

وتجدر الاشارة الى الرحالة الفرنسي يوبير الذي زار شمال نجد والحجاز عام ١٨٧٨ ـ وعام ١٩٨٣ ـ ١٨٨٤ وقتل هناك، والى الرحالة الانجليزي بلانت وعقيلته اللذين زارا بادية الشام وجبل شمر عام ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩ وعام ١٨٨١، ومربي الخيول الروسي ستروغونوف وشرباتون وعقيلته الذين قاموا برحلتين الى بادية الشام في ١٨٨٨ و ١٨٩٠، والضابط الروسي دافليتشن الذي زار الحجاز في اواخر السبعينات.

ومن بين المؤلفات المكرسة لبدو الجزيرة الرحل نشير الى كتابات المستعرب والمخبر الالماني فون اوبينهايم الذي تجول في بادية الشام في تسعينات القرن التاسع عشر، ولكن مؤلفه عن البدو بمجلداته الثلاثة لم يصدر الا بعد عدة عقود.

واستمرت الدراسات الاوروبية للجزيرة العربية في النصف الاول من القرن العشرين.

ويبرز خصيصاً بين جميع الباحثين فيلبي وديكسون. فقد صرف كلاهما قسماً كبيراً من حياته في الجزيرة العربية ودرساها من النواحي الجغرافية والاجتماعية والاثنوغرافية. كان فيلبي ضابطاً في الجيش البريطاني الهندي. واعتباراً من عام ١٩١٧ عمل في الفيلق البريطاني في العراق، وفي العام نفسه صار ممثلاً سياسياً لبريطانيا عند ابن سعود. وفي بداية العشرينات عين مندوباً سياسياً لبريطانيا في شرق الاردن. وفي عام ١٩٢٥ ترك الخدمة الرسمية في الجيش البريطاني واقام في العربية واعتنق الاسلام بعد بضع سنوات. وفي فترة معينة مارس تجارة سيارات فورد. وكان واحداً من الوسطاء لدى توقيع اتفاقية امتياز شركة «ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا» التي ارست بداية شركة ارامكو الجبارة التي هي اول منتج للنفط في العالم. وقام فيلبي بدراسة عدد من مناطق العربية السعودية وخلف مذكرات كثيرة عن رحلاته.

اما نطاق رحلات ديكسون فهو اضيق من ذلك. لقد كان ممثلاً سياسياً لبريطانيا في امارات شرق الجزيرة ثم مقيماً سياسياً في الكويت. وقد زار المناطق

الوسطى من شبه جزيرة العرب. ويتضمن كتاباه «عرب البادية» و«الكويت وجاراتها» وصفا هاماً، فريداً من نوعه احياناً، لحياة القبائل البدوية ونشاطها الاقتصادي وبنيتها الاجتماعية، وكذلك طائفة من المعلومات الهامة عن تاريخ العربية السعودية والكويت.

أما لورنس فانه يشغل مكانة خاصة، لقد كان ضابطاً للاتصال عند شريف مكة ابان انتفاضة عرب الحجاز ضد الاتراك. وبعد الحرب العالمية الاولى احتاجت الدعاية البريطانية الرسمية الى ابطال فجعلت من لورنس واحداً منهم. وزادت من امجاده مؤلفاته التي كتبها بومضات ادبية لاجدال في قيمتها. ولكن تلك لم تكن مؤلفات عن جزيرة العرب والانتفاضة العربية ضد الاتراك بقدر ما كانت مؤلفات بقلم لورنس عن دوره شخصياً في هذه الانتفاضة، وليس دوره الفعلي طبعاً ، بل الصورة التي تخيلها عبر منظار الغرور الذي كان يعاني منه. لذا، لم تكن لمؤلفاته أهمية علمية كبرى.

وكثيراً ما طاف العالم التشيكي، أ. موسيل، في شمال الجزيرة العربية والاقطار المجاورة لها اعتباراً من اواخر التسعينات وحتى عام ١٩١٧ . وابان الحرب العالمية الاولى، كان يؤدي مهمات الاركان العامة النمساوية ـ المجرية في جبل شمر. وقد نشر عدة مؤلفات بعضها ذو طابع اثنوغرافي.

وتجدر الاشارة الى دراسة أ. جوسان المكرسة لبدو شمال الجزيرة، وكذلك الى مؤلفات ر. مونتان.

وترك تسجيلات بمختلف الصياغات العالم الطبيعي د. كاروتيرز الذي عمل في شمال غربي الجزيرة وبادية النفوذ عام ١٩٠٩ والباحث الدانمركي ب. راونكيار الذي زار نجد عام ١٩١٢ والباحث الالماني ك. راسوان الذي عمل في بادية الشام في الفترة ١٩١١ ـ ١٩١٤ وفي مطلع العشرينات، وكذلك الباحثون الانجليز س. باتلر وج. ليشمان ور. شيزمان.

والفت المخبرة البريطانية والمستعربة الكبيرة هيرترودا بيل عدة كتب. وكتب

ب. توماس وصفا لرحلاته الى شمال الجزيرة في العشرينات ودراسات عن وسطها وجنوبها.

ويهيئ مؤلفون آخرون في هذه الفترة الامكانية لادراك الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لشبه جزيرة العرب في الثلاثينات والاربعينات بشكل افضل. ومن هؤلاء المؤلفين الرحالة الانجليزي و.سيبروك والقنصل الهولندي في جدة فان دير ميولين وقائد السلك العربي في الاردن والكاتب الثر فيما بعد حول القضايا العربية ج. غلوب وغيرهم.

وثمة طائفة من الكتب التي ترد فيها احياناً بعض الوقائع الجديدة، وربما القليلة الاهمية، عن مجتمع الجزيرة. وهي من تأليف اوروبيين واميركان زاروا جزيرة العرب في الثلاثينات والاربعينات والخمسينات، ومنهم ك. نالينو وج. ديغوري وأ. زيشكه وج. خيرالله وف يلزان. وغ. آرمسترونغ ود. هاورز وأ. راتر وف. توميشا وك. تويتشل وأ. فالك وم. شيني ور. سانجر وب. هاريسون. وتساعدنا معلوماتهم في الحكم بمزيد من الوضوح على التبدلات التي جرت في الجزيرة خلال عدد من العقود الاخيرة، كما تساعدنا في الدراسة الافضل للانظمة الاجتماعية المعروفة هنا طوال القرون والتي ظلت باقية حتى الآونة الاخيرة تقريباً.

ونجد معلومات تفصيلية عن الباحثين الاوروبيين الذين درسوا الجزيرة العربية في كتب أ. زيهمه وأ. رالي وس. زويمير ود. هوغارت وف. بارتولد ور. كيرنان وج. بيرين.

وتشكل وثائق ومطبوعات الادارة البريطانية الهندية مجموعة هامة من المراجع والمصادر التي لم يبدأ استخدامها في البحث العلمي الا في العقدين الاخيرين. ومن ابرزها مجموعة الاتفاقيات بين الهند والبلدان المجاورة، وهي المجموعة التي اعدها ك. ايتشيسون في اواخر القرن التاسع عشر ونشرت لاول مرة في كلكتا عام ١٨٩٢ . وصدرت الطبعة الثانية المزيدة من هذه المجموعة في دلهي عام ١٩٣٣ .

وفي الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩١٥ نشر ج. لوريمر، وهو موظف في الادارة

البريطانية الهندية، مؤلفا ضخماً بعنوان «سجل الاحداث في الخليج وعمان ووسط الجزيرة». يحتوي هذا المؤلف على بضعة آلاف من الصفحات من القطع الكبير. وكان مخصصاً خلال فترة طويلة للاستخدام الاداري، ولم يتمكن علماء البلدان الاخرى من الاطلاع عليه الا بعد الحرب العالمية الثانية. وتكمن قيمته في كونه يجسد وجهة نظر الادارة البريطانية الهندية بخصوص الاوضاع في بلدان الخليج ومجموع المعلومات التي كانت في حوزتها عن هذه المنطقة ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين. اما عيب مؤلف لوريمير هذا فهو قلة الاشارة الى المراجع. ويصعب القول على وجه التحديد هل استقى لوريمير معلوماته من مؤلفات بوركهاردت وكورانسيز ومنجين وبريجيز وغيرهم ام من اخباريات رجال المخابرات البريطانية.

وتتميز بقيمة كبيرة من هذه الناحية منشورات ج. سالدانا المكرسة لمنطقة الخليج في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين والتي استند فيها الى مواد الارشيفات البريطانية الهندية. ولكننا لم نتمكن من الحصول عليها، واكتفينا بالاستفادة من استشهادات ر. ويندير الكثيرة بها في مؤلفه «تاريخ العربية السعودية في القرن التاسع عشر».

المطبوعات السعودية الرسمية. نشرت احصائيات سعودية هامة، بما فيها احصائيات عن قوام المجتمع السعودي، في «الكتاب الاحصائي السنوي». كما ان مجاميع الوثائق والبيانات السعودية تتميز باهمية معينة.

لقد اسفر النزاع السعودي البريطاني بسبب واحات البريمي عن ظهور «مذكرة حكومة العربية السعودية» بثلاثة مجلدات و«مذكرة» الحكومة البريطانية بمجلدين. وكانت الطبعة السعودية تستهدف اثبات عائدية الاراضي المتنازع عليها الى العربية السعودية، ولكنها تضمنت في الوقت نفسه طائفة من المواد الجديدة عن جباية الضرائب وعن القبائل.

وفي القرن العشرين ظهر بين **المراجع العربية التي الفها اشخاص ساهموا في الاحداث** مرجع يمكن ان يقارن، من حيث اهميته لدراسة مجتمع العربية

السعودية في القرن الحالي بكتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد» و«لمع الشهاب» بالنسبة للقرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر. ونعني به كتاب خير الدين الزركلي باربعة مجلدات: «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز». بديهي ان هذا الكتاب يدافع دون تحفظ عن مؤسس العربية السعودية وعن آل سعود وعن النظام السعودي عموماً. ولكن الى جانب ذلك فهو عبارة عن مجموعة غنية من المعلومات الواقعية المتنوعة عن البلاد ـ من النشوء حتى تشكيل الجيش النظامي، ومن النظام القضائي والحقوقي حتى الاثنوغرافيا، ومن الاقتصاد حتى التفاصيل الفكاهية لحياة البلاط الملكي. وكان الزركلي، الذي خدم مدة طويلة في وزارة الخارجية، قد أدرج ضمن كتابه عدة وثائق قيمة من موجودات الدبلوماسية السعودية. ولكن من عيوب الكتاب عدم الاشارة الى الكثير من المراجع.

وترك لنا حافظ وهبه المصري الذي خدم زهاء خمسين عاماً عند الملوك السعوديين مذكرات تزيد من معلوماتنا عن تطور المجتمع السعودي. فقد كان ابن سعود يأتمنه في المباحثات الدبلوماسية، كما شغل وهبه مناصب ادارية هامة في الحجاز بعد فتحه وترأس ديوان التربية وعمل سفيراً للسعودية في لندن، وخلف عدة مؤلفات. ويتحدث وهبه عن النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي للحضر والبدو في وسط الجزيرة قبل ظهور الصناعة النفطية وعن حركة الاخوان.

والف فؤاد حمزة السوري الذي كان في خدمة الملوك السعوديين ايضاً عدة كتب، تتضمن فيما تتضمن، معلومات ذات طابع اجتماعي وسياسي واقتصادي عن العربية السعودية قبل عصر النفط.

ان مطبوعات **المعارضة السعودية**، بما فيها اليسارية المتطرفة، قليلة ولكنها قيمة لانها تكشف عن توجهات المنظمات التي تعارض النظام السعودي.

والى جانب المئات من المؤلفات السطحية التي لا تتسم في الواقع بأهمية علمية، اخذت تظهر **بين المطبوعات العربية في الثلاثينات حتى السبعينات** مؤلفات جادة،

ومنها دراسة التطورات الاجتماعية والاقتصادية في منطقة القصيم النجدية والتي اعدها الباحث السعودي عبد الرحمن الشريف في اواسط الستينات. وفي عام ١٩٦٥ اصدرت جامعة الدول العربية كتاباً عن البدو الرحل في الاقطار العربية، بما فيها جزيرة العرب.

وقدم نزار الكيالي شرحا ضافيا لقوانين العمل. ويتناول محمد صادق (ولعله مصري) تطور الجهاز الاداري السعودي.

ان **المؤلفات العربية في تاريخ العربية السعودية** تستند بالاساس الى مصنفات الجزيرة، ولا تستخدم كثيراً المراجع والمطبوعات الاوروبية. ثم ان المؤلفين العرب يقتصرون، عادة، على سرد الاحداث التاريخية دون ان يمحصوا مضامينها السياسية، ناهيك عن مضامينها الاجتماعية. ونلاحظ ذلك حتى عند افضل الباحثين، من امثال محمود شكري الآلوسي وامين الريحاني واحمد علي وامين سعيد وصلاح الدين المختار واحمد عبد الغفور ومحمد عبد الله وراغب حراز ومنير العجلاني. ويهتم خصوصاً بعرض المذهب الوهابي عبد الله القاسمي واحمد امين ومحمد حميد الفقيه وعباس محمود العقاد وكذلك محمد رشيد رضا احد زعماء الحركة الاصلاحية الاسلامية في مصر. وتتناول مؤلفات محمد المدني وحسين ناصيف نشأة العربية السعودية.

ويتميز بمستوى اعلى بعض الشيء كتاب الباحث الحجازي عبد الحميد الخطيب «الامام العادل» الذي يتحدث عن عهد عبد العزيز. وهو يحتوي على طائفة من الوقائع التاريخية المجهولة او غير المعروفة كثيراً. وكان مؤلفه من خصوم السعوديين سابقاً ومن مؤسسي الحزب الحجازي اللبرالي. وبعد تدمير الحزب عفا ابن سعود عن زعمائه واعيد اليهم اعتبارهم بعد فترة من الزمن. وكرس عبدالله عبد الجبار وفهد المارك دراسات للفكر والادب في العربية السعودية في القرن العشرين.

ويتناول الحقوقي صبحي المحمصاني بالتفصيل النظام الحقوقي والشريعة في العربية السعودية.

واورد عبد الرحمن عبد الرحيم بعض المواد الجديدة من الارشيفات المصرية وغيرها عن تاريخ الدولة السعودية الاولى، كما اورد عبد الفتاح ابو علية معلومات مماثلة عن الدولة السعودية الثانية.

ثم ان الكتب الجديدة المدافعة عن الوهابية والتي الفها سليمان بن سحمان تتضمن، بالاضافة الى الاصول الوهابية، مقتطفات من مؤلفات خصوم الوهابية.

وفي «عصر البترول» ازداد مراراً عدد المؤلفات الاوروبية الغربية والاميركية الخاصة بالعربية السعودية. وبديهي ان رحالة اوروبيين كثيرين تناولوا التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ويضاف الى ذلك عدد من المؤلفات الهامة.

في بداية الخمسينات اجرى ف. فايدال، بتكليف من ادارة ارامكو، دراسة ميدانية لواحات الاحساء، وجمع طائفة من المعلومات الجديدة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكانها.

وفي اواخر الستينات اعدت الباحثة اليابانية موتوكو كاتاكورا دراسة ميدانية مختصة اثنوغرافية واجتماعية واقتصادية في وادي فاطمة بين مكة والمدينة. وكانت هذه الدراسة ذات قيمة لانها تتضمن وصفاً لسكنى الحضر والروابط بينهم وبين قبائل البدو، والصلات الاجتماعية التقليدية واستخدام العلاقات البضاعية النقدية.

واجرى و. راو الذي كان مديراً لمكتب الاستعلامات في السفارة الاميركية في الرياض تحليلاً لنظام التعليم في العربية السعودية ودوره في المجتمع. وجمع معلومات قيمة مع ان طريقته في تصنيف الناس ضمن «صفوف» طبقاً لتحصيلهم العلمي لا يمكن ان تؤخذ على محمل الجد.

وهناك طائفة من الكتب الاميركية الضخمة حول العربية السعودية لا يمكن ادراجها رسمياً في عداد المراجع ولكنها تعتبر مراجع على اي حال. ومنها كتاب «جزيرة ابن سعود» بقلم موظفي ارامكو ليبكتشر ورينتز وستينيكه، وقد نشر عام

١٩٥٢، وكتاب «العربية السعودية: سكانها ومجتمعها وثقافتها» بقلم ج. ليبسكي وآخرين، وقد صدر عام ١٩٥٩، وطبعتان صدرتا عن وزارة العمل الاميركية بعنوان «قوانين العمل والتطبيق في العربية السعودية»وكتاب شبه سري بعنوان «الدليل الاقليمي للعربية السعودية»، وقد صدرت منه عدة طبعات مزيدة.

ان هذه الكتب موضوعة على اساس المواد التي جمعت في العربية السعودية مباشرة، بما فيها الدراسات الميدانية الاثنوغرافية والانثروبولوجية والاجتماعية والاقتصادية. فقد استخدم واضعو «الدليل الاقليمي»، مثلاً، تقارير ودراسات المخابرات الاميركية والسفارة الاميركية وعدد من دوائر ارامكو. وكانت في متناول ايديهم مواد الارشيفات وبعض التقارير الاحصائية الاصلية لمختلف الدواوين السعودية. وهذه الكتب غير مخصصة للجمهور الواسع، فهي تعني بالدرجة الاولى الخبراء والاشخاص المرتبطين بالعربية السعودية مباشرة - رجال الاعمال والمهندسين والدبلوماسيين والصحفيين. لذا فهي غاصة بكثير من الوقائع والارقام وتحتوي على بعض التقييمات الموضوعية. الا ان نقطة الضعف المشتركة بينها، شأن كل المطبوعات الاميركية بخصوص العربية السعودية، هي طابعها المتحيز للسياسة الاميركية ونشاط ارامكو. وان تقييماتها للنظام السعودي على اكبر قدر من الحذر، فهي اقرب الى التزلف مما هي الى التحليل العلمي. ولكن بوسع الباحث ان يغترف من هذه المطبوعات معلومات عن طابع علاقات الارض واستثمارها والتغيرات في الزراعة وخصائص نشوء الطبقة العاملة والبرجوازية، والتطورات في المجتمع السعودي واصلاح جهاز الحكم وتطور النظام الحقوقي.

ألف ر. كناويرهيز كتاباً قيماً في الاقتصاد السعودي في اواسط السبعينات أورد فيه الكثير من الوقائع والارقام المستقاة مباشرة من مصادر سعودية.

ومن المؤلفات ذات الطابع السياسي بل الصحافي على الاغلب، والتي تتضمن تفاصيل هامة عن الاوضاع في العربية السعودية، كتاب« الجزيرة العربية بلا سلاطين» بقلم الكاتب الانجليزي ف. هولدي، وكتابان ألفهما بصورة مشتركة الباحثان الفرنسيان ل. شامبينوا وج - ل. سوليه. وتعتبر مقالات ب. بونينغان من

الكتابات الصحفية الجادة. وفي السنوات الاخيرة صدرت كتب في الاقتصاد السعودي استخدم مؤلفوها الطرائق العصرية في البحث الاحصائي الاقتصادي استناداً الى مادة معلوماتية غنية. ومنها كتب ر. كراين وب. لوني وف. الفارسي.

واشتهر بين المؤلفين الغربيين الذين كتبوا عن القضايا النفطية في الشرقين الادنى والاوسط كل من س. لونغريغ وب. شفادران وش. كليبانوف وف. روحاني وج-م شفاليه وش. علي، واضعي دليل ارامكو وادلة أوبيك واوابيك.

وتتناول طائفة هامة من المؤلفات الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية الراهنة في العربية السعودية، ومنها مؤلف ج. بيركز وك. سنكلير حول نزوح السكان وكتاب ج. كارتر وبحث ابراهيم سعد الدين وكذلك كتاب «الدولة والمجتمع والاقتصاد في العربية السعودية» لجماعة من المؤلفين.

وحلل ج. بارودي النظام الحقوقي في السعودية. وابدى مؤلفو كتاب «المملكة العربية السعودية» الصادر في لندن ب. هوبدي وأ. كيليدار ود. لونغ اهتماماً كبيراً بالقضايا الاجتماعية والسياسية، بما فيها تركيب السلطة والقانون.

وفي الثمانينات والتسعينات في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية ازداد الاهتمام بالعربية السعودية. ومن المستحيل الاشارة الى كل المؤلفات الصادرة في هذا التقديم الموجز. ولا نذكر سوى المطبوعات بقلم الباحث الأميركي نداف سفران التي أثارت رد فعل سلبي في الدوائر الرسمية في الرياض وكتاب باشراف «تيم نبيلوك» من بريطانيا العظمى.

وخلال السنوات العشر الاخيرة نشرت الحوليات والدوريات الغربية والعربية الكثير من المقالات عن العربية السعودية.

ان المطبوعات الاوروبية الغربية والروسية الصادرة قبل ثورة اكتوبر حول تاريخ العربية السعودية تتميز، اساساً، بطريقتها الوصفية التي تتجاهل الجانب الاجتماعي من الاحداث، كما تتميز بملاحظات سطحية عن الدوافع السياسية لتلك الاحداث، و لاتعترف اكثرية المستشرق الاوربيين بوجود اي تطور في مجتمع

الجزيرة حتى القرن العشرين. ولا يختلف عن ذلك كتاب المستشرق الروسي أ. كريمسكي «تاريخ العرب والادب العربي» بجزءين (١٩١١ـ ١٩١٢).

والمؤلف الاوروبي الوحيد الذي يتناول بتفصيل كبير تاريخ السعودية كله هو كتاب فيلبي «العربية السعودية» الصادر عام ١٩٥٥ والذي سبق ان اشرنا اليه. وهو عبارة عن صيغة موسعة لكتابه الاسبق «الجزيرة العربية» الذي صدر عام ١٩٣٠. واعتمد فيلبي في سرد الاحداث كلياً على مصنفات مؤلفي الجزيرة ابتداء من ابن غنام وحتى ابن هذلول، وكان اول اوروبي قام بهذا العمل. ولكنه يتحاشى الاعتماد على المراجع الاوروبية في تاريخ الجزيرة ويبدي ادنى قدر من الاهتمام بتطور البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصاد. ولا يمكن ان تنسب اليه فضيلة الموضوعية وعدم التحيز في عرض الوقائع التاريخية. كما انه كان مولعاً بشخصية ابن سعود، فاضفى صبغة مثالية على نشاط آل سعود. بيد ان المؤرخ الذي يتناول دراسة العربية السعودية لا يحق له ان يتجاهل كتب فيلبي في ادب الرحلات ولا مؤلفاته التاريخية، وذلك لان صاحبها اوروبي مطلع عن كثب على خفايا الحياة في الجزيرة العربية، لذا فهو قادر على الالتفات الى نقاط خفية يمكن ان يمر بها الباحثون الاكاديميون مرور الكرام.

وتجدر الاشارة الى ان الباحث التشيكي أ. موسيل استخدم هو الآخر المصنفات العربية.

ومن بين المؤلفات الاميركية المنشورة والمخصصة لفترات معينة في تاريخ الجزيرة يبرز كتاب ر. ويندير الآنف الذكر: «العربية السعودية في القرن التاسع عشر»، وكتاب ج. ترولير «ميلاد العربية السعودية الحديثة» المكرس للعقدين الاول والثاني من القرن العشرين. وكلا الكتابين يعتمدان على مراجع كثيرة متنوعة، الا انهما يقتصران بالاساس على سرد الاحداث السياسية.

ان بعض المستشرقين الاوروبيين، مثل العالم المجري أ. غولدزيهير، يستعرضون بشكل صائب، على العموم، الجانب العقائدي الاصولي للوهابية

ويشيرون الى السمات الخاصة للمذهب الوهابي. ونجد عرضاً تفصيلياً للاصول الوهابية في مقالة مارغوليوس المنشورة في الطبعة الاولى « لدائرة المعارف الاسلامية» باربعة مجلدات. وكتب المستشرق الفرنسي أ. لياوست عدة دراسات هامة مكرسة لابن تيمية، سلف الوهابيين، وتأثير مذهبه على معتقدات الطبقة الحاكمة في المجتمع السعودي. كما ان لهذا المستشرق مقالة عن محمد بن الوهاب في الطبعة الجديدة من «دائرة المعارف الاسلامية».

وفي الفترة من اواخر السبعينات حتى مطلع التسعينات صدرت عدة مؤلفات مكرسة للصحوة الاسلامية وتنشط الحركات الدينية في الشرق، وتتناول الاسلام في العربية السعودية. ومنها كتاب ى. مورتيمير وكتابا «الاسلام في السياسة الخارجية» و«الشيعة والرفض الاجتماعي» لجماعة من المؤلفين، بالاضافة الى كثير من المقالات في الصحف والمجلات.

وفي المطبوعات السوفييتية كان م. تومارا اول من تناول موضوع الوهابية وتاريخ الدولة السعودية. ويعود له الفضل في طرح الجذور الاجتماعية للوهابية. الا ان استنتاجاته غدت عتيقة في الوقت الحاضر.

وكتب أ. بيرشيتس عدة دراسات عن الجزيرة العربية ونظامها الاجتماعي والسياسي واثنوغرافيتها. وعرض حصيلة دراسات استغرقت سنوات طويلة في كتاب جيد بعنوان «الاقتصاد والنظام الاجتماعي والسياسي في شمال الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين». وقد اعتمدنا عليه في اعداد الفصل الاول من بحثنا هذا. وهو يتضمن كمية كبيرة من الوقائع المصنفة والمقتبسة من اغلبية الرحالة الاوروبيين الذين طافوا الجزيرة العربية. كما يحتوي على تحليل لمجتمع الجزيرة. وساعد كتاب بيرشيتس على الاستيعاب الافضل لمجموعة المصادر الاوروبية المدونة. الا ان بعض احكام المؤلف قابلة للجدل. وقد استكمل بيرشيتس آراءه وطورها بقدر معين، الامر الذي انعكس في مقالته التي ظهرت فيما بعد بعنوان «بعض خصائص نشوء الطبقات والعلاقات الطبقية المبكرة عند الرعاة الرحل».

ونشر م. شوراكوف كتاباً بعنوان «تاريخ نجد الحديث» لخص فيه كتاب امين الريحاني الذي يصف الاحداث حتى اواسط القرن التاسع عشر كما جاءت عند ابن بشر. وشدد شوراكوف على النقاط الهامة في دراسة الاثنوغرافيا والعلاقات الاجتماعية في اواسط الجزيرة.

ويتيح كتاب ى. بيلايف «العرب والاسلام والخلافة في اوائل القرون الوسطى» امكانية التعمق التاريخي في دراسة مجتمع الجزيرة العربية ومعتقداته على امتداد القرون. كما ان مؤلفات ن. ايفانوف عن القبائل العربية في شمال افريقيا وتاريخ المغرب والمجتمع العربي والعثماني وكذلك كتابات الباحثة أ. سميليانسكايا عن آسيا الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لدارسي الجزيرة العربية تهيىء مجالا للمقارنات الاجتماعية والتاريخية الهامة.

وألف ن. بروشين بحثا بعنوان «العربية السعودية» أهم ما في جزئه التاريخي سرد احداث الاربعينات والخمسينات ومطلع الستنيات. ويستعرض الكتاب بشيء من التفصيل انتفاضة الاخوان في العشرينات. وهو اول محاولة في روسيا لتحليل منشأ الرأسمالية السعودية وظهور وتطور العلاقات الرأسمالية ونشوء الطبقة العاملة في العربية السعودية.

واصدر ف. اوزولينغ ثلاثة كتب قيمة عن العربية السعودية، وهي مكرسة بالدرجة الاولى لاقتصاد هذا البلد، ولكنها تحتوي في الوقت نفسه على مادة جيدة عن مجتمعه وعن تطور الانظمة والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية. وقد استعنا بتحليلات اوزولينغ الاقتصادية اثناء الحديث عن البنية الاجتماعية والسياسية للعربية السعودية في فصل «عصر البترول».

وألفت الباحثة الروسية ل. فالكوفا كتاباً عن السياسة الخارجية للعربية السعودية في الستينات والسبعينات اساساً. ويتضمن الكتاب مادة وفيرة في هذا الموضوع. كما اصدرت المؤلفة كتاباً آخر بعنوان «العربية السعودية: النفط والاسلام والسياسة».

وقد وضع أ. ياكوفليف كتابين وسلسلة مقالات معظمها مكرس لقضايا التطور الاقتصادي والاجتماعي في العربية السعودية والعلاقات المتبادلة بينها وبين البلدان الغربية. وللباحث ياكوفليف بالاشتراك مع ف. ميشين كتاب عن دور الخليج في سياسة الولايات المتحدة واقطار اوروبا الغربية. وحظيت قضايا السياسة الخارجية للعربية السعودية بالتحليل في كتابات ر. بوريسوف ول. ميدفيدكو وي. بريماكوف ور. توروسونوف، وكذلك في بحث «السياسة الخارجية لاقطار الشرقين الادنى والاوسط» بقلم جماعة من المؤلفين.

ويتضمن دليل «العربية السعودية» الصادر عام ١٩٨٠ مادة غنية عن المملكة.

وكرس غ. بونداريفسكي كتاباً للاوضاع في حوض الخليج على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين. ويلقي المؤلف الاضواء على بعض قضايا تاريخ الجزيرة خلال تلك الحقبة. ويمكن تتبع سير الحرب العالمية الاولى بالنسبة للجزيرة العربية في كتاب م. لازاريف «سقوط السيطرة العثمانية في العالم العربي».

ونجد توضيحات لبعض المسائل الحقوقية في المواد المخصصة لبناء نظام الدولة السعودية في كتاب «دساتير دول الشرقين الادنى والاوسط» مع ان ترجمة بعض النصوص تحتاج الى تدقيق. وقام س. كامينسكي بتحليل الانظمة الملكية في العالم العربي، كما عالج ل. سوكياينين في كتاب «الشريعة الاسلامية» القضايا المتعلقة بالفقه والشريعة في النظام الحقوقي السعودي.

وشهدت الثمانينات ومطالع التسعينات بحوثاً اسلامية تناولت بهذا القدر او ذاك قضايا الاسلام واحواله الراهنة في العربية السعودية. ومن تلك البحوث «الاسلام في السياسة الراهنة لبلدان الشرق» و«العامل الاسلامي في العلاقات الدولية في آسيا» بقلم جماعة من المؤلفين والدليل الموسوعي «الاسلام» وكذلك دراسات الباحثين أ. كودريافتسيف ود. ماليشيفا وغ. ميلوسلافسكي ور. شريفوفا. كما كرس ف. شيستوبالوف بحثا لقضايا تحديد الجرف القاري في الخليج العربي.

ثم نشر كتباً عن العربية السعودية كل من ا. بيليايف وف. بوديانسكي وم. لازاريف وو. غيراسيموف. وظهرت في عدة مجلات روسية مقالات تناولت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية في العربية السعودية.

ويبدي الباحثون في روسيا اهتماماً كبيراً بقضايا النفط ودور الصناعة النفطية في مجتمع بلدان الشرق الاوسط، ومنها العربية السعودية. وفي مقدمة اولئك الباحثين ر. اندياسيان وب. راتشكوف وأ. مكسيموف وا. بيوتروفسكايا وأ. بريماكوف وا. سيف الملوكوف.

في الختام تجدر الاشارة الى **الفهارس الخاصة بالعربية السعودية** والتي وضعها ر. ماكرو وهيورت دون وج. ستيفينس ور. كينغ والباحثان السعوديان يحيى محمود ساعاتي وعبدالله القحطاني، وكذلك الدليل الذي صدر في واشنطن عام ١٩٥١ وقائمة المؤلفات الخاصة بالجزيرة العربية والمحفوظة في المكتبة الوطنية بالقاهرة، وكتاب «الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز. قائمة بيبليوغرافية مختارة عن حياته واعماله». وفي عام ١٩٩٤ أصدر الباحث الاستاذ فهد السماري من الرياض القائمة المفصلة للكتب المكرسة لعهد الملك عبد العزيز آل سعود. وتتضمن «بيبليوغرافيا العربية السعودية» (من وضع كاتب السطور) اكثر من اربعة آلاف عنوان كمؤلفات عن المملكة بالروسية والعربية وبلغات اوروبية. ويضاف اليها سجل «بيبليوغرافيا بلدان جنوب وشرقي الجزيرة العربية» من وضع أ. شفاكوف. ومن اكمل السجلات في هذا المجال «بيبليوغرافيا» هانس يورغين فيليب التي صدرت في المانيا عام ١٩٨٤ .

وفي عام ١٩٨٩م صدر المجلد الثاني للبيبليوغرافيا للمؤلف نفسه. وللاسف لم يدمج «فيليب» في هذين المجلدين الكتب لا باللغة العربية ولا بغيرها من اللغات الشرقية ولا باللغة الروسية واللغات الشرق أوروبية الاخرى. وقد زاد عدد المؤلفات البيبليوغرافية البحتة التي تخص العربية السعودية على اكثر من ١٠٠ كتاب.

الجزء الاول

الفصل الاول

الجزيرة العربية قبيل ظهور الوهابية. الاقتصاد والمجتمع والسياسة

ظهرت دولة السعوديين في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي على اساس حركة المصلحين الاسلاميين الوهابيين. بديهي ان دراسة مجتمع الجزيرة العربية بالدرجة الاولى يمكن ان تقدم لنا مفتاح فهم المذهب الوهابي وأسباب تأسيس وتطور واندثار وبعث الدولة التي تحمل اليوم اسم العربية السعودية. ونستدرك هنا فنقول ان اهتمامنا منصب على المناطق الوسطى والشمالية والشرقية من شبه جزيرة العرب، على نجد والاحساء. اما اليمن وعمان فلا نتناولهما بالدراسة. والسبب في ذلك لا ينحصر في كونهما قد احتفظتا باستقلالهما عن العربية السعودية، بل يكمن بالدرجة الاولى في احتفاظهما بالخصائص المتميزة تماما (الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسكانية والمذهبية) التي تقدم المبررات لاعتبار سكانهما شعبين مستقلين لهما مصيرهما وتركيبهما الاجتماعي والسياسي. لقد كان من الصعب على الحجاز ان يحتفظ باستقلاله لأن الحرمين في مكة والمدينة كانا يستثيران شهية جميع الامبراطوريات في الشرق الاوسط. وكان النظام الاجتماعي، والسياسي والاقتصادي في الحجاز مشابها تقريبا للنظام في نجد التي لم تشهد في الواقع السيطرة الاجنبية. الا ان مكانة الحجاز كولاية للخلافة الاموية او العباسية، لمصر او الامبراطورية العثمانية، وكذلك الحج والتجارة والنشاطات الأخرى المرتبطة به، قد جعلته يختلف عن

جيرانه. ولذلك فعندما نتكلم عن «مجتمع» نعني بالدرجة الاولى نجد، مهد الوهابية ودولة السعوديين، والمناطق المتاخمة لها من الشمال والشرق.

بحران من الرمال ـ صحراء النفود الكبرى في الشمال والربع الخالي في الجنوب ـ يرسمان على وجه التعريب حدود نجد الشمالية والجنوبية. وتنبسط نجد من الغرب الى الشرق من جبال الحجاز حتى الخط الساحلي على الخليج. ويمتد الانحدار العام لاراضي البلاد من الغرب الى الشرق. ويتميز الطقس بتذبذب منتظم لدرجات الحرارة ـ من القيظ الساخن الجاف في الصيف الى البرد الشديد نسبيا في الشتاء. وغالبا ما تصادف سنوات جفاف مطبق. ولكن عندما تهطل الامطار تعتبر خيرا مخلوطا ببعض الشرور. فالسيول العارمة التي تجتاح الوديان تسفر عن كوارث في بعض الاحيان. اشهر هذه الوديان وادي الرمة الذي يبدأ في الحجاز، شمال شرقي خيبر، ويتجه الى الشرق على مسافة ٣٦٠ كيلومترا تقريبا ثم يلتف نحو الشمال الشرقي ويضيع بين الرمال ثم يظهر باسم آخر هو الباطن وينتهي قرب البصرة في العراق على مسافة الف كيلومتر تقريبا من «منبعه». ومن الوديان الشهيرة الاخرى وادى حنيفة ووادي الدواسر ووادي نجران. والمياه الجوفية في الوديان اقرب الى سطح الارض، مما يوفر اسباب الحياة هناك. وفي وادي حنيفة بالذات ظهرت عدة واحات كبيرة صارت مهدا للوهابية وآل سعود.

وتقع في وادي الرمة المدينتان الرئيسيتان في منطقة القصيم، وهما بريدة وعنيزة.

إن نجد مقسمة الى مناطق ذات حدود مائعة. الا ان تلك المناطق نشأت تاريخيا ويتميز كل منها بوحدة جغرافية معينة. واهمها منطقة العارض التي يقطعها وادي حنيفة والتي تقع فيها الرياض العاصمة، ومناطق المحمل وسدير والوشم. واهم مناطق الجنوب الخرج المعروفة بآبارها العميقة واحواضها، والافلاج التي ظلت باقية فيها قنوات الري الجوفية القديمة، ووادي الدواسر، وفي الشمال تقع منطقتان هامتان هما القصيم وجبل شمر. في القصيم توجد المدينتان المتنافستان بريدة وعنيزة الواقعتان على الطريق من البصرة الى المدينة المنورة، لذا كانتا على الدوام

مركزين تجاريين هامين. وتقع منطقة جبل شمر جنوبي صحراء النفود الكبرى، وهي ابعد قسم شمالي من اقسام نجد.

لقد حملت الينا مراجع القرن الثامن عشر مشاهد متفرقة من الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. لكن المعلومات الاحدث تمكننا من تصور اللوحة كاملة وان بالخطوط العامة. ان تباطؤ تطور القوى المنتجة وثبات البنيات الاجتماعية طوال القرون يهيئان لنا فرصة «سحب» خصائص العلاقات الاجتماعية في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر او مطلع القرن العشرين على القرون السابقة.

كانت حياة السواد الاعظم من سكان نجد والاحساء وكذلك الحجاز مرتبطة اساسا بنوعين من النشاط الاقتصادي ـ الزراعة السيحية او الاروائية في الواحات والرعي البدوي.

الزراعة الاروائية. ان الطقس الجاف شبه الاستوائي في القسم الاكبر من الجزيرة يستدعي ضرورة الارواء الاصطناعي في الزراعة. وتنبجس الى اسطح مياه جوفية وفيرة بهذا القدر او ذاك في المناطق الشرقية من الجزيرة فقط. اما اغلبية المناطق الاخرى فالارواء ممكن بواسطة الآبار، وفي حالات نادرة تستخدم مياه الامطار او السيول. في بعض الاحيان تبعد منابع المياه عشرات بل مئات الكيلومترات بعضها عن بعض. ولكننا نصادف عددا كبيرا نسبيا من الواحات في نجد حيث تتواجد الطبقات الحاوية للمياه على مقربة من سطح الارض، وكذلك في الاحساء.

وتطلب حفر الآبار جهدا كبيرا وأموالا طائلة. وكانت الوسائل البدائية لرفع المياه تديرها الجمال والبغال والحمير. بديهي ان ذلك يحدد الاراضي الزراعية المروية وحجم الانتاج الزراعي. فقد كانوا يروون فدانا واحدا على وجه التقريب (خمس الهكتار) من بئر عادي بعمق عشرة امتار تقريبا ترفع مياهه بواسطة شادوف او ناعور او غيره [1].

وكانت النخيل هي المزروعات الرئيسية في المناطق الشمالية والوسطى من

الجزيرة. ويستخدم التمر طعاما بمختلف الاشكال، وكان يمثل المحصول الزراعي الهام الوحيد الذي يسد حاجات الحضر والبدو على نحو ما في سنوات «الرخاء».

وتأتي الحبوب ـ الشعير والدخن والقمح والهرطمان ـ في المرتبة الثانية بعد التمور. ومعروف ان كمية معينة من الحبوب كانت تنقل من نجد الى الحجاز في بعض السنوات. وكانوا في بعض الاماكن يزرعون الأرز والقطن والخضر والفواكه.

وكانوا يجنون في الاراضي المروية محاصيل كبيرة نسبيا، الا ان الحجم الاجمالي للمحاصيل غير كبير بسبب محدودية الاراضي المفلوحة وقلة الاسمدة وبدائية الطرائق الزراعية. ان الجفاف المتواصل الذي كتب مؤرخو الجزيرة والرحالة الاوروبيون عن مصائبه يعني استحالة ضمان جني محاصيل ثابته حتى في الاراضي المروية. وفي فترات الجفاف الطويل الامد تجف بعض الآبار نهائيا. وعند ذاك تهلك المزروعات وتتقلص مساحات الاراضي المفلوحة وتذبل حتى النخيل وتغدو عقيمة ويعاني السكان من المجاعة فيموتون او يرحلون عن ديارهم زرافات ووحدانا. وعندما تهطل الامطار من جديد يستأنف الفلاحون البذار ويشرعون برعاية ما تبقى من نخيل، ولكن بعض الواحات يكون قد اختفى الى الابد.

وليس الجفاف وحده من خصوم المزارعين. فان هطول الامطار الغزيرة على ندرته يشكل خطرا عليهم ايضا. فيحدث ان تقشط السيول العارمة الطبقة العليا من تربة الحقول مع بذارها وزرعها، وتدمر المساكن وتتلف ثمار جهد السنين. كما أن الجراد غالبا ما كان يلتهم كل النباتات فيحرم الناس من اسباب العيش. وفي الغالب لا تكفي المواد الغذائية اهالي الواحات حتى موسم الحصاد الجديد.

وكانت الاوبئة المتفشية (الكوليرا والطاعون) تجهز على قرى بكاملها.

ان ضيق القاعدة الانتاجية والعوامل الطبيعية الضارة بالزراعة (ناهيك عن العوامل الاجتماعية التي سنتناولها فيما بعد) والطرائق الزراعية البدائية وانعزال الواحات بعضها عن بعض ـ كل ذلك ادى الى تباطؤ شديد جدا في تطور الاقتصاد. وان امكانية تجديد الانتاج الموسع المنتظم كانت ضئيلة وغالبا ما يلغيها التراجع الى الوراء.

كانت الزراعة في الواحات تتميز ليس بلم الجهود الاقتصادية بل بتشتيتها، وكان يسودها نشاط جماعات صغيرة من الفلاحين او عوائل منفصلة. ولم تكن هناك منشآت ري كبرى او مساحات زراعية اروائية واسعة من شأنها ان تفرض على مجتمع الجزيرة في القرون الوسطى ضرورة التنظيم المركزي. ولم يكن تشتت الواحات يتطلب توحيد المزارعين تحت لواء قيادة مركزية لاجل ممارسة النشاط الاقتصادي المشترك.

الري البدوي وشبه البدوي. كان الرعي عند بدو الجزيرة يقسم الى نوعين.

فالاعراب «الحقيقيون» هم البدو الرحل الذين يمارسون في الغالب او بالاساس تربية الابل التي تكاد تكون الماشية الاكثر شمولا واحاطة بين سائر المواشي والدواب. فان لبن الابل الطازج او المخمر والجبن والزبدة تستخدم في الطعام. وغالبا ما يعيش البدوي اسابيع طويلة على اللبن ومشتقاته فقط. وفي حالات خاصة كانوا ينحرون الناقة ويأكلون لحمها وشحمها. ويصنعون الانسجة من وبر الابل، ويستخدمون جلودها لمختلف الاغراض، كما يستخدمون بعرها وقودا وبولها للغسل والعلاج. وكان الجمل الصبور المتحمل بشكل مدهش هو وسيلة النقل التي لا يستغنى عنها اطلاقا في اجتياز البوادي القاحلة. فالجمل في الصحراء، كما يقول فولني بحق، مهم لدرجة تجعل اختفاءه منها يؤدي الى اختفاء سكانها جميعا[٢].

بيد ان قول المستشرق النمساوي شبرينغير: «البدوي طفيلي على الجمل» قد انتشر على سبيل النكتة لا غير. ان عمل البدو من مربى الابل عمل مرهق يتطلب مهارة وقدرة، ويتوجب عليهم ان يعرفوا جيدا ويستخدموا المراعي ويقتادوا الابل ويعالجوها ويحلبوها ويجزوا وبرها. وكانوا يعلمون صغار الابل على اداء مختلف الاعمال وعلى الانصياع للركوب والاحمال. وكان البدو يحفرون الآبار ويعتنون بها، فالمسافات التي تقطعها القوافل كانت تبلغ آلاف الكيلومترات.

وكانت حياتهم غاصة بالحرمان. ففي الشتاء القارس احيانا تهلك صغار الابل وتجوع الماشية وتجف ضروع النوق. وكان الحرمان والمخاطر يتربصان بالبدوي

في الصيف القائظ ايضا، بحيث تنفد حتى الاحتياطيات الشحيحة من التمر والحبوب فيقتات فقراء البدو على الجذور والثمار البرية، ويهلك الكثيرون بسبب الجوع. وكانت المقابر تقع عادة قرب مواقف البدو الصيفية [٣].

ان الخيول العربية الشهيرة التي هي موضع افتخار لدى اصحابها وحسد لدى سواهم، كانت تستخدم للاغراض الحربية فقط وللاستعراضات. وفي رحلات القوافل الطويلة الامد كانوا يأخذون دوما احتياطيا من المياه لاجل الخيول او يسقونها لبن الابل.

اما الرعاة الذين يمارسون في الغالب او بصورة اساسية تربية الاغنام والماعز فلم تكن لديهم امكانية كبيرة للترحل في الاماكن الخالية من المياه، ولذا كان ترحالهم لا يتجاوز بضع مئات من الكيلومترات. وكان من اللزوم ان يعثروا على مصادر للمياه قرب المراعي.

ان المسافات غير البعيدة نسبيا للترحال في الاماكن التي توجد فيها مصادر مائية ثابتة قد مكنت رعاة الضأن من ممارسة الزراعة. فكانوا يقطعون الترحال في شهور الاعمال الزراعية لكي يعتنوا بالنخيل او بحقول الحبوب. وغدا العمل الزراعي رئيسيا بالنسبة لقسم من رعاة الضأن.

ونجد عند غ. فالين وصفا لهذا النوع من اقتران العمل الزراعي بالرعي البدوي في شمال نجد: «بسبب العرى الوثقى التي تربط بين فخذي الشمريين نجد أن سكان القرى ما يزالون يتشبثون لدرجة معينة بعادات وتقاليد الحياة البدوية، في حين يزاول البدو اعمالا تعتبر عادة امورا غير لائقة بهم. فان قسما كبيرا من الأولين يترحلون في الربيع مع خيولهم وقطعانهم في البادية ويعيشون بعض الوقت في بيوت الشعر، في حين تمتلك عوائل بدوية كثيرة بساتين النخيل وحقول الحبوب... التي تفلحها بنفسها»[٤].

ويقول أ. بوركهاردت ان احد افخاذ قبيلة حرب الحجازية «يمتلك عدة مشارب متواجدة في بقعة خصبة يزرعون فيها الهرطمان والشعير. ولكنهم يعيشون في بيوت الشعر ويقضون اكبر قسم من العام في البادية» [٥].

ولم تكن توجد بين رعاة الابل الرحل ورعاة الضأن شبه الرحل والحضر حدود معينة فيما يخص النشاط الاقتصادي عادة. فالكثيرون من البدو رعاة الابل بدأوا بممارسة تربية الضأن. واستقر قسم من البدو الرحل فصاروا حضرا. وفي الوقت نفسه جرت عملية معاكسة هي تحول الحضر الى بدو. ان التوازن غير المستقر بين البدو والحضر كان يتوقف على الظروف الطبيعية والتاريخية في الجزيرة العربية، وما كان بوسعه ان يتجاوز اطرا معينة. وكان فائض السكان الرحل ينتقل الى الشمال. واذا استقر هناك فهو يقطع الصلة نهائيا، على الاكثر، بماضيه البدوي. وليس من قبيل الصدفة ان يقال إن العراق قبر الاعراب(٦). ويشمل هذا القول سورية بقدر ما. لذلك ففي اطار الجزيرة العربية كان هناك توازن تلقائي بين التحضر والبداوة.

يمكن لتقسيم سكان الجزيرة الى بدو من رعاة الابل وشبه بدو من رعاة الضأن ان يتوافق مع تقسيمهم الى قبائل. وفي بعض الاحيان يمارس فخذ من القبيلة تربية الابل، ويمارس فخذ آخر تربية الضأن والماعز، بينما يمارس الفخذ الثالث الزراعة كالحضر.

وكان الاقتصاد البدوي يعتمد على هطول الامطار اكثر من اعتماد الاقتصاد الحضري عليه. فعندما تتساقط الامطار بعد فترة تكتسي السهب والبوادي باعشاب ريانة وتتسمن القطعان وتزدهر حياة البدو الرحل. اما جفاف الصيف وبرد الشتاء والاوبئة الحيوانية فتؤدي الى هلاك اعداد كبيرة من الماشية والى المجاعة وانقراض البدو. وامكانيات تجديد الانتاج الموسع والحصول على منتوج زائد اضيق في الرعي البدوي مما هي في الواحات.

الحرف والتجارة. كانت الحرف والصنائع المنزلية عند الفلاحين الحضر تسد حاجاتهم المحدودة جداً. لقد كانوا يضفرون السلال والاكياس والحصر من سعف النخيل ويفتلون من اليافها الحبال والاعنة، ويستخدمون جذوعها في صنع الادوات الزراعية وفي بناء المساكن، وكانوا يصنعون الاواني الخزفية البدائية والانسجة الصوفية والقطنية.

وفي الوقت نفسه يصل الى السوق قسم كبير من منتوج البدو الحرفي الاقل تطورا (الانسجة الصوفية الخشنة والمصنوعات الجلدية).

وفي الواحات الكبيرة تطورت بعض الشيء الصنائع الحرفية المختصة. وكان بين الصنائع حدادون ونحاسون ولحامون وصاغة ونجارون وصناع سلاح واسطوات في صنع التحف الخشبية وبناة وعمال طلاء واخصائيون في صنع العجلات للنواعير واسكافيون وخياطون ومطرزون ومفصلون وصناع هواوين المرمر لدق القهوة وضافرو الحصر[٧]. وكان الصفارون وصناع الاسلحة اكبر فئة من الحرفيين. وقد اطلق لفظ «الصناع» بالمعني الضيق للكلمة عليهم بالذات. وبالمناسبة فان صناع الاسلحة كانوا يمارسون في الغالب تصليح الاسلحة المستوردة. ونشأ تخصص معين لدرجة ما في الانتاج ببعض المناطق. الا ان من الصعب تحديد ملامح هذا التخصص قبل القرن الثامن عشر. ومن المعروف، مثلا، ان الناس «في نجد كانوا ينسجون الاقمشة القطنية التي تستخدم في خياطة البسة السكان وفي مبادلتها بالاصواف والماشية مع القبائل»[٨]. وفي بعض المناطق تطور صنع الانسجة الصوفية وخياطة العباءات منها (اشتهرت الاحساء بها خصوصا) وكذلك اقمشة بيوت الشعر.

ولم يصادف وجود ورشات ضخمة في الجزيرة العربية. وفي حالات نادرة فقط شكل الصناع ما يشبه التنظيمات الحرفية.

كان قسم من الصناع يترحل مع قبائل البدو. فكان بعضهم يصنع حدوات الخيل ويصلح السلاح او الادوات المنزلية وبعضهم يعالج الماشية اذا مرضت. وكان الصناع الرحل انفسهم يمارسون تربية الماشية.

كان من الصعب العثور في الجزيرة العربية على مدينة بالمعنى الكامل للكلمة حيث لا تعتبر الزراعة المصدر الرئيسي لمعيشة اغلبية سكانها[٩]. وكانت مكة تمثل استثناء واضحا من القاعدة. وفي اغلب الاحوال كان مفهوم «الواحة الكبيرة» ومفهوم «المدينة» متطابقين في الجزيرة العربية. وكانت عاصمة الدولة السعودية المرتقبة ـ الدرعية مكونة من عدة قرى متقاربة.

ولم تكن الصنائع تحدد ملامح الحياة الاقتصادية في المدن ـ الواحات في الجزيرة العربية. وكان دورها الهام في حياة مجتمع الجزيرة مرتبطاً بالتبادل التجاري المكثف ونابعاً من التقسيم العميق للعمل بين الزرّاع والرعاة والرحل.

وكان اقتصاد البدو الرحل يتميز بطابع يعوزه الاكتفاء الذاتي، وكان اقتصاد الزراع افضل قليلا من هذه الناحية. ومع ان بعض البدو غالبا ما كانوا مضطرين الى ان يقتاتوا اساسا على لبن الابل، فان السواد الاعظم منهم ما كان قادرا على الاستغناء عن المنتجات الزراعية والتمور والحبوب، كما كانوا بحاجة الى المصنوعات الحرفية.. وقد وزع بور كهاردت مصروفات البدوي الموسر بالشكل التالي: اربعة احمال من القمح ـ ٢٠٠ قرش، شعير للفرس ـ ١٠٠ قرش، البسة ـ ٢٠٠ قرش، بن وتبغ وحلويات ولحم غنم ـ ٢٠٠ قرش. ويشكل ذلك بمجمله ما يعادل ٣٥ـ٤٠ جنيها استرلينيا[١٠]. ويبدو ان عدم ذكر التمور في هذه القائمة يعود الى ان البدو الاثرياء يمكن ان يحصلوا عليها ليس عن طريق التبادل التجاري، بل بشكل اتاوة من الزراع الخاضعين لهم. ويبدو ان البدو البسطاء كانوا يقتنون ايضا الكثير من البضائع التي ذكرها بور كهاردت وان بكميات اقل.

وفي الصيف كان البدو يتقاطرون على الواحات الكبيرة والمراكز التجارية فيعرضون الماشية والاصواف والسمن والجبن لمبادلتها بالتمر والحبوب والاقمشة والحصر والحدوات والاسلحة والبارود والرصاص والمواد الطبية والبن والتبغ. وكان قسم من التجارة يجري عن طريق التبادل العيني. الا ان مؤرخي الجزيرة يذكرون على الدوام اسعارا بالتعبير النقدي لمختلف البضائع، مما يدل على تطور التداول النقدي في الجزيرة العربية آنذاك. ان نزوح البدو الرحل الصيفي الى المراكز التجارية يعتبر بالنسبة لهم وللحضر اعظم احداث السنة[١١]. ففي الاسواق الصيفية كان يجري الجزء الاساسي من التبادل البضاعي بين البدو والحضر.

ولم يكن البدو يتاجرون في الواحات القريبة فقط، بل كان نطاق صلاتهم التجارية اوسع بكثير، ويتجاوز اطار شبه جزيرة العرب. كانت الابل في تلك الحقبة الباب الاساسي في صادرات الجزيرة حيث كانت تحظى بطلب واسع. كانت الابل

تستخدم كوسائط للنقل ليس بالنسبة للجزيرة وحدها، بل للبلدان الاخرى في الشرق الاوسط. وكانت الجزيرة تصدر الاصواف والسمن والجلود والخيول الاصيلة أيضاً. وساعدت التجارة الخارجية، بقدر اكبر من التجارة الداخلية، على تطوير العلاقات البضاعية النقدية في شبه جزيرة العرب.

وكان يصل الى شمال ووسط الجزيرة، وخصوصا الى الحجاز، الأرز المصري والهندي والقمح والشعير من مصر واليمن. وكانوا يستوردون البن من اليمن والتوابل من الهند والفواكه المجففة من سوريا والسكر من مصر كما كانوا يستوردون الاسلحة والحديد والنحاس والرصاص لصنع الخراطيش والكبريت لصنع البارود[١٢].

ويتحدث مؤلف «لمع الشهاب» فيقول: «الكفية (الكوفية) وصناعها في نفس نجد قليلون بل اكثر ما يلفيهم منها من جانب العراق ومن الاحساء والقطيف... والعباة تصنع في بلدان نجد لكن قليلا واكثر مجيها من ملك العراق ومن الاحساء... وقد تلبس نساء الاغنياء منهم الحرير الهندي الذي يبلغ كل ثوب منه قيمة عشرين ريالا واكثر بالوان عديدة من احمر واصفر واخضر... فتلبسه نساء المتمولين واما صيغهم في امر حلى النساء فذاك شيء لا يضبط بالعدد لانهم يبالغون في ذلك جدا حتى الفقراء منهم لا بد ان يصيغوا شيئا من الزينة الذهبية لنسائهم قطعا... واما الرجال فيزينون سيوفهم بكثير من الفضة وكذا بنادقهم يلبسونها من اطواق الفضة كثيرا وهكذا خناجرهم ورماحهم يطيبونها بالفضة...»[١٣]..

ويضيف المؤرخ قائلا: «ومن صفات اهل نجد التجارة. فان كثيرا منهم تجار يسفرون الى اطراف الروم وبقية جزيرة العرب ولم يذهبوا بسلعة من نفس نجد الى ملك الروم وانما يحملون معهم الدراهم النقدية خاصة ويأتون من حلب او الشام بالبز الحرير وغيره وكذا بالنحاس ظروفا وغيرها والحديد والرصاص... وقد يسرون اهل نجد بخيل عناف الى اطراف ملك الروم بالتجارة لان خيولهم مرغوب فيها عند الاروام لشد علوها وهكذا يجلب اعراب نجد ابلا كثيرة الى حلب والشام للبيع.

وقد قال لي بعض الناس انا شاهدت تجار واهل نجد اهل القصيم منهم يبيعون تمراً في دمشق الشام وعرفت انهم يجلبونه من بلادهم وقد يسافر اهل نجد الى ارض مصر لكنهم لم يشتروا منها الا السلاح والمرجان واعلم ان تجارتهم في بقية بلاد العرب كذلك غالباً ما يذهبون به الى هذه النواحي هو الدراهم ويأتون من اليمن بالقهوة كثيرا وبالورس والميعة واللبان واعلم ان ليس لاجل تجار اهل نجد خانات معينة للبيع والشراء بل جميع اموال التاجر في بيته... واما اهل بيع القليل منهم فلهم دكاكين وليس سوقهم مسقف مثل سوق اهل فارس ولا ضيق كضيقه بل سوقهم مكشوف لا سقف له وواسع الطريق جدا بحيث تمر القوافل محملة فيه واعلم ان اجناس الهند من سكر وبلوج وهيل وقرنفل وقرفة وقلفل وكركم ونحو ذلك الاجناس كلها مرغوبة عند اهل نجد واكثر هذه يجلبونها من بنادر اليمن وقلما يأتون به من ساحل عمان ويأتيهم من طريق القطيف والبحرين شيء كثير...

ولهم اشتياق عظيم للسفر وهمة غريبة وطاقة عجيبة بحيث يمكن الشخص منهم ان يتغرب عن اهله ووطنه مدة عشرين سنة او اكثر وان يسافر عن بيته الى ملك الصين مثلا كما ان كثيرا من تجارهم اليوم جلوس ونزول في حلب وفي دمشق الشام ومنهم من هو في مصر... وايضا من جملة احوال اهل نجد الحضر منهم انهم يتعاطون الزروع كثيرا ويستعملون غرس الاشجار والنخيل ويتعبون انفسهم عليها جدا وكذلك لاهل الحضر منهم غنم وبقر وابل وان لم تكن كثيرة لكن لا بد لهم منها بقدر ما يسع المعاش لاجل الحليب واللحم والركوب.

واما احوال بدو نجد فانهم اهل بيت شعر خاصة ولا لهم غير المواشي شيء ولا يردون بأهاليهم البلاد اصلا وما يأتي الرجال منهم لأجل التجارة قحطوا فانهم يدخلون المدن والقرى بأهاليهم...»[١٤].

وكان البدو يقدمون الابل والادلاء لاجل القوافل التجارية في الجزيرة العربية ويشاركون في تكوين القوافل خارج الجزيرة. وكانت توجد في شمال الجزيرة اتحادات تجار الابل وادلاء القوافل المنتسبين الى قبيلة بني عقيل. وقد استقروا في مختلف ارجاء نجد، الا ان بعضهم أقام في العراق. وفي اواخر القرن الثامن عشر

كانوا وحدهم يتمتعون بحق تشكيل القوافل التي تعبر بادية الشام وقيادتها وحمايتها(١٥).

وكان التجار قد جمعوا ثروات طائلة. صحيح ان البيوتات التجارية في نجد كانت اقل شأنا من تجار الجملة الحجازيين. ففي جدة بلغت رساميل تجار البن والبضائع الهندية ما يعادل عشرات بل مئات الآلاف من الجنيهات الاسترلينية.

واتسم الحج الى مكة والمدينة بأهمية فائقة للجزيرة العربية عموما وللحجاز خصوصا. وكانت قوافل الحجاج الرئيسية تمر من شمال الحجاز قادمة من مصر والشام عبر المناطق الشمالية من نجد مع ميلان نحو الشمال أو الجنوب على اختلاف السنين يمتد طريق الحج الايراني العراقي مع ان اهميته كانت اقل من اهمية طريقي مصر والشام. والطريق الرابع يأتي من موانئ الخليج ومن عمان عبر وسط نجد والحجاز، اما الطريق الخامس فيأتي من اليمن الى مكة. ويقترن الحج بالتجارة، فقد كان الحجاج يجلبون مختلف انواع البضائع. وقد امن نقل الحجاج اسباب العيش للكثير من البدو.

عناصر العلاقات القبلية العشائرية في الواحات. كان قسم كبير من السكان الحضر في الجزيرة العربية يعتبرون انفسهم من هذه الافخاذ والقبائل أو تلك. وكان ابناء القبيلة الواحدة من بدو وحضر على ارتباط وثيق فيما بينهم يمكن ان يظل قائما طوال حياة اجيال عديدة. وفي بعض الاحيان كان ابناء القبائل المختلفة يعيشون في احياء منفصلة في الواحات نفسها.

وكان الفلاحون واهل المدن الاصليون يعتقدون ان انسابهم تغوص عميقا في انساب العرب.

وتشكل عدة عوائل كبيرة او صغيرة جماعة تسمى الحمولة. وكتب دوتي يقول«ان الجماعة تحالف طبيعي لاستثمارات تربط بين افرادها صلات القربى ولهم جد واحد. وهم متوحدون فيما بينهم تحت راية عمدتهم ورب الاسرة كله الذي يرث سلطة مؤسس الجماعة. وفي اطار هذه الاواصر والتقسيمات العائلية يمكن وجود

الحياة المترابطة الآمنة في بلد خاوٍ او خال من السلطة. ويعتبر الغرباء المنتسبون الى الجماعة حلفاء لاصدقائهم. ويعتبر المعتوقون زبائن للعائلة السائدة...وكلهم من «ابناء عمومة» الجماعة المعنية... ان الجماعات في الواحات هي روابط يقطن افرادها في عدة احياء او حارات. وعندما يتشاجر ابناء المدن من جماعات مختلفة يحاول زعماؤهم المصالحة فيما بينهم، مع ان ابناء المدن في الواحات الكبيرة ذات التسيير الذاتي، مثل عنيزة، يراجعون الامير المتربع في المجلس لاجل حل الخلافات بينهم... وقبل ان تهيئ السلطة الوهابية الوئام المدني كان سكان المراكز الكبيرة في باطن الجزيرة في نزاع دائم: جماعة ضد جماعة وسوقا ضد سوق»[١٦]. والشخص الذي يعيش خارج الجماعة وحيدا لا نسب له انما يعاني من صعوبات كبيرة، فلا جماعة تحميه من التطاولات على حياته وامواله.

وكانت عوائل الامراء والشيوخ تتميز بصلات القربى الوثقى خصوصا، مما يمنحها وزنا ونفوذا كبيرين. وغالبا ما توحد بينها الملكية المشتركة للارض والعائدات.

وقد ضعف التنظيم القبلي العشائري لدرجة كبيرة لدى السكان الحضر ما عدا قسم منهم ممن انتقلوا الى حياة الاستقرار الحضرية مؤخرا ولم يقطعوا الصلات القديمة بالكامل. والشيء الوحيد الباقي فعلا هو العائلة الكبيرة والمجموعة غير الكبيرة نسبيا من ذوي القربى والتي تمثل الخلية القبلية المتبقية التي غالبا ما تنعت في مطبوعاتنا الاثنوغرافية بالخلية الابوية (العشائرية).

وكانت العائلة الكبيرة تمتلك الارض والاموال الاخرى بصورة مشتركة وتمارس تسيير استثمارة غير موزعة وذلك باشراف الاب.

وبعد وفاة الاب يجري تقسيم التركة. وكان للابن البكر حقوق تفضيلية في الميراث.

وظلت باقية في بعض مناطق الجزيرة العربية اشكال مختلفة للملكية المشاعة لاراضي افخاذ معينة. وفي الاماكن التي يجري الارواء فيها من مصادر مائية كبيرة

يمتلكون المياه ويستخدمونها بصورة مشتركة. وفي بعض الأحيان كانت المراعي من الملكية المشاعة للحضر. وإذا لم يكن سكان الواحات يمتلكون مراعي خاصة بهم فهم مضطرون الى رعي الماشية في الاراضي العائدة لقبائل البدو الرحل [١٧].

ان عادات التعاضد العشائري كانت موجودة بقدر ما عند السكان الحضر. وكان المزارعون ينفقون بصورة مشتركة على رعاة ماشيتهم وحراسها ويلتزمون بعادة كرم الضيافة. وظلت باقية تقاليد عونة الجيران. ويصادف ان لا يحصد مالكو الحقول السنابل الساقطة اذ يتركونها للفقراء. وفي بعض الاحيان يخصص للفقراء قسم غير محصود من الحقل او عدد من النخيل المثمرة[١٨]. الا ان العلاقات الاجتماعية في الواحات لا تضبطها هذه الروابط العشائرية.

التقسيم الطبقي في الواحات. بنتيجة عملية طويلة معقدة في المجتمع الزراعي في الجزيرة العربية خلال القرن الثامن عشر وقع قسم من الاراضي في حوزة الوجهاء من بين البدو وكذلك الذين تحولوا الى حضر من زمان في الواحات. مثلاً، كان حاكم واحة العيينة في النصف الاول من القرن الثامن عشر، يمتلك ارضا في الاحساء ويستلم منها عائدات[١٩]. وكانت بساتين النخيل والجنائن والحقول ملكا للفقهاء ايضا. والمثال على ذلك املاك مؤسس الوهابية محمد بن عبد الوهاب [٢٠] ولكننا لا نجد عند مؤرخي الجزيرة والرحالة الاوروبيين اشارة الى ان الملكية العقارية الكبيرة كانت سائدة او منتشرة في نجد والحجاز والاحساء. فقد اشار بلغريف في اواسط القرن التاسع عشر تقريبا الى ان الارض «نادرا ما كانت في حوزة الملاك العقاريين الكبار مثل الاقطاعيين الهنود وكبار المزارعين الانجليز»[٢١].

ان المزارعين الصغار المكبلين بالديون كانوا يفقدون ملكية الارض التي تنتقل الى المرابين الاثرياء والتجار. وكتب دوتي عن الفلاحين «ان الدائنين الاثرياء كانوا يلتهمون الفلاحين مع حصتهم من الارض (بقدر لا يكاد يقل عما في مصر والشام)، ويكبلونهم لامد طويل بالديون الربوية الجائرة»[٢٢]. ويبدو ان هذه الظاهرة كانت منتشرة كذلك عشية ظهور حركة الوهابيين في القرن الثامن عشر، ولعل ذلك هو

سبب اصرارهم على شجب الفوائد الربوية.

وكان الملاك العقاريون يقدمون قطع الاراضي إلى الفلاحين على سبيل الايجار بمختلف الشروط. وكان الطريق الرئيسي للحصول على الريع هو المحاصة العينية التي تحدد مقاديرها بموجب العادات والتقاليد.

وكان الاستيلاء على مصادر المياه الكبيرة والصغيرة قد مكن اصحابها من بيع الماء وبالتالي الحصول على حصة من ريع الاراضي المروية. ولم تكن لدى الكثير من الفلاحين دواب عمل ولم يكن بوسعهم الاستفادة من الآبار او المصادر العامة وفلاحة الارض بصورة مستقلة، فكانوا مضطرين إلى استئجار الدواب.

وكانت مختلف الاتاوات المفروضة على السكان تعود بمداخيل كبيرة على الوجهاء. ومن المعروف، مثلاً، أن الامير الذي يتمتع بالسلطة السياسية كان في اواسط القرن الثامن عشر يجبي ضريبة ما من السكان(٢٣). وكانت الرسوم المفروضة على القوافل التجارية قد ادت كذلك إلى اثراء الوجهاء بالدرجة الاولى. لقد كان حكام الحضر الاقوياء يملأون خزائنهم اثناء الغزوات الناجحة على الواحات المجاورة وعلى قبائل البدو الرحل وشبه الرحل، ما جعل الغزوات المصدر الرئيسي للمداخيل بالنسبة للعديد من الاقطاعيين.

وتبين عائدات شريف مكة اساليب اثراء الوجهاء من حكام الواحات. فقد كانت الرسوم الجمركية في جدة تعود عليه باكبر المداخيل، وكان يشارك في التجارة المربحة التي تمر عبر هذه المدينة، كما كان يمتلك سفنا بحرية ويبيع المواد الغذائية الى الحجاج. وقد فرض ضريبة نفوس كبيرة على الحجاج الفرس، وكان يستلم الهدايا والهبات من الحجاج السنة الاثرياء. وكان يستحوذ على قسم من النقود التي تاتي من الاستانة الى مكة بمثابة هدية من السلطان العثماني لاهالي مكة المكرمة. وترد الى خزينة الشريف عائدات الملكية العقارية من الطائف والواحات الاخرى، وكذلك من الدور العائدة له. ويعتقد بور كهاردت ان الدخل السنوي لشريف مكة كان يعادل ٣٥٠ الف جنيه استرليني(٢٤). بديهي ان الشريف كانت له مكانة خاصة في

يعادل ٣٥٠ الف جنيه استرليني[٢٤]. بديهي ان الشريف كانت له مكانة خاصة في الجزيرة العربية الا ان الامراء الآخرين كانت لهم بعض ابواب الدخل المذكورة اعلاه وان بقدر اقل.

ولم تتطور في الجزيرة اشكال ربط الفلاح الاعرابي بالارض مباشرة. فقد اشار نيبور الى «ان الفلاح المتذمر من سيده كان حرا في تركه والانتقال الى مكان آخر»[٢٥]. الا ان عدم امكان الاستغناء عن حماية شخص قوي او فخذ قبلي في ظروف انعدام الامان قد ادى الى ظهور تبعية الفلاح شخصيا لامير الواحة مع ان هذه التبعية كانت ضعيفة جدا.

وكانت توجد في واحات الجزيرة دون شك، في الحقبة موضوع البحث، علاقات طبقية من طراز ما قبل الرأسمالية، ويبدو انها نشأت لقرون عديدة قبل القرن الثامن عشر. ولكننا عندما نقول إنها علاقات «اقطاعية» علينا ان نستدرك ونذكر أن البنية الاجتماعية للسكان الزراعيين في الجزيرة التي هي على العموم من الاطراف المتخلفة في الشرقين الادنى والاوسط، كانت تكرر بشكل بدائي العناصر الاساسية للتنظيم الاجتماعي في البلدان الاكثر تطورا في هذه المنطقة. لذلك فعندما نستخدم مصطلح «الاقطاعية» في تحليل مجتمع الجزيرة نعني بها الاقطاعية الملازمة لبلدان الشرق الاوسط.

العلاقات القبلية العشائرية داخل قبائل البدو الرحل. ورد في «لمع الشهاب» تعداد لقبائل البدو الرحل في وسط وشرق وشمال وغرب الجزيرة في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر[٢٦]، الامر الذي لا نجده في المصنفات التاريخية الوهابية في تلك الحقبة. ويرى مؤلف «لمع الشهاب» ان اكبر قبيلة عربية (تذكرنا باتحاد القبائل) هي قبيلة عنزة التي تضم ثلاث مجموعات في كل منها حوالى ٦٠ الف رجل. ويقصد مؤلف الكتاب بهذا الرقم الخيالة القادرين على حمل السلاح. (وذكر منجين ان نسبة الخيالة الى النساء والاطفال والعجزة والشيوخ هي الثلث[٢٧]، وذلك يمكننا من تقدير العدد الاجمالي لافراد عنزة بأنه حوالى نصف

مليون نسمة). واشتهرت عنزة بفن الفروسية. وكانت تقاليد العونة والنخوة والتعاضد عندها اقوى مما عند القبائل الاخرى. وعندما يرتحل قسم من عنزة اثناء الجفاف من نجد الى المناطق شبه الصحراوية في الشام فان ابناء هذه القبيلة المقيمين هناك يساعدون القادمين.

ويقول مؤلف «لمع الشهاب» ان القسم الاكبر من عنزة خضع للسعوديين بدون حرب. وذلك امر كبير الدلالة. فان الجهود التوحيدية المركزية لامراء الدرعية كانت، على ما يبدو، تستجيب لمصالح هذه القبيلة المنتشرة في قسم كبير من شبه جزيرة العرب.

وكان لدى قبيلة شمر التي تقطن شمال نجد وتعتبر نفسها من ابناء قحطان ومن قبائل طي عشرون الف فارس. وكان لدى قبيلة حرب الحجازية ٣٠ الف رجل مسلح من البدو والحضر.

وكان لدى قبيلة مطير النجدية التي اشتهرت بفرسانها وحماسها ١٤ الف فارس، ولدى قبيلة عتيبة (من القحطانيين) التي قطنت نجد والحجاز ٤٠ الفاً، ولدى قبيلة البقوم ٤ آلاف ولدى قبيلة سبيع المخلصة للسعوديين كل الاخلاص ١٢ الفا، ولدى قبيلة السهول ١٠ آلاف.

وفي جنوب نجد كان لدى قبيلة الجبارة قحطان ٥٠ الف فارس، فلم يتجرأ أحد على التحرش بها. وانضم القحطانيون الى السعوديين بشرط تأييد الدرعية لغزواتهم على تهامة ومرتفعات اليمن وحضرموت.

وكان لدى قبيلة العجمان خمسة الاف فارس. وكانت هذه القبيلة قد ارتحلت في القرن الثامن عشر من منطقة نجران الى الشمال فازداد تعدادها وتقوت على ما يبدو. وفي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر قدمت الى سوح القتال في شرق الجزيرة آلافا عديدة من المحاربين.

ويقول مؤلف «لمع الشهاب» ان بني مرة او آل مرة الذين كانوا يقطنون اطراف

ادهشت هذا المؤرخ العربي فلم يجد بدا من القول إنهم كانوا قادرين على ان يقتاتوا بلبن الابل وحده ويشربوا الماء المالح تقريبا.

واخيرا نجد ٣٠ الف فارس عند بني خالد اسياد شرق الجزيرة في اواسط القرن الثامن عشر ومنافسي امارة الدرعية في عهد نهوضها.

ومما لا ريب فيه ان هذه الارقام تقريبية بعيدة عن الدقة. ولم يبد المؤرخ اهتماما بالقبائل غير الكريمة المحتد ولا المملوكين والمعتوقين والصناع الذين سنتحدث عنهم فيما بعد. الا ان تعداد القبائل يقدم لنا لوحة احصائية، وان افتراضية، لمجتمع البدو في الجزيرة العربية آنذاك (ماعدا اليمن وعمان). وقد بلغ العدد الاجمالي للخيالة البدو حوالى ٤٠٠ الف شخص، الامر الذي يشير الى ان عدد البدو الرحل في الجزيرة يكاد يكون ١,٢-١,٥ مليون شخص.

كانت العائلة هي اصغر خلية في القبيلة. وفي بعض الاحيان كانت مجموعة من ثلاث او اربع عوائل مترابطة بصلة القربى تمتلك «اموالا غير مجزأة بهذا القدر أو ذاك»[٢٨]. ولكن هذه الظاهرة كانت نادرة. فان حاجات حياة الترحل ورعاية الماشية ورعيها لم تكن تستدعي في ظروف الجزيرة توحيد جماعات كبيرة من الناس لاجل العمل المشترك.

وكانت عدة عوائل من ذوي القربى الحميمة او البعيدة، الذين يتذكرون او يعرفون جدا مشتركا لهم، تشكل جماعة قبلية صغيرة.

وكانت الجماعة القبلية الكبيرة تشمل عوائل متوحدة بصلة قربى متباعدة. واكثر اسماء تلك الجماعة انتشارا العشيرة. كان أفراد العشيرة مترابطين فيما بينهم بالتزامات وحقوق صارمة للتعاضد والمسؤولية المتبادلة. ويرأس العشيرة شيخ او قائد عسكري احيانا - عقيد. وكان للعشيرة كذلك عارف ومفسر لاصول العادات والاعراف. ولدى كل عشيرة اسمها الخاص وطمغتها وصيحتها في الحرب واحيانا مقبرة خاصة بها. ويمكن للعشيرة ان تقبل انتساب بعض الغرباء اليها.

وبعد ذلك ياتي الفخذ او البطن وهو مجموعة من العشائر المترابطة بعلاقات نسب مفتعلة او حقيقية وبتحالف سياسي او حربي.

والدرجة التالية من البنية الاجتماعية للبدو الرحل هي القبيلة التي لها اراضيها وبعض خصائص اللهجة في لغتها وسمات معينة لحياتها المعيشية وثقافتها ومعتقداتها، كما لها طمغتها وصيحتها. وكان ابناء القبيلة يعتبرون انفسهم اقرباء متحدرين من جد او سلف واحد. ويترأس القبيلة شيخ وفيها ايضا عقيد وعدد من العراف المتضلعين في معرفة العادات والتقاليد.

وكان تكتل القبائل يجري حسب صلة القربى وكذلك لاعتبارات سياسية. كما كانت العلاقات بين القبائل المترابطة بصلة القربى تضبط حسب العرف [٢٩].

وظلت الظواهر الفعلية الملازمة للمجتمع العشائري باقية داخل قبائل البدو الرحل. وفي مقدمتها ملكية القبيلة الجماعية للمراعي (الديرة). وكانت حدود الاراضي العائدة للقبيلة مرسومة بتنشين دقيق. ويقول فولني «ان كل قبيلة من هذه القبائل تستأثر بمنطقة معينة تصبح ملكا لها. وتختلف القبائل من هذه الناحية عن الشعوب الزراعية بأن اراضيها يجب ان تكون اوسع بكثير لكي تؤمن العلف للقطعان طوال العام. وتشكل كل من هذه القبائل مخيما او عدة مخيمات موزعة على المنطقة. وتستبدل مواقفها على الدوام في هذه المنطقة حالما تلتهم القطعان الكلأ حول المخيمات» [٣٠].

كان قسم كبير من الآبار واحواض المياه في السهوب ملكا لقبائل البدو. ويقول بور كهاردت «ان اغلبية الآبار في اعماق البادية وخصوصا في نجد ملك مطلق لقبيلة ما او لاشخاص حفر اجدادهم تلك الآبار... وعندما تنفد مياه الامطار في البادية تنصب القبيلة خيامها قرب بئرها ولا يسمح لأي بدو آخرين بارواء ابلهم هنا» [٣١].

ويمكن للقبائل والافخاذ والبطون ان تمتلك بصورة جماعية الاراضي المفلوحة في الواحات [٣٢]. وكان البدو يقدمون تلك الاراضي على سبيل الايجار الى الزنوج المعتوقين او الفلاحين العرب ويستلمون لقاء ذلك حصة من الغلة ويوزعونها على

العوائل[٣٣]. وكان قسم كبير من جياد الانسال ملكا عاما للقبيلة، ولكن الافراس تعتبر على الدوام ملكية خاصة لاصحابها[٣٤].

كانت لدى البدو الرحل عناصر كثيرة من التعاضد العشائري في الامور الاقتصادية، مثل جز الاغنام الذي يتم تقديم الطعام اثناءه. وكان ابناء القبيلة الواحدة يساعدون بعضهم بعضاً في المناسبات العائلية - الزفاف والختان واستقبال الضيوف.

واشتهرالبدو بكرم الضيافة. وكانوا يعتبرون الاستهانة بهذه العادات عيبا شنيعا. وكتب فولني يقول: «اذا لمس الغريب، وحتى العدو، خيمة البدوي يحصل على الحصانة الشخصية ان صح القول. وحتى اخذ الثأر المستحق يعتبر عارا لا يمحى اذا جرى على حساب حسن الضيافة. واذا وافق البدوي على اقتسام رغيف العيش مع الضيف فما من قوة في العالم ترغمه على خيانة ضيفه»[٣٥].

وتتسم بأهمية بالغة المعونة المادية التي يقدمها ابناء القبيلة لمن تهلك قطعانه بسبب الجفاف او الامراض ولمن يفقد امواله اثناء غزوات النهب. فالاموال المضيعة يعوض عنها بالماشية والنقود والادوات المنزلية او مستلزمات الخيام. والعوائل التي تصاب بكارثة تتلقى المعونة من اقاربها، بينما تتلقى القبيلة المتضررة المعونة من افرادها او من القبائل الاخرى المتحالفة معها. وكتب دوتي يقول: مهما كان الشخص الذي تنهب امواله فان ذلك يعتبر «مصيبة عامة للقبيلة كلها، ولا ينبغي ان يظل احد ممن فقد ماشيته فقيرا معوزا. والشيخ الحاكم يلزم جميع افراد القبيلة بان يعوضوا للمتضررين في غضون يوم او يومين عن كل الماشية التي فقدوها»[٣٦].

وتجدر الاشارة مع ذلك الى ان التعويض عن الخسائر بالشكل الكامل لم يكن ممكنا في اغلب الاحيان رغم متانة اواصر التضامن العشائري. فاذا فقدت القبيلة قسما كبيرا من قطعانها بعد هزيمة حربية ماحقة فان عادة التعويض عن الخسائر لن تعود سارية المفعول في الواقع. ويتعرض الفقراء في مثل هذه الاحوال للموت جوعا. ويحدث الشيء نفسه اثناء الجفاف الفظيع او انتشار الاوبئة. فالخسائر آنذاك تصيب بهذا القدر او ذاك كل افراد القبيلة، وفي تلك الحالة لا يعودون قادرين في

الغالب على نجدة الاكثر تضررا. ان عادة التعويض عن الخسائر لم تكن شيئا وهميا، ولكن اطرها مقيدة بالامكانيات الفعلية.

كانت العلاقات بين مختلف القبائل تضبط في المقام الاول بأهم عنصر في الاعراف القبلية وهو الثأر [٣٧]. ويقول فولني «ان مصالح الامان المشترك قد اوجدت عند العرب منذ القدم قانونا يتطلب غسل عار مقتل اي شخص بالثأر له من القاتل. ويأخذ الثأر اقرب اقرباء القتيل، لأن شرفه قد تلوث في انظار سائر الاعراب لدرجة لا يمكن معها ان يستهين بواجب الثأر، والا سيبقى شرفه ملوثا الى ابد الآبدين. لذا ينتهز الفرصة السانحة ليثأر للقتيل. واذا مات عدوه لسبب آخر يبقى غير راض اطلاقا ويأخذ ثأره من اقرب اقرباء القاتل. وتنتقل هذه الاحقاد بالوراثة من الاب الى ابنائه ولا تختفي الا باختفاء احد الفخذين اذا لم تتفق العائلتان على تسليم المذنب او دفع تعويض بالنقود او الماشية»[٣٨].

وكان الثأر عند البدو يشمل عادة الاقارب من خامس ظهر. وفي الغالب تترك كل الجماعة التي يشملها الثأر قبيلتها وتبحث عن ملجأ وحماية عند شيخ قوي لقبيلة اخرى. وبعد ذلك تحاول تلك الجماعة البحث عن وسيلة الاتفاق بشأن دفع التعويض. واذا كان القتيل من غير الوجهاء فإن اقرباءه يوافقون على التعويض.ومقادير التعويض تختلف باختلاف المناطق والقبائل، ولكنها مقادير كبيرة. ويشارك جميع اقارب القاتل في تسديد التعويض. اما الشيوخ فلا يقبلون الا بالقتل ثأرا للقتيل[٣٩].

وتشارك القبيلة كلها في دفع التعويض لاطلاق سراح ابنائها من الاسر [٤٠]. وكان البدو الاثرياء يساعدون الفقراء عند الاقتضاء. كما كانوا يقدمون الى اقربائهم الفقراء هدايا من اطعمة وألبسة وماشية. وبهذه الصورة يحصلون على شعبية. وكان من العيب على ابناء الوجهاء ان يتهموا بالبخل، في حين يعتبر السخاء اسمى فضيلة [٤١].

ولم يكن البدو يعرفون الضرائب المنتظمة. وكانوا يعتبرون «دفع الضرائب

اهانة»[٤٢]. وان انعدام الضرائب داخل القبيلة من اهم الادلة على متانة العلاقات العشائرية.

ومع ذلك فحتى المراقبون المعجبون بتضامن البدو الرحل وتعاضدهم قد عثروا في القبائل على ظواهر بعيدة عن المثاليات العشائرية.

عناصر التفاوت داخل القبائل البدوية. في اواخر عام ١٧٨٤ عندما زار فولني شيخ قبيلة كانت تترحل في منطقة غزة، رأى ان مقارنة رفاه ممثل الوجهاء العشائريين هذا، على الرغم من انه لا يعتبر غنيا بالمقاييس الاوروبية، مع حالة البدوي العادي تكشف عن امور كثيرة.

«كانوا يعتبرون الشيخ اغنى الجميع في المنطقة. ولكنه خيل الى ان نفقاته لا تزيد على نفقات تاجر عادي ثري. وامواله المنقولة المكونة من الالبسة والبسط والسلاح والخيول والابل لا تتجاوز ٥٠ الف ليرة. وتجدر الاشارة الى ان ذلك يشمل اربع افراس اصيلة بستة آلاف ليرة... ولذا فاذا تحدثنا عن البدو لا ينبغي لنا ان نضمن الكلمات مفاهيمنا المعتادة لمصطلح «السيد». ان الشيخ الذي يقود مفرزة من ٥٠ خيالا لا يستنكف من اسراج حصانه بنفسه ومن تقديم الشعير والقش له. وفي بيت الشعر تعد زوجته القهوة وتعجن العجين بنفسها وتطبخ اللحم. وتغسل بناته وقريباته البياضات ويتوجهن محجبات الى البئر لاحضار الماء بأباريق يحملنها على رؤوسهن. وهذه اللوحة تشبه بالضبط ما وصفه هوميروس او «كتاب الوجود» في قصة ابراهيم الخليل...

ان بساطة البدو او فقرهم، ان صح القول، من بساطة ظروف حياة شيوخهم. فان ملكية العائلة كلها تتكون من اموال اوردها هنا بالشكل الكامل تقريبا: عدد من الجمال والنوق والماعز وبضع دجاجات، وفرس مع عدتها وبيت شعر ورمح طوله ١٣ قدما وسيف منحن وبندقية صدئة، وغليون ورحى وابريق ودلو جلدي ومقلاة لتحميص البن وحصير وبعض الالبسة وعباءة صوفية سوداء واخيرا، وبدلا من كل الحلى الثمينة، عدة اساور وخلاخيل زجاجية او فضية ترتديها المرأة في قدميها او معصميها. واذا كان ذلك كله متوفرا فان العائلة تعتبر غنية»[٤٣].

ان اوصاف فولني هذه تصطبغ بالصبغة السياسية اكثر من الاثنوغرافية . ومع ان هذا الرحالة يضفي طابعا مثاليا على بساطة حياة الشيخ البدوي، فان الفارق في الحالة المالية للشيخ كبير جدا اذا ما قارناه ببدوي يمتلك حصانا. اما البدو الفقراء فكانوا يعيشون في ضنك اكبر بكثير.

ويقول فولني: «لاحظت ان الشيوخ، اي الاثرياء، وخدمهم، على العموم اطول قامة واكثر اكتنازا من سائر ابناء القبائل... ولا يفسر ذلك الا بطعامهم الاوفر مما لدى باقي الناس. ويمكن القول ان البدوي البسيط يعيش دوما في عز ويعاني من الجوع طوال الوقت... ان طعام اليوم الواحد للسواد الاعظم منهم لا يتجاوز ست اوقيات. وفي قبائل نجد والحجاز يصل الاعتدال في الطعام الى حده الاقصى. فان وجبة البدوي لليوم الواحد تتكون من ست ثمرات او سبع منقعة في سمن ذائبة وقليل من اللبن الطازج او المخمر. والبدوي يعتبر نفسه سعيدا اذا استطاع ان يضيف الى ذلك حفنة من الدقيق الخشن او قليلا من الارز. والبدو لا يأكلون اللحم الا في اكبر الاعياد. ففي حفلات الزفاف او المآتم ينحرون معزة صغيرة. ولا ينحر صغار الابل وياكل الأرز مع اللحم الا الشيوخ الاثرياء وقادة العساكر»[٤٤].

وقد تجلى التفاوت في الاموال لدى قبائل البدو الرحل بشكل ملحوظ خصوصا في ملكية الماشية. فلئن كان الواحد من فقراء قبيلة عنزة لا يكاد يمتلك في مطلع القرن التاسع عشر ١٠ جمال، فان قطعان البدو الاغنى كانت تضم زهاء ٥٠ جملا، في حين ان عائلة الشيخ تمتلك عدة مئات من الابل [٤٥]. وكان الشيوخ الاكثر قوة وثراء يمتلكون عدة آلاف من الابل.

ان وجهاء القبائل الذين يضبطون الترحال الموسمي ويشاركون في توزيع المراعي صاروا يكتسبون حقوق الاسبقية للتصرف بالاراضي مع ان تعسفهم كان مقيدا بالعادات العشائرية. لقد كانت القطعان التابعة للشيوخ تحصل على المراعي الافضل. وكان هناك منذ القدم حمى لهذه القطعان، وغدا قسم من موارد المياه ملكا لوجهاء البدو الرحل.

ومن نظام التعاضد القبلي ظهر استغلال البدو اثناء تسليمهم الماشية لأجل

رعيها. في بادئ الامر كان تسليم الماشية يبدو بمثابة سلفة مؤقتة عبارة عن عدد من رؤوس الماشية تقدم الى ابن القبيلة الذي اصابه الاملاق[٤٦]. وقد انتشرت هذه الظاهرة عند بدو الجزيرة ومكنت كبار ملاك الماشية من صيانة قطعانهم ومضاعفتها.

والدرجة التالية في الاستغلال هي تسليم الماشية على سبيل المحاصة الى الفقراء المعدمين وغير المعدمين، حيث يستلم الملاك جزءا من النسل والمحاصيل الحيوانية[٤٧].

وكان تسليم الاغنام لأجل الرعي اكثر انتشارا. مثلاً فان رعاة الابل لم يكن بوسعهم ان يأخذوا معهم الماشية الصغيرة اثناء الترحال الطويل الامد. لذا كانوا يتركون الاغنام عند رعاة الغنم من ابناء الافخاذ الاخرى او القبائل الغريبة بغية رعيها. وفي هذه الحالة كان الاستغلال اكثر وضوحا وغير مموه بالاشكال العشائرية. واذا لم تتمكن عوائل الوجهاء من رعاية قطعان ابلها فهي تستخدم الرقيق او ابناء القبائل الاخرى. ونادرا ما تستخدم ابناء قبيلتها.

وتحولت الاتاوات الخاصة بالصرف على كرم الضيافة الى واحد من اساليب استغلال البدو من قبل الوجهاء. وقال بور كهاردت: «عندما يأتي الضيوف ويتعين نحر كبش من اجلهم فان الاعراب يحضرون هذا الكبش عاة الى خيمة الشيخ. وفي بعض القبائل لا يسمح الاعراب بان ينحر شيخهم كبشه، ولذا يزودون خيمته باللحوم حسب الدور»[٤٨]. ولما كان الشيخ «مضطرا الى استقبال الضيوف كان يأخذ جملا او خروفا من هذا او ذاك، وكان الناس يقدمونهما له بطيبة خاطر، وذلك لأنهم لا يندر ان يأكلوا لحمهما عنده بعد الضيوف». بهذه الصورة اوضحوا للرحالة موسيل طبيعة هذه الاتاوات حتى في مطلع القرن العشرين [٤٩].

وكانت القبيلة تساعد الشيخ في اقتناء حصان. وعندما يتناقص قطيعه بسبب غزوات النهب يحاول ابناء القبيلة التعويض عن كل خسائره. وفي الحالات المماثلة لا يعوضون للبدوي العادي الا عن جزء من خسائره كما يقول بور كهاردت[٥٠].

وكان الشيوخ والعراف في القبائل يستلمون مكافأة على الفصل في النزاعات القضائية.

وفي بعض الاحيان يقع البدو البسطاء في تبعية شخصية بقدر ما للوجهاء. وساعد على ذلك نظام التجاء البدو الى شيخ قوي من قبيلتهم او من غير قبيلتهم (الدخلة) من اجل حمايتهم. وكانت تلتف حول هذا الشيخ «عوائل صغيرة لا تقوى بالقدر الكافي على الحياة المستقلة، بل هي بحاجة الى الحماية والتحالف» (٥١).

وكانت الوصاية من اشكال التبعية الاكثر تطورا. فالفقراء في هذه الحالة ينشدون حماية الشيخ لقاء مدفوعات معينة. وانتشر على نطاق واسع لجوء جماعات بكاملها الى وصاية الشيوخ طلبا للحماية. فالاشخاص الذين يخشون الثأر من جانب اهل القتيل يسعون الى الحصول على حماية الوجهاء من قبيلة اخرى. وعلى البدو ان يتحملوا مقابل ذلك بعض الواجبات، ومنها واجبات اقتصادية. وان الحرية الشخصية لمثل هؤلاء الناس تكون مقيدة بعض الشيء(٥٢).

ويدل على ضعف الاواصر العشائرية كذلك واقع ان المدين داخل القبيلة ملزم بان يسدد الدين بنفسه الى الدائن، ولا احد يساعده في ذلك، خلافا لممارسة التعاضد وتسديد الدين لدائن غريب.

ويتبادر الى الذهن سؤال: هل وصل تحلل الاواصر العشائرية داخل قبائل البدو الى درجة تجعلها تتحول الى علاقات طبقية اذا استخدمنا المصطلح الماركسي المعهود؟ ان تحليل طابع ملكية اراضي المراعي والآبار يساعدنا في الجواب على هذا السؤال.

كتب كارل ماركس يقول: «ان الملكية العقارية تفترض احتكار اشخاص معينين لتصرف بقطع معينة من الاراضي بوصفها ميادين استثنائية لارادتهم الشخصية خاضعة لهم وحدهم»(٥٣). فهل كان شيخ قبيلة ما او جماعة من الوجهاء يتمتعان بحق التصرف بالمراعي «بوصفها ميادين استثنائية لارادتهما الشخصية خاضعة لهما وحدهما» مع ان اشكال الملكية في القرون الوسطى لم تكن ناجزة لا جدال فيها؟ وهل يمكن، والحال هذه، الكلام عن ملكية شيخ ما او جماعة من الوجهاء لقطع من

اراضي المراعي؟ وهل يعني ذلك انهما، مثلا، يتمكنان من بيع مراعي القبيلة للغرباء؟ او تأجيرها والاستئثار بكل عائداتها؟ وهل يستبدلاها بأخرى، في الواحة مثلا؟ والامر الاهم هو هل يستطيعان ان يحرما ابناء قبيلتهما من حق الانتفاع بالمراعي؟ في ظروف الجزيرة العربية قبل القرن العشرين لم تكن هذه التصرفات ممكنة، او انها كانت تمثل حالات استثنائية نادرة وغير معروفة لدينا. كان حق الشيوخ والوجهاء في التصرف بالمراعي مقيدا، على الاقل، بانتمائهم الى قبيلتهم، اي انهم كانوا ينتفعون بالاراضي المشاعية بسبب كونهم من ابناء تلك القبيلة، وان كانوا وجهاء واثرياء يتمتعون بالامتيازات. وهذا طبعا يقيد حقهم في التصرف بالاراضي ويقيد امكانيات الطريقة الاقطاعية في تسيير الاقتصاد، كما يقلل من الاستغلال الاقطاعي داخل القبيلة (٥٤).

وفي بعض القبائل المترحلة المنفردة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يمكن ملاحظة مجرد اتجاه نحو العلاقات الاقطاعية، وليس شيوع تلك العلاقات. فان تصفية الملكية المشاعية القبلية للمراعي في العربية السعودية لم تنجز ولم تكتمل حتى الآن.

وتدل وقائع كثيرة على ان العائدات التي يستلمها الوجهاء في قبيلتهم لم تكن كبيرة، وفي بعض الاحيان لا تسد النفقات المرتبطة بتقاليد التضامن والتعاضد العشائريين. وانتشرت عند قبائل البدو، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على اي حال، العلاقات العشائرية المستندة الى الملكية المشاعية للمراعي ومنابع المياه والى اواصر القربى المتينة والى تقاليد التعاضد والتضامن. ان عملية تشديد استغلال البدو البسطاء من قبل الوجهاء، وهو الاستغلال المستند الى التفاوت في الاموال، كانت جارية ولكنها لم تبلغ بعد مرحلة شق قبائل البدو الرحل وتقسيمها الى طبقات.

ونعتقد ان أسباب ذلك تكمن في صفوف القوى المنتجة البدوية وشحّة المنتوج الفائض، وكذلك في استقرار الأحوال النفسية الاجتماعية للبدو والأحرار. وما كان بوسع وجهاء البدو ان يشددوا استغلال ابناء قبائلهم اكثر من الحد الادنى المعين.

ان بقاء فئة كبيرة بل وغالبة من البدو «المتوسطين» او الفقراء الذين يمارسون شؤونا اقتصادية مستقلة في قبائل البدو لهو دليل قاطع على عدم وجود العلاقات الاستغلالية الناجزة هنا. ولا يذكر الرحالة الاوروبيون شيئا عن بدو تعرضوا للاستغلال داخل القبائل المترحلة. ويفترض ذلك ان اغلبية البدو تمتلك ماشية خاصة بها وترعاها في المراعي العامة.

ولكننا، عندما نقيم طابع العلاقات الاجتماعية عند قبائل البدو الرحل، لا يجدر بنا ان نتناولها بمعزل عن مجتمع الجزيرة عموما، وذلك لأن مثل هذا الاسلوب يشوه اللوحة الفعلية. لان سكان الجزيرة العربية البدو الرحل وشبه الرحل والحضر كانوا يمثلون كيانا اجتماعيا مترابطا واحدا. وان دراسة العلاقات المتبادلة بين مختلف جماعات السكان في الجزيرة العربية، ودراسة الكثير من السمات الخاصة بالحياة في الجزيرة انما تتميز بأهمية خاصة وتقدم تحليلا للقبيلة البدوية وللمجتمع كله.

الغزوات. كان البدو، في ظل انعدام السلطة المركزية القوية،يقومون بالغزوات دوما. وكانت الماشية في الغالب عرضة للنهب، ويشمل النهب ادوات بيوت الشعر والاسلحة والالبسة والعبيد. وكانت سلع التجار تسلب منهم، كا تسلب من الحضر مختلف المحاصيل والادوات الزراعية. وكان هناك فارق بين الغزوات وبين الحرب الحقيقية بسبب المراعي والآبار. الا ان هذين النوعين من العمليات الحربية كانا متشابكين دوما.

كتب بور كهاردت يقول: «ان القبائل العربية في حالة حرب دائمة تقريبا فيما بينها، ونادرا ما يحدث ان تتمتع قبيلة ما بلحظة من السلام المشترك مع سائر جيرانها. الا ان الحرب بين قبيلتين نادرا ما تستمر طويلا، فالصلح يعقد بسهولة، ولكنه يخرق لاتفه الاسباب. وان اسلوب خوض الحرب هو اسلوب الانصار، فالمعارك الشاملة نادرة. والهدف الرئيسي لكلا الطرفين المتحاربين هو مباغتة العدو بهجوم غير متوقع ونهب مخيمه. لذا فان حروبهم عادة لا تراق فيها الدماء. ويهاجمون العدو، بقوات متفوقة عدديا فيتنازل لهم دون قتال. ثم ان عواقب الثأر الفظيعة تدرأ الكثير من النزاعات الدموية»(٥٥).

وكتب فولني عن غزوات البدو يقول: «لما كان الاعرابي نهابا اكثر مما هو محارب فهو لا يسعى الى اراقة الدماء. انه يهاجم فقط من اجل النهب والسلب، واذا قوبل بمقاومة فهو يعتقد بان الغنيمة الزهيدة لا تستحق المجازفة بحياته. وبغية اثارة غضبه لا بد من محاولة اراقة دمه، وعند ذاك يكون مصرا على الثأر والانتقام بقدر ما كان حذرا يتحاشى المخاطر. غالبا ما يلومون الاعراب على ميلهم الى النهب والسلب، ولكن اللائمين الذين لا يريدون تبرير هذا الميل لم يلتفتوا بالقدر الكافي الى ان الميل الى النهب والسلب موجه ضد الغريب الذي يعتبره الاعراب عدوا، ولذا يستند هذا الميل الى اعراف اغلبية الشعوب»(٥٦).

كان الغزو يعتبر عملا نبيلا جدا، وكانت الرغبة في النهب تثير دوما حماس البدو، وكانت المشاركة في الغزوات طوعية، ولكن المحاربين في الواقع، وخصوصا الشبان، ما كان بوسعهم رفضها. فالامتناع عنها ينطوي على خطر الاتهام بالجبن وتضييع الاحترام لدى الاقارب وابناء القبيلة. وكتب نيبور: «يقال ان الفتى لا يستطيع ان يتزوج ما لم يجترح عدة مآثر». وكانت اسماء ابرز المشاركين في الغزوات تتناقلها الالسن ويتغنى بها الشعراء. وحتى في القرن العشرين يعدد المؤلفون اسماء الابطال الاماجد في الفروسية البدوية.

وبنتيجة الغزوات يستطيع البدوي الفقير بعد غارة موفقة واحدة ان يصلح احواله المالية بل ويمكن ان يغدو موسرا. ومما لا شك فيه ان الغزوات كانت واحدا من اسباب بقاء فئة البدو الرحل المستقلين.

وكانت الغزوات مصدرا لاثرياء وجهاء القبائل. فاليهم يرد اكبر جزء من الغنائم وافضلها(٥٨). ويتزعم الغزوات الشيوخ او العقداء. و«تفرد» للشيخ حصة حتى ولو لم يشارك في الغزوات. وليس من قبيل الصدفة ان غنائم الغزوات تعتبر من اهم مداخيل وجهاء البدو.

بديهي ان السلب والنهب المتواصلين في الجزيرة العربية قد الحقا ضررا

بالاقتصاد والقوى المنتجة. ويصادف ان الغزوات لا تمر دون اراقة دماء، بل وتؤدي الى حروب ابادة قاسية. وبنتيجة المداهمات يمكن ان تهلك او تنقرض افخاذ وقبائل عن بكرة ابيها. ويقول فولني «في بعض الاحيان ترتقي قبيلة ضعيفة، وينتشر نفوذها، بينما يصيب الركود، وحتى الابادة، قبيلة اخرى كانت قوية فيما سبق»[٥٩]. ولاحظ جوسان مثل هذه الظاهرة بعد اكثر من مائة عام: «يمكن للقبيلة ان تختفي من البلاد بأساليب عديدة، وفي مقدمتها بالنزوح بسبب النزاعات الكبيرة أو المجاعة المتواصلة في المنطقة... والسبب الآخر الاكثر انتشارا لابادة هذه القبائل يكمن في الحروب والغزوات الدائمة. فيكفي يوم منحوس واحد لابادة قبيلة بكاملها: الرجال جثث في ساحة القتال والنساء يتوزعن على القبائل المجاورة او...يهلكن من الجوع»[٦٠]. ويمكن ان تنهار القبائل القوية فيما مضى، وتفقد ابناءها وماشيتها ومراعيها وتخضع لقبائل اخرى وتندمج معها احيانا.

ولكن هل هناك سنة معينة في انتصارات وهزائم القبائل؟

كانت القوات المقاتلة لمختلف القبائل والافخاذ غالبا ما تتوقف على طابع اعمالها الاقتصادية، وليس فقط على بسالة المقاتلين وموهبة القائد وشجاعته. وإن رعاة الابل بالذات، اي البدو الرحل الحقيقيين، هم الذين كانوا يمتلكون اكبر قدرة حربية. فالابل تمكنهم من التنقل بسرعة ولمسافات طويلة في البوادي الخالية من المياه، وتحشيد القوات وتسديد الضربات المباغتة، والتخلص، عند الاقتضاء، من الملاحقة واللجوء الى البادية التي لا يطالها العدو. وكان رعاة الابل قد قاموا باكثر الغزوات توفيقا وغالبا ما كانوا يخرجون من المعارك الكبرى ظافرين، ولا احد ينافسهم الا امثالهم من رعاة الابل. ان القبائل والافخاذ من رعاة الابل هي بالذات الرابحة في الميزان العام للخسائر والغنائم بعد الغزوات، اما رعاة الغنم شبه الرحل فكانوا الخاسرين. وفي سوح القتال المكشوفة كان الحضر ايضا يهابون البدو الحقيقيين في الغالب. فان سلامة روابطهم التجارية وماشيتهم التي ترعى في السهوب او أشباه البوادي، وسلامة مزارعهم وبساتين نخيلهم غير المحمية بأسوار كانت تتوقف على العلاقات المتبادلة مع البدو.

وكانت قبائل البدو القوية من رعاة الابل تفرض الاتاوات على القبائل الاضعف، وخصوصا رعاة الغنم والحضر. وكانت الغزوات واحدة من طرق الاكراه وتبعية الجزية والخراج واحيانا تبعية الخدم والحشم.

الخوة او الخاوة. كانت الخوة التي يدفعها السكان الحضر وشبه الرحل الى البدو ترتدي منذ القدم لبوساً عشائرياً وكأنها مكافأة على الحماية والوصاية. ولذلك اشتق اسمها من لفظ الاخوة. كتب بور كهاردت يقول: «تدفع الخوة عادة الى الشيخ او احد ابناء القبيلة الذين يتمتعون باحترام كبير. وحالما تتفق الجماعة مع اعرابي ما بشأن الخوة يطالب هذا الاخير فورا بجزء من المبلغ السنوي المتفق عليه. ويشتري به بعض الاحتياطيات ويتقاسمها مع اصدقائه لكي يكونوا، بعد تناول جزء من الخوة، شهود عيان على الاتفاق»[٦١].

ويقول فالين ان الخوة تدفع ليس فقط الى حامي دافعيها «شيخ المشايخ، بل كذلك الى كل شخص متنفذ في مختلف الافخاذ»[٦٢]. ويستقر قسم كبير من الخوة في جيوب وجهاء القبيلة، ومع ذلك فان حصة منها تبقى عند ابناء القبيلة البسطاء. وكان الحضر والبدو شبه الرحل يدفعون الخوة الى عدة قبائل بدوية في وقت معا، علما أن هذه القبائل تجمع الخوة بدورها من مختلف الواحات وقبائل رعاة الغنم[٦٣]. وفي بعض الاحيان يقوم البدو شبه الرحل الذين يدفعون الخوة لمن هو اقوى منهم بجباية الجزية من القبائل او الواحات الاضعف.

وخلق ذلك كله اشكالا معقدة من التبعية ولكن جوهر القضية لم يتغير، وهو ابتزاز قسم كبير من المنتوج الفائض، واحيانا قسم من المنتوج الضروري، من الحضر والبدو شبه الرحل الى البدو الاكثر جبروتا. وكانت الخوة مصدرا لعائدات كبيرة على وجهاء البدو الرحل وسائر البدو. وكانت قبائل البدو تتنازع على حق جباية الخوة. واثناء تلك المنازعات يهلك دافعو الخوة ايضا. ولم يكن بالامكان التخلص من نير جباة الخوة الا بالمقاومة المسلحة.

وتتحول علاقات الخوة احيانا الى علاقات تبعية الخدم والحشم، وعند ذاك

تشارك القبائل الخاضعة في الغزوات الحربية لأسيادها، اي انها تدفع جزية الدم. ويقدم الشيخ التابع آيات التكريم الظاهري للشيخ المتبوع. وكانت تبعية بعض القبائل قد بلغت حدا جعل ديكسون، مثلا، ينعت قبيلة الرشايدة «بالاقنان» لقبيلة مطير، وينعت قبيلة العوازم «بالخدم» لقبيلة العجمان[٦٤]. صحيح ان هذا القول يخص القرن العشرين، ولكن مثل هذه العلاقات كانت، على ما يبدو، موجودة في السابق ايضا.

وكان البدو قد فرضوا رسوما على قوافل التجار والحجاج واطلقوا عليها كذلك اسم «الخوة»[٦٥]. واستخدم ابن بشر للدلالة على هذه الرسوم كلمة من نفس الأصل «خاوى» وقد وردت عند ابن خلدون ايضا. وجمع ثروة كبيرة خصوصا وجهاء القبائل المسيطرة على طرق الحج.

وكان الباب العالي يدفع الى البدو مبالغ كبيرة لقاء مرور قوافل الحجاج العثمانيين الى مكة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقدر بور كهاردت تلك المبالغ في بداية القرن التاسع عشر بـ ٥٠-٦٠ الف جنيه استرليني سنويا[٦٦]. وفي عام ١٧٥٦ تلكأ والي دمشق العثماني في دفع النقود واعدم شيوخ البدو الذين جاؤوا لاستلام المبالغ المقررة، ولكن قبائل البدو توحدت بعد عامين وسحقت حرس الحجاج ونهبت القافلة وارغمت السلطات العثمانية من جديد على دفع هذه الضريبة[٦٧].

وكان وجهاء البدو يستلمون كذلك مدفوعات تحددها الاعراف لقاء «حماية» الصناع والباعة المتجولين[٦٨].

القبائل «الوضيعة». العبيد والمعتوقون. ومن بين دافعي الجزية لقبائل البدو القوية كذلك من يسمون بالقبائل الوضعية في الجزيرة العربية: الصلبة وهتيم والشرارات وفروعها. فبنتيجة التطور التاريخي الخاص غدت هذه القبائل مجزأة الى عدة افخاذ هائمة في شبه الجزيرة كلها بشكل جماعات غير كبيرة وليس لها ارض خاصة بها، الامر الذي كان سببا في ضعفها. وكان اغلبها يترحل في اراضي

الغير مع اصحاب تلك الاراضي. وكتب بور كهاردت يقول: «بين القبائل الكثيرة جدا التي تقطن بوادي الجزيرة لا توجد قبيلة اكثر تشتتا وتواجداً في جميع ارجاء هذا البلد من قبيلة هتيم. فيمكن للمرء ان يصادف خيام هذه القبيلة في سوريا وفي صعيد مصر والدلتا ونجد وبلاد الرافدين... وفي كل مكان تقريبا نجدها مضطرة الى دفع الاتاوات للقبائل المجاورة لقاء رعي الماشية»[٦٩].

وكانت واسطة النقل الرئيسية عند الصلبة هي الحمير وليس الابل. ولم يكن الرعي عادة بقادر على اطعام هذه القبيلة، ولذا اضطرت الى ممارسة نشاط يعتبر مهينا في مجتمع الجزيرة، مثل بعض الصنائع. وصار البعض موسيقيين محترفين وراقصين ومطببين. وخدموا عند الوجهاء في هذه المهن[٧٠]. وكانوا يتكهنون باحتمالات الطقس ويشيرون الى مواقع المراعي الافضل ويتلقون الهبات في مقابل ذلك [٧١].

وغدا افراد القبائل «الوضيعة» مادة للاستغلال والابتزاز بلا رحمة من قبل البدو الأقوياء. واورد دوتي مثالا فقال: «وصل عدد من ابناء عنزة الى الواحة وهم يقتادون في الدرب شخصا عاريا يثير الشفقة والحبل في عنقه. كان ذلك من ابناء هتيم. وكان البدو يصرخون كالمسعورين متهمين اياه بتأخير تسديد الخوة وقدرها عشرة ريالات. اقتادوه لكي يروا ما اذا كان هناك شخص في خيبر يدفع الخوة بدلا عنه كما وعدهم، واذا لم يجدوا ذلك الشخص فسيسحبون هذا المسكين الى خارج المدينة ويقتلونه»[٧٢]. ان هذه الواقعة وحدها تبين مدى الهوة العميقة التي تفصل بين البدو الاحرار وبين افراد القبائل «الوضيعة»، ومدى قساوة اشكال استغلال بعضهم للبعض الآخر.

وقد ظلت العبودية (الرقيق) في الجزيرة العربية قائمة طوال قرون[٧٣]. وكان العبيد ينقلون الى شبه الجزيرة في الغالب من شرق ووسط افريقيا. كانت هناك حملات خاصة لتجارة العبيد تستولي عليهم او تشتريهم خصيصا، كما ان بعض الحجاج كانوا يبيعونهم بغية تغطية نفقاتهم على زيارة الحرمين. كانت تجارة العبيد متركزة في مكة على الاغلب، ولكنها كانت تجري ايضا في مدن اخرى، مثل الهفوف

ومسقط. ويبدو ان عدة آلاف من العبيد كانت ترد الى الجزيرة سنويا. وفي حالات استثنائية كان الاعراب يتحولون الى عبيد.

كان اكبر عدد من العبيد متواجدا في مركز تجارة العبيد - الحجاز، حيث كانت كل اسرة مستقلة بهذا القدر او ذاك تسعى الى شراء الرقيق. اما خارج الحجاز فقد كانت العوائل الغنية فقط هي التي تمتلك عبيدا. كتب بلغريف: «صادفنا احيانا في الجزيرة العربية زنوجا، في الجوف وجبل شمر والقصيم وسدير. ولكننا رأيناهم فقط يؤدون ادوار العبيد، ونادرا ما صادفناهم في منازل غير منازل اكثر الناس ثروة»[٧٤]. ويقول الرحالة ان عدد الزنوج والمولدين في جنوب نجد كان في ازدياد، وكانوا في بعض الواحات يشكلون اغلبية السكان. «في الرياض كثير من الزنوج، وعددهم اكثر في منفوحة والسلمية وغالبا ما نصادفهم في الخرج ووادي الدواسر واطرافهما»[٧٥].

وكان وجهاء البدو يمتلكون العبيد ايضا. كتب بور كهاردت عن عنزة يقول: «كل شيخ قوي يقتني سنويا خمسة عبيد او ستة وعددا من الاماء...»[٧٦]. وكانت الحال كذلك في القبائل البدوية الاخرى.

كان العبيد يؤدون اصعب واقذر الاعمال. كانوا في القبائل المترحلة يرعون الماشية وينقلون الماء وينصبون الخيام ويرفعونها ويجمعون الاحطاب والوقود. وكان عمل العبيد يستخدم كذلك في الزراعة والصنائع، ولكن بقدر محدود جداً... ولكن الميدان الاساسي لاستخدامه هو الشؤون المنزلية حيث يؤدي العبيد واجبات الخدم والحراس ومدبري المنزل.

وتجدر الاشارة الى بعض الخصائص الجوهرية لاوضاع العبيد في الجزيرة العربية.فالعبودية هنا كانت تتميز بطابع عشائري. وهذا هو السبب في المعاملة الطيبة نسبيا للعبيد. فالعبيد وخصوصا المولدون كأنما يغدون افرادا غير كاملي الحقوق في عائلة سيدهم. وفي بعض الاحيان يغدون ورثة لاملاك سيدهم. وكانت الاماء، عند وجهاء المدن خصوصا، تستخدم كجوار ويغدو ابناؤهن احرارا عادة،

ويصبحن هن حرائر بعد وفاة اسيادهن. كان العبيد محرومين ومهانين من الناحية الاجتماعية، ولكنهم من الناحية الاقتصادية يعيشون أفضل من البدو الرحل او الفلاحين شبه الجياع. فقد كانوا يتمتعون بقسم من عائدت الوجهاء.

وكان كثيرون من العبيد في الجزيرة قد حصلوا على الحرية واصبحوا معتوقين ولكنهم ظلوا يسمون بالعبيد ايضا. ولم يكن ذلك يشمل الجواري وابناءهن فقط. ان عدد العبيد «المورثين» لم يكن كبيرا في الجزيرة العربية.

كانت عملية عتق العبيد في القبائل البدوية اشد مما عند الحضر. فبعد مضي فترة معينة كان البدو دوما يمنحون الحرية للعبيد ويزوجونهم من نساء من بشرتهم. وقال بور كهاردت: «ابناء عنزة لا يعاشرون الاماء ابدا، ولكنهم بعد بضع سنوات من الخدمة يمنحونهن الحرية ويزوجونهن من العبيد او ابناء العبيد المتبقين في القبيلة»[٧٧]. وكان المعتوقون يمارسون البيع والشراء والصنائع ويعملون خدما في منازل الاثرياء.

كان تحرير العبيد في ظروف الجزيرة العربية يتسم كذلك بمغزى آخر. فان احد شيوخ عنزة مثلا «يمتلك اكثر من خمسين عائلة من اناس كانوا في زمن ما عبيدا له، وهم مدينون لسخاء هذا الشيخ بكل ما يملكون. ولا يحق له الآن ان يستحصل منهم الجزية السنوية، لأنهم صاروا يعتبرون من الاعراب الاحرار، ولكنه يزوج بناتهم من عبيده الجدد ومن المعتوقين، وعندما يستولي ذوو البشرة السوداء هؤلاء على غنائم كبيرة اثناء الحروب بوسع الشيخ ان يأخذ منهم ناقة جيدة، وهم لا يرفضون ذلك ابدا»[٧٨]. وقد توحد بعض المعتوقين حسب السمة القبلية السكانية، الا ان منزلة هذه القبائل الجديدة اوطأ من منزلة قبائل الاعراب الاقحاح. وكان المعتوقون في تبعية مالية وشخصية لوجهاء البدو.

كان السواد الاعظم من المعتوقين يمارس الزراعة. كانوا محرومين من الاراضي، ولذلك صاروا يستأجرونها بالمحاصة من وجهاء الحضر والبدو في الغالب (وأحيانا من قبائل البدو الرحل بكاملها). وكان المستأجرون المعتوقون

يتعرضون لاستغلال بشع.يقول فالين: «انهم نادرا ما يبلغون الثروة والرفاه»[٧٩]. وظلت باقية كذلك تبعية المستأجرين المعتوقين الشخصية بقدر كبير لمالكي العبيد السابقين. وبالاضافة الى ذلك كان على المعتوق، في عدة حالات، ان يعيد الى سيده، قبل مغادرته، الاموال التي استلمها اثناء التحرير[٨٠]، الامر الذي لم يكن ممكنا على الدوام. وكان المستأجرون المعتوقون يرتبطون بالارض بقدر ما، فضلا عن الريع الاقطاعي الذي يسددونه. ولذلك فان احوالهم اقرب الى احوال الاقنان مما هي الى سائر فئات سكان الجزيرة.

كان استغلالهم من قبل وجهاء الحضر نوعا خاصا من الاستغلال الاقطاعي للاعراب الحاصين. وكانت عائدات الاراضي التي يفلحها المعتوقون واحدا من اهم مصادر الدخل الخارجية (خارج القبيلة) لوجهاء البدو.

تنظيم السلطة وطابعها في القبائل البدوية. اذا كانت تسود بين الوجهاء وبسطاء البدو داخل القبيلة المترحلة علاقات لم تصبح طبقية بعد، فان وجهاء البدو خارج القبيلة صاروا استغلاليين طبقيين. فهم يستلمون حصة الاسد من المداخيل بشكل جزء من غنائم الغزوات وخوة وجزية من الحضر واشباه البدو والقبائل «الوضيعة» والصناع والباعة والحجاج وريع اقطاعي من الاراضي السيحية المقدمة على سبيل الايجار[٨١]. كان وجهاء البدو، كما اسلفنا، يستلمون من ابناء قبائلهم قسما ضئيلا من المنتوج الفائض لعملهم. الا ان الزراعة امنت انتاجية اعلى وساعدت على استغلال الفلاحين بقدر اكبر. زد على ذلك ان الوجهاء كانوا يسمحون لانفسهم، خارج القبيلة، بان يستأثروا بشكل جزية، ليس بالمنتوج الفائض فقط، بل بقسم من المنتوج الضروري ايضاً فيحمون على دافعي الجزية بالحرمان والجوع.

ان المداخيل الخارجية الواردة على القبيلة تغني الوجهاء وتشدد التفاوت في الاموال. الا ان قسما من هذه المداخيل يصل الى ابناء القبيلة البسطاء، الامر الذي ساعد على بقاء فئة البدو المستقلين وطمس التفاوت.

ان الطابع المزدوج لوجهاء القبائل بوصفهم من ابناء القبيلة الاكثر ثراء وجاها

وبوصفهم مستغلين للسكان خارج قبيلتهم قد حدد خاصية السلطة السياسية عند البدو الرحل وفي مجتمع الجزيرة عموما.

فقد كان الشيخ داخل القبيلة بالدرجة الاولى رئيسا عشائريا للجماعة ومتصرفا بالنشاط الاقتصادي. كان يتزعم الرحلات الاساسية للقبيلة ويشرف على توزيع المراعي والآبار ويختار مكان نصب المخيم ومدة المكوث فيه. وكان بوسع الشيخ ان يضطلع بدور القاضي أو الحكم في النزاعات التي تنشأ داخل القبيلة واختلاف الآراء والشكاوى في مسائل الاسرة والزواج والمعيشة، وكان يتابع الالتزام بالعادات القبلية وخصوصا المرتبطة بأخذ الثأر ويراقب استعادة الاموال المسروقة. وكان يمثل القبيلة في العلاقات مع العالم الخارجي. وبوسع الشيخ ان يغدو قائدا في الحرب وان يعلن الحرب ويعقد الصلح[٨٢].

وكان الشيخ يتخذ اهم القرارات بعد التشاور مع وجهاء القبيلة او مجلسها[٨٣] الذي احتفظ بسمات التنظيم الديمقراطي للمجتمع العشائري. ويقول الرحالة الانجليزي دوتي: في المجلس «يتكلم من يشاء، ويرتفع هنا صوت ابسط ابناء القبيلة لأنه من ابنائها»[٨٤]. ولا يستطيع الشيخ ان يعلن الحرب او يعقد الصلح بدون تشاور مبدئي مع ابناء القبيلة المسموعي الكلمة. واذا اراد ان ينصب مخيما فعليه ان يستطلع آراءهم[٨٥].

ويقول دوتي ان المجلس كذلك «شورى للشيوخ ومحكمة اجتماعية، ويراجعه ابناء القبيلة في أي وقت للنظر في شؤونهم... ويتشاور الشيخ مع الشيوخ الآخرين والوجهاء والاشخاص الارفع منزلة. ويصدر القرار دوما دون تحيز ودون اي ارتشاء. وهو قرار نهائي»[٨٦]. وبالاضافة الى ذلك يمارس العرّاف النظر في الدعاوى القضائية. واذا اعترض المحكوم عليه بالغرامة المالية على القرار يضطر الى ترك القبيلة.

ويتجلى الطابع العسكري الديمقراطي للتنظيم القبلي في تقسيم السلطة في الفخذ والقبيلة في عدة حالات الى سلطة «مدنية» (الشيخ) و«عسكرية» (العقيد). ويقول بور كهاردت: «لكل قبيلة عقيد، اضافة الى الشيخ، ويندر ان يتسلم شخص

واحد كلا هذين المنصبين. فانا، على اي حال، لا اعرف مثالا على ذلك، مع ان بعض الاعراب يقولون انهم رأوا شيخا كان بين اعراب منطقة البصرة عقيدا ايضا... واذا شارك الشيخ في الحملة فهو يخضع، كسائر ابناء القبيلة، للعقيد الذي لا تنتهي صلاحياته الا عندما يعود المحاربون الى ديارهم. وعند ذاك يعود الشيخ الى منصبه»[٨٧]. ويفيد مؤرخو الجزيرة والمعلومات الاحدث بأن توافق سلطة الشيخ والعقيد كان ظاهرة اكثر حدوثا مما يعتقد بور كهاردت. ويمكن ان يغدو عقيدا ابن الشيخ او احد اقربائه. ولا يندر ان تربط أواصر القربى بين عائلتي الشيخ والعقيد.

ولم تكن لدى زعيم القبيلة، عادة، شارات ظاهرية للسلطة ولم يكن يلتزم بمراسيم خاصة في معاملة ابناء قبيلته. فالبدو البسطاء يتعاملون معه كما لو كان في منزلتهم.

وفي حالة وفاة او عجز الشيخ يختارون شخصا آخر بدلا عنه. ومن السجايا التي يجب توفرها في زعيم القبيلة السخاء والشجاعة والذكاء والحكمة والثروة (الماشية والارض). وينبغي ان يكون له انصار كثيرون من الاقارب والخدم[٨٨]. واليكم ما كتبه فولني عن شيخ قبيلة بدوية: «حقا، فان شيخ المشايخ في كل قبيلة يضطلع بواجب الانفاق على القادمين والذاهبين، وهو الذي يستقبل الحلفاء وكل من يأتي اليه في حاجة ما. وقرب خيمته ينصب بيت شعر كبير هو ملجأ لكل الغرباء والقادمين. وهنا بالذات تعقد الاجتماعات الكثيرة للشيوخ والوجهاء لانتقاء مواقف المخيمات أو لشد الرحال، وللنظر في مسائل الحرب والصلح والمنازعات مع الولاة العثمانيين او القرى وللنظر في الشكاوى والنزاعات بين الافراد. ويجب اطعام جميع هؤلاء الاشخاص الذين لا ينقطع سيلهم بالرغيف المخبوز على الرماد وبالارز ولحم الماعز او الجمال المشوي احيانا والقهوة - وباختصار يتعين على الشيخ ان يتحلى بكرم الضيافة»[٨٩]. وفي اغلب الاحوال يظل لقب الشيخ محصورا في عائلة واحدة من الاعيان والوجهاء طوال عقود واحيانا طوال قرون. ويؤكد دوتي: «لا يستطيع ان يكون زعيما لعشيرة البدو اي بدوي بسيط او اي شخص من غير تلك العشيرة وان كان يتفوق على الجميع من حيث الثروة والجاه والمواهب»[٩٠].

وغالبا ما تنتقل السلطة من الاب الى الابن، ولكنه في حال عدم توفر الخصال اللازمة عند المرشح للسلطة تحال الى شخص آخر من الوجهاء. وتلك هي ايضا حال سلطة العقيد. كان الشيخ والعقيد يتنافسان في القبيلة، وفي بعض الاحيان كان العقداء يستولون على منصب الزعيم المدني. ويجري داخل الفئة الحاكمة في القبيلة أحياناً صراع طاحن من اجل السلطة، وترافق ذلك دسائس وقتل وانشقاق في القبيلة.

وكان من بين الوجهاء الحاكمين ايضا عراف العادات والتقاليد في القبيلة (٩١).

ان تركز اهم المناصب الاجتماعية في القبيلة البدْوية بأيدي كبار الوجهاء يدل على ان السلطة اخذت تفقد سماتها العشائرية. ولكن هل كانت لدى الشيخ مستلزمات السلطة الطبقية؟ وبعبارة اخرى، هل كانت وظائفه العشائرية الخارجية تكتسب مضمونا آخر؟ نعم، بقدر معين. فمما لا شك فيه ان الشيخ يخدم بالدرجة الاولى مصالح وجهاء البدو. فالوجهاء يستلمون بمساعدته افضل المراعي وافضل موارد المياه وحصة كبيرة من غنائم الحرب. وكان الشيخ لا يكتفي، لكي يفرض ارادته، باستخدام السخاء والمنزلة الشخصية الرفيعة، بل يعتمد كذلك على قوة الفخذ الغفير وعلى الانصار وعلى مفرزته المكونة من العبيد والمعتوقين. ولكنه رغم الاتجاهات الواضحة نحو تحول سلطة الشيوخ داخل القبيلة الى سلطة من النمط الاقطاعي، فانها، على ما نعتقد، لم تتحول بعد الى سلطة اقطاعية في تلك الحقبة.

وبغية ايضاح هذه المسألة يجدر بنا ان نتأكد مما اذا كان لدى وجهاء البدو جهاز خاص يتواجد فوق المجتمع وما اذا كانوا يستطيعون استخدام العنف بانتظام لفرض ارادتهم.

يقول فولني: «ان نمط ادارة هذا المجتمع خليط، فهو في الوقت نفسه جمهوري وارستقراطي وحتى طغياني دون ان يكون دقيقا في اي صفة من هذه الصفات. فهو جمهوري لأن الشعب في هذا المجتمع يتمتع بالنفوذ الاول في كل الشؤون، ولا يجري أي شيء بدون موافقة الاغلبية. وهو ارستقراطي لأن عوائل الشيوخ تتمتع بطائفة من الامتيازات الناجمة عن القوة في كل مكان. واخيرا فهو طغياني لأن سلطة

شيخ المشايخ غير محدودة ومطلقة تقريبا. وعندما تكون طباع الشيخ شديدة فيمكن ان يستفيد من سلطته الى حد سوء التصرف، ولكن هناك حدود ضيقة نسبيا حتى لسوء التصرف هذا . حقا، فاذا اقترف الشيخ ظلما كبيرا، اذا قتل اعرابيا مثلا، فلا يستطيع تقريبا ان يتحاشى العقاب، فان غضب الذين اهانهم لا يجعلهم يعيرون اهتماما للقبه، ولذا يتعرض للثار، واذا لم يدفع لقاء الدم الذي اراقه فسيقتل من كل بد...

واذا اثقل على رعيته بقساوته فانهم يتركونه وينتقلون الى قبيلة اخرى. ويستفيد اقرباؤه من اخطائه بغية تنحيته والحلول محله. ولا يستطيع استخدام قوات اجنبية ضدهم. وان رعيته يتفاهمون فيما بينهم بسهولة لا تمكنه من التفرقة بينهم وتشكيل كتلة كبيرة مؤيدة له. ثم كيف يستطيع شراء ذمم هذه الكتلة اذا كان لا يستلم من القبيلة اي ضرائب عندما يضطر القسم الاكبر من رعيته الى الاكتفاء بالضروريات واذا كانت ملكيته ضئيلة ومثقلة بنفقات كبيرة؟» [٩٢].

ولاحظ بور كهاردت «ان الشيخ ليست لديه سلطة فعلية على ابناء قبيلته. ولكنه يستطيع ان يحظى بنفوذ واسع عن طريق خصاله الشخصية. وهو لا يتمكن من اصدار الاوامر ولكنه يقدم النصائح... واذا حدث خلاف بين اثنين من ابناء القبيلة فالشيخ يحاول تسويته بالنصح والارشاد، وليس بوسعه ان يصر على رأيه. ولا يتمكن اقوى زعيم لقبيلة عنزة من فرض ابسط عقوبة على واحد من اكثر ابناء قبيلته فقرا دون ان يجازف بالتعرض للثأر من قبل هذا الشخص وأقربائه. والعقوبة الوحيدة المعروفة في هذه القبيلة هي الغرامة المالية...» [٩٣].

كان جهاز العنف الطبقي عند البدو الرحل في طور الظهور. ولم تكن مقوماته الاساسية ـ الجيش والشرطة والسجون والآلة الادارية والمحاكم الطبقية ـ موجودة عمليا في القبيلة. وان المفرزة الشخصية للشيخ والمكونة من العبيد يواجهها التنظيم العسكري الديمقراطي للقبيلة، وهو تنظيم اقوى منها بكثير. والحالات التي نعرفها لاستخدام العنف داخل القبيلة تعود الى مطلع القرن العشرين، مع انها يمكن ان تحدث ايضا في وقت اسبق [٩٤].

وفي ظل البنية التي كانت قائمة في مجتمع الجزيرة عموما لم تكن لوجهاء البدو الرحل موضوعيا مصلحة في تحطيم التنظيم العشائري واستبداله بنوع من انواع آلة الدولة. فبالاعتماد على القدرة الحربية للقبيلة وعلى التنظيم القبلي فقط كان وجهاء البدو يمارسون سيطرتهم الطبقية على مجاميع السكان المتواجدين خارج القبيلة.

الطابع الاقطاعي للسلطة في الواحات. لاحظت الباحثة والرحالة الانجليزية بلانت الطابع المزدوج للسلطة البدوية.

وكتبت بلانت تقول: «المدن تطلب حماية شيخ مشايخ البدو في المنطقة، وهو يؤمن، لقاء جزية سنوية، سلامة سكان المدن خارج اسوارها فيمكنهم من الترحال دون عائق على طول المسافة التي تشملها سلطته، وهي، اذا كنا نقصد شيخ قبيلة قوية، سلطة تشمل مئات الاميال ومدنا كثيرة. وعند ذاك يقال ان المدن «عائدة» لهذه القبيلة او تلك، ويغدو الشيخ البدوي وصيا عليها او حاميها الرئيسي...

ثم يستمر التطور. فالشيخ البدوي الذي يثرى على حساب الجزية من عدة مدن يبني لنفسه قلعة قرب احدى تلك المدن ويقضي اشهر الصيف فيها. ثم يغدو بسرعة حاكما للمدينة في الواقع بفضل مكانته (لأن اصله البدوي ما يزال يعتبر هو الانقى) وبالاعتماد على سيطرته في البادية، يتحول الشيخ من وصي على سكان المدينة الى سيد لهم. وعند ذاك يمنحونه لقب الامير، **فيغدو ملكا لجميع المدن التي تدفع له الجزية مع بقائه شيخا للبدو**. (التشديد للمؤلف).

ومن جهة اخرى فان الرأي العام في المدينة يقيد الامير البدوي بقدر اكبر، مع انه يمكن ان يكون طاغية... فالامير وان كان حرا في تصرفاته الفردية ولكنه يعرف جيدا بأنه لا يمكن ان يخرق قانون الجزيرة التقليدي غير المدون ويبقى بدون عقاب»[٩٥].

كانت عملية تحول وجهاء البدو الى طبقة مسيطرة على الحضر في الجزيرة العربية قد جرت بالتدريج. علما انه يمكننا ملاحظة الاشكال المتنوعة في العلاقات

المتبادلة بين الوجهاء وبين القبيلة والسكان الحضر ونمط الحياة المتباين والسلوك المختلف في الحياة المعيشية. وان شيوخ القبائل الاقوياء او شيوخ اتحادات القبائل كان بوسعهم ان يفرضوا السيطرة على الواحات او على مجموعة منها. ولكن وجهاء القبائل يصادف ان يحافظوا على نمط الحياة البدوي ويظلوا شيوخا بدويين في الغالب. والمثال على ذلك هو ابناء آل حميد من قبيلة بني خالد الذين سيطروا في القرنين السابع عشر والثامن عشر على منطقة الاحساء الزراعية الغنية، ولكنهم فضلوا، مثل الامويين الاوائل، البقاء في قبيلتهم المترحلة. ولم يكن ذلك يمنعهم من الاحتفاظ بحاميات في الواحات الاساسية.

وبعد الاستيلاء على السلطة في الواحات كان ابناء وجهاء البدو ينفصلون عن قبائلهم ويتحولون الى حكام اقطاعيين حضر. علما أن مطامعهم الاستغلالية ازاء سكانهم الزراعيين كانت تتعارض مع مصالح البدو الذين يشاركونهم في استلام الاتاوات. وبعد ان يتحول شيوخ البدو السابقون الى قسم من وجهاء الحضر يقومون بالدفاع عن ممتلكاتهم ومداخيلهم دون اعتداءات البدو الرحل. ومن هذا الاصل يتحدر امراء الدرعية السعوديون وحكام حائل الرشيديون.

وأخيرا يقوم الحاكم الحضري القوي، بالتحالف مع بعض القبائل البدوية او بصورة مستقلة بغزوات على البدو المجاورين فينهبهم ويرغمهم احيانا على دفع الاتاوات.

لم تكن السلطة في الواحات متركزة دوما في ايدي اشخاص بعينهم. ففي بعض الاحيان كان المزارعون المتحدرون من قبائل مختلفة يتنازعون فيما بينهم ولا يخضعون لحاكم واحد، اذا ان لديهم شيوخهم وامراءهم.

كانت سلطة الامير الحضري تختلف اختلافا جوهريا عن سلطة الشيخ البدوي.فالحاكم في الواحة لا يواجهه تنظيم عسكري ديمقراطي عشائري. وكان المزارعون الذين ضعفت روابطهم العشائرية رازحين تحت تبعية لوجائهم اكبر بكثير من تبعية البدو. لذلك فلا يثير الدهشة ان ينعت مؤرخو الجزيرة سكان الواحات بالرعية. وكان الامير الاقطاعي يعتمد من جهة على وجهاء الواحة الذين

تربطة بالكثيرين منهم صلة القربى، ومن جهة اخرى يعتمد على مفرزته الخاصة المكونة من العبيد والمعتوقين والجنود المرتزقة. وكان النظام القضائي في الواحات مبنيا، عادة، على اساس الشريعة الاسلامية. ويمارس الامير شخصيا امور القضاء الى جانب القاضي الذي يتحلى باعداد حقوقي وفقهي.

ان التركيب السياسي لامارة جبل شعر التي وصفها الرحالة في اواسط القرن التاسع عشر والنصف الثاني منه يمكن ان يعتبر تكرارا لسمات تنظيم السلطة في الدويلات - الواحات في وسط الجزيرة في القرن الثامن عشر. كان امراء حائل يديرون الدولة بمساعدة أقربائهم، وبصورة رئيسية بمساعدة العبيد والمعتوقين الذين يتمتعون بثقة الحاكم بقدر أكبر مما يتمتع به اقرباؤه علما أن مشايخ آل رشيد اعتمدوا على مفارز من العبيد والمرتزقة. وكان زعماء العبيد الذين يسمون بزلم الشيوخ يتسلمون اهم المناصب في البلاط ومناصب الموظفين في جهاز الدولة الناشئ. وكانوا ولاة او عمالا في الواحات. وكانت اهم الدعاوى القضائية وبعض القضايا المدنية ينظر فيها في مجلس الامير الذي يعقد جلساته امام الملأ، ويشارك فيه ممثلو وجهاء حائل وكبار علماء الدين. وكان حرس الحاكم نفسه يضطلع بدور الشرطة في امارة مشايخ آل رشيد. كما كان هناك سجن في حائل. وكانت العقوبات على الجرائم هي مصادرة الاموال والضرب بالعصي وقطع اليد(٩٦).

الا ان نظام الدولة في الواحات الاخرى كان اقل تطورا. فان دوتي الذي زار عنيزة، المركز التجاري الكبير في القصيم، لم يجد هناك سجنا(٩٧).

ومن السهل ان نلاحظ ان سند السلطة الاقطاعية في الواحات هو حرس العبيد. فهذا الحرس المعتمد كليا على سيده وغير المرتبط بالسكان المحليين، وسيلة ناجحة للسيطرة السياسية علما بأن العبيد - المحاربين والشرطة والموظفين والعمال - كانوا يتمتعون بمكانة متميزة ويحصلون على مداخيل كبيرة، وقد تحولوا في الواقع الى جزء من الطبقة الحاكمة، مع انه جزء خاص ذو حقوق مبتورة. وكانت فئة العبيد هذه قد حصلت في بعض الحالات على وزن ونفوذ كبيرين فادعت احيانا بالسلطة

العليا واستولت عليها. وحدث ذلك، مثلا، في الرياض في النصف الاول من القرن الثامن عشر، وكذلك في مكة في اواخر الثمانينات من القرن المذكور(٩٨). وتجلى تاثير القوة العسكرية لمفارز العبيد بقدر ما على مشايخ البدو ايضا. الا ان امكانية تحول العبيد الى طبقة حاكمة في الجزيرة العربية لم تتحقق في سياق التطور التاريخي. ولكن الحرس التركي في عهد العباسيين والمماليك في مصر دليل على مدى الشوط البعيد الذي يمكن ان تقطعه مثل هذه الاتجاهات في المجتمع.

الفئات والمراتب في مجتمع الجزيرة. ان البنية المتعددة الجوانب لمجتمع الجزيرة قد تعقدت بقدر اكبر بسبب عناصر التقسيم الفئوي والعادات والتصورات المرتبطة بها. وكانت هذه العناصر نابعة بالاساس من النشاط الاقتصادي والعلاقات العشائرية والتقسيم الطبقي والخصائص النفسانية.

كان البدو من رعاة الابل بالذات يعتبرون في الجزيرة من انبل ممثلي النوع البشري. وكانوا هم انفسهم على اعتقاد راسخ بتفوقهم على الحضر واشباه البدو. وكانوا يعتبرون العمل الوحيد اللائق بهم هو الغزو وتربية الابل والقوافل واحيانا التجارة. وكان رعاة الغنم في القبائل البدوية الكريمة المحتد يشغلون مرتبة وضيعة ولا يتمتعون بالاحترام. وان تحول البدوي من راع للابل الى راع للغنم او مزارع يهبط به من منزلته «الرفيعة» لدرجة تجعل من الصعب عليه العودة الى حظيرة البدو الاقحاح (٩٩). وكان البدو يبررون رفعة منزلتهم بانتسابهم الى اصول تغوص في اعماق القرون (١٠٠).

ويقف في الدرجة التالية من سلم المراتب رعاة الغنم الذين ينظرون الى الحضر باستعلاء. ويأتي بعدهم الزراع اذا تهيأت لهم امكانية الوصول بانسابهم الى اجداد كريمي المحتد. ان التفاوت في مراتب هذه الفئات من السكان يعززه عدم وجود علاقات متينة للتزاوج فيما بينها. ومن النادر ان يوافق البدوي المعدم على تزويج ابنته من فلاح موسر.

وكان الوجهاء يحتلون منزلة اعلى من هذه الفئات الثلاث من سكان الجزيرة

العربية والتي تتميز بدرجات مختلفة من المحتد الكريم. وكان الوجهاء يعتبرون انفسهم ارقى من سائر البدو الرحل بقدر ما يعتبر هؤلاء انفسهم انبل من الزراع. وان بيوتات شيوخ مشايخ القبيلة، خلافا لسائر ابناء القبيلة الذين يعتبرون انفسهم خلفا لجد واحد، غالبا ما تدعي باصول تختلف عن الاصول النبيلة الخاصة بالقبيلة كلها. ان دم افراد عائلة الشيخ (عند البدو) يفوق التقدير او انه (عند اشباه البدو) اغلى من دم سائر ابناء القبيلة. وكان الشيوخ يخرقون اصول الزواج العشائري المرسومة بالعادات والتقاليد فيزوجون بناتهم من شيوخ قبائل اخرى ولا يتزوجون هم الا من بنات الشيوخ، علما بأن المهر المتعارف عليه بين الشيوخ اعلى بكثير من المهر العادي. ونعت دوتي وجهاء القبائل «بالارستقراطية من حيث الدم والاصل (الجد المشترك)»[١٠١]. وكان هذا ايضا هو رأي فولني، حيث يقول: «تضم كل قبيلة عائلة او عدة عوائل رئيسية يحمل ابناؤها لقب الشيوخ. وهذه العوائل تماثل عوائل الاعيان في روما والنبلاء في اوربا»[١٠٢].

وكان الاقطاعيون الحضر يتباهون بتحدرهم من وجهاء البدو. وفي بعض الاحيان حاولوا الحفاظ على نمط الحياة البدوي واحتفظوا بأواصر القربى مع وجهاء البادية.

وكانت القبائل «الوضيعة» (هتيم وغيرها) منبوذة في مجتمع الجزيرة. واذا نعت شخص ما من قبيلة باسم تلك القبائل فهو يعتبر ذلك اهانة بالغة. وكان على ابناء القبائل «الوضيعة» ان يقدموا آيات التبجيل للاعراب الكريمي المحتد. والذين تجري الدماء الطاهرة في عروقهم لا يتزوجون ابدا من بنات القبائل «الوضيعة»[١٠٣]. وتتحدث عن اصول هذه القبائل حكايات واساطير تحط من سمعتها. ولكن ذلك لم يمنع شباب عوائل الوجهاء من الاستفادة من التسيب الخلقي في القبائل «الوضيعة» واقامة علاقات غرامية مع المحظيات منها. والشعر البدوي الشفهي مليء بالامثلة من هذا النوع[١٠٤].

ويعتقد بعض الباحثين في العلم المعاصر ان اصول بعض القبائل «الوضيعة»

تعود الى ما قبل العرب بل وحتى الى ما قبل الساميين[١٠٥]. ويرى آخرون انها ظهرت في الجزيرة بعد ظهور العرب[١٠٦].

كان الصناع في مجتمع الجزيرة اكثر احتقارا من القبائل «الوضيعة»، وكان احتراف الصنائع، وخصوصا النسيج، احط عمل يمكن ان يمارسه الاعرابي. وكانت كلمة «الصانع» تطلق للاهانة والتحقير. وحتى ابناء القبائل «الوضيعة» كانوا يستنكفون من الدخول في علاقات زواج مع الصناع. وقد شكل بعض الصناع (وخصوصا الحدادون) طائفة منعزلة منتشرة في ارجاء شبه الجزيرة كافة وكانوا يعتبرون انفسهم ابناء قبيلة واحدة [١٠٧]. ولم يكن تنظيمهم يشمل الصناع من بين المعتوقين والاجانب.

وعلى اوطأ درجة من السلم الاجتماعي في الجزيرة العربية يتواجد العبيد والمعتوقون. فهم وحدهم يقدمون على الزواج من بنات القبائل «الوضيعة» والصناع،. ولا يستبعد ان يكون ذلك بالذات هو السبب في التفرد الاثنوغرافي للقبائل «الوضيعة» والصناع.

ان تقسيم مجتمع الجزيرة الى فئات ومراتب غالبا ما لا يتوافق مع تقسيمه الى استغلاليين ومستغلين. فلدى كل فئة «منبوذة» من فئات السكان - القبائل «الوضيعة» والصناع والعبيد - نخبة من ابنائها. وفي بعض الاحيان تتجاوز ثروة هذه النخبة ليس فقط ثروة البدو العاديين، بل حتى بعض وجهاء البدو. فالعبيد (من موظفي كبار الاقطاعيين) تفوقوا احيانا على الكثير من وجهاء الحضر والبدو. الا ان اكثر البدو فقرا كان ينظر باستعلاء الى العامل او الوالي الزنجي المتنفذ، وما كان يوافق على تزويجه من ابنته في اي حال.

مجتمع الجزيرة من خلال تطوره. مما لا شك فيه ان المجتمع الطبقي الاستغلالي كان موجودا في الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. الا ان الحدود الطبقية فيه تمتد بخطوط متعرجة ليس فقط بين الاغنياء والفقراء، بين الوجهاء والرعية، بل كذلك بين البدو من رعاة الابل والسكان شبه

الرحل والحضر، بين القبائل الكريمة المحتد والقبائل «الوضيعة»، بين الاحرار والعبيد. وفي بعض الحالات تطمس هذه الحدود في غمار العلاقات العشائرية والفوارق الفئوية.

فهل يجوز القول إن النظام الاجتماعي موضوع البحث قد نشأ في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر فقط؟ كلا، بالطبع. صحيح ان قضية تحديد الاطر الزمنية لوجوده تتطلب دراسة خاصة. الا ان بعض معلومات الاوربيين، مثلا، عن الحياة في الجزيرة خلال القرون الوسطى لا تتعارض مع المعلومات الاحدث. ومما يعزز وجهة النظر هذه ما كتبه ابن خلدون عن مجتمع شمال افريقيا في القرن الرابع عشر، في المنطقة الصحراوية وشبه الصحراوية، والذي يتميز بكثير من السمات المشتركة مع مجتمع الجزيرة العربية، حيث انتقلت العلاقات الاجتماعية للقبائل العربية دون شك، مع ترحالها الى شمال افريقيا. فان سمات النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مثل الحمية والدخلة واستبدال الثأر بالتعويض وحرس العبيد في مكة، كانت معروفة في الجزيرة منذ فجر الاسلام[١٠٨]، مع انه لا يستبعد ان مضمون بعض الانظمة اتسم خلال القرون العديدة بصبغة طبقية لدرجة اكبر. ان الصعاليك من شعراء الجاهلية يشبهون كثيرا فقراء البدو في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في حين كان نعت ممثلي وجهاء القبائل في القرنين السادس والسابع هو «اصحاب المئات» (المقصود مئات الابل)[١٠٩]. ونظرا لعدم حدوث اي تغيرات ثورية في تطور القوى المنتجة في الجزيرة خلال القرون الاخيرة حتى حلول القرن العشرين، يمكن الافتراض ان مثل هذا النظام الاجتماعي ظل باقيا امدا طويلا مع بعض التعديلات والتعمق التدريجي للفوارق الطبقية.

ومنذ عهد النبي وحتى ظهور الوهابية لم تشهد الجزيرة العربية السلطة الموحدة والاستقرار والوئام. وطوال القرون ظلت مجزأة في الغالب الى دويلات ـ واحات صغيرة او اتحادات لتلك الدويلات والى قبائل مترحلة او اتحادات لتلك القبائل. وكان التشتت الاقتصادي للواحات والقبائل التي هي وحدات اقتصادية

مستقلة، وكذلك نطاق البادية الخالية في الجزيرة حيث كانت جزائر الحياة البشرية متباعدة عن بعضها بعضاً لمئات الكيلومترات، بمثابة عوامل للامركزية.

ومما اعاق التوحيد كذلك الفوارق القبلية والمحلية بين سكان الجزيرة ولهجاتهم وتنوع وتناقض المذاهب والمعتقدات الدينية.

وكانت لوجهاء القبائل والحضر مصلحة في توسيع حدود سلطتهم من اجل زيادة مصادر الاثراء. واصطدمت مطامح كل من كتل وجهاء القبائل والحضر بمصالح جيرانهم المماثلة. واستنزفت القوى في الصراع بينهم. ولكنه صادف ان هذه الكتلة او تلك من الوجهاء تنشر سيطرتها على نطاق واسع بالاعتماد على القدرة العسكرية للبدو والحضر وبزعامة قائد موهوب. وبالنتيجة نشأت دول على مساحات واسعة نسبيا. وكان التوسع المشترك الذي يؤمن غنائم الحرب حافزا رئيسيا للتوحيد. وكانت في الجزيرة العربية مناطق شاسعة اختلطت فيها قوى الفوضى العشائرية اللامركزية بالقوى التوحيدية المركزية. وتلك المناطق هي الحجاز ونجد والاحساء واليمن وعمان.

وبنتيجة احلال الامن وتقاطر الثروات من الخارج كان من الممكن في اراضي الاتحادات الكبيرة على صعيد الدولة ان يجري تطور القوى المنتجة بوتائر اسرع بعض الشيء. ولكن الحماس الحثيث كان يستنفذ فيما بعد، ويؤدي الصراع الداخلي والتنافس الى تفتت متانة السلطة، ويشدد الوجهاء استغلال السكان الخاضعين لهم فيسببون بظهور مقدمات التذمر الداخلي، وتتفوق القوى اللامركزية الطاردة وتنهار الدول. وكانت هذه العملية تسير بسرعة في حالة الكوارث الطبيعية او تفشي الاوبئة.

ولذلك يمكن القول إن قوى التوحيد الكامنة كانت موجودة طوال القرون في الجزيرة العربية المجزأة، وان مفعول قوى التحلل الجبارة كان يبدأ في اي دولة مركزية تنشأ هناك.

ولا تستثنى من ذلك الدولة السعودية الاولى في الجزيرة العربية. ولكنها بلغت

قوة واتساعا لم يسبق لهما مثيل منذ فجر الاسلام، في حين ترك العصر اثره في طابعها وقرر مصيرها.

الامبراطورية العثمانية والجزيرة العربية. ضعف النفوذ الاجنبي في الجزيرة عند اواسط القرن الثامن عشر. كانت الدول الاسلامية الكبرى التي نشأت وسقطت في الشرقين الادنى والاوسط قد اثرت بصورة مباشرة او غير مباشرة على الجزيرة العربية. واعتبارا من القرن السادس عشر صار الاتراك العثمانيون عاملا دائميا للسياسة في الجزيرة. فعلى اثر احتلالهم لمصر جاء دور الحجاز ثم اليمن والاحساء وسائر مناطق الجزيرة العربية. وعين الباب العالي واليا له في جدة - البوابة البحرية لمكة. ورابطت حاميات تركية غير كبيرة بين فترة واخرى في مكة والمدينة وجدة وبعض المناطق الاخرى. وارسلت الاستانة بعض الموظفين الى مكة والمدينة. ومع ذلك كانت سلطة العثمانيين في الحجاز اسمية، وكان الحكام المحليون يتمتعون باستقلال كبير.

كانت السلطة في مكة بأيدي عوائل الاشراف المتنافسة التي كانت تبعث الى والي مصر والسلطان العثماني نقودا وهدايا ثمينة. الا ان مكة كانت مدينة متميزة تعيش على الحج والتبرعات الخيرية من العالم الاسلامي كله. وكان السلاطين الجبابرة والمسلمون الاطهار يتبرعون بالاموال لترميم الكعبة والمساجد والانفاق عليها ولشق القنوات. وكان قسم من هذه الاموال يبقى في المدينة ولا يندر أن تستقر في خزنة الشريف. كانت مكة منطقة هامة للعثمانيين، ولكنها بعيدة جدا فلم يستطيعوا ان يقيموا سيطرتهم المباشرة عليها، وفضلوا الابقاء على حكامها المحليين. وكانت عوائل الاشراف المقيمة في الاستانة مستعدة دوما للمشاركة في دسائس الباب العالي السياسية (١١٠).

وعلى تخوم القرنين السادس عشر والسابع عشر، في فترة الفتن والقلاقل التي اجتاحت الامبراطورية العثمانية، اكتسب وسط وشرق الجزيرة العربية الاستقلال الفعلي عن العثمانيين مع ان والي بغداد ووالي البصرة ظلا حتى اواخر القرن السابع عشر يؤثران على سير الاحداث في الاحساء ونجد.

وفي مطلع القرن الثامن عشر دخلت الامبراطورية العثمانية مرحلة الافول بعد هزيمة معركة فيينا عام ١٦٨٣. ومع ان العثمانيين استطاعوا في العقود الاولى من القرن الثامن عشر ان ينتصروا على الفرس في الشرق فان ذلك لم يغير شيئا في سير الامور. كانت الامبراطورية العثمانية ما تزال تمتلك مساحات شاسعة في اوروبا وآسيا وافريقيا حيث تركزت الثروات الطبيعية والموارد البشرية. الا ان اساس الجبروت العثماني - النظام العسكري الاقطاعي - اخذ يتفتت دون رجعة. وتدهورت القدرة الكفاحية للانكشارية الذين اسسوا عوائل ومارسوا الحرف والصنائع والتجارة. وحل التسيب والفساد محل الانضباط السابق لدى جنود وموظفي الامبراطورية العثمانية.

وبنتيجة الهزائم الحربية انتفى اهم مصدر لعائدات الطبقة الحاكمة - نهب المغلوبين عسكريا. فاخذ الولاة والموظفون العثمانيون ينهبون دون رحمة سكان الامبراطورية الكادحين وبالدرجة الاولى الفلاحين. وجرى بوتائر سريعة خراب الزراعة التي هي اساس اقتصاد الامبراطورية العثمانية.

ولم تكن الحياة ولا الملكية مضمونة في الامبراطورية العثمانية. وكان السلطان وولاة الاقاليم والاقطاعيون والموظفون الاصغر غالبا ما يعدمون الناس لسبب واحد هو مصادرة اموالهم فيما بعد. ولم يتمتع بالامان الشخصي وحصانة الملكية الا علماء الدين. وبغية تحاشي المصادرة كان اصحاب المقاطعات المدمرون وصغار المالكين يحيلون مزارعهم ودورهم الى الاوقاف ويستخدمونها على سبل الايجار.

وحصلت اقاليم الامبراطورية العثمانية على المزيد من الاستقلال ووقعت تحت سلطة الكتل الاقطاعية الضارية شبه التابعة. ولا يثير الدهشة ان يفقد الباب العالي السلطة في هذه الظروف على اراضي الجزيرة العربية ايضا.

صار اشراف مكة يتصرفون بمزيد من الاستقلال ولا يعيرون اهتماما كبيرا للعثمانيين. وصار السلاطين يمنحون لقب والي جدة الى أشخاص لا يظهرون في الحجاز على الأغلب، وأخذ اشراف مكة يستأثرون بحصة متزايدة من مداخيل

جمارك جدة، وقبائل البدو تسيطر على طرق الحج الاخرى. وكانت متانة موقع الباب العالي في الحجاز آنذاك تحددها ليس قوته العسكرية بقدر ما تحددها مصلحة وجهاء الحجاز والسكان جميعا بمداخيل الحجاج القادمين بالاساس من الامبراطورية العثمانية، وبالهدايا الثمينة من السلاطين العثمانيين (١١١). أما اليمن فقد احرزت الاستقلال الرسمي والفعلي بعد الغزو العثماني في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

في سبعينات القرن السابع عشر لمَّ المدعو براك، وهو شيخ احد افخاذ قبيلة بني خالد، شمل القبيلة كلها وطرد المفارز العثمانية الصغيرة من واحات الاحساء وحمى شرق الجزيرة حتى من شبح السيطرة العثمانية (١١٢).

وكان تضاؤل التدخل الاجنبي في شؤون الجزيرة العربية قد تجلى كذلك في الضعف التدريجي الذي اصاب مواقع البرتغال على سواحل الخليج العربي. وفي اواسط القرن السابع عشر طرد البرتغاليون من عمان بعد ان استولوا عليها في القرن السادس عشر. اما الانجليز والفرنسيون فان توسعهم الاستعماري في الجزيرة العربية يعود على الاكثر الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكان اقتحام الفرس للمدن الساحلية في شرق الجزيرة في مطلع القرن الثامن عشر يجري عرضا ولم يؤد الى تثبيت اقدامهم في هذه المنطقة من الجزيرة العربية.

كانت الجزيرة العربية قبل ظهور الوهابيين متروكة لحالها بقدر كبير طوال عدة عقود من السنين.

نجد والحجاز والاحساء في النصف الاول من القرن الثامن عشر. تعرض وسط الجزيرة في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر لغزوات جيرانه من الشرق والغرب، مع ان ذلك لم يستبعد بعض الحملات الموفقة التي قامت بها القبائل النجدية على واحات وقبائل الحجاز والاحساء. كان الحجازيون قد هاجموا تقريبا كل مناطق نجد، وبالدرجة الاولى القصيم، كما هاجموا القبائل البدوية في وسط الجزيرة - عنزة ومطير والظفير. وكان بعض قبائل وواحات وسط الجزيرة تدفع

الاتاوات لحكام مكة. ويذكر ابن بشر بعض الاشخاص من وجهاء الحجاز وينعتهم بأشراف نجد[١١٣].

وفي بداية القرن الثامن عشر تدهورت الحالة الاقتصادية في الحجاز. وبنتيجة المجاعة المرعبة خلت مكة من اهلها[١١٤]. واشتد فيها الصراع من اجل السلطة والنزاعات الداخلية حتى لم يعد بمقدور الحجازيين القيام بحملات على باطن الجزيرة. وكانت آخر الحملات الكبرى على نجد قد قامت في اواسط عشرينات القرن الثامن عشر[١١٥].

كان براك شيخ بني خالد قد بدأ بعد ان سيطر على شرقي الجزيرة بغزوات على البدو المترحلين بين الاحساء ونجد، ثم بغزوات على نجد. وواصل خلفاؤه توسعهم .وتعرضت الخرج وسدير وثادق والعارض لغزوات الاحسائيين. وفي عام ١٧٢٢/١٧٢٣ توفي زعيم بني خالد بن سعدون عريعر[١١٦]. وادت الحزازات التي اعقبت ذلك الى اضعاف الوحدة لدرجة كبيرة.

ولم تكن في نجد اتحادات كبيرة تلعب دور القوة المسيطرة. فقد احتفظت بعض الواحات والقبائل باستقلالها. وحتى الواحات - المدن، مثل العيينة والدرعية والرياض، التي كان مقدرا لها ان تلعب دورا هاما في الصراع من أجل الزعامة في نجد، لم تكن ترتفع الى اعلى من المستوى المتوسط. وكانت مزيتها تكمن في انها جميعا واقعة في منطقة العارض، وهي المنطقة الوسطى في نجد، حيث تلتقي كل الطرق التجارية. الا ان الموقع الجغرافي وحده لا يعطي مبررا للاعتقاد بأنها بالذات كانت تستطيع ان تغدو مركزا للدولة الموحدة لعموم نجد ناهيك عن عموم الجزيرة.

ومن المستبعد امكان الموافقة على تأكيد فيلبي من ان الدرعية كانت في مطلع القرن الثامن عشر احدى المدن التي تدعي بالسيطرة ليس فقط في نجد وحدها، بل وحتى في الجزيرة العربية كلها[١١٧]. فقد قال مؤلف «لمع الشهاب» انه لم يكن في نجد «رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم بل كان كل من الحكام حاكم بلده مدينة كانت او قرية وفي بدوها كذلك كل طائفة منهم لها شيخ وكبير يرجع امرهم

اليه... والبلدة اذا قبائل شتى يرعون البراري والقفار ويشربون المناهل والآبار وحكومة كل شيخ في قبيلته برضاها فكل من تقدم كرما وشجاعة رضوا به كبيرا لهم. وفيهم مشايخ صغار في القبيلة الواحدة نفسها يخالفون رأي المشايخ الكبار... وكان اهل المدن في نجد دائما بعضهم يحارب بعضا» (١١٨).

كان الوضع في القسم الاوسط من نجد في العقود الاولى من القرن الثامن عشر يتميز بتوازن القوى بين الخصوم الرئيسيين. فقد اجتازت الدرعية توا مرحلة القلاقل والفتن الداخلية والصراع من اجل السلطة بين الوجهاء الحاكمين. وكان القتل والخيانات تتوالى الواحدة تلو الاخرى، الى ان صار مؤسس سلالة السعوديين، سعود بن محمد بن مقرن اميرا للواحة في العقد الثاني. ويعتبر بعض السعوديين انفسهم من قبيلة بني خنيفة، بينما يعود بعضهم الآخر بنسبهم الى عنزة اكبر واقوى قبيلة في وسط وشمال الجزيرة (١١٩).

لم يكن عهد سعود طويلا. فقد توفي في حزيران (يونيو) ١٧٢٥(١٢٠)، وبعد وفاته تنافس على رئاسة الواحة عدة اشخاص تنافسا مستميتا. واقترن الصراع بينهم بخيانات متبادلة وقتل عدة اشخاص لبعضهم بعضاً. واخيرا شغل مكان سعود ابن عمه زيد (١٢١).

كان حكام العيينة في تلك السنوات مشغولين بالحروب ضد جيرانهم في منفوحة وثادق، وكذلك ضد القبائل البدوية في اطرافهما. ولم تتجاوز العمليات الحربية نطاق الحملات المحلية. وفي عام ١٧٢٥/ ١٧٢٦ اجتاح العيينة وباء الكوليرا (١٢٢). وكانت الضربة التي تلقتها شديدة لدرجة جعلتها تخرج لسنوات طويلة من الصراع في سبيل السيطرة على وسط نجد.

وانتهز زيد هذه الفرصة فهاجم الواحة الخالية في العام التالي. واعرب امير العيينة محمد بن معمر عن استعداده للخضوع له، ولكنه استدرج الدرعيين الى منزله وقتل زيدا. وتمكن محمد بن سعود من الفرار مع جماعة من المحاربين. فصار اميرا للدرعية (١٢٣).

وفي اواخر الثلاثينات ومطلع الاربعينات استولى على السلطة في الرياض دهام بن دواس وهو رجل همام نشيط ظل طوال عدة عقود من اشد خصوم الدرعية تصلبا. واليكم قصة توليه السلطة كما كتبها ابن غنام: «كان ابوه رئيسا في بلد منفوحة متغلبا عليها فقتل اناسا من جماعته من المزاريع ظلما وعدوانا، وبقي بعد ذلك زمانا ثم مات. وتولى بعده ابنه محمد، فقام عليه ابن عمه زامل بن فارس هو وبعض اهل منفوحة فقتلوه واجلوا اخوانه، ومن جملتهم دهام واخوته، فاستوطنوا الرياض وكان واليها اذ ذاك زيد بن موسى ابا زرعة. فلما قتل زيد المذكور على غير سبب مأثور، وكان الذي قتله احد ابناء عمه، وكان معتوه العقل صعد اليه وهو نائم في علية له فذبحه بسكين معه. فلما قتله جاءه عبد لزيد يقال له خميس فقتله... فتغلب العبد المذكور على بلد الرياض، وكان اولاد زيد اذ ذاك صغارا وزعم انه قابض لهم حتى يتأهلوا لذلك. فأقام داليا عليها مدة يسيرة نحو ثلاث سنوات ثم هرب خميس من الرياض خوفا من اهلها لامور جرت منه فأقام في الحاير مدة ثم اتى منفوحة فأقام بها مدة، ثم عدا عليه رجل من اهلها كان قتل اباه زمن رياسته على الرياض فقتله ثم بقيت الرياض مدة يسيرة بلا رئيس، وكان دهام بن دواس مدة تغلب خميس على الرياض خادما له. فلما بقيت الرياض بعد هروب خميس بلا رئيس ترأس فيها دهام بشبهة ان ابن زيد ابا زرعة هو ابن اخت دهام، فزعم انه يكون نائبا عنه في ذلك حتى يكبر ويعقل ثم بعد ذلك يتخلى له عن الولاية فأجلاه عن البلاد. كرهه اهل الرياض وسعوا في عزله اذ لم يكن لهم حيلة الى قتله، فاجتمعوا عليه واحاطوا بقصره وحصروه فيه، وكانوا عامة وغوغاء ليس لهم رئيس. فارسل اخاه مشلبا راكبا فرسا الى محمد بن سعود امير الدرعية يطلب منه النجدة والنصرة على تلك الرعية... فقام له محمد بالنصرة اتم قيام، وارسل اليه من الجنود فئام ورئيسهم مشاري بن سعود، فبلغ دهام بمجيئهم المرام والمقصود، فخرج من قصره مع تلك الجنود وقتلوا من اهل الرياض ثلاثة أو اربعة رجال ثم فروا بلا توان ولا امهال، فبعدها قر ملكه فيها واقام رئيسها وواليها وأقام مشاري عنده شهورا، ولم يتوقع ما صدر من الخبيث الشرور، فاستفحل امره وتعاظم فجره ونكره وتزايد على الرعية شره وتوالى عليهم ضره وتظاهر بأمور واعلن بفجور تحاكي

الافعال النمرودية والقضايا الفرعونية: فمنها انه غضب يوما على امرأة فأمر بفمها ان يخاط... ومنها انه غضب يوما على رجل فقطع من فخذه قطعة وقال: لا بد ان يسيغها مضغة مضغة. فحاول الرجل المعذب بعد ان لم يجد له مهربا ان يأكلها بعد ان تشوى فلم يسعفه بذلك فأكلها نعوذ بالله من البلوى. ومنها انه غضب يوما على رجل مسجون ذكر له انه فك بأسنانه الحديد، فأمر بمقمعة من حديد فضربت بها اسنانه... ومنها انه غضب على رجل آخر فأمر بقطع لسانه فقطعه بعض اعوانه، وله قضايا مثل هذه كثيرة» (١٢٤).

هذا المقتطف من ابن غنام عن تولي دهام بن دواس السلطة، وكذلك المواد الخاصة بتطور الاحداث في الدرعية والعيينة، انما تكشف عن الصراع من اجل السلطة والنزاعات الضارية والغزوات المدمرة المتبادلة والنهب والسلب، مما صار من اصول الحياة السياسية في نجد في النصف الاول من القرن الثامن عشر. ومما ساعد على تزعزع الحكم عدم الوضوح والدقة في حق الميراث. فلا يندر ان يهب اخوة الحاكم المتوفي وابناء عمومته ضد أبنائه. ولا يمكن تفسير استيلاء عبد على السلطة في الرياض في تلك الحقبة الا بتزعزع نظام الادارة الاقطاعية في الواحات.

وقد بلغ تعسف وطغيان الوجهاء في الواحات اقصى الحدود. واتخذ الاستغلال طابعاً وحشياً. وهناك مبررات للقول بأن اشتداد استغلال المزارعين من قبل الاقطاعيين آنذاك قد أدى الى اشتداد الصراع الطبقي. فقد كتب ابن غنام عن انتفاضة السكان المتذمرين من دهام الى حد الغليان، ويمكن اعتبار ارسال ابن سعود أخاه لنجدة دهام مظهرا للتضامن الطبقي بين الاقطاعيين. ويبدو ان بعث الوهابيين للاصول الاسلامية القديمة التي تحرم الفوائد الربوية كان رد فعل على تعسف المرابين القاسي.

وفي القرن الثامن عشر تدهور الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية. وكان الركود الاقتصادي في الامبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر ودمار القوى المنتجة وتقلص التجارة كل ذلك قد أدى في بعض الاحيان الى تقلص مشتريات واسطة النقل الرئيسية ـ الابل. وتدهورت التجارة مع الهند عبر الحجاز(١٢٥). وكانت

النزاعات والحزازات في الامبراطورية العثمانية والخراب الذي اصاب السكان قد ادت الى تقلص الحج. وكانت لذلك كله آثار أليمة على بدو الجزيرة.

ويمكن الافتراض بأن الحروب العثمانية الفارسية المدمرة في مطلع القرن الثامن عشر قد تركت اثرا فتاكا على الحج من ايران والعراق، الامر الذي انعكس على مداخيل سكان نجد. وفي هذه الظروف، على ما يبدو، شدد البدو من نهب السكان الحضر المحليين والقوافل النادرة.

وما كان بالامكان تحقيق الاستقرار السياسي ووقف النهب البدوي وتأمين سلامة الروابط التجارية الا في ظل دولة مركزية. وكان بوسع سياسة التخفيف من الظلم الذي تعرّض له السواد الأعظم من السكان، ان تؤمن لمثل هذه الدولة دعما جماهيريا. ولكن كان من اللازم العثور على مصادر خارجية، اي على غنائم الحرب، لاثرياء الوجهاء وعدم الاضرار بمصالحهم. وفي هذه الفترة ولدت في نجد حركة دينية جبارة نشأت على أساسها دولة مركزية كبرى.

الفصل الثاني

محمد بن عبد الوهاب ومذهبه

حياة مؤسس الوهابية قبل بدء نشاطه السياسي. كتبت «مجلة المنوعات الادبية» الروسية في عام ١٨٠٥ تقول «قبل حوالى نصف قرن اسس هذه الطائفة ـ المقصود الوهابية ـ شيخ عربي اسمه محمد. ويؤكد الوهابيون انه ابن عبد الوهاب بن سليمان. وتقول رواية قديمة ان سليمان هذا ، وهو اعرابي فقير من قبيلة نجدية صغيرة، قد رأى في المنام ان لهبا اندلع من بدنه وانتشر في البراري على مسافات بعيدة ملتهما في طريقه الخيام في البوادي والمنازل في المدن. ارتعب سليمان من هذا الحلم وطلب له تفسيرا من شيوخ قبيلته الذين اعتبروه بشير خير، واخبروه بان ابنه سيكون مؤسسا لمذهب جديد يعتنقه اعراب البادية وان هؤلاء الاعراب سيخضعون سكان المدن. وقد تحقق هذا الحلم ليس بشخص ابن سليمان عبد الوهاب، بل بشخص حفيده الشيخ محمد»[1]. هذه الرواية تجسد جيدا نفح تلك الحقبة، مع ان جفاف الوقائع التاريخية يخلع عما كتبته المجلة هالة الغيبية.

ولد مؤسس التيار الديني والاجتماعي والسياسي الذي يسمى بالوهابية في الجزيرة العربية عام ١٧٠٣/ ١٧٠٤ في عائلة دينية في العيينة[2]. كان والده عبد الوهاب بن سليمان قاضيا شرعيا. وكان هو المعلم الاول لابنه. وكان اخوه سليمان بن عبد الوهاب قد ذكر للمؤرخ ابن غنام ان مؤسس الحركة الاسلامية الجديدة المرتقب قد كشف في طفولته عن مواهب كبيرة وحفظ القرآن قبل ان يبلغ العاشرة من العمر. واطلع الصبي على تفسير القرآن والحديث وسيرة النبي. وفي الثانية عشرة بلغ محمد سن الرشد فزوجه ابوه.

بعد الزواج ادى فريضة الحج بموافقة ابيه. وفيما بعد قضى شهرين في المدينة المنورة ثم عاد الى اهله. وطاف كثيرا في الاقطار المجاورة وزار الحجاز والبصرة مرارا ثم عاش في الاحساء[٣].

وتعلم في المدينة على يد شخص يدعى عبد الله بن ابراهيم بن سيف، وهو من وجهاء واحة المجمعة في سدير. وتحدث الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيما بعد قائلا: «كنت عنده يوما فقال لي: تريد ان اريك سلاحا اعددته للمجمعة؟ قلت: نعم. فأدخلني منزلا عنده فيه كتب كثيرة. وقال: هذا الذي اعددنا لها...»[٤]. ولمح ابن عبد الوهاب بذلك إلى ان معلمه في المدينة كان يعد «سلاحاً فكرياً» لمحاربة المعتقدات السائدة في واحته.

وعندما كان ابن عبد الوهاب في البصرة دعا للعودة الى اصول التوحيد الحقيقي في الاسلام. «وتجمع عليه اناس في البصرة من رؤسائها وغيرهم فآذوه أشد الاذى وأخرجوه منها»[٥]. وفي الطريق من البصرة الى الزبير كاد يموت عطشا، الا ان احد سكان الزبير انقذه[٦].

وبعد ذلك عاش ابن عبد الوهاب بعض الوقت في الاحساء عند العالم الديني عبد الله بن عبد اللطيف. ثم توجه الى واحة حريملا في نجد. وفي عام ١٧٢٦/١٧٢٧ انتقل الى هذه الواحة ابوه عبد الوهاب بسبب خلافه مع حاكم العيينة الجديد الذي استولى على السلطة بعد وفاة الامير السابق حامي العلماء[٧]. وفي حريملا اخذ محمد بن عبد الوهاب يبشر بافكاره بنشاط جديد، حتى انه كان يتجادل مع ابيه. وامضى في هذه الواحة عدة سنوات، وفي هذه الفترة الف «كتاب التوحيد». ويقول ابن غنام عنه: «اشتهر حاله في جميع بلدان العارض في... العيينة والدرعية ومنفوحة... وكان الناس عند ذلك حزبين وانقسموا فيه فريقين فريق احبه وما دعا اليه فعاهده على ذلك وبايعه وحذا حذوه وتابعه وفريق انكر ذلك عليه»[٨].

وفي عام ١٧٤٠/ ١٧٤١ توفي عبد الوهاب فصار محمد، على ما يبدو، قاضيا بدل ابيه. وكانت حريملا آنذاك مقسمة بين فخذين ربما كانا مستقلين عن بعضهما بعضاً. واثارت دعوة محمد بن عبد الوهاب تذمر بعض سكان الواحة. ويقول ابن

بشر: «وكان في البلد عبيد لاحدى القبيلتين يقال لهم الحميان كثير تعديهم وفسقهم، فاراد الشيخ ان يمنعوا عن الفساد وينفذ فيهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهمّ العبيد ان يفتكوا بالشيخ ويقتلوه بالليل سرا»[٩]. ونجا ابن عبد الوهاب بالصدفة واضطر للفرار الى العيينة[١٠].

وكتب المستشرقون الاوربيون عن رحلات ابن عبد الوهاب الى بغداد وبعض المدن الايرانية ودمشق. وانعكست هذه المعلومات كذلك في «دائرة المعارف الاسلامية». وفي عام ١٩٣٣ كتب المستشرق المعروف مارغوليوث عن هذه الرحلات في مقالة بعنوان «الوهابية» اعتمد فيها على مصنف «لمع الشهاب».

ويفيد «لمع الشهاب» ان ابن عبد الوهاب توجه في رحلته وهو في السابعة والثلاثين من العمر، امضى ست سنوات تقريبا في البصرة، وخمس سنوات في بغداد وحوالى السنة في كردستان وسنتين في همدان (ايران). وفي بداية عهد نادر شاه انتقل الى اصفهان حيث امضى سبع سنوات، وعاش في قم ومدن ايرانية اخرى، وقضى ستة اشهر في حلب وسنة في دمشق وبعض الوقت في القدس وسنتين في القاهرة، ثم وصل الى مكة وعاد الى نجد، وامضى سنة ونصفا او سنتين في اليمامة، وفي سنة ١١٥٠ هجرية (١٧٣٧/١٧٣٨ ميلادية) استقر في العيينة. وتوفي في سنة ١٢١٢ (١٧٩٧/١٧٩٨) كما يقول صاحب «لمع الشهاب». ويؤكد مؤلف هذا الكتاب ان محمد بن عبد الوهاب كان يغير اسمه طوال الوقت. ففي البصرة اسمه عبد الله، وفي بغداد احمد وفي كردستان محمد وفي همدان يوسف[١١]. وتبين عملية جمع بسيطة ان ابن عبد الوهاب، كما يقول صاحب «لمع الشهاب»، كان يجب ان يقضي في اصفهان وقم وحلب ودمشق والقدس والقاهرة ما لايقل عن ١١-١٢ عاما. وهذا يجعل عودته الى نجد تتم في اواخر الاربعينات، الامر الذي يتعارض حتى مع التاريخ الوارد في «لمع الشهاب» بعد سطرين من ذلك.

وينسب مؤرخو الوهابية ومنجين عودة ابن عبد الوهاب الى نجد الى الثلاثينات. ويؤكد اخبارهم كذلك المؤرخ الحجازي في القرن التاسع عشر ابن زيني

دحلان. فقد كتب ان ابن عبد الوهاب بدأ يبشر بمذهبه في نجد عام ١٧٣٠/ ١٧٣١[١٢].

وغدت مصنفات الوهابيين معروفة لدى اغلبية المستشرقين الاوروبيين على اثر صدور «دائرة المعارف الاسلامية». ونجد في طبعتها الجديدة مقالة أ. لياوست المكرسة لمحمد بن عبد الوهاب والمعتمدة على ابن غنام وابن بشر[١٣].

ان الزعم بان محمد بن عبد الوهاب صار حنبليا اثناء رحلاته، ولا سيما في قم التي هي احد مراكز الشيعة، لا يصمد للنقد، وذلك على الاقل لأن اغلب علماء واحات نجد، ومنهم اسلاف ابن عبد الوهاب كانوا حنبليين. زد على ذلك ان مؤلفاته ليس فيها ما يدل على اطلاعه على ارسطو ولا على دراسة الصوفية.

كان مؤلف مخطوطة «لمع الشهاب» من خصوم الوهابيين. ولذلك يمكن الافتراض بانه لم يكن قد حضر مجالس محمد بن عبد الوهاب وان كان معاصرا له، وان معلوماته عن حياته ليست من مصدرها الاول.

الا ان ما كتبه مؤرخو نجد عن مكوث محمد بن عبد الوهاب في جنوب العراق وشرقي الجزيرة كان شحيحاً جدا. ولا يستبعد ان العالم الديني الشاب النشيط النابه استطاع ان يصل مع القوافل الى بغداد والى المدن الايرانية القريبة والى الشام. وقد كتب عن هذه الامكانية، مثلا، المؤرخ الدقيق للدولة السعودية الاولى منير العجلاني[١٤].

وقد اثرت رحلات محمد بن عبد الوهاب الطويلة واقباله ومثابرته على دراسة الفقه تأثيرا حاسما على تكوين مذهبه. فقد تهيأت له امكانية الاطلاع على المذاهب والمعتقدات الدينية في الجزيرة والبلدان المجاورة وتحديد موقفه منها ودراسة العلوم الدينية وتفسير القرآن والحديث وشروحه وجمع الحجج اللازمة لوضع مذهبه. واخذ هذا المذهب يعبر عن خط معين في تطور الاسلام بالاستناد الى الظروف الملموسة للحياة الاجتماعية والسياسية والروحية في الشرقين الادنى والاوسط عموما وفي وسط الجزيرة العربية خصوصا.

السنة والبدع في تاريخ الاسلام. كان الدين في القرون الوسطى هو الشكل السائد للمعتقدات الايديولوجية. وكانت التيارات السياسية والاجتماعية تتخذ أشكالاً دينية أو تتستر بزي ديني. وكان البحث عن أشكال ايديولوجية جديدة ولبوس ايديولوجي جديد للتعبير عن المضمون الاجتماعي الجديد قضية معقدة وطويلة الامد وغير محمودة العاقبة. وكان ذلك يحدث عادة مع اكبر الانقلابات التاريخية فقط. فالحركات الاجتماعية والسياسية الصغيرة كانت مضطرة الى الاكتفاء بالازياء الايديولوجية القديمة. وغالبا ما كانت تستخدم المذاهب الدينية السائدة. وهذا امر يلازم تاريخ الاقطار الاسلامية بقدر اكبر مما يلازم تاريخ البلدان المسيحية.

ظهر الاسلام في المجتمع الحجازي في الثلث الاول من القرن السابع الميلادي، وقد جسد، فيما جسد، التمايز الاجتماعي البدائي . ولذا لم يستطع النظام الديني للعرب المتجلي في القرآن وحده في بادىء الامر ان يلبي بالكامل متطلبات المجتمع الاكثر تطورا في البلدان الاخرى التي فتحوها. ودعت الحاجة الى اضفاء طابع على الاسلام يستجيب بقدر اكبر لذلك المجتمع الاقطاعي ولمصالح طبقته الحاكمة. وهذا هو منشا الكثير من الاحاديث عن سيرة النبي ونشاطه. وغدت تلك الاحاديث بمثابة مجموعة قوانين السلوك والاراء المعتمدة على سلوك وآراء الرسول لأحوال الحياة كافة. واطلق على هذه القوانين اسم «السنة».

وانتهى وضع الاحاديث على وجه التقريب في مطلع القرن العاشر الميلادي، اي بعد حوالى ثلاثمائة عام من ظهور الاسلام.

كان عدد الاحاديث ضخما جدا. وهي حتى بالشكل الذي جمعت فيه واقرت حسب الاصول الاسلامية تتضمن الكثير من الغموض والمتناقضات. وحتى الأحاديث الواضحة كانت تفسر بأشكال مختلفة لصالح مختلف الفئات والجماعات، وبموجب ظروف المكان والزمان. وفيما بعد اخذ كل تيار ديني يجد لنفسه احاديث تبرر توجهاته. واستخدم تفسير القرآن على هذا النحو ايضا. لذا يمكن بخصوص

تطور الفقه تكرار ما قاله الباحث المجري أ. غولدزيهير: «ان تاريخ الدين... هو في الوقت ذاته تاريخ تفسير التنزيل»[٥١].

وتجسدت في السنة التقاليد الثابتة. الا ان تغير ظروف الحياة استوجب تغيير العادات وتغيير التقاليد على اثرها. ويجري تكيف الاسلام للواقع المتغير عن طريق تبريك التقاليد الجديدة واثبات مطابقتها للسنة. ويتحقق ذلك بواسطة اجماع الفقهاء او بواسطة القياس.

اما المستجدات التي لم يرد ذكرها في الاحاديث الصحاح فتنعت بالبدع. وتبقى البدعة على طرفي نقيض مع السنة ما لم يتم الاجماع عليها. وتعني البدعة رأيا او شيئا او عملا لم يكن معروفاً في السابق او لم تجر العادة على ممارسته.

وهكذا كان تبريك البدعة وتحويلها الى حديث هو جواب الدين الاسلامي على تغير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحيه وهو رد فعل الاسلام على الواقع المحيط به وتكيفه لمتطلبات المكان والزمان.

وفيما يخص مسألة فهم السنة، والموقف من البدع بالاساس، نشأت في الاصولية الاسلامية (السنية) اربعة مذاهب، واكثرها مرونة بهذا الخصوص المذهب الحنفي واكثرها تشددا الحنبلي الذي رفض البدع رفضا باتا. وتعتقد الحنبلية ان ما ينص عليه القرآن والسنة فقط، وبالشكل الذي ينصان عليه فقط، هو الشرعي من وجهة نظر الممارسة الدينية. بديهي ان الحنبلية تتناول طائفة واسعة من المسائل داخل الاسلام، وان اختلافها مع المذاهب الاخرى يشمل ميادين متفرقة، الا ان ما يميزها هو رفض البدع.

ولكن من الصعب جدا البقاء على هذه المواقف المتشددة التي ترفض كليا امكانية تكيف الاسلام لمتطلبات الحياة. ولذا اضطرت الوهابية فيما بعد (وهي، كما سنرى، شكل متطرف للحنبلية) الى استحسان الاذاعة والتلفون والتلفزيون وقوانين العمل والضمان الاجتماعي. بيد ان رفض البدع حول الحنبلية مع ذلك الى المذهب الاكثر تشددا من المذاهب الاسلامية، مما ادى الى ضيق انتشاره وظل الحنبليون

المتشددون يشكلون طائفة صغيرة في مواجهة المذاهب الاسلامية الاخرى لانهم انطلقوا من مواقف الاصولية المتناهية. في حين كانت تعاليم الطائفية والشرك بمثابة النوافذ التي يتسرب منها التذمر. ولا يندر ان تنضوي حركات المظلومين تحت راية معتقدات الطوائف.

وكان من البدع التي دخلت الاسلام تقديس الاولياء. واذا كان الرومان يدرجون في عداد آلتهم آلهة المناطق التي يلحقونها بامبراطوريتهم من اجل تقوية التأثير الايديولوجي على المؤمنين في تلك المناطق، فان المسيحية سلكت لهذا الغرض طريق عبادة الاولياء المحليين. وحل محل عبادة الآلهة المحليين تقديس القديسين المسيحيين الذي تشبع بالعبادات السابقة بعد تغييرها بالشكل المناسب. وسار الاسلام على طريق مماثل. إن تقديس الاولياء في الاسلام ذو اصل محلي جاهلي بالاساس. ولكن الاولياء وانصار النبي وابرز الفقهاء ازالوا اصنام الجاهلية والقديسين المسيحيين وحلوا محلهم. وبعد ان تشرب الاسلام بتلك العبادات غدا دينا شاملا عزيزا على جماعات واسعة في مختلف المناطق والاصقاع.

وكان انتشار تقديس الاولياء يرتبط ارتباطا وثيقا بنشاط متصوفي الاسلام. فقد نسبوا الى الاولياء القدرة على اجتراح المعجزات مجتذبين جماهير المؤمنين. وقال المتصوفة ان بلوغ الحقيقة الالهية غير ممكن الا بالحدس والاشراق الذي يتحقق بمختلف الوسائل. والانسان يلتزم بالتقشف كي يندمج بالخالق. وابدى المتصوفة، وخصوصا في الفترة المبكرة، ازدراء باعتبارات المجتمع القائم واستهانوا بالشعائر الاسلامية المقننة.

في القرن الحادي عشر ادخل الغزالي، الذي هو بمثابة توماس الاكويني في المسيحية بعض عناصر التصوف الى الاصولية الاسلامية، ومنها الحب الغيبي للخالق. وفي الوقت نفسه ادرج الغزالي في الاسلام بعض الافكار العقلانية التي قال بها الاشعري فقيه القرن العاشر الميلادي. وهكذا نشأ بالخطوط العريضة مذهب سني شامل يضم ليس فقط الجانب الديني الشعائري، بل وكذلك الفلسفة والقانون والشريعة، والمبادىء السياسية والاصول المعيشية وآداب السلوك.

وكان من ممثلي الاتجاه المتطرف في الحنبلية الفقيه الشامي تقي الدين بن تيمية (القرن الرابع عشر). وهو من اهم الشخصيات واكثرها تناقضا في الفقه والفكر الفلسفي الاسلامي.

ففي الفقه كان في خطبه ومؤلفاته ينادي بتغيير اشكال الاصولية الاسلامية القائمة آنذاك ويضع السنة والبدع على طرفي نقيض بشكل قاطع. وقد عارض كل البدع التي تبتعد عن اصول الاسلام في النظرية والتطبيق. كما عارض ابن تيمية ادراج آراء العشرين الفلسفية في الاسلام. وعارض المتصوفة كما رفض تقديس الاولياء والرسول. وشجب زيارة قبر الرسول في المدينة المنورة قائلا بأنها لا تطابق الاسلام، مع انها صارت تعتبر منذ سنوات طويلة عملا متمما لحج بيت الله.

ورفض ابن تيمية آراء العلماء الذين استخدموا الاجماع ليضفوا طابعا شرعيا على مثل هذا التقديس. واستند الى السنة وحدها. وصار عماد الدين الحنيف، الغزالي، هدفا للحنبليين «الجدد» من اتباع ابن تيمية. وكان من شدة تطرف ابن تيمية انه اختلف في بعض المسائل حتى مع الحنبليين.

ولم يحظ هذا الفقيه الشامي بالاعتراف في حينه، فقد كانوا يجرجرونه من محكمة دينية إلى اخرى حتى مات في السجن عام ١٣٢٨ بعد ان ترك حوالى ٥٠٠ مؤلف. وكانت جماعة صغيرة من اتباعه، واولهم وابرزهم ابن القيم، قد احاطت اسمه بهالة من التقديس. ويقول غولدزيهير «ان تأثيره فيما بعد استمر بصورة خفية طوال اربعة قرون. وكانت مؤلفاته موضع بحث دقيق وقد لعبت في الاوساط الاسلامية دور القوة الصامتة التي تفجر العداء للبدع من حين لآخر»[١٦].

الاسلام في الامبراطورية العثمانية. اصبحت الحنفية المذهب الرسمي للاسلام في الامبراطورية العثمانية. وهي اكثر المذاهب الأربعة مرونة، مع ان المذاهب الاخرى كانت تحظى بالاعتراف. وتعود الصياغة النهائية للنظام الديني هنا الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. واتخذ السلطان العثماني لنفسه لقب خليفة المسلمين ليعزز مكانته بذلك.

كان علماء الدين من اكثر جماعات السكان نفوذا في الامبراطورية. وكان على

رأس علماء الدين هناك مفتي الاستانة شيخ الاسلام الذي يضاهي منصبه منصب الوزير الاول. ويأتي بعده قاضيان ثم سائر علماء الدين الكبار. وحاول الباب العالي ان يشرف على العلماء عن طريق المصادقة على تعيين القضاة المحليين الذين يمارسون الرقابة على الشؤون الحقوقية والادارية والمحتسبين الذين يتابعون التزام المؤمنين بمبادىء الاخلاق ويراقبون المنظمات الحرفية للصناع والتجار.

وكان الانحلال العام في الامبراطورية العثمانية قد اصاب علماء الدين المسلمين ايضا. وان فساد العلماء وجشعهم وظلمهم قد ألب السكان عليهم.

وكان شيوخ المتصوفة الذين تخلوا في القرن الثامن عشر عن الكثير من مواقفهم المعارضة للسنة قد اقتسموا الجاه والمال مع علماء الدين في الامبراطورية العثمانية في القرن المذكور. وغطت الامبراطورية شبكة من جماعات الدراويش المتصوفة. وازداد عدد الدراويش كثيرا آنذاك، وارتبط بجماعاتهم كثير من المنظمات الحرفية والمهنية وسكان بعض الاماكن. وقد اشتهرت على نطاق واسع، مثلا، صلات جماعة الدراويش البكتاشيين مع الانكشارية.

وكان المتصوفة ما يزالون كالسابق يعلقون اهمية استثنائية على تقديس الاولياء الذين يضمون، عندهم، كل الانبياء من آدم حتى محمد وكثيرا من الصوفيين المشهورين. وكان هناك اولياء على قيد الحياة. وايد علماء الدين السنة كذلك تقديس الاولياء، وكل من عارض ذلك كان يجازف بالوقوع ضحية في ايدي المتعصبين. وكان المتصوفة ينشدون الاغاني ويعزفون على الآلات الموسيقية. وكان بعضهم يتعاطى المشروبات الكحولية ويدخن السجائر والمخدرات. كما كانوا يمارسون علم التنجيم والسحر وقراءة الفال.

كانت للجزيرة العربية علاقات واسعة في ميدان الفكر والثقافة، فضلا عن العلاقات الاقتصادية والسياسية، مع البلدان الاكثر تطورا في الشرقين الادنى والاوسط. ومع ذلك فان بعض العزلة لهذه الجزيرة الشاسعة وخصائص نظامها الاجتماعي قد ولدت الكثير من الاشكال الخاصة للحياة الروحية هناك.

المعتقدات والعبادات في الجزيرة العربية قبل ظهور الوهابية. مما يثير الانتباه انتشار الحنبلية في واحات نجد، وكان ذلك ظاهرة فريدة بالنسبة للعالم الاسلامي. وعندما يذكر مؤرخو الوهابية وفاة الاشخاص المشهورين في عصرهم لا ينسون العلماء الحنبليين. فما هي اسباب بقاء الحنبلية في هذه الارجاء؟

ان وسط الجزيرة المعزول بحكم طائفة من الملابسات عن المناطق الاخرى الاكثر تطورا في الشرق الاوسط لم يبتعد كثيرا عن مستوى النظام الاجتماعي الذي كان قد بلغه الحجاز في فجر الاسلام، اي مستوى المجتمع البدائي لدرجة كبيرة.

وفي العقائد الاسلامية المبكرة التي وضعت في القرون الاولى لنشوء الاسلام كثير من الاشكال الفكرية للعلاقات الاجتماعية للحجاز في فجر الاسلام، ومن اعراف وعادات مكة والمدينة التي باركتها الاحاديث. ولما كانت الحنبلية تعترف من حيث المبدأ بالاسلام المبكر فقط فقد كانت على العموم تستجيب لحاجات مجتمع وسط الجزيرة في القرن الثامن عشر.

كان وسط وشرق الجزيرة مهملين دوما من الامبراطوريات الاسلامية في الشرق الاوسط. وقد حافظا على اصالتهما. لذا كانت هناك ظروف ملائمة لمختلف تيارات «الزندقة» مثل الخوارج والاباضية. وخلال حقبة طويلة ظلت قائمة في الاحساء دولة القرامطة القوية ذات التركيب الاجتماعي الفريد.

اما بخصوص المناطق الاخرى في الجزيرة فان قسما كبيرا من سكان عمان كانوا ينتمون الى الطائفة الاباضية، وفي اليمن كانوا ينتمون الى الطائفة الزيدية الشيعية المعتدلة. وفي المناطق الشرقية والشمالية الشرقية للجزيرة والمرتبطة مع جنوب العراق ومع ايران كان الكثير من العرب من الشيعة. وفي بعض مناطق اليمن ونجران كان يقطن اليهود[١٧]. ويقول نيبور انه يصادف وجود صائبة في الاحساء[١٨].

ان الاغلبية في مدن وواحات الحجاز تتكون من المسلمين من مختلف المذاهب الاصولية.

وكانت جميع المذاهب الاسلامية في الجزيرة تتعايش بوئام مع عبادة الاولياء المنتشرة على نطاق واسع في الجزيرة كلها، بل حتى مع بقايا عبادة الاوثان. وقد ترك لنا ابن غنام وصفا مفصلا لمعتقدات سكان الجزيرة العربية[١٩]. فقد كتب عن الفترة التي ظهر فيها محمد بن عبد الوهاب يقول: «كان غالب الناس في زمانه متضمخين بالارجاس متلطخين بالانجاس... فعدلوا الى عبادة الاولياء والصالحين وخلعوا ربقة التوحيد والدين...«وكانوا يترددون على الاولياء او على اضرحتهم طالبين منهم عمل الصالحات او تخليصهم من المصائب والخائبات، ويرجون ذلك من الاحياء والاموات. وكثير منهم «يعتقد النفع والاضرار في الجمادات كالاحجار والاشجار... ولعب بعقولهم الشيطان... وجعلوا لغيره ما يجوز صرفه الى سواه وزادوا على اهل الجاهلية».

«وكان في بلدان نجد من ذلك امر عظيم والكل على تلك الاحوال مقيم». وفي وادي حنيفة كان هناك ضريح زيد بن الخطاب. وكانوا يترددون عليه راجين تخليصهم من المصائب والنكبات. وفي الجبيلة والدرعية كانوا يقدسون قبورا دفن فيها، كما يقال، بعض انصار الرسول. وفي منطقة الفدا كانت تنمو نخلة يأتي اليها الرجال والنساء يطلبون التبريك ويقومون «باقبح الافعال». وتتقاطر على النخلة النساء العانسات وكل منهن تصيح «اريد زوجا...». وكان الناس يلتفون حول النخلة ويعلقون عليها الزينة.

وعلى مقربة من الدرعية كان هناك غار مقدس يسمى غار بنت الامير يتركون فيه الخبز واللحم. ويقال ان بعض الارجاس ارادوا ذات مرة ان يوقعوا ببنت الامير، فاستعانت بالله وانفتح الجبل امامها عن الغار الذي صار محجة للعباد. وفي الخرج على مقربة من الدرعية، كان يعيش ولي اسمه تاج. وكانوا يتوجهون اليه طلبا للتبريك ويرجونه تحقيق المعجزات وازالة الغمة. وكانوا يدفعون له لقاء ذلك. اشتهر الولي بانه اعمى ولكنه يسير من غير قائد يقوده. وكان الحكام المحليون يخافونه.

وفي مكة يوجد ضريح ابي طالب وقبر ميمونة بنت الحارث ام المؤمنين وقبر خديجة وغيرهما. وكان الرجال والنساء يخاطبون هذه القبور بصيحات عالية

طالبين منها العون. وكان الشيء نفسه يجري عند قبر عبد الله بن عباس في الطائف.

ويقال إن «قبر حوى» موجود في جدة. وانشيء هناك معبد يأوي اليه المفلسون والمدينون واللصوص. وحتى الشريف لا يستطيع اخراجهم منه. ففي عام ١٧٩٥/١٧٩٦ التجأ الى هذا المعبد تاجر بلغت ديونه ٧٠ الف ريال، وبذلك ارغم دائنيه على تأجيل الدفع.

وكانت القرابين تذبح عند قبور الاولياء.

وفي اليمن كانت تجري مواكب يطعن المشاركون فيها انفسهم بالسكاكين.

وسمع ابن-غنام عن عبادة الاولياء خارج الجزيرة ايضا. ففي الشام ومصر الامثلة على ذلك كثيرة حتى ان المؤرخ لم يذكرها. واعرب عن استيائه كذلك من عبادة ضريح الامام علي في العراق. وكتب يقول ان الشيعة كأنما يعتقدون بأن زيارة هذا الضريح افضل من سبعين حجة. ويذكر ابن غنام الاضرحة والمساجد الكثيرة حول قبور الاولياء في البصرة والساحل الشرقي من الجزيرة العربية والبحرين.

وتوجد معطيات تفيد بوجود المتنبين في بعض الاماكن. وقد شجعهم محمد بن عبد الوهاب بحزم[٢٠].

وقال عبد الرحمن بن حسن حفيد محمد بن عبد الوهاب ان الاعراب كانوا آنذاك ينحرون القرابين للجن ويطلبون منها ان تشفيهم من الامراض[٢١]. وكتب بلغريف يقول: «قبل ظهور الوهابية كان سكان الجوف (في شمال الجزيرة)، شأنهم شأن جميع سكان الجزيرة، قد انهمكوا في عبادة شبه وثنية وراحوا يقدسون الجني المحلي». وحتى بعد مرور اكثر من مائة عام على ظهور الوهابية كان سكان الجوف، كما لاحظ بلغريف، «شأن اغلبية اشقائهم قد استبدلوا من زمان المحمدية بالصنمية المحلية والعبادة شبه السبائية والابتهالات الموجهة الى الشمس ونحر القرابين للموتى»[٢٢].

البدو والاسلام. يشير جميع دارسي الجزيرة العربية الى ان الاسلام يغرس

بصعوبة بين البدو. وقد اشار فولني في حينه الى موقف البدو اللامبالي من الفرائض الاسلامية. «فالبدو القاطنون على الحدود مع العثمانيين يتظاهرون بأنهم مسلمون لاعتبارات سياسية، ولكنهم ضعيفو الايمان وتدينهم ضعيف الى درجة يعتبرون معها كفرة ليس لديهم نبي ولا قانون. وهم بانفسهم يعترفون بأن دين محمد فوق مستواهم. فكيف نقوم بالوضوء اذا كنا لا نمتلك ماء؟ وكيف نقدم الصدقة اذا كنا لسنا اغنياء؟ وما حاجتنا الى الصيام في شهر رمضان اذا كنا صائمين طوال العام؟ ولماذا نذهب الى مكة اذا كان الله موجودا في كل مكان؟»[٢٣].

ويقول بور كهاردت ان البدو قبل الوهابية غالبا ما كانوا لا يعرفون الاسلام عموما[٢٤].

ويؤكد بلغريف «ان دين محمد لم يحدث طوال ١٢ قرنا الا تأثيرا ضعيفا او لم يحدث اي تأثير بين جماهير البدو الرحل... وفي الوقت نفسه فان البدو المحاطين بمسلمين صادقين بل متعصبين والمعتمدين عليهم احيانا كانوا يعتقدون في بعض الاوقات ان من الحكمة القول بأنهم مسلمون»[٢٥].

ويقول مونتان ان البدو الذين يهتدون بالاجرام السماوية في تجوالهم قد ابتدعوا عبادة الشمس والقمر والنجوم[٢٦]. واستنادا الى مراقبة قبائل شمال الجزيرة استنتج بلغريف «ان الاله بالنسبة للبدو هو زعيم يقيم اساسا، كما يخيل الينا، على الشمس وهم يجسدونه بالشمس بمعنى ما»[٢٧].

وهذا ما التفت اليه ايضا الرحالة الفنلندي فالين الذي طاف الجزيرة العربية في منتصف القرن التاسع عشر. فقد كتب يقول «ان قبيلة «معزة»، شأن اغلبية القبائل التي لم ترغم على تبني تعاليم الطائفة الوهابية الاصلاحية في فترة تصاعد سلطتها في الجزيرة، لا تعرف اطلاقا الدين الذي تعتنقه. وبالكاد اتذكر اني صادفت احدا من افراد القبيلة الذين كانوا يؤدون الفرائض الاسلامية او لديهم ابسط فكرة عن اصول الاسلام واركانه الاساسية. ويمكن في الوقت نفسه قول العكس بدرجة معينة عن البدو الذين صاروا من الوهابيين او كانوا منهم في السابق»[٢٨].

وبعد عدة عقود من رحلات فالين كتب دافليتشين وهو احد ضباط الاركان العامة في جيش روسيا القيصرية: «ان اعراب البادية لا يتميزون بالتدين اطلاقا، وهم يخلطون مع الدين كثيرا من العادات والاساطير الفريدة التي تتعارض تماما مع التعاليم الاسلامية»[٢٩].

وظلت باقية عند البدو عبادة الاجداد. فقد كتب جوسان ان البدو كانوا يقدمون القرابين للاجداد او لله عن طريق الاجداد. ويجري ذلك بفخفخة كبيرة بعد الانتصار في الغزو. ولا يفوت الرولة أي مناسبة لنحر ناقة على قبر جدهم احياء لذكراه[٣٠].

ويرتبط بعبادة الاجداد وجود «المركب» عند البدو، وهو عبارة عن هودج خاص على ظهر الجمل يعتقدون بانه ملجأ لروح جدهم، ولذا يقدمون له القرابين. ويجلس فيه الحادي وهو عبد او غلام، واحيانا بنت الشيخ أو اجمل فتاة في القبيلة تستحث المحاربين في القتال[٣١]. ولا بد ان نتذكر بهذا الخصوص كاهنات الجاهلية اللواتي كن يمتطين الابل ويستحثثن البدو في القتال.

وهكذا كانت في الجزيرة العربية قبيل ظهور الوهابية طائفة واسعة من المذاهب والاتجاهات الاسلامية ابتداء من الحنبليين وسائر مذاهب السنة وانتهاء بالزيدية والشيعة والاباضية. كما انتشرت على نطاق واسع عبادة الاولياء والصالحين، واختلطت بالاسلام او حلت محله المعتقدات والعبادات الجاهلية كالسحر والوثنية وعبادة الشمس والارواح والجمادات وعبادة الاجداد. تلك هي التركة الروحية التي نشأت على اساسها اراء محمد بن عبد الوهاب، وتلك هي البيئة التي عاش فيها.

التوحيد وشجب عبادة الاولياء هما اساس مذهب الوهابية. ان الطريق الذي قطعه محمد بن عبد الوهاب في تكوين مذهبه يتلخص، على ما نعتقد، في الدراسة المثابرة منذ الطفولة للفقه الاسلامي والطموح الى معالجة الدين وتغيير الحياة الاجتماعية طبقا للمثل العليا للاسلام بعد تفسيرها وفهمها بشكل متميز. ويمكن ان نتصور كيف أوضح ابن عبد الوهاب لنفسه الخلل والاضطراب والتشويش في العالم المحيط به: فقد نسي الناس الاسلام الحقيقي وذلك هو سبب الانحطاط الخلقي العام الذي تنجم عنه المشاكل السياسية والفوضى الاقتصادية

والركود والخراب. وبغية انقاذ العالم الغارق في الآثام لا بد من تنقية الدين واستعادة الشكل الذي كان عليه في القرون الثلاثة الاولى من نشوئه.

ان اهم فكرة كانت تدور في بال ابن عبد الوهاب اثناء رحلاته ودراسته للفقه هي التوحيد الذي هو المحور الرئيسي للاسلام. وهو يعتقد أن التوحيد يعني الاعتقاد بان الله وحده خالق العالم وسيده الذي يمنحه القوانين. ولا احد ولا شيء مما خلقه بقادر على الخلق مثله[٣٢]. والله ليس بحاجة الى معونة من احد مهما كان عزيزا عليه. والله على كل شيء قدير. وما من احد غيره يستحق التبجيل والاجلال والتقدير[٣٣].

الا ان العالم الاسلامي في رأي الوهابيين ابتعد عن مبادىء التوحيد. فالناس ينساقون وراء البدع التي هي ام الكبائر[٣٤]. ويمنحون ما خلقه الله صفات الخالق وقدراته. فهم يؤمون اضرحة الاولياء والصالحين ويقدمون لهم النذور والقرابين ويطلبون العون منهم معتقدين بأنهم قادرون على عمل المعروف والنهي عن المنكر[٣٥]. ويطلقون نعوت الله حتى على النباتات والاحجار، الامر الذي يتعارض مع التوحيد الحقيقي[٣٦].

وطالما لا يجوز «الاشراك بالله»[٣٧] او اطلاق نعوته على ما خلق فينبغي تحديد وضبط الشعائر، اذ ان البدع لا تجوز فيها ايضا.

ويقول الوهابيون: لا يجوز تقديم القرابين الا لوجه الله. ولا يجوز طلب المعونة الا من عند الله. ولا يجوز الاستجارة الا بالله[٣٨]. فالملائكة والرسل والاولياء والصالحون لا يمكن ان يشفعوا للمسلمين امام الله على آثامهم[٣٩]. ولا يجوز تقديم النذور الا لوجه الله[٤٠]. ولا يجوز الافراط في تبجيل الصالحين وانصار الرسول والاولياء. ولا يجوز بناء الحضرات حول قبورهم، ولا يجوز الافراط في العناية بقبورهم وتحويل اضرحتها الى اصنام. يجب احترام الاولياء وتقديرهم ولكن لا تجوز عبادتهم[٤١].

وكان للوهابيين موقف خاص من النبي محمد. فقد كانوا يعتبرونه انسانا من

البشر اختاره الله لاداء رسالة النبوة. ولكن لا يجوز تأليهه وعبادته ولا يجوز طلب شيء منه. كما لا يجوز تقديس قبره ولكن يمكن زيارته دون طلب شيء منه او الاستنجاد والاستغاثة به. الا انه سيشفع للمسلمين امام الله في يوم القيامة. ولا يجوز عبادة الاماكن المرتبطة بحياته(٤٢).

واعتبر الوهابيون جميع انواع العبادات والمعتقدات التي تتعارض مع هذه المبادىء «شركا».

ودعا محمد بن عبد الوهاب الى مكافحة السحر والشعوذة(٤٣) وقراءة الفأل مع انه لم يركز على ذلك. وشجب كذلك بقايا الوثنية مثل التعويذ والرقي والطلاسم(٤٤).

ان مصدر الاسلام في رأي الوهابيين هو الكتاب والسنة فقط. وكانوا يعترفون بالائمة الأربعة مؤسسي المذاهب السنية(٤٥)، وكذلك بشيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية وابن القيّم. (القرن الرابع عشر). ولكنهم رفضوا في الواقع نظريات وممارسات جميع الاجيال اللاحقة. وقد أخطأ بعض الرحالة والباحثين عندما قالوا إن الوهابيين يرفضون السنة كلها ولا يعترفون الا بالقرآن وحده(٤٦).

ان «الوهابية» تسمية اطلقها على هذه الحركة خصومها او الناس من غير ابناء الجزيرة. وقد ترسخت هذه التسمية في مطبوعات المستشرقين. اما اتباع محمد بن عبد الوهاب فكانوا يسمون انفسهم بالتوحيديين او المسلمين فقط، ولا يسمون بالوهابيين اطلاقا.

وقد اقتبس الوهابيون تشكيلة حججهم وتهجمهم الشديد على عبادة الاولياء وعلى البدع من ابن تيمية وابن القيّم. صحيح ان الوهابيين لم يتعمقوا في القضايا الدينية والفلسفية المعقدة كما فعل ابن تيمية. واعلنوا انهم يختلفون مع هذا الفقيه في بعض المسائل الشعائرية والمعيشية الطفيفة(٤٧). الا ان مؤلفات ومؤلفات ابن القيم كانت في الواقع ملازمة لهم. وقد استشهد محمد بن عبد الوهاب مرارا بمقتطفات من ابن تيمية وابن القيم. وظلت محفوظة بعض مؤلفات ابن تيمية منسوخة بخط

محمد بن عبد الوهاب[٤٨]. واستشهد بفقيهي القرن الرابع عشر كذلك مؤرخ الوهابيين ابن غنام[٤٩]. وكتب عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب يقول: «وعندنا ان الامام ابن القيم وشيخه (يقصد ابن تيمية) اما ما حق من اهل السنة وكتبهما عندنا من اعز الكتب»[٥٠].

لقد بعثت الوهابية في الاسلام النهج المتشدد الذي يرفض كل البدع ويدعو للعودة الى الكتاب والسنة غير المشوهة.

ومن ناحية الاصول الاسلامية يبدو الوهابيون من انصار الاستقامة في الدين الحنيف. وهذا هو رأيهم ورأي اغلبية الباحثين الموضوعيين من عرب وغيرهم، من معاصري حركتهم في بدايتها ومن ابناء الاجيال اللاحقة.

ويقول بوركهاردت ان فقهاء القاهرة المعارضين للوهابية عموما قد اعلنوا أنهم لم يعثروا على اثر للزندقة في تعاليمها، ولما كان هذا التصريح قد ادلى به اصحابه على مضض فهو لا يثير الكثير من الشكوك. وبعد ان قرأ العديد من فقهاء القاهرة كتابا ألفه محمد بن عبد الوهاب اعلنوا بالاجماع انه اذا كان هذا هو رأي الوهابيين فانهم، اي الفقهاء، يؤيدون هذه العقيدة دون قيد او شرط[٥١].

واكد الفقيه الجزائري الناصري ان معتقدات الوهابيين صائبة تماما[٥٢]. واشار المؤرخ البصري ابن سند الى ان الوهابيين هم حنبليو الازمان السالفة[٥٣]. ويعتقد ل. كورانسيز أن الوهابية هي الاسلام في نقاوته الاولى[٥٤].

وفي العصر الحديث كتب طه حسين يقول ان هذا المذهب... «ليس الا الدعوة القوية الى الاسلام الخالص النقي المطهر من شوائب الشرك والوثنية»(٥٥).

إلا أن الوهابيين الاوائل، كما نعتقد، طائفيون لانهم عارضوا المذهب السنّي بشكله الذي كان سائدا آنذاك وان كانت معارضتهم منطلقة من مواقع تنقية هذا المذهب. واعتمدوا على ابن تيمية في نضالهم ضد السنة القويمين (وشيخهم الغزالي). وكان النضال ضد المعتقدات السائدة انطلاقا من النزعة القويمة الاكثر تشددا يتسم بطابع طائفي مثل محاولات تحطيم أو تحديد أو تغيير بعض أسسها.

وفي القرن العشرين فقط، عندما ذابت او امحت المظاهر المتعصبة جدا في الوهابية فقدت الحركة نفسها شكلها الطائفي المتشدد.

وقد انتشر على نطاق واسع في المطبوعات الاوروبية والعربية نعت الوهابيين بالصفاء والنقاوة وبأنهم «بروتستانت الاسلام». وكان كورانسيز اول من استخدم هذا النعت[٥٦] وكرره بعده بور كهاردت[٥٧]. وتلك مقارنة للوهابيين بالتيارات الاوروبية في الحركة الاصلاحية في القرون الوسطى حسب سمة شكلية صرف، اي حسب الطموح الظاهري الى«تنقية» الدين الاول «الحقيقي» من الشوائب التي علقت به فيما بعد. ومن هذه الناحية فقط يمكن الكلام عن التشابه الخارجي بين ظاهرتين مختلفتين تمام الاختلاف من حيث مضمونهما الاجتماعي والسياسي، بل حتى الفقهي واللاهوتي.

لقد ظهرت الوهابية في ظل انفصام نفساني خطير وفي ظروف عدم الرضا عن حالة الحياة الروحية آنذاك، وكانت بمثابة رد فعل على الازمة الروحية في مجتمع الجزيرة العربية، وخصوصا مجتمع نجد، الذي كانت تهوم فيه، ربما بصورة غير واعية، مطامح تبتغي مثلا عليا جديدة.

ولم يكن محمد بن عبد الوهاب الشخص الوحيد الذي شعر بحاجة الى تجديد الاسلام في الجزيرة العربية ذلك العصر. فليس من قبيل الصدفة ان معلمه في المدينة المنورة عبد الله بن ابراهيم بن سيف كان يعد «سلاحا فكريا» لتغيير الدين. وكان فقيه صنعاء محمد بن اسماعيل (توفي عام ١٧٦٨/ ١٧٦٩) قد دافع في مؤلفاته عن الدين الخالص. وعندما سمع بدعوة محمد بن عبد الوهاب الف قصيدة في مدحه[٥٨]. وكان في اليمن فقيه اسمه محمد المرتضى (توفي عام ١٧٩٠) وكان يستنكر سلوك الدراويش [٥٩]. وفيما بعد نشط في اليمن فقيه آخر لقبه الشوكاني (توفي عام ١٨٣٤)، الف كتبا ووضع شروحا لمؤلفات ابن تيمية. وفي تلك الكتب والشروح رفض زيارة القبور وعبادة الاصنام معتبرا ذلك اشراكا بالله. وربما كانت له صلة بابن عبد الوهاب في نجد [٦٠].

ولا يستبعد ان هذه الاسماء ليست كل ما في قائمة الاشخاص الذين صاروا

وهابيين فيما بعد وصاغوا تعاليم الوهابية. وكما هو الحال اثناء الانعطافات الاجتماعية والسياسية الكبيرة الشأن بهذا القدر أو ذاك يظل تعليلها الفكري «معلقا في الهواء» ان صح القول. ووقعت بذور الدعاية الوهابية في تربة كانت معدة بهذا القدر او ذاك لتقبل المذهب الجديد ونمت حيثما توفرت الظروف الاكثر ملاءمة لتحقيق الافكار الاجتماعية والسياسية التي طرحها الوهابيون.

ان التعاليم الوهابية تتناول بقدر كبير ميدان علم اصول الدين، ولكن لها من الناحية الاجتماعية والسياسية مضمونا اصيلا لا جدال فيه. ولا يغير من جوهر الامر ان مؤلفات محمد بن عبد الوهاب تتكون بنسبة ٩٠-٩٥٪ من مقتطفات مأخوذة عن فقهاء القرون الاولى من نشوء الاسلام ومن الاحاديث الصحاح.

المضمون الاجتماعي للوهابية: تتضمن مؤلفات مؤسس الوهابية احكاما لا لبس فيها وهي تجسد مصالح الوجهاء ضد الفقراء. وتهدف إلى تأمين الاستقرار الاجتماعي. فالعامة يجب ان تخضع لاصحاب السلطة[٦١]، كما يؤكد طبقا لاصول الاسلام. وان عذاب الجحيم من نصيب كل متمرد على الامراء[٦٢].

واعتبرت الوهابية دفع الزكاة واجبا وليس مطلبا طوعيا، وبذلك جعلت عائدات السلطة من جميع الفئات للسكان، بمن فيهم البدو، مبدأ دينيا لا مناص منه[٦٣].

ان الاشخاص الذين يعتنقون الوهابية لا يعفون من واجباتهم ازاء اسيادهم أو دائنيهم. وقال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ان خصوم الوهابية يكذبون عندما يزعمون «بأن من دان بما نحن عليه سقطت عنه جميع التبعات حتى الديون»[٦٤].

و مع ذلك دعا الوهابيون الى العناية بالعبيد والخدم والاجراء[٦٥]. وكانوا يغازلون مشاعر الفقراء بمدح الفقر وذم الجشع زاعمين بأن الفقير يدخل الجنة بصورة اسهل[٦٦]. ولاحق الوهابيون في التطبيق نشاط المرابين[٦٧].

وكانت التعاليم الوهابية تدعو الى الوئام الاجتماعي: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته: فالامام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسؤولة عن رعيتها، والولد راع في

مال ابيه ومسؤول عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٦٨].

وكان ذلك، وان بصورة جزئية، هو هدف تقوية التبشير «باخوة» المسلمين[٦٩]. وبعد حوالى مائة وخمسين عاما من ذلك استخدمت فكرة «الاخوة» بشكل مكيف بعض الشيء في حركة الاخوان. واكد عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قائلا: «والعرب اكفاء بعضهم لبعض، فما اعتيد في بعض البلاد من المنع دليل التكبر وطلب التعظيم، وقد يحصل بسبب ذلك فساد كبير»[٧٠].

بديهي ان المذهب الوهابي ينطوي على طائفة من الاصول الاخلاقية الصالحة لمختلف فئات السكان. فقد اوصت الوهابية الناس بالطيبة والحرص[٧١] وتنفيذ الوعود التي يقطعونها على انفسهم[٧٢] وبالصبر[٧٣] والصدق ومساعدة الضرير وعدم ممارسة الافتراء والنميمة والثرثرة. وادانت الوهابية البخل والحسد وشهادة الزور والجبن[٧٤]. وحددت الوهابية ادق تفاصيل السلوك البشري. وقدمت النصائح فيما يخص كيفية الضحك والعطاس والتثاؤب والمعانقة والمصافحة والتنكيت وهلمجرا[٧٥].

ومما لا جدال فيه ان الوهابية كانت بقدر ما تتميز بالسمات الملازمة للحركات الشعبية التعادلية الموجهة ضد الظلم الطبقي المفرط. مع ان الفلاحين الذين يتعرضون للاستغلال قبل غيرهم لم يواجهوا ذلك باللامبالاة. فالفلاحون يلتزمون دوما جانب دعاة تخفيف او «تنظيم» الاستغلال. ولذلك حظي الوهابيون لدرجة كبيرة بتعاطف فلاحي نجد في اواسط القرن الثامن عشر.

ومع ذلك كان مركز ثقل المذهب الوهابي متواجدا في الميدان السياسي اكثر مما في الميدان الاجتماعي.

التعصب والجهاد. كان الوهابيون يعتبرون جميع المسلمين المعاصرين لهم والذين لا يؤمنون بتعاليمهم اكثر شركا من الجاهليين في الجزيرة العربية[٧٦].

وكان سليمان شقيق محمد بن عبد الوهاب قد تزعم لأمد طويل الحركات

المناوئة للوهابية في العديد من واحات نجد. وقد اشار الى ان التعصب من السمات الملازمة للوهابية. وكتب المؤرخ الحجازي ابن زيني دحلان «وقال له اخوه سليمان يوما كم اركان الاسلام يا محمد بن عبد الوهاب فقال خمسة فقال بل انت جعلتها ستة السادس من لم يتبعك فليس بمسلم هذا ركن سادس عندك للاسلام»[٧٧].

وكتب عن هذه الآراء المتطرفة ايضا ابن سند: «واعلم ان اتباع ابن سعود عندما قتل طُعَيس العبد الاسود ثوينيا (شيخ المنتفق في الفرات الاوسط) مدحوه وحمدوه بقتل ثويني لكونهم يعتقدون كفر ثويني بل كفر جميع من على وجه الارض من المسلمين الذين لم يعتقدوا معتقدهم...»[٧٨].

ان الوهابيين عندما عارضوا الشكل السائد للاسلام آنذاك قد ساروا الى ابعد من الطائفيين العاديين. ويعتقد بيلايف «ان اتباع جميع الاتجاهات والتيارات والطوائف في الاسلام يعتبرون مسلمين بموجب التصورات الراسخة لدى المسلمين انفسهم»[٧٩]. اما الوهابيون فلا يعتبرون خصومهم مسلمين بل مشركين وكانوا يعتقدون ان جميع الذين سمعوا دعوتهم ولم يتبعوها كفرة. وفيما بعد، كان موقف الوهابيين حتى من «اهل الكتاب» اخف من موقفهم من المسلمين غير الوهابيين. فقد سمحوا لليهود والنصارى بالصلاة في المنازل وفرضوا جزية طفيفة على كل واحد منهم[٨٠].

وعندما كان الوهابيون يحتلون واحة او مدينة يحطمون الشواهد والاضرحة على قبور الاولياء والصالحين ويحرقون كتب الفقهاء الذين يختلفون معهم [٨١].

وربما كانت الممارسات الدينية للوهابيين تختلف عن مذهب ابن عبد الوهاب ووصاياه الرسمية. وقد اتهم فقهاء كثيرون الوهابيين بعدم احترام الرسول. وينكر المؤلفون الوهابيون المحدثون جميعا هذا الاتهام بغضب شديد. ولعل الرغبة في التقليل من مكانة النبي محمد بوصفه «خليل الله» قد ادت عمليا الى التقليل من دوره في الاسلام وتجلت في «عدم الاحترام» المذكور.

وانتشر على نطاق واسع الرأي القائل بأن الوهابيين قد منعوا تعاطي

القهوة[٨٢]. الا ان الوقائع تدحض هذه الاقوال، ولكنه لا يستبعد ان بعض المتعصبين جدا قد رفضوا هذا الشراب.

واتخذ التعصب بين الوهابيين اشكالا متطرفة جامحة. فان اعتقادهم بأن خصومهم كفرة ومشركون صار مبررا للقساوة ضدهم. وفي الوقت نفسه صار التعصب وسيلة لتلاحم وانضباط الوهابيين حيث يستحثهم على تحقيق المآثر الحربية والقيام بالحملات والغزوات على المشركين. وهكذا تهيأت المقدمات الفكرية لاعلان الجهاد ضد جميع المختلفين مع الوهابيين.

فهل من داع للكلام عن المزايا التي يوفرها المذهب الوهابي للامير الذي يتسلح بهذا المذهب؟ فهو يتحول من زعيم لغزوة عادية على جيرانه الى مناضل في سبيل الدين النقي، اما خصومه فيصبحون من خدم الشيطان وعبدة الاوثان والمشركين. وعندما اعتبرت الوهابية الجهاد من اهم مسلماتها صارت منذ ظهورها ايديولوجية للتوسع الحربي.

الاتجاهات التوحيدية. لم تكن الوهابية مجرد راية لحروب الغزو والفتح، بل كانت تبريرا فكريا للاتجاهات التوحيدية في الجزيرة العربية. إن معارضة عبادة الاولياء وتحطيم اضرحة الصالحين وقطع الاشجار المقدسة ـ كل ذلك كان يعني في ظروف الجزيرة العربية تحطيم السند الفكري والروحي للتجزئة الإجتماعية. وإن وجهاء واحة ما عندما ظلوا بدون ولي خاص بهم قد فقدوا حقهم بالتفوق والاصالة كما فقدوا عائدات زيارة ضريح هذا الولي.

واكد الوهابيون ان على الناس البسطاء ان يطيعوا حاكمهم، الا اذا أمر بمعصية[٨٣]. وكان المناضلون في سبيل التوحيد، وعلى رأسهم ابن عبد الوهاب، هم اعلى جهة يرجع اليها الناس في تحديد المعصية. وان اي عمل يقوم به الحكام ضد امير الدرعية يعفي الرعية من واجب الانصياع لهم ويحطم سند سلطة الحكام المحليين.

وكانت الوهابية تنطوي بالدرجة الاولى على افكار توحيد نجد ووجهائها في

الصراع ضد خصومهم التقليديين اشراف الحجاز. لقد منعت الوهابية زيارة العتبات المقدسة في مكة والمدينة (ما عدا الكعبة) ومنها قبر الرسول، الامر الذي كان سيحرم الحجازيين من قسم كبير من عائداتهم. وفي تلك الظروف التاريخية كان الحجازيون يتعاطفون مع الصيغة الرسمية للاسلام في الامبراطورية العثمانية التي هي المصدر الرئيسي للحجاج. وكان فقهاء الحجاز يخشون من تضييع منزلتهم ومعها امتيازاتهم وعائداتهم في حالة انتصار الوهابيين. ولذا فمن الطبيعي ان علماء الحرمين لم يوافقوا على ان يقوم احد النجديين بتعليمهم الاسلام «الحقيقي».

ويتضح من احكام وممارسات الوهابية اتجاهها المحدد تماما والمناهض للصوفية، وعلى وجه الدقة شجبها للصوفية بالشكل الذي انتشرت به في الامبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر. صحيح ان تعاليم الوهابيين لم تتضمن تهجمات سافرة على هذا التيار في الاسلام. حتى ان عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قال ذات مرة انه ليس ضد الصوفية[٨٤]. الا ان هذا القول، على ما يبدو، مجرد استدراك تكتيكي. فمن وجهة نظر الوهابية الحقيقية المعتمدة على الكتاب والسنة وتعاليم فقهاء القرون الثلاثة الاولى للاسلام انها تعتبر الصوفية بدعة وواحدة من امهات الكبائر. وان شجب عبادة الاولياء ورفض السحر والشعوذة موجهان في الواقع ضد الدراويش المتصوفة. ولا يغيبنً عن البال ان منع التبغ والافيون[٨٥] والمسبحة والموسيقى والانشاد الصاخب وحلقات الذكر والرقص واحد من اهم محرمات الوهابية الثابتة[٨٦]. وكان هذا المنع يشمل على الاكثر الممارسات الفعلية. ففي مؤلفات الوهابيين نجد الاهتمام به اقل مما في كتابات الرحالة الاوروبيين.

وعندما عارض الوهابيون البدع من حيث المبدأ وساروا باحكام الحنبلية الى حدها الاقصى رفضوا في الواقع المذهب السني الرسمي للامبراطورية العثمانية، اي الحنفية. ولذلك يمكن القول إن الوهابيين عارضوا الاسلام بالشكل الذي كان قائما به في الامبراطورية العثمانية.

ان حظر التبغ والالبسة الحريرية والاحتفالات الصاخبة لم يكن يمثل مجرد موقف من البدع يطبق عمليا. فقد كان رد فعل لسكان نجد على المظاهر الخارجية لنمط حياة الوجهاء العثمانيين. وكتب بوركهاردت «ان الوهابيين يحتقرون الفخفخة في اردية الحجاج الاتراك»(٨٧). وقال ان اعراب الجزيرة متذمرون من المحاكم الفاسدة والتعسف في الامبراطورية العثمانية ومن لجاجة الاتراك ومن الشذوذ الجنسي الذي يمارسونه على المكشوف(٨٨). واشار ج. رايمون، وهو مدفعي فرنسي كان يعمل في خدمة والي بغداد، الى أن الميول المعادية للاتراك كانت منتشرة على نطاق واسع في الجزيرة العربية. وقال له أحد الأعراب: سيأتي اليوم الذى نرى فيه العربي جالسا على عرش الخلافة. فقد مر علينا زمان طويل ونحن تحت نير مغتصبي السلطة (٨٩).

ان تمرد الوهابيين على الاسلام العثماني، كما بينت الاحداث، قد تجاوز كثيرا الاطار الديني واتسم بطابع سياسي وعسكري. لقد كان ذلك صداما بين نظام الدولة العربي في الجزيرة وبين الامبراطورية العثمانية. وصارت راية للحركة الوطنية العربية ضد النفوذ العثماني في الجزيرة.

وكان اتجاه الوهابيين المستشرس ضد الشيعة ينطوي كذلك على جنين افكار النضال ضد الفرس بوصفهم من غلاة الشيعة، الا ان ذلك لم يظهر خلال الاحداث اللاحقة على نطاق واسع من الناحيتين العسكرية والسياسية.

***

كان مذهب الوهابية نتيجةلازمة روحية خطيرة في الجزيرة العربية اساسها العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وقد شكل هذا المذهب جناحا متطرفا للحنبلية، اذ رفض كل البدع في الفرائض والعبادات وطالب بالعودة الى الكتاب والسنة فقط.

ومن الناحية الاجتماعية كانت الوهابية تخدم مصالح الوجهاء، لكنها طالبت

بمعاملة العامة بالعدل والإحسان. وكانت في الوقت نفسه تنطوي على عناصر ملازمة لحركات المساواة التعادلية.

وعندما وضع مذهب محمد عبد الوهاب الوهابيين على طرفي نقيض مع سائر المسلمين حولهم الى طائفة متراصة واجج التعصب لديهم. وكانت ضرورة الجهاد ضد المشركين التي اعلنها مذهب الوهابية قد جعلت منه راية لحروب الفتح والغزوات.

وصارت الوهابية سلاحا فكريا لحركة التوحيد المركزية في شبه الجزيرة العربية.

وقد باركت الوهابية نضال وجهاء نجد السياسي والعسكري من اجل السيطرة في الجزيرة العربية ضد الحجازيين بالدرجة الاولى.

وعندما عارضت الوهابية شكل الاسلام السائد في الامبراطورية العثمانية تحولت الى صيغة فكرية للحركة الوطنية لعرب الجزيرة ضد الاتراك.

ووجد الوهابيون تربة صالحة في الواحات. فمع ان الكثير من توجهات الوهابية، وبالدرجة الاولى تسديد الزكاة، قد نفر البدو، وخصوصا ابناء القبائل الكريمة المحتد، ناهيك عن عدم مطابقة الكثير من التصورات الاسلامية لمعتقدات وعبادات البدو الرحل. الا ان افكار الجهاد التي اعلنتها الوهابية، اي الغزو تحت راية الاسلام، تنطوي على سمة جذابة بالنسبة للبدو. وعلى هذا الاساس كان بالامكان انضمام البدو الى الوهابيين والتحالف بين وجهاء الحضر ووجهاء البدو في ظروف معينة ولفترة زمنية محددة.

محمد بن عبد الوهاب وخطواته الاولى في السياسة. عندما انتقل محمد بن عبد الوهاب الى العيينة سارع الى كسب رضا الامير عثمان بن حمد بن معمر. وقال له حسبما رواه المؤرخون: «اني ارجو ان انت قمت بنصر لا اله الا الله ان ينصرك الله تعالى وتملك نجدا واعرابها». وكان هذا الاقتراح يناسب الامير. وسرعان ما ربطت اواصر القربى بين عائلتي محمد بن عبد الوهاب وحاكم العيينة(٩٠).

وبغية تحقيق احكام الوهابية شرعا بتدمير الاضرحة المحلية. وقطع محمد بن عبد الوهاب شخصيا الشجرة التي كان سكان تلك المنطقة يقدسونها[٩١].

ثم جاء دور ضريح احد الصحابة وهو زيد بن الخطاب المدفون في الجبيلة. وكان ذلك ضريحا محليا يتوارد عليه الزوار. «اراد سكان الواحة ان يقاوموا تدمير ضريح وليهم، ولكن عثمان ومعه ستمائة محارب كان يحمي محمد بن عبد الوهاب الذي حطم شاهد القبر بنفسه[٩٢].

وبعد ذلك جرى في الواحة رجم امرأة اقترفت اثما. وطبق ابن عبد الوهاب احكام الشريعة حرفيا فأمر برجمها بالاحجار[٩٣]. ويقول ابن غنام: «فخرج الوالي عثمان وجماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت، وكان اول من رجمها عثمان المذكور، فلما ماتت امر ان يغسلوها وان تكفن ويصلى عليها[٩٤]. وشاع نبأ هذا الحادث في الارجاء مثيرا الرعب في قلوب الذين انحرفوا عن الاسلام الحقيقي، كما يقول ابن غنام[٩٥]. واعلنت الوهابية عن نيتها في تطبيق مبادئها دون رحمة.

وبلغ نبأ هذه الجريمة اسماع حاكم الاحساء والقطيف وبدو أطرافهما سليمان بن محمد بن غرير الحميدي، الذي كانت العيينة تعتمد عليه بقدر ما. ولما كان جزء من تجارتها يمر عبر مرافئ الاحساء، زد على ذلك ان امير العيينة كانت له في الاحساء بساتين نخيل واملاك اخرى يستلم منها عائدات، امر سليمان الحميدي عثمان بقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهدده، ان لم يفعل، بقطع مؤن الاغذية والالبسة عنه وحرمانه من العائدات [٩٦].

ولعل اسباب تصرف سليمان الحميدي هذا تعود الى الضغط الذي مارسه عليه العلماء المحليون المستاؤون من انتشار المذهب الجديد الذي ينسف مواقعهم. زد على ذلك ان زعيم بني خالد كان، على ما يبدو، يخشى من تزايد قوة الوهابيين الذين اعتبرهم خطراً على سلطته.

الا ان امير العيينة لم يتجرأ او ربما لم يرغب في قتل الشيخ المتنفذ فنفاه[٩٧]. ولا يستبعد ان عثمان بن معمر كان يريد الانتظار بعض الوقت ليعيد الفقيه الذي لا يقر له قرار.

واستقر محمد بن عبد الوهاب في الدرعية عام ١٧٤٤ ـ ١٧٤٥ [٩٨]. وكانت عنده في هذه الواحة جماعة من الاتباع ومنهم اثنان من اخوان اميرها محمد بن سعود وكذلك زوجة الامير. ونزل محمد بن عبد الوهاب عند أحد تلاميذه وشرع حالاً بالاتصال بحاكم الدرعية وساعد شقيقا الامير وزوجته على التقارب بينهما وكان محمد بن سعود الذي يعد خططا حربية طموحة مطلعا على مذهب الفقيه المشهور، لذا قدر آفاق الوهابية حق قدرها.

وتوافقت رغبة محمد بن عبد الوهاب الذي ينشد الدعم العسكري ورغبة الامير الطموح الذي ينشد الدعم الديني في توحيد جهودهما وتم التحالف المنشود. وطلب ابن سعود من محمد بن عبد الوهاب ان لا يغادر الدرعية وسعى الى جعله يوافق على الضرائب السابقة المفروضة على سكان الواحة. وقال له الامير «ان لي على الدرعية قانونا آخذه منهم في وقت الثمار واخاف ان تقول لا تأخذ منهم شيئا». الا ان محمد بن عبد الوهاب وافق على الشرط الاول ورفض الثاني ووعد ابن سعود بان غنائمه من الغزوات والجهاد ستكون اكبر من هذه الضريبة [١٠٠].

ويبين ذلك ان امير الدرعية حاول ان يحتفظ بحق رعيته، وهو أمر مرفوض على ما يبدو، من وجهة نظر الشريعة الاسلامية. الا ان محمد بن عبد الوهاب الأبعد نظرا اقترح على ابن سعود ان يتخلى عن تلك الضريبة وذلك بغية تحقيق هدفين، هما الحفاظ على نقاوة المذهب وكسب تأييد السكان المحليين الذين خفت اعباؤهم في الحال. وكان محمد بن عبد الوهاب يرى ان ذلك كله يمكن التعويض عنه، وقد تم التعويض عنه فعلا بالغنائم الحربية الهائلة.

بهذا تنتهي المرحلة الاولى من تاريخ الوهابية، وهي، ان صح القول، مرحلة التطور الجنيني والتجريب والاخفاقات والصياغة السياسية. ومنذ الانتقال الى الدرعية ارتبطت حياة محمد بن عبد الوهاب ارتباطا لا ينفصم بمصير امارة الدرعية والدولة السعودية.

الفصل الثالث

قيام الدولة السعودية الاولى (١٧٤٥-١٨١١)

على أثر انتقال محمد بن عبد الوهاب الى الدرعية لحق به الكثير من اتباعه من العيينة وسائر واحات نجد.

كانت عاصمة الدولة السعودية الشاسعة آنذاك تعيش حياة البؤس. ولم يتمكن ابن سعود حتى من تأمين الاغذية لاعز تلاميذ محمد بن عبد الوهاب الذي كان يمارس تاثيره بقوة الاقناع فقط (١).

واطلع محمد بن عبد الوهاب اتباعه وانصاره على مبادىء مذهبه وأوحى لهم فكرة ضرورة الجهاد ضد الكفرة (٢).

وبعد أولى غزوات الدرعيين على جيرانهم وزعت الغنائم بالعدل طبقا لاحكام الوهابية: الخمس لابن سعود والباقي للجند: ثلث للمشاة وثلثان للخيالة. وكان التمسك بالوهابية يكافأ ماديا. واذا كان الغزو السابق مجرد حملة شجاعة، فقد تحول الآن الى انتزاع اموال المشركين واحالتها الى المسلمين الحقيقيين.

ولم تكن عمليات الوهابية الحربية تختلف عن النزاعات العادية بين الدويلات - الواحات. غارة سريعة وكمين تنصبه بضع عشرات من المحاربين وبضع عشرات من الابل أو الاغنام التي يتم الاستيلاء عليها في حالة الانتصار واشجار نخيل مقطوعة وحقل منهوب أو عدة منازل منهوبة - تلك هي «منجزات» الدرعيين في السنوات الاولى بعد مجيء محمد بن عبد الوهاب اليهم.

الا ان راية تجديد الدين منحت امير الدرعية وزنا ومنزلة. واخذ مؤرخو نجد يلقبونه بالامام. وصار يعتبر اميرا للمؤمنين، أي لجميع المنضمين الى الوهابية. واثناء الصلاة كان في مقدمة جمهور المصلين.

فرض زعامة الدرعية في وسط نجد. كان المحاربون من العيينة بزعامة عثمان بن معمر انصارا ثابتين للدرعيين، حتى ان أميراً من العيينة قاد القوات التي توحدت في السنوات الاولى[٣]. وارتبط عثمان بن معمر بالسعوديين بصلة قربى حيث زوّج ابنته من عبد العزيز بن محمد. وفي عام ١٧٤٨ ولد ابنهما سعود الذي بلغ الوهابيون اوج قوتهم في عهده[٤]. الا ان العداء حتى الموت بين الاقارب كان ظاهرة عادية تماما في الجزيرة العربية، فلا داعي للدهشة من تطور الأحداث لاحقا. وكان لموقف محمد بن عبد الوهاب، الذي لم ينس ان أمير العيينة نفاه منها، أهمية حاسمة في التنافس بين حكام الدرعية والعيينة.

واتهموا امير العيينة كذلك بأنه اجرى مراسلات سرية مع حاكم الاحساء محمد بن عفالق وأعد العدة للخيانة. وفي حزيران (يونيو) ١٧٥٠ قتله الوهابيون من ابناء واحته بعد صلاة الجمعة. وصار حاكما للواحة قريبه مشاري بن ابراهيم بن معمر المعتمد على الدرعية[٥]. وبعد عشر سنوات فقدت العيينة استقلالها نهائيا. فقد نحى محمد بن عبد الوهاب مشاري واسكنه الدرعية مع عائلته وعين بدلا منه شخصا خاضعا للسعوديين كليا. ووصل محمد بن عبد الوهاب شخصيا الى العيينة وامر بتدمير قصر آل معمر[٦].

وبعد خمس سنوات من التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود كانت سلطة امير الدرعية ما تزال موضعا للشك والمجادلة حتى في أقرب الواحات. وفي ١٧٥٠ ـ ١٧٥٣ حاولت امارات منفوحة وحريملا وضرمى، التي كانت بين اوائل الذين تحالفوا مع الوهابيين، ان تفصم عرى التبعية للدرعية[٧]. وشجع الانتفاضة في حريملا سليمان شقيق محمد بن عبد الوهاب. وبعث الى ارجاء نجد كافة رسائل شجب فيها تعاليم اخيه. وبتأثير الدعاية المناهضة للوهابية بدأت

القلاقل حتى في العيينة[8]. الا ان عبد العزيز استطاع مع ٨٠٠ من المشاة و ٢٠ من الخيالة الاستيلاء على حريملا في عام ١٧٥٥، وفر سليمان الى سدير[9].

وظل امير الرياض دهام بن دواس المنافس الرئيسي للسعوديين. وكانت الغزوات من الدرعية والرياض على بعضهم بعضاً تجري كل عام تقريبا. وقاتل مع دهام على التوالي سكان مناطق وواحات الوشم وسدير وثادق وحريملا، الا ان الوهابيين كانوا، في الغالب، هم الجانب المهاجم.

وعلى مسرح الاحداث في نجد ظهر الاحسائيون من جديد في اواخر الخمسينات، وقد قادهم خلال بضع سنوات حتى ذلك الحين زعيم نشيط هو عريعر ابن دجين. فقد قاموا بحملة على وسط الجزيرة، ولكنهم لم يوفقوا فيها. وانتقلت المبادرة مرة اخرى الى الدرعية.

وفي اواخر عام ١٧٦٤ قام زعيم القبائل البدوية في منطقة نجران الحسن بن هبة الله بحملة على الدرعية. ودحر قوات عبد العزيز عن آخرها، حيث كبدها حوالى ٥٠٠ قتيل و ٢٠٠ اسير. وابدى محمد بن عبد الوهاب دهاء دبلوماسيا كبيرا فسارع لعقد الصلح على اساس دفع تعويضات الحرب وتبادل الاسرى. وانسحب النجرانيون دون ان ينتظروا وصول عريعر من الاحساء[10].

ووصلت قوات عريعر المسلحة بالمدافع الى ضواحي الدرعية في بداية عام ١٧٦٥. وانضم اليها الكثير من النجديين، بمن فيهم دهام امير الرياض وزيد بن زامل امير الخرج. الا ان حصار الدرعية اخفق [11].

وفي ذلك العام توفي محمد بن سعود. وخلفه عبد العزيز. ويشير ابن غنام وابن بشر الى ان عبد العزيز لم يكن ولي العرش فقط، بل كان اماما للوهابيين.

وبعد الهزة التي نجمت عن الهزيمة امام النجرانيين وغزو الاحسائيين تماثلت امارة السعوديين للشفاء بسرعة. واستمر توسعها بوتائر متسارعة، وفي اواخر الستينات اخضع الوهابيون كليا الوشم وسدير وهاجموا واحة الزلفى الواقعة شمال شرقي مقاطعة القصيم النجدية الغنية وشنوا حملات ناجحة على البدو

جنوبي وشرقي نجد. وخضعت مفارز من قبائل سبيع والظفير للوهابيين. وفي عام ١٧٦٩ ـ ١٧٧٠ اقسم القسم الاكبر من القصيم يمين الولاء للوهابية والسعوديين(١٢).

وفي هذه الظروف غدا وضع الرياض المطوقة من جميع الجهات باتباع او حلفاء الوهابيين ميؤوساً منه. وفي احدى المناوشات قتل الدرعيون اثنين من ابناء دهام. وتدهورت معنويات امير الرياض العجوز. وعندما وصل الوهابيون في صيف ١٧٧٣ الى الرياض رأوا ان المدينة خالية من سكانها. وفر امير الرياض مع عائلته. وحذت حذوه اغلبية السكان الذين كانوا يخشون، وليس بدون حق، من ثأر خصومهم القدامى. وهلك كثير من سكان الرياض في الطريق بسبب الحر والعطش، كما سقط الكثيرون بسيوف الوهابيين (١٣). وانتهى الصراع من أجل السيطرة في وسط نجد بعد أن استغرق حوالى ربع قرن. ولكنه لم يخرج عن نطاق النزاع القبلي. وتفيد حسابات المؤرخين، التي هي ربما اقل مما في الواقع، ان عدد القتلى بلغ ٤ ـ ٥ آلاف شخص يشكل اتباع دهام اكثر من نصفهم. ويمكن ان نوافق على رأي فيلبي الذي كتب يقول: «حتى ذلك الحين كان عبد العزيز يتربع منذ ثماني سنوات على عرش الدرعية التي كانت اكبر شأنا بقليل من سائر (primus inter pares) الدويلات العديدة في الجزيزة العربية(١٤). الا ان الوهابيين حصلوا على قاعدة متينة لمواصلة توسيع دولتهم.

كانت سلطة السعوديين قائمة ليس فقط على قوة السلاح. فكل واحة تضم الى الدولة يصلها من الدرعية علماء وهابيون يدعون الى التوحيد الحقيقي. وأخذ قسم من سكان نجد يعتبر الدرعية لا مجرد عاصمة لامارة قوية بل مركزا روحيا، ويعتبر حكام الدرعية ليسوا مجرد امراء اقوياء بل مناضلين في سبيل نقاوة الدين. ولا يغيبن عن البال أن العلماء وانصار الوهابيين في الامارات المعادية للدرعية كانوا يفتتون المقاومة من الداخل.

على العموم لقد تمكن السعوديون بصعوبة كبيرة، رغم الجهود الهائلة، من قهر مقاومة الامراء المستقلين. وكان واضحا اثر قوى التجزئة واللامركزية

والفوضى القبلية. لذا تعين مرور عشرة أو اثني عشر عاما على سقوط الرياض لتقع نجد بكاملها تحت سيطرة الدرعية.

توحيد وسط الجزيرة العربية. بعد ضم الرياض صار الخصم الرئيسي للسعوديين في نجد، زيد بن زامل، الامير الداهية الشجاع وحاكم الدلم ومنطقة الخرج كلها. وقد حاول من جديد اجتذاب قبائل نجران للمشاركة في مكافحة الوهابيين. ولهذا الغرض توجه بطلب الى أمير نجران ليرسل محاربين لنجدته ووعده بمكافأة معينة. ووصل ابناء نجران ولكنهم بدلا من تقديم النجدة اخذوا يبتزون النقود وينبهون سكان الخرج. فأخفق التحالف المنشود.

وفي منتصف السبعينات دخل محاربو بني خالد وعلى رأسهم عريعر نجد قادمين من الاحساء واحتلوا بريدة في القصيم ونهبوها بوحشية. وكان العديد من حكام واحات نجد المتذمرين من سلطة السعوديين مستعدين لدعم الاحسائيين، ولكن عريعر توفي بغتة. وبدأ عند بني خالد صراع من أجل الرئاسة. وفاز في هذا الصراع مؤقتا احد ابناء عريعر وهو سعدون، الا ان أمراء الدرعية اخذوا يحرضون اخوانه ضده (١٥).

وخلال السنوات القليلة التالية كان الاحسائيون يظهرون في نجد كل عام تقريبا. وشاركت مع بني خالد في الغزوات قبائل سبيع والظفير. وكان عدد من واحات نجد تارة ينضم الى الوهابيين وتارة ينفصل عنهم ويعمل بصورة مستقلة وتارة يتحالف مع اعداء الدرعية.

ويبين مشهد هام ذكره منجين سير العمليات الحربية آنذاك. فقد انشأ الوهابيون قرب الدلم قلعة للتضييق على عمليات مفارز زيد بن زامل. وكانت مشارف القلعة صعبة المنال وقد وقفت في حمايتها عساكر وهابية مختارة. وبغية اخراج العدو من القلعة انشأ اهل الدمل، باشراف احد الفرس القاطنين في الواحة، برجا متنقلا على اربع عجلات ولبسوه بالرصاص لحمايته من النار. ودخله محاربون ودحرجه آخرون نحو القلعة. الا انه تلكأ عند مشارفها، ولم ينقذ المحاربين القابعين في البرج المتنقل الا عملية مستميتة لمفرزة من شجعان الدلم (١٦).

ورغم المقاومة وسعت الدولة السعودية نفوذها وأراضيها بالتدريج. وبعد احتلال الوهابيين لواحة المجمعة توقف عمل انشط الدعاة المعاديين للوهابية، ونعني سليمان بن عبد الوهاب. فقد نقل مع عائلته الى الدرعية حيث ظل حتى وفاته (١٧).

وفي مطلع الثمانينات تقرر مصير القصيم نهائيا، فطوال عدة سنوات استمرت القلاقل والنزاعات التي تخللتها عمليات ضد الدرعية. ولم يخفت أوار العداء القديم، وظل باقيا مفعول علاقات التحالف والترابط والنفور والتضاد السابقة. وفي عام ١٧٨٢ دخل القصيم سعدون بن عريعر على رأس قوات بدوية من بني خالد وشمر والظفير. وكان مصمما على طرد الوهابيين. وانضم اليه زيد بن زامل وقواته. وطوال عدة اسابيع حاصروا بريدة التي ظلت موالية للوهابيين، ولكن دون جدوى هذه المرة. وانحل الائتلاف المعادي للوهابيين وغادر الاحسائيون نجد (١٨).

وفي عام ١٧٨٣ قتل زيد بن زامل. وتزعم الدلم ابنه براك. الا ان مكانة الامير الجديد كانت مضعضعة بسبب التنافس داخل الاسرة الحاكمة (١٩).

وفي الفترة ١٧٨٣-١٧٨٦ اصاب نجد جفاف مرعب وتفشت المجاعة. وغدت حالة الخرج التي حاصرها الوهابيون ميؤوساً منها. وفي عام ١٧٨٥تم احتلال الدلم بهجوم سريع، وقتل الامير وبعض انصاره. واقسمت منطقة الخرج كلها يمين الولاء للسعوديين. وعين القائد العسكري الوهابي سليمان بن عفيصان حاكما للدلم(٢٠).

وفي تلك السنوات على وجة التقريب خضعت للدرعية الافلاج والدواسر، مع ان الانتفاضات ضد الوهابيين استمرت امدا طويلا في الدواسر (٢١).

وشعرت أقوى القبائل البدوية في الجزيرة العربية بثقل قبضة حكام الدرعية. وعندما دحر الوهابيون بدو الظفير في عام ١٧٨١ انتزعوا منهم كل ما يملكون: ادوات المخيمات و ١٧ الف نعجة وماعز و٥ آلاف جمل و١٥ حصانا(٢٢) وقام الوهابيون كذلك بغزوات على آل مرة وقحطان وسبيع وبني خالد. وتوغلوا في الشمال واخضعوا جبل شمر في النصف الثاني من الثمانينات (٢٣).

واكتمل التفاف اراضي وسط الجزيرة حول الدرعية. ومع ان بعض العمليات كانت ما تزال جارية في بعض المناطق ضد السعوديين فلم يعد جائزا اعتبار الامراء المحليين من منافسيهم. وفي افضل الاحوال كانوا شبه تابعين لهم، وفي الغالب كانوا صنائع مباشرين للدرعية يؤدون دور الولاة (٢٤).

وادى تعزز سلطة آل سعود ونفوذهم عموما الى جعل عبد العزيز ومحمد بن عبد الوهاب يقدمان في عام ١٧٨٨ على خطوة هامة. فقد امنا لسعود حق ولي العرش بالوراثة والامام عبد العزيز ما يزال على قيد الحياة. واخذ محمد بن عبد الوهاب على عاتقه مهمة جعل مدن ومناطق الدولة تقسم يمين الولاء. وكان سعود قد حظي اصلا بشعبية واسعة بفضل بسالته وانتصاراته الحربية ومشاركته في تصريف شؤون الدولة (٢٥). وكان الاعلان عن ولي العهد قد عزز اسرة آل سعود لأنه امن انتقال السلطة بصورة اسهل نسبيا من الامير الى ابنه.

ان وراثة الابن لابيه شيء معتاد في الجزيرة العربية ولكنه غير الزامي. فالسلطة كانت تنتقل حسب الاقدمية في العمر داخل الفخذ وحسب السجايا الشخصية لأقرب الأقرباء. وتعود الكلمة الحاسمة في اختيار الامير الجديد الى كبار الوجهاء. وان اصرار المؤرخ الوهابي ابن غنام على تبرير شرعية يمين الولاء لسعود يشير الى ان فكرة لزوم انتقال السلطة من الأب الى ابنه صادفت، على الأرجح، بعض المقاومة والاعتراض.

وبالاعتماد على موارد وسط الجزيرة بدأ الوهابيون تقدما ناجحا في جميع الاتجاهات: نحو الشرق والشمال الشرقي - الى الاحساء وجنوب العراق، ونحو الغرب - الى الحجاز، ونحو الجنوب الغربي - الى اليمن، ونحو الجنوب الشرقي - الى عمان، ونحو الشمال الى حدود الشام.

الوهابيون في شرقي الجزيرة. مما سهل هجوم الوهابيين على الاحساء النزاعات الداخلية في هذه المنطقة الغنية. وفي عام ١٧٨٥ - ١٧٨٦ دبر اقرب اقرباء سعدون بن عريعر مؤامرة ضده. وطلبوا من شيخ المنتفق ثويني بن عبد الله ان يؤيدهم. فبدأت العمليات الحربية.

مُني سعدون بالهزيمة في الاشتباك الحاسم وولى هاربا. وطلب من الدرعية ان تمنحه اللجوء فاستقبلته بحفاوة. وتفيد بعض المعلومات انه سرعان ما توفي بعد ذلك. وصار دويحس، لبعض الوقت، حاكما للاحساء (٢٦).

وخف ضغط الوهابيين على الاحساء فترة قصيرة بسبب الغارة غير المتوقعة التي قام بها شيخ المنتفق ثويني على القصيم في ١٧٨٦ـ١٧٨٧ . فقد جمع قوات كبيرة مزودة بالمدفعية. وشاركت معه في هذه الغزوة بعض قبائل شمر وكذلك سكان الزبير. وحطمت قوات ثويني عدة قرى في القصيم ولكنها ردت على اعقابها(٢٧).

وبعد ان عاد ثويني الى منطقة قبائل المنتفق اراد ان يستولي على البصرة ويعلن نفسه حاكما لها. الا ان والي بغداد سليمان باشا، المستقل في الواقع عن الباب العالي، هجم ثويني في خريف ١٧٨٧ وهزمه قرب مدينة سوق الشيوخ، ثم امر فيما بعد برصف ثلاثة ابراج من جماجم قتلاه. وفر ثويني وصار حمود بن ثامر شيخا للمنتفق(٢٨).

وكثيرا ما نصادف في كتابات مؤرخي الجزيرة، التي تتناول بداية نشاط الدولة الوهابية، معلومات عن الاشتباكات بين قوات السعوديين والبدو. ولكنه في أواخر الثمانينات نلاحظ مشاركة متزايدة من بدو بعض القبائل في الحملات التي يشنها الوهابيون انفسهم. وقد كرر ابن بشر الاشارة الى ذلك مرارا.

وكان الوهابيون يقومون سنويا بحملات على اعماق الاحساء حتى بلغوا سواحل الخليج. ولم يكتف الوهابيون بغزو واحات شرق الجزيرة وقبائل بني خالد، بل هاجموا كذلك قبيلة المنتفق شمالي الاحساء (٢٩).

وقمع الوهابيون المقاومة بمنتهى القسوة. فقد كتب ابن غنام ان الوهابيين عندما عادوا ذات مرة من الواحات وجدوا «اكثر الرجال... في بيت من البيوت، وكانوا ثلاثمائة نفس فقتلوا جميعا»(٣٠).

وفي خريف ١٧٨٨ صار بعض افخاذ قبيلة بني خالد يقاتل في صف

الوهابيين. ونصبت الدرعية زيد بن عريعر شيخا لمشايخ بني خالد. الا ان الاحساء كانت ما تزال غير راضخة بعد[31]. فان المقاومة اللاحقة التي ابداها سكانها وانتفاضاتهم المتكررة تدل على ان الميول المعادية للوهابية كانت قوية هنا. وربما يعزى ذلك الى وجود عناصر شيعية قوية في الاحساء، والى كون وجهائها الذين تعودوا على اعتبار النجديين جهة لهجماتهم لم يستطيعوا الرضوخ لدور الخضوع.

وفي ١٧٩١ - ١٧٩٢ اجتاح سعود بالحديد والنار واحات شرقي الجزيرة فاحتل القطيف. وفي تلك الاثناء قام سليمان بن عفيصان بغزوة على قطر[32]. الا ان الاحساء كلها سرعان ما هبت في انتفاضة عارمة. ودحر بنو خالد صنيعة الوهابيين، وصار شيخا للاحساء، براك بن عبد المحسن، الذي بدأ غزواته فورا على البدو والواحات الخاضعة للسعوديين الا ان بني خالد اندحروا في احدى المعارك ففقدوا اكثر من الف شخص. واعربت واحات الاحساء عن خضوعها لسعود. وظل الوهابيون شهرا في هذه المنطقة فدمروا قباب الاضرحة وجميع العتبات المقدسة للشيعة. وتوجه العلماء الوهابيون الى المدن والواحات هناك [33].

وفي معمعان اخضاع الاحساء، في عام ١٧٩٢، توفي مؤسس الحركة الوهابية محمد بن عبد الوهاب[34]. وكان شخصية بارزة بالنسبة لعصره ومجتمعه وطبقته. وكان يتحلى ببسالة وحماسة متناهيتين. فان تحدي النظام الديني في الجزيرة العربية آنذاك ومواجهة حماة القديم الهائجين يتطلبان بسالة منقطعة النظير. وتعرضت حياته للخطر مرارا، وقد اجلى ثلاث مرات، ولكن ذلك لم يثن عزيمته. وساعد محمد بن عبد الوهاب لدرجة كبيرة، بخطبه الحماسية وبلاغته، على نجاح الحركة الدينية التي بدأها وعلى توسيع الدولة السعودية. وكتب ابن بشر عنه انه نشر «راية الجهاد بعد ان كانت فتنا وقتالا»[35]. ويقول منجين: «كان يتحلى باكبر قدر من فن الاقناع ويخلب الالباب بخطبه...»[36].

ويشير مؤلف «لمع الشهاب» إلى نقطة هامة أخرى وهي ان محمد بن عبد الوهاب بالذات علم سكان الدرعية، كما يزعمون، على صنع واستخدام السلاح الناري[37]. واذا كان قد اضطلع بهذا الدور الذي لا يميز الفقهاء فيمكن الافتراض بان مكانته في

تأسيس امارة الدرعية وانتصاراتها الحربية كانت اكبر مما يشير اليه مؤرخو نجد.

كان محمد بن عبد الوهاب يتحلى بهمة حياتية فائقة. ويقول منجين انه «كان يهوى النساء وله عشرون زوجة انجب منهن ١٨ طفلا» [٣٨] ولعل في ذلك شيء من المبالغة. وقد غدا خمسة من ابنائه وكثير من احفاده فقهاء معروفين.

وترك محمد بن عبد الوهاب لورثته ارضا فيها نخيل واشجار فاكهة وحقول تبلغ عائداتها ٥٠ الف درهم ذهبي سنويا، بالاضافة الى مكتبة تضم بضع مئات من الكتب. وبعد وفاة محمد بن عبد الوهاب صار ابنه حسين، وهو ضرير تقريبا، مفتيا للدرعية، وبعده شغل اخوه هذا المنصب.

ان اسرة الفقهاء التي صارت تسمى آل الشيخ قد احتفظت بوزنها ونفوذها ومكانتها في الدولة السعودية حتى اليوم، ولكن احدا من احفاد محمد بن عبد الوهاب لم يرتفع الى منزلة مؤسس الوهابية في امارة الدرعية.

وفي تلك الاثناء بدأت في الاحساء من جديد انتفاضة ضد سلطة النجديين. فقد قتل سكان الهفوف ثلاثين من ممثلي الدرعية - الحاكم والموظفين والعلماء الوهابيين وسحلوا جثثهم في شوارع المدينة ومثلوا بها على رؤوس الاشهاد. وايدت الهفوف عدة واحات اخرى. وكان صنيعة الوهابيين زيد بن عريعر، زعيم بني خالد، قد خان اسياده وشارك في الانتفاضة.

وفي خريف ١٧٩٢ توجه سعود مع قوات كبيرة الى الاحساء. ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته في طريقها وقتلت دون رحمة كل من أبدى مقاومة ودمرت بساتين النخيل واستأثرت بمحاصيل التمور ورعت الماشية في الحقول. وكان منافس زيد بن عريعر وخصم الوهابيين سابقا، براك بن عبد المحسن، قد انتقل الى جانبهم. واعربت الاحساء كلها عن خضوعها لهم. وعين براك بن عبد المحسن اميرا للاحساء[٣٩]، ولكنه حاول في ربيع ١٧٩٦ ان يتخلص من سلطة الوهابيين الذين انشغلوا بعمليات حربية غربي وجنوب غربي نجد[٤٠]. وبعد عدة اشهر وصل سعود مع جيش قوي إلى الاحساء وقمع الحركة فيه من جديد [٤١].

وكتب ابن بشر في وصف اخضاع الاحساء يقول: «فلما اصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح فلما استووا (يقصد الوهابيين) على ركائبهم وساروا ثوروا بنادقهم دفعة واحدة. فاظلمت السماء وارجفت الارض وتأرجح الدخان في الجو واجهضت الكثيرات من النساء الحوامل في الاحساء. ثم نزل سعود... وظهر عليه جميع اهل الاحساء على احسانه واساءته. وامرهم بالخروج اليه فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة اشهر يقتل من اراد قتله، ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من اراد حبسه، ويأخذ من الاموال، ويهدم من المحال، ويبني ثغورا ويهدم دورا، وضرب عليهم الوفا من الدراهم وقبضها منهم. وذلك لما تكرر منهم من نقض العهد ومنابذة المسلمين، وجرهم الاعداء عليهم. واكثر فيهم سعود القتل. فكان مع ناجم بن دهينيم عدة من الرجال يتخطفون في الاسواق لأهل الفسوق ونقاض العهد... فهذا مقتول في البلد، وهذا يخرجونه الى الخيام ويضرب عنقه عند خيمة سعود، حتى افناهم الا قليلا. وحاز سعود من الاموال في تلك الغزوة ما لا يعد ولا يحصى. فلما اراد سعود الرحيل من الاحساء امسك عدة رجال من رؤساء أهلها... وظهر بهم الى الدرعية واسكنهم فيها واستعمل في الاحساء اميرا ناجم المذكور، وهو رجل من عامتهم»(٤٢).

هكذا تم اخضاع شرق الجزيرة العربية للوهابيين وصارت تابعة للسعوديين الممتلكات العائدة في الجزء القاري لاسرة آل خليفة الحاكمة في البحرين (٤٣).

وفي بداية التسعينات كانت على اشدها ايضا العمليات الحربية غربي نجد.

امارة السعوديين والحجاز قبل عام ١٨٠٢. بعد بدء الحركة الوهابية وتوسع امارة السعوديين لم تنشب اي صدامات حربية بين حكام الدرعية ووجهاء الحجاز.

ولم تكن سلطة شريف مكة مساعد الذي حكمها من ١٧٥٢ حتى ١٧٧٠ متينة. ففي نهاية حكمه خيم على مكة خطر فقدان الاستقلال الواسع الذي كانت تتمتع به في الامبراطورية العثمانية. وفي عام ١٧٦٩ اعلن حاكم القاهرة علي بك استقلال مصر عن الباب العالي. وضم الحجاز الى ممتلكاته بيد ان محاولة علي بك لتأسيس دولة عربية مستقلة لم تكلل بالنجاح. فتخلص الحجاز من حكم المصريين (٤٤).

ويقول مؤرخو الجزيرة ان السعوديين ومحمد بن عبد الوهاب اقاموا مع حكام مكة علاقات ودية. وعلى أثر انتقال محمد بن عبد الوهاب الى الدرعية وصل الى مكة ثلاثون فقيهاً وهابيا للحصول على موافقة بالحج واجراء حوار مع فقهاء مكة. واعتبر فقهاء مكة كما يفيد دحلان تعاليم الوهابيين زندقة فظيعة وكفراً. وأمر شريف مكة بأن تنشر في كل مكان رسائل فيها أدلة تثبت كفر الوهابيين وبأن يقيد هؤلاء الكفرة بالسلاسل ويزج بهم في السجن. وتمكن قسم منهم من الفرار فحملوا الى الدرعية اخبار ما حدث (٤٥).

وفي مطلع السبعينات أجرى محمد عبد بن الوهاب وعبد العزيز مراسلات مع شريف مكة وتبادلوا الهدايا. وفي تلك السنوات كان الأشراف يسمحون احيانا بالحج للوهابيين. وعندما صار سرور حاكما لمكة عام ١٧٧٣ بعث اليه عبد العزيز هدايا ثمينة ليعرب له عن مودته (٤٦).

ويبدو ان حكام مكة والدرعية كانوا يقيمون علاقات ودية معتدلة فيما بينهم طالما ان مصالح النجديين والحجازيين لم تتصادم مباشرة وطالما أن الحجازيين يخشون تدخل المصريين او الاتراك في شؤونهم. اما تعاليم الوهابيين فان علماء الحجاز ووجهاءه كانوا، على الارجح، قد استقبلوها بالعداء منذ البداية.

وتمكن حاكم مكة، سرور، من التخفيف من غلواء عوائل الاشراف وتعزيز مواقعه في الحجاز(٤٧). ولكنه على اثر وفاة سرور صار غالب بن مساعد شريفا لمكة في عام ١٧٨٨، وهو فتى لا يمتلك سلطة فعلية فظل لبعض الوقت اداة في ايدي عبيد ومملوكي الامير السابق الذين اخذوا يضيقون على السكان المحليين فصاروا يضمرون لهم حقدا. وهذا ما ساعد غالب في القريب العاجل على التخلص من العاصين وتعزيز منزلته.وكان غالب محاربا شجاعا وسياسيا نافذ البصيرة. فاستطاع ان يقيم علاقات طيبة مع القبائل البدوية المجاورة لمكة، وقام بالغزوات معتمدا على هذه القبائل وعلى حرس العبيد المكون من بضع مئات من الاشخاص بعد تجديده (٤٨).

وفي عام ١٧٩٠ ـ ١٧٩١ اعد شريف مكة حملة على نجد من قوات بعشرة آلاف

محارب و ٢٠ مدفعا. الا ان محاولاته في السيطرة على واحات نجد المحصنة قد اخفقت، فتركه حلفاؤه من بعض قبائل البدو. وعاد الى مكة مع النواة الاساسية لقواته. وفي صيف ١٧٩١ ألحق سعود هزيمة ماحقة بحلفاء الشريف في منطقة جبل شمر بعد ان شاركوا في حملاته، ونعني بدو شمر ومطير. وفر البدو تاركين للوهابيين غنائم وفيرة جدا ـ حوالى مائة الف من الغنم والماعز وبضعة آلاف من الابل[٤٩].

وبدأت فصائل الوهابيين غزوات على المناطق الواقعة بين نجد والحجاز وعلى الواحات والقبائل الخاضعة لشريف مكة. وفي ايار (مايو) ١٧٩٥ حاصر سعود تربة التي كانت مركز استراتيجي هام على مشارف الحجاز[٥٠].

وفي صيف العام نفسه ورداً على هجوم الوهابيين قام الحجازيون بغزوة على نجد. وتشجع غالب بنجاح هذه الغزوة فجهز في شتاء ١٧٩٥ـ١٧٩٦ قوات كبيرة جديدة مزودة بالمدافع للقيام بحملة في اعماق الجزيرة العربية. وقد ابيدت هذه الحملة عن آخرها على يد القوات الموحدة التابعة للدرعية والمكونة من بدو مطير وسبيع والسهول والدواسر والعجمان وبعض من قبائل عتيبة على ما يبدو. ويؤكد ابن غنام ان غنائم الوهابيين بلغت ٣٠ ألف من الابل و ٢٠٠ ألف من الغنم والماعز[٥١].

وارغمت الهزيمة الماحقة غالب على توقيع الصلح[٥٢]. وكان واضحا ان النجديين متفوقون في القوات. فقد واصلوا تقدمهم نحو الجنوب حتى وصلوا نجران والحدود الشمالية لليمن[٥٣]. ويبدو ان اتصالاتهم مع سكان عسير تعود الى تلك الفترة.

كانت قبيلة عتيبة الجبارة الخاضعة في السابق لاشراف مكة قد انضمت الى امارة الدرعية في ١٧٩٧ ـ ١٧٩٨. ووافق البدو على تنفيذ كل احكام الوهابية وتسديد الزكاة ودفع تعويضات الحرب لقاء العمليات العدائية السابقة. ويقول منجين ان البدو دفعوا من كل عائلة اربعة ريالات، ومن كل فخذ كمية معينة من السلاح والخيل والابل [٥٤].

وفي عام ١٧٩٨ حاول غالب الذي ضمت قواته مرتزقة من الاتراك والمصريين والمغاربة ان يتقدم مرارا نحو الحرمة وبيشة، ولكنه دحر. وسيطر امير الدرعية على بيشة. واقدم شريف مكة من جديد على الصلح وسمح للوهابيين بالحج (٥٥). وبعد عامين، كما يقول ابن بشر، ادى سعود وعائلته وبعض قواته فريضة الحج لاول مرة، وفي السنة التالية قام بالحج للمرة الثانية. وقدم هناك الهدايا بسخاء وحصل على انصار(٥٦). وفي هذا الوقت بالذات اقام عثمان المضافي، وهو من اقرباء شريف مكة، ارتباطا معه وعرض عليه خدماته (٥٧).

وغدا واضحا ان الوهابيين يكادون يخضعون الحجاز بالكامل.

فشل حملتي والي بغداد على الاحساء. في الفترة نفسها لغزو الاحساء، وخصوصا بعد اخضاعها، قامت فصائل الوهابيين بحملات على المناطق الواقعة شماليها. فقد تعرضت لهجماتهم قبائل وقرى جنوب العراق. واستعد والي بغداد الذي دفعه الباب العالي لمحاربة الوهابيين.

كان والي بغداد آنذاك يتمتع بحظوة خاصة عند الامبراطورية العثمانية. فبعد الحروب التركية الفارسية المدمرة وبعد الفتن والنزاعات الداخلية استولى المماليك على السلطة في بغداد. واعتبارا من عام ١٧٨٠ حكم بغداد بصورة مستقلة في الواقع سليمان باشا، وهو مملوك جورجي لوالي بغداد السابق. واضطرت الاستانة الى الموافقة على تسنمه لهذا المنصب.

كان توسع امارة الدرعية في هذه المنطقة يستهدف الشمال الشرقي. وفي هذا الاتجاه كانت القبائل العربية تنزح عموما طوال القرون. فمن المعروف، مثلا، ان قبائل شمر في القرن الثامن عشر تغلغلت في اعماق العراق بعيدا حتى انها انتقلت الى ما وراء دجلة (٥٨). واثناء القحط الفظيع في وسط الجزيرة في الستينات انتقل بعض سكان نجد الى الزبير وشمالها (٥٩).

وكانت قبائل البدو المترحلة في جنوب العراق قد اقامت علاقات وثقى مع مدن العراق وقراه. وكانت لحكام بغداد مصلحة في مساعدة البدو لأجل حماية الطرق

التجارية والقرى والمدن، كما كان هؤلاء الحكام يشترون من البدو ماشية الحمل والركوب. وواصل ولاة بغداد تقاليد حكام ما بين النهرين منذ آلاف السنين فراحوا يمنحون الهدايا لشيوخ البدو، ويسلحونهم لكي يصدوا الحملات البدوية المنطلقة من مناطق وسط الجزيرة العربية. وكان استخدام قبائل المنتفق وغيرهم في محاولة لتقويض سلطة الوهابيين في الاحساء يستجيب كليا لهذه السياسة.

وتزعم ثويني الحملة على الوهابيين. كان زعيم المنتفق السابق هذا قد طاف امدا طويلا عندما اجلي بعد اخفاق محاولته لترسيخ اقدامه في البصرة حتى انه حل بعض الوقت بمثابة ضيف كريم على الدرعية. ثم استولى على السلطة في قبيلته من جديد، كما تفيد بعض الروايات. وتوجه بطلب الى سليمان باشا ليسلحه ضد الوهابيين(٦٠). وتقول رواية اخرى ان ثويني اقنع والي بغداد بان يسلمه السلطة في المنتفق ووعده بالقيام بحملة على نجد ودحر الوهابيين، وعند ذاك نحي سليما باشا حمود بن ثامر عن رئاسة القبيلة وعين ثويني بدلا منه(٦١).

وفي مطلع عام ١٧٩٧ بدأ ثويني حملته على الوهابيين. كان تحت قيادته جنود القوات النظامية بالاضافة الى فصائل من البصرة والزبير. وانضمت الى حملته بعض افخاذ بني خالد برئاسة براك بن عبد المحسن الذي هرب من الاحساء.

وجمع عبد العزيز كل قواته مدركا خطورة الموقف. وامر البدو المخلصين له بأن يحتلوا اراضي قبيلة بني خالد التي يمكن ان تنضم الى ثويني، كما امرهم بحماية الآبار الرئيسية. وعلى اثر ذلك ارسلت الى الاحساء اكثر قوات الوهابيين صموداً، وهي مكونة من حضر العارض.

وبدأت في الاحساء معارك طاحنة بين قوات ثويني والوهابيين، الا ان الحظ ابتسم لحاكم الدرعية فجأة. ففي معمعان الحملة قتل ثويني على يد عبده الاسود طعيس، وهو وهابي متعصب. وقد قطعوا عنق طعيس في الحال الا ان مقتل ثويني قد قرر مآل النزاع، فانفصل بنو خالد بزعامة براك عن المنتفق، الأمر الذي جعل الاضطراب يستولي على قوات ثويني. وذعرت فصائل البدو والترك واخذت تنسحب على عجل الى الشمال تاركة الأسلحة والذخيرة، مما أوقع معسكر ثويني

كله ومدفعيته في ايدي الوهابيين في حزيران (يونيو) ١٧٩٧. وطاردت الفصائل الوهابية العدو حتى وصلت مشارف الفرات الأوسط [٦٢].

وفي العام التالي تغلغل الوهابيون في بادية الشام، كما وصلوا الى مدينتي سوق الشيوخ والسماوة في العراق [٦٣].

في اواخر التسعينات كان الباب العالي يبعث الى والي بغداد بأوامر متواصلة للقضاء على الوهابيين. وعين علي باشا قائدا للجيش. وقد اختلف المؤرخون في تحديد وقت الحملة العراقية على الاحساء. وبغية ايضاح التواريخ الفعلية يجدر بنا ان ننطلق من افادة شاهد العيان بريجيز الذي وصل الى بغداد بصفة مندوب سياسي بريطاني في لحظة قيام جيش علي بالحملة. تحركت قوات الجيش من بغداد نحو الفرات الاوسط باحمال ثقيلة واخذت تستوعب في الطريق المتطوعين من البدو. لذا لم يكن بوسعها ان تظهر في الاحساء قبل اواخر عام ١٧٩٨ واوائل عام ١٧٩٩، وهذا يتفق مع ما أورده ابن بشر وابن سند ومنجين.

كان الجيش الذي بعثه والي بغداد يضم المشاة والخيالة وكذلك فصائل البدو غير النظامية من قبائل شمر والمنتفق والظفير. وتجاوز عدد افراد تلك القوات عشرة آلاف شخص. وسلم سكان الهفوف والواحات الأخرى وصاروا تحت رحمة علي. وقاتل الوهابيون المتمركزون في الحصون فصدوا ببسالة كل الهجمات. ولم تفد المهاجمين في بعض المواقع لا المدافع ولا آلات الحصار ولا الحفر تحت الأسوار. وانهارت معنويات القوات الهاجمة وبدأت تنسحب والوهابيون يلاحقونها. وجرت مكاتبات بين علي وسعود وتم بينهما الاتفاق على الصلح [٦٤]. وكان السبب في اخفاق علي ضعف المعنويات عموما وصعوبات اجتياز الاماكن الخالية من مياه الشرب والتي يسيطر عليها الوهابيون. ثم ان حماس الهجوم عند الوهابيين لم يستنفذ بعد، وقد حول التعصب الديني والانضباط النجديين الى مقاتلين صامدين.

وفي عام ١٧٩٩ وصل الى بغداد ممثل امير الدرعية لأجل مصادقة الوالي على الاتفاق بين سعود وعلي. وترك لنا ح. بريجيز الذي حضر لقاء رسول الدرعية مع

والي بغداد وصفا طريفا لهذا اللقاء. فقد جرى في قصر الوالي الاعداد اللازم لترك انطباع لدى سكان البادية. فاستقبلت رسول الدرعية بطانة سليمان باشا مرتدين افخر الالبسة وقد ارتسمت امارات الغضب على وجوههم. وكان الرسول الوهابي في لباس متواضع، وقد ابعد مستقبليه وتوجه رأسا نحو سليمان باشا الذي كان يرتدي لباسا من حرير وفرو مزينا باحجار كريمة. وجلس الرسول جنب الباشا وقال له ما فحواه: يا سليمان السلام على من اتبع الهدى. بعثني عبد العزيز لأسلمك هذه الرسالة واستلم منك تصديقا على الاتفاقية الموقعة بين ابنه سعود وخادمك علي، فليتم ذلك بسرعة وبالشكل الصحيح. ولعنة الله على من يخون. ثم اضاف بلهجة شديدة: اذا كنت تنشد النصح فاستنصح عبد العزيز. قال ذلك ملمحا الى ان الوهابيين يعتبرون سليمان من المشركين. ومد يده الى الوالي بالاتفاقية المكتوبة على قصاصة من ورق[٦٥].

كان واضحا ان حكام الدرعية لا يقيمون ثمنا للاتفاقية مع والي بغداد. وتوجه مبعوث خاص من سليمان باشا الى الدرعية لأجل التفاوض مع سعود. وحاول ان يحصل على التزامات من الوهابيين بعدم مهاجمة العتبات الاسلامية في الفرات الاوسط، ولكن سعود قهقه وقال لرسول الوالي: «جميع غربي الفرات لنا وشرقيه له...»[٦٦].

ومما شجع الوهابيين الانباء التي وردت عن دخول جيش نابليون إلى مصر في عام ١٧٩٨ وعجز الباب العالي امام الغازي الفرنسي.

في عام ١٨٠١ حل الانجليز محل الفرنسيين في مصر. وغدت الجزيرة العربية طرفا بعيدا عن مسرح العمليات الحربية الرئيسي. وهذا ما اطلق ايدي الوهابيين في مواصلة توسعهم.

تدمير كربلاء. اختمرت لدى امراء الدرعية خطة الاستيلاء على كربلاء وفيها العتبات المقدسة الشيعية التي يكرهونها، وخصوصا ضريح الامام الحسين حفيد النبي محمد. وحقق الوهابيون نواياهم في آذار-نيسان (مارس-ابريل) ١٨٠٢[٦٧].

اعتاد المستشرقون الاوروبيون والسوفييت على اعتبار نيسان ١٨٠١ تاريخا لتدمير كربلاء. واذا تناولنا مصادر هذه المعلومات نجد ان هذا التاريخ قد ذكره ج. روسو[٦٨] ول. كورانسيز[٦٩] وبور كهاردت[٧٠] وف. منجين[٧١].

اما المراجع التاريخية العربية، ومعها من الاوروبيين فيلبي[٧٢]، فتنقل هذا الحادث الى العام التالي: آذار - نيسان ١٨٠٢. والأساس المعتمد في ذلك هو مصنف ابن بشر. ويؤيد هذا التاريخ ابن سند[٧٣] وج. رايمون[٧٤] و«مجلة المنوعات الادبية»[٧٥]. وجميع هذه المصادر قريبة زمنيا من الاحداث.

والقول الفصل بهذا الخصوص، وهو لصالح عام ١٨٠٢، وارد في تقرير وصل من العراق الى سفارة روسيا في الاستانة وكتب قبل صيف عام ١٨٠٣. فالشخص الذي عاش آنذاك في العراق وتحدث شخصيا مع شهود عيان عن تدمير كربلاء من المستبعد ان يخطىء لعام كامل بخصوص تاريخ هذا الحادث الهام[٧٦]. وبالمناسبة فان مقارنة ذلك بنص التقرير الوارد من العراق عن تدمير كربلاء على يد الوهابيين والذي تضمنه كتاب ج. ورسو بعد ست سنوات تدل على تماثلهما الحرفي تقريبا. ومن الصعب القول كيف وصل تقرير القنصل الفرنسي في العراق الى سفارة روسيا في الاستانة. أما تغيير تاريخ احتلال الوهابيين لكربلاء في كتاب روسو فلعله ناتج عن تهاون المؤلف او سهو المطبعة.

ويبدو ان روسو وكورانسيز هما المصدر الأول للمعلومات غير الصحيحة بهذا الخصوص. فهما على العموم يتناولان التواريخ بشيء من التصرف. اما بوركهاردت ومنجين المطلعان على مؤلفاتهما فقد اوردا هذا التاريخ دون تمحيص. وقد كتب المستشرق الفرنسي أ. دريو في مقدمته لتقرير رايمون المطبوع ان كورانسيز في مقالاته المبكرة اعتبر عام ١٨٠٢ ايضا هو تاريخ تدمير كربلاء[٧٧].

ويقول كاتب التقرير: «رأينا مؤخرا في المصير الرهيب الذي كان من نصيب ضريح الامام الحسين مثالا مرعبا على قساوة تعصب الوهابيين. فمن المعروف أن هذه المدينة قد تجمعت فيها ثروات لا تعد ولا تحصى وربما لا يوجد لها مثيل في كنوز الشاه الفارسي. لأنه كانت تتوارد على ضريح الحسين طوال عدة قرون هدايا

من الفضة والذهب والاحجار الكريمة وعدد كبير من التحف النادرة... وحتى تيمور لنك صفح عن هذه الحضرة، وكان الجميع يعرفون ان نادر شاه قد نقل الى ضريح الامام الحسين وضريح الامام علي قسما كبيرا من الغنائم الوافرة التي جلبها من حملته على الهند وقدم معه ثروته الشخصية وها هي الثروات الهائلة التي تجمعت في الضريح الاول تثير شهية الوهابيين وجشعهم منذ امد طويل. فقد كانوا دوما يحلمون بنهب هذه المدينة وكانوا واثقين من نجاحهم لدرجة ان دائنيهم حددوا موعد تسديد الديون في ذلك اليوم السعيد الذي تتحقق فيه احلامهم.

واخيراً، ها قد حل هذا اليوم، وهو ٢٠ نيسان (ابريل) ١٨٠٢. فقد هجم ١٢ الف وهابي فجأة على ضريح الامام الحسين. وبعد ان استولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها اكبر الانتصارات، تركوا كل ما تبقى للنار والسيف... وهلك العجزة والاطفال والنساء جميعا بسيوف هؤلاء البرابرة. وكانت قساوتهم لا تشبع ولا ترتوي فلم يتوقفوا عن القتل حتى سالت الدماء انهارا... وبنتيجة هذه الكارثة الدموية هلك اكثر من اربعة آلاف شخص... ونقل الوهابيون ما نهبوه على اكثر من اربعة الاف جمل(٧٨).

وبعد النهب والقتل دمروا ضريح الامام وحولوه الى كومة من الاقذار والدماء. وحطموا المنائر والقباب خصوصاً لانهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من ذهب»(٧٩).

وبهذه الصيغة نفسها تقريبا، يصف منجين تدمير كربلاء ولكنه يقول ان الوهابيين اقدموا على مجزرة في المدينة، غير انهم رأفوا بالنساء والاطفال والشيوخ والعجزة. ودمروا قبة ضريح الحسين. وحصل الوهابيون على اغنى الغنائم، ومنها سيوف مرصعة بالاحجار الكريمة، ولؤلؤة هائلة بحجم بيضة الحمام. وقد استأثر سعود شخصيا بالسيوف واللؤلؤة. واستولوا كذلك على مزهريات وفوانيس من المعادن النفيسة وحلى ذهبية ملبسة على الجدران وسجاجيد فارسية ونحاس ملبّس بالذهب من السطوح. ووقعت في ايدي الوهابيين كذلك احتياطيات فوطات كشمير والاقمشة الهندية والفان من السيوف العادية وألفان وخمسمائة بندقية وعبيد سود

ومبالغ طائلة من النقود المعدنية. واستمر النهب ثماني ساعات. وعند الظهر غادر الوهابيون كربلاء[٨٠].

وكتب المؤرخ الوهابي ابن بشر عن هذا الحادث يقول: «سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد ارض كربلاء... فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوا عنوة وقتلوا غالب اهلها في الاسواق والبيوت. وهدموا القبة الموضوعة (بزعم من اعتقد فيها) على قبر الحسين. واخذوا ما في القبة وما حولها كما اخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر، واخذوا أيضاً جميع ما وجدوا في البلد من انواع الاموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها الا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الاموال وقتل من اهلها قريب ألفي رجل»[٨١].

ولم يواجه الوهابيون اي مقاومة تقريبا. ويعزى ذلك الى ان قسما من السكان توجهوا للزيارة الى النجف. ومن المحتمل أيضاً ان حاكم كربلاء، وهو سني متعصب، لم يتخذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن هذه المدينة[٨٢].

كان تدمير كربلاء افدح هزيمة لسليمان باشا العجوز. وكان السلطان يتحين الفرصة من زمان لتنحية هذا الوالي المستقل الذي كان له داخل العراق ايضاً، خصوم يتحلون بقدر كاف من الفتوة والنشاط. ومما زاد في تدهور وضع الوالي ان الشاه الفارسي فتح علي كان يلومه دوما متهما اياه بالعجز عن تأمين حراسة العتبات الشيعية، ويهدده بارسال قوات فارسية الى كربلاء[٨٣]. وبالفعل، فبعد بضع سنوات من تدمير كربلاء بدأت فارس تحارب ولاية بغداد. الا ان المسؤولين في بغداد كانوا يعتقدون بعدم امكان الحاق الهزيمة بالوهابيين في اعماق الجزيرة العربية. لذا وجهوا جل اهتمامهم لتعزيز المدن وترميم كربلاء وضريح الحسين.

استيلاء الوهابيين على مكة مؤقتا ورد فعل الباب العالي. بعد تدمير كربلاء غدا الحجاز مسرحا رئيسيا للعمليات الحربية. وحتى ذلك الحين ادى سعود فريضة

الحج مع قواته وعائلته مرتين ليستعرض قوته العسكرية ويتأكد من الموقف في الحجاز محليا. وانضمت قبائل عسير الى الوهابيين[٨٤].

كانت احوال غالب في تلك الاثناء معقدة . واثار ابتزازه وادارته المتعسفة استياء في مكة والمدن الاخرى. وكانت الرسوم المتزايدة دوما في جدة قد حرمته من تعاطف التجار. ورجحت كفة النجديين، وصار الاشراف يطلبون السلاح من الاستانة. الا ان الباب العالي كانت لديه آنذاك هموم اكثر خطورة من تهديد الوهابيين لمكة. وفي اواخر عام ١٧٩٨ وصل الى مكة فرمان من السلطان تضمن طلبا بتعزيز تحصينات المدن في الحجاز خوفا من احتمال هجوم القوات الفرنسية. وجرى ترميم اسوار جدة واخذ السكان يمارسون الاستعدادات الحربية[٨٥].

في عام ١٧٩٨، قصفت العمارة البريطانية بقيادة الاميرال بلانكيت مدينة السويس المحتلة من قبل الفرنسيين. وفي طريق العودة ألقت العمارة مراسيها في جدة. وطالب الانجليز بوقف تجارة الحجاز مع مصر، فوافق الشريف على هذا الطلب شفويا، ولكن التجارة استمرت، بل ان غالب اقام اتصالات مع الفرنسيين، ولكن لم يحل دون ارسال فصيلة من متطوعي الجزيرة الذين حاربوا ضد الفرنسيين في صعيد مصر[٨٦]. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها غالب لزيادة حرسه وفصائل المرتزقة فإن قواته العسكرية تقلصت بسبب انفصال بعض قبائل بدو الحجاز[٨٧]. الا ان اكبر خسارة مؤلمة بالنسبة له كانت انتقال قريبه ومساعده المقرب عثمان الضايفي الى صف الوهابيين، وقد بدأ هذا الاخير بجمع البدو الذين كانوا في السابق من انصار غالب[٨٨].

بدأ المضايفي بهجوم نشيط على الحجاز. وفي عام ١٨٠٢، استولى بدون قتال تقريبا على مدينة وواحة الطائف ونهبهما بلا رحمة. وقتل الوهابيون حوالى ٢٠٠ من السكان ودمروا عددا من المنازل. وكان البدو يداهمون المدينة يوميا وينهبون كل ثمين، كما اتلفوا آلاف الكتب [٨٩].

وكان تدمير كربلاء ما يزال عالقا بالذاكرة في الاستانة، فصار المسؤولون هناك يخشون كثيرا على مصير مكة وحاولوا اتخاذ بعض الاجراءات لمقاومة الوهابيين.

وفي اواخر آذار (مارس) ١٨٠٢ كتب أ. ايتالينسكي، سفير روسيا في الاستانة، الى بطرسبورغ يقول: «في ظروف الوضع الراهن يعتقد الباب العالي ان الخطر عليه نابع فقط من نوايا فرنسا ومن حركات التمرد لعدة قبائل عربية تسمى الوهابية وعدد العسكريين لديها زهاء ٦٠ ألف شخص. وهم يتوقون الى الاستيلاء على ثروات الحرمين في مكة والمدينة وينوون معارضة المحمدية بمذهب التوحيد، وبغية جعلهم يحترمون القرآن ارسل اليهم من هنا عالم فقيه متبحر في هذا الكتاب، بينما تتخذ اجراءات اخرى، فقد عينت قوات يراد لها ان تهاجمهم من جهة الخط البادىء من البصرة الى العريش في حين سيهاجمهم الشريف من جهة الحجاز»[٩٠].

الا ان محاولات الحيلولة دون سقوط مكة قد اخفقت.

ففي اواخر آذار (مارس) ١٨٠٣، توجه سعود مع قوات الوهابيين الرئيسية الى الحجاز. وفي تلك الاثناء كان في مكة حجاج مسلحون من الشام ومصر والمغرب ومسقط وبلدان اخرى. ولكنهم رفضوا المشاركة في العمليات الحربية ضد الوهابيين. اما الشريف الذي ظل مع قلة قليلة من المحاربين المخلصين له فقد فر الى جدة واخذ يعزز تحصيناتها على عجل. وبعث سعود الى اهالي مكة رسالة عرض فيها آراء الوهابيين ووعد بالرأفة بمن ينصاع لهم.

وفي نيسان (ابريل) ١٨٠٣، دخل الوهابيون بانتظام الى مكة[٩١]. وبعد اداء مراسيم الحج اخذوا يدمرون كل الاضرحة والمزارات ذات القباب والتي انشئت تكريما لابطال فجر الاسلام. ومسحوا عن وجه الارض كل المباني التي لا تناسب معتقداتهم. والزموا اهالي مكة باداء الصلاة من دون البسة حريرية، كما الزموهم بعدم التدخين بحضور الآخرين. واحرقت اكوام الغلايين في الساحات، وحرم بيع التبغ. والغيت الصلاة في المساجد تكريما للسلطان العثماني. وعين الوهابيون عبد المعين، شقيق غالب، حاكما لمكة. وبدلا من القاضي التركي عين فقيه من الدرعية قاضيا لمكة. وخلافا لسابقه التركي ترك هذا القاضي انطباعا وكأنه يحكم بالعدل[٩٢].

اثار نبأ احتلال مكة الذعر والهلع والاكتئاب في الاستانة. وسدد فقدان مكة

اقسى ضربة الى سمعة الخليفة العثماني ومكانته بوصفه حامي الحرمين والمدن المقدسة. فقد كان السلطان - الخليفة يسمي نفسه رسميا على النحو التالي: «نحن خادم وحامي الحرمين في مكة والمدينة انبل المدن واقدس العتبات واللذين تتيمم جميع الامم شطرهما اثناء الصلاة، وكذلك مدينة القدس الطاهرة. انا الخليفة الاعلى والملك السعيد لممالك واقاليم ومدن لا تعد ولا تحصى تثير حسد ملوك العالم وتقع في آسيا واوروبا وعلى البحرين الابيض والاسود وفي الحجاز والعراق...»[٩٣] وغيرها وهكذا دواليك.

وجاء في «مذكرة انباء الاستانة واخبارها» التي اعدتها سفارة روسيا ما يلي: «ان الخلافات التي تنهش احشاء الامبراطورية التركية ونهب الوهابيين لمكة والاتاوات المتزايدة بلا انقطاع كل ذلك اثار عند رعاع هذه العاصمة استياء شاملا من الحكومة»[٩٤].

كان ينبغي القيام بشيء الا ان الاستانة عجزت عن ارسال قواتها لمحاربة الوهابيين، فطلبت المساعدة من عكا وبغداد.

ويقول ايتالينسكي: «القرار الذي اتخذه الديوان الوزاري الحاكم لاستخدام (والي عكا احمد) باشا الجزار ضد الوهابيين حظي بدعم هام... لسبب غير متوقع. فقد استلم الباب العالي رسائل مستعجلة من الجزار تتضمن انباء غزوات عبد الوهاب وتقول بعدم وجود عوائق تحول دون تقدمه اللاحق وتشير الى نيته في احتلال الشام... واخيرا يعرب الجزار عن استعداده للنهوض في وجه هذا العدو الخطر على الدين والعرش ويعد بالقضاء عليه وتشتيت قواته في غضون ستة اشهر واعادة الممتلكات التي نهبها الى الباب العالي»[٩٥].

وكتب والي بغداد الى الباب العالي يقول إنه متوجه في حملة للبحث عنهم في عقر دارهم وانه ينوي ابادتهم ولديه من اجل ذلك خيالة بخمسة آلاف فارس ومشاة بـ ١٠ آلاف رجل و ٦٠ ألف جمل، ويأمل بأن تتم هذه الحملة في غضون ستة أشهر. وطلب من الباب العالي مدفعية وبارودا وخياما.

وعندما استلم الباب العالي هذه المعلومات من حاكمي الشام والعراق «اخذ يعلل نفسه بالآمال بالتخلص من الخوف نهائيا في القريب العاجل». الا ان سفير روسيا يشك في قدرة بغداد على تسديد الضربة ويلاحظ بحق «ان الجزار يفكر بالاستيلاء على دمشق الشام اكثر مما يفكر بالحملة على الوهابيين»[٩٦].

ومع ذلك تمكن الباب العالي من ارسال فصيلة تركية غير كبيرة بقيادة شريف باشا الى الحجاز. ولم يتمكن امير الدرعية هذه المرة من تثبيت اقدامه في الحجاز لان عدد قواته تقلص كثيرا بسبب الامراض[٩٧]. وكتب روستي يقول: «ان الامراض التي تفشت في جيش عبد الوهاب ارغمته على رفع الحصار عن جدة. والتقت قوات شريف باشا بقوات شريف (مكة) فتمكنت من دخولها»[٩٨].

وظلت، لبعض الوقت، قلعة المدينة، التي رابط فيها فصيل من الوهابيين، تبدي مقاومة إلى ان سقطت في تموز (يوليو) ١٨٠٢.

وكتب ايتالينسكي في ٢٥ آب - ٣ ايلول (اغسطس - سبتمبر) «ان الباب العالي استلم من المدينة المنورة تقارير من شريف باشا والي جدة وصلت بعد ٥٠ يوما. وهي تؤكد الانباء التي وصلت سابقا عن الانتصار الذي تم على الوهابيين قرب جدة والمدينة وعن انسحابهم الى عاصمتهم الدرعية»[٩٩].

وكان مقتل امير الدرعية عبد العزيز ضربة جديدة للوهابيين. ففي خريف عام ١٨٠٣، قتل في مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يدعى عثمان، وهو كردي من احدى قرى الموصل. كان هذا الدرويش قد حل ضيفا على البلاط. وعندما سجد عبد العزيز اثناء الصلاة في الصف الامامي من المسلمين هجم هذا الدرويش الذي كان في الصف الثالث على الامير وقتله بطعنة خنجر، ثم جرح اخاه عبد الله. وعم المسجد هرج ومرج وتمكن الجريح عبد الله من ضرب الدرويش بالسيف، واجهز عليه الآخرون في الحال[١٠٠].

وتفيد بعض المعلومات ان قاتل عبد العزيز شيعي كان قد هلك كل افراد عائلته اثناء غزو كربلاء[١٠١]. وكتب منجين ان عمامته احتوت على رسالة بنص مكتوب

بالفارسية: «ربك ودينك يوجبان عليك قتل عبد العزيز. اذا تمكنت من الفرار ستحظى بمكافأة سخية واذا مت فأبواب الجنة مفتوحة امامك»[١٠٢]. ان هذا يشبه لدرجة كبيرة تكتيك الاسماعيلية في القرون الوسطى والروايات المرتبطة بنشاطهم. وكان ابن بشر يشك في ان مقتل الامام عبد العزيز كان ثأرا لكربلاء، وذلك لان القاتل كردي والاكراد سنة كما هو معروف [١٠٣]. يؤكد مؤلف «لمع الشهاب» ان والي بغداد بعث عميلا الى الدرعية ودفع بسخاء لعائلته فيما بعد [١٠٤]. ومع ذلك يظل جواب السؤال عن هوية قاتل عبد العزيز ودوافع سلوكه في طي الافتراضات. فقد كان لدى الوهابيين عدد كبير من الاعداء الحاقدين عليهم.

أسرع سعود الى الدرعية بعد مقتل ابيه، فبايعه سكانها في الحال، واعترفت كل المناطق بالامير الجديد. وبعث سعود الى حكام المناطق رسائل عاهدهم فيها على ان يلتزم بالعدل، ولكنه سينتقم بلا رحمة من العصاة والمتآمرين.

السيطرة على الحجاز. في العام التالي، اخذ الوهابيون من جديد يضيقون على خصومهم في الحجاز واستمرت طوال العام المعارك التي شارك فيها الاتراك الى جانب قوات الشريف.

وفي عام ١٨٠٥، هاجمت قوات غالب، وعددها ١٠ آلاف شخص، اتحاد القبائل الموالية للوهابيين وعلى رأسها الامير عبد الوهاب ابو نقطة وهو من شيوخ عسير، ومني الشريف غالب بهزيمة فقد فيها بضع مئات من القتلى، واغلبهم من الاتراك[١٠٥]. ويبدو ان حلفاء غالب البدو قد تركوه، بينما دحرت نهائيا الفصيلة التركية في قواته. وعلى اثر ذلك، طوق الوهابيون مكة واعاقوا الحج[١٠٦] وتأجج العداء من جديد بين الاتراك والشريف غالب آنذاك، فرفض الاتراك مساعدته.

وفي شتاء ١٨٠٥ـ١٨٠٦، عزم سعود على تسديد ضربة قاضية الى غالب. وحاصر مكة بدو بزعامة عبد الوهاب ابي نقطة وعثمان المضايفي وسالم بن شكبان (امير بيشة). وفي تلك الفترة (من ١٨٠٤ حتى ١٨٠٩) كانت الجزيرة العربية تعاني من قحط شديد. وبفضل طرق القوافل الآمنة كانت الاغذية تصل الى نجد بانتظام،

الامر الذي خفف من اعباء اهاليه. الا ان الوضع لم يعد يطاق في مكة المحاصرة. وصار الناس يأكلون الكلاب والجلود. ولم تنجح محاولة الانتقام من انصار الصلح فطلب غالب ذلك الصلح. ودخلت القوات الوهابية مكة[١٠٧].

وسرعان ما اقتنع غالب بعدم جدوى مقاومته للوهابيين، فأعلن الخضوع لهم في عام ١٨٠٦. وفي العام نفسه وصلت الى مكة جماعة من العلماء الوهابيين وعلى رأسهم الفقيه حميد بن ناصر للتبشير بأفكار تجديد الاسلام[١٠٨]. وكان نجاح الوهابيين في بسط سلطتهم شمالي مكة من الاسباب التي دفعت غالب للكف عن المقاومة.

فمنذ عام ١٨٠٣ تبنى عدد من مشايخ القبائل حرب المذهب الجديد ووصل دعاة الوهابية اليهم. ولم تتكلل بالنجاح محاولة احتلال المدينة المنورة رأسا في عام ١٨٠٣. الا انها استسلمت عام ١٨٠٥[١٠٩].

وفي الوقت نفسه، احتل الوهابيون ينبع الواقعة تحت سيطرة شريف مكة.

وجرى ضم الحجاز إلى دولة السعوديين. صحيح ان تبعيته للوهابيين كانت اقل من تبعية بعض مناطق نجد او الاحساء، مثلا. واحتفظ شريف مكة باستقلال كبير، فلم يدفع الضرائب لا هو ولا رعيته. الا ان عائداته من الرسوم الجمركية في جدة تقلصت كثيرا، لانه لم يعد باستطاعته ان يجبي تلك الرسوم من التجار الوهابيين. وتقلصت عائداته الاخرى ايضا.

يقول بوركهاردت: «ظلت بيد الشريف سلطة كبيرة مع ان الحجاز قد احتل. فان اسمه ومنصبه الرفيع وتأثيره الشخصي على الكثير من القبائل البدوية التي كانت ما تزال تقاوم سعود، وكذلك الهدايا الثمينة التي يقدمها لسعود عندما يزور هذا الاخير مكة، كل ذلك جعل زعيم الوهابيين يتساهل بخصوص بعض تصرفات غالب»[١١٠]. كانت سلطة سعود في مكة متوازية مع نفوذ غالب، اما جدة فقد ظلت بالاساس تحت سيطرة غالب. ولتحقيق المزيد من التوازن عين المضايفي حاكما للطائف وخضعت له بعض قبائل الاطراف.

توقف الحج من الامبراطورية العثمانية. اعتبارا من عام ١٨٠٧ اخذ سعود يؤدي فريضة الحج سنويا على رأس قواته. وكان عادة يعين موضعا قرب المدينة المنورة لتجمع الوهابيين ثم يتحرك نحو الجنوب. وفي الطريق تنضم إليه فصائل من عسير والطائف وبدو من مناطق الحدود بين الحجاز ونجد وعسير ومحاربون من مختلف مناطق نجد وجبل شمر بزعامة امرائهم. وكان سعود كل مرة يوزع الصدقات في مكة ويتبادل الهدايا مع غالب ويحمل كسوة ثمينة للكعبة (١١١). وقد شهد ابن بشر حج سعود ذات مرة وترك وصفا تفصيليا له (١١٢).

لقد اجلى سعود من الحجاز القضاة والموظفين العثمانيين الذين كانوا في مكة والمدينة. وكان يعزز دوما تحصينات المدينة المنورة ويحتفظ بحامية قوية فيها يستبدلها كل عام.

واعتبارا من عام ١٨٠٣، اخذ الوهابيون يعيقون بمختلف الوسائل قوافل الحجاج من ارجاء الامبراطورية العثمانية، ومنها الشام ومصر. كانت قوافل الحجاج التي تتوارد على الحجاز سنويا تحضر معها المحمل وهو عبارة عن هودج مزين بفخامة على ظهر جمل يحظى بالتقدير. وفي المحمل كسوة الكعبة او نسخ من القرآن او نفائس الاحجار الكريمة. ويسير مع الحجاج موسيقيون يعزفون على الطنبور والطبول وغيرها. وكان بعض الحجاج يحضرون معهم مشروبات وترافقهم محظيات. ولا بد ان يثير ذلك تذمر الوهابيين لانه يتعارض مع اصول الدين ومبادئهم الاخلاقية.

وطالب الوهابيون بان تصل قوافل الحجاج إلى الحجاز بدون محمل وبدون آلات موسيقية. واخذوا في الوقت نفسه يزيدون ضريبة الحج. وفي عام ١٨٠٣ دفع كل حاج شامي إلى الوهابيين ٨ بيزات مقابل حق دخول مكة. وسرعان ما اضطر الحجاج إلى دفع ١٠ بيزات عن الشخص الواحد و١٠ بيزات عن كل من دواب الركوب و٧ بيزات عن كل قنطار من الاحمال و١٠٠ كيسة عن مرور القافلة كلها(١١٣). وفي عام ١٨٠٥، اخذوا من القافلة الشامية ٢٠٠ كيسة ولكنهم سمحوا بالدخول لحجاج منفردين(١١٤). ويقول كورانسيز ان الاتراك حاولوا في عام ١٨٠٦

شراء حق اداء فريضة الحج بمبلغ هائل هو الفا كيسة (مليون بيزة) ولكن قافلة الشام لم تتمكن من دخول مكة مع ذلك[١١٥].

وبغية تأمين السماح بالحج تظاهر والي دمشق يوسف باشا بانه يلتزم بكل فرائض الوهابية. فقد منع الخمر وامر بغلق جميع الاسواق في دمشق اثناء الصلاة وفرض تقييدات مشينة على اهل الكتاب (زيا خاصا وهلمجرا)، ومنع حلق اللحية أيضاً، وكتب بازيلي «ان الوهابيين طالبوا، وليس دون سبب، بعدم احتواء القافلة على غلمان او حليقى اللحى عموما»[١١٦]. وفي عام ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨، حاولت قافلة الشام ان تدخل مكة بدون محمل ولا سلاح ولا موسيقى ولكن دون جدوى [١١٧]. وتوقف في الواقع توارد وجبات كبيرة من الحجاج من الباب العالي.

بريطانيا والصراع من اجل عمان. لم يقتصر تقدم الوهابيين على العمليات الحربية في الحجاز وشمال شرقي الجزيرة العربية في بداية العقد الاول من القرن التاسع عشر. فقد تمكنوا من فرض سيطرتهم تدريجيا على كل الساحل العربي للخليج بما فيه البحرين وتغلغلوا في اعماق عمان اكثر فاكثر.

كان سكان عمان مكونين من مجموعتين من القبائل: الاباضية الهناوية وسنة الغفري. وكان الصراع بين هاتين المجموعتين قد حدد تاريخ عمان طوال القرون. وهو الذي سهل تغلغل الوهابيين إلى هذه البقاع. ونشير، دون ان ندخل في التفاصيل، إلى ان سلطان، احد ابناء احمد بن سعيد، زعيم وامام الاباضية الذي طرد الفرس من عمان في عام ١٧٤٤، صار حاكما لمسقط في عام ١٧٩٢. ولكن سلطان لم يعتبر زعيما روحيا (اماما)، ما ادى ذلك إلى اضعاف سلطته. وعلى الساحل العماني من الخليج، وهو ساحل تخترقه الروافد والخلجان والمرافئ الملائمة، كانت تعيش قبائل اخرى تمارس التجارة البحرية والقرصنة وصيد اللؤلؤ والاسماك. كانوا من اهل السنة وكانوا منعزلين عن الهناوية وعن الغفري[١١٨]. وفي عام ١٨٠١ شن سلطان بن احمد حملة على البحرين. وطلب سكان البحرين النجدة من الدرعية. وطرد الوهابيون المسقطيين والحقوا بهم خسائر فادحة، ولكنهم جعلوا البحرين تابعة لدولة السعوديين[١١٩].

وقبل ذلك بقليل بعث عبد العزيز إلى عمان نسخة من مؤلف لمحمد بن عبد الوهاب، وطالب بتبني المذهب الوهابي والخضوع لسلطة الدرعية. وفهم العمانيون، واغلبهم من الاباضية، مضمون الكتاب بشكل فريد. فقد كتب المؤرخ العماني ابن رزيق ما معناه ان هذا الكتاب يحلل قتل جميع المسلمين غير المتفقين مع محمد بن عبد الوهاب والاستيلاء على املاكهم واستعباد ابنائهم واستحلال نسائهم دون موافقة ازواجهن[١٢٠]. ورفض الاباضية مطالب الوهابيين[١٢١]، الا ان الغفري تحالفوا مع امام الدرعية.

وورد في «لمع الشهاب» ان الوهابيين في العقد الاخير من القرن الثامن عشر بدأوا بالحملات على عمان بقيادة مطلق المطيري وابراهيم بن عفيصان وحولوا مجموعة واحات البريمي الى قاعدة لهم[١٢٢]. وقد كانت البريمي ملتقى لطرق القوافل المؤدية الى شواطىء الخليج العربي وخليج عمان والجبل الاخضر.

وفي عام ١٨٠٠ ـ١٨٠١ قام جيش الوهابيين بحملة موفقة على عمان قادها سلام الحرق احد مملوكي عبد العزيز. واقسم صقر حاكم مدينة رأس الخيمة، التي هي مرفأ هام من الناحية الاستراتيجية ومركز لقبيلة القواسم، يمين الولاء للوهابيين[١٢٣]. ووقعت تحت سيطرتهم المشيخات والامارات الصغيرة الاخرى على شاطىء الخليج العربي.

وغدا حاكم مسقط سلطان في تبعية للدرعية. حاول ان ينظم المقاومة ضد الوهابيين فصمم على تقوية الصلات مع والي بغداد الذي كان مبعوثوه يحرضونه من زمان على محاربة العدو المشترك. وفي اواخر عام ١٨٠٤ توجه شخصيا مع اسطول الى البصرة. وفي طريق العودة الى مسقط نشبت معركة مع اسطول رأس الخيمة قتل فيها سلطان[١٢٤].

وعاد الى مسقط قريبه بدر الذي كان منفيا الى الدرعية مؤملا بان يركز اقدامه بمساعدة حماته الوهابيين. وبقي على دست الحكم عدة سنوات وحاول غرس المذهب الوهابي ولكن دون نجاح كبير[١٢٥]. لكن ابناء سلطان بن احمد ثاروا في عام ١٨٠٧ وازاحوا بدر، وفي البداية التزم حاكم مسقط الجديد سالم ومن بعده اخوه

سعيد بالخضوع للسعوديين، ولكنهما رفضا فيما بعد دفع الاتاوات واخذا يستعدان للعمليات الحربية[١٢٦]. وطلب سعيد النجدة من الشاه الفارسي فأرسل اليه هذا بضعة الاف من الجنود[١٢٧]. وفي ١٨٠٨-١٨٠٩ بدأ المسقطيون مع حلفائهم صحار العمليات الحربية ضد رأس الخيمة ولكنهم اعلنوا عن خضوعهم للسعوديين بعد أن فقدوا عدة آلاف من الاشخاص[١٢٨].

وغدا سكان الساحل العماني للخليج العربي، وخصوصا قبيلة القواسم الذين توحدوا تحت سلطة السعوديين وكفوا عن الحزازات الداخلية، قوة كبيرة راح اسطولها المكون من بضع مئات من السفن الكبيرة والصغيرة يجوب الخليج سيدا فيه. وفرضوا الرسوم والضرائب ونهبوا السفن التجارية العائدة لشركة الهند الشرقية والتي تمخر البحر بين بومباي والبصرة[١٢٩].

ونعيد الى الاذهان ان المؤرخين الغربيين يركزون على «الطابع القرصني» المزعوم لسكان ساحل الخليج العربي. الا ان الحقيقة هي انهم كانوا يعيشون بالدرجة الاولى على الملاحة البحرية التجارية(دون أن يستنكفوا عن القرصنة اذا سنحت الفرصة) وكانوا يعتبرون السفن البريطانية منافسة فتاكة لهم. وينبغي على الاغلب اعتبار «قرصنتهم» ضد السفن البريطانية حربا ضد القادمين غير المرغوب فيهم.

وقد اصطدم توسع امارة الدرعية في عمان وساحل الخليج العربي مع المصالح البريطانية الاستعمارية.

في اواخر القرن الثامن عشر، ترسخت سيطرة بريطانيا نهائيا على الهند، حيث تمكنت بعد صراع دام قرنين تقريبا من التفوق على سائر منافسيها الاوروبيين. وكان الانجليز قد سعوا الى الابقاء على الخليج العربي مفتوحا امام تجارتهم وخاليا من نفوذ اي دولة يمكن ان تهدد الهند. وظلت فرنسا اخطر دولة عليهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، لذا اعتبر الانجليز المتمركزون في الهند حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ مظهرا للخطر القديم. ولم

يغير انهزام الفرنسيين في مصر فيما بعد خططهم (المشكوك في امكان تحقيقها) الرامية الى التقدم نحو الهند عن طريق الشام والعراق والخليج العربي مثلا.

وعلى تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صار الوكلاء التجاريون البريطانيون في البلدان المرتبطة بالخليج العربي يتحولون الواحد تلو الآخر الى ممثلين سياسيين. وفي عام ١٧٩٨، وقعت بريطانيا معاهدة مع حاكم مسقط موجهة ضد الفرنسيين، ولكنها ارست بداية تبعية مسقط لبريطانيا. وبعد عامين وصل ممثل بريطانيا الى المدينة.

وحاولت بريطانيا ان تقيم علاقات ودية مع حكومة السعوديين التي كانت تتقوى آنذاك. فكانت وكالة شركة الهند الشرقية، التي كانت موجودة بالبصرة في اواخر القرن الثامن عشر، تبعث الهدايا دوما الى سعود[١٣٠]. وكانت للانجليز مصلحة في دعم تجارتهم المنتعشة بين بومباي والبصرة، وكذلك في سلامة الطريق البريدي من الهند الى الشام عبر البصرة. وحاولوا اقناع الوهابيين بعدم المساس بسعاة البريد من البصرة الى حلب [١٣١].

بيد ان الانجليز لم يكونوا يتورعون كذلك عن استخدام القوات العسكرية. فان الفصيل الوهابي الذي اقترب في عام ١٧٩٨ـ١٧٩٩ من الوكالة البريطانية المتواجدة آنذاك في اراضي الكويت الحالية قد تراجع امام مدافع سفينة حربية بريطانية [١٣٢]. وبغية تسوية النزاع على نحو ما، وصل الى الدرعية رينو، ممثل شركة الهند الشرقية [١٣٣]. وكان يريد الحصول من الوهابيين على ضمانات للمصالح البريطانية في الخليج العربي، ولكنه لم يبلغ مقصده. وحاول الانجليز في عام ١٨٠٥ ان يفرضوا الحماية على الكويت الا ان اميرها عبد الله الصباح فضل ان يبقى مستقلا [١٣٤].

وفي العقد الاول من القرن التاسع عشر، شنت السفن الحربية البريطانية عمليات حربية مباشرة ضد اسطول عرب عمان، وفي عام ١٨٠٥، شنت اول حملة على القواسم [١٣٥]. وغدا المسقطيون حلفاء طبيعيين للانجليز.

وفي عام ١٨٠٩، زحف سعيد بن سلطان بقواته واسطوله الذي قاده ضابط

انجليزي على رأس الخيمة. وتوجهت اليها عمارة حربية بريطانية. وقام الانجليز بانزال قواتهم بعد ان دحروا اسطول العمانيين الضعيف التسليح. وازالوا المدينة عن سطح الارض ودمروا كل المستودعات واحواض بناء السفن وقتلوا السكان المحليين(١٣٦). وكانت هزيمة حلفاء السعوديين واتباعهم ضربة شديدة للدرعية.

واخذ حاكما البحرين والزبارة من آل خليفة يبديان تذمرهما من سلطة الوهابيين فاقتيدا الى الدرعية رهينتين. وهرب ابناؤهما الى مسقط وطلبوا النجدة من الانجليز. ودمرت السفن الحربية البريطانية حامية الوهابيين في الزبارة ثم في المنامة. واخفقت محاولات الدرعية لاستعادة سلطتها في البحرين مع ان البحرانيين ظلوا يدفعون جزية ما الى السعوديين (١٣٧).

وبعد جلاء الانجليز من رأس الخيمة عمرها سكانها من جديد. وعلى الرغم من تدمير رأس الخيمة مجددا في عام ١٨١٦، فقد تمكن القواسم في العام التالي من جمع قوات بحرية كبيرة نسبيا وظهروا على بعد ٧٠ ميلا عن بومباي(١٣٨). ولكن تلك الاحداث جرت فيما بعد.

في مطلع القرن التاسع عشر، سعى الانجليز الى فرض سيطرتهم على البحر في هذه المنطقة. ولم تكن سياستهم آنذاك تنص على تدخل نشيط في الاحداث بالجزيرة العربية. فلم تكن قوى الانجليز كافية لهذا الغرض، ثم ان المكافأة التي يتوقعونها في صحارى الجزيرة ضئيلة للغاية. وكان خصومهم الفرنسيون قد ابعدوا عموما عن مسرح الجزيرة مع ان نابليون، كما يعتقد المؤرخ التركي المعروف أ. جودت، كان بوسعه ان يقيم اتصالا مع السعوديين(١٣٩). الا ان فرنسا كانت مشغولة في مسارح العمليات الحربية الاوروبية، ثم ان الفرنسيين فقدوا في عام ١٨١٠ جزيرة موريشيس القاعدة الرئيسية لاسطولهم في المحيط الهندي.

وقد بلغ نفوذ الوهابيين في عمان اوجه في عهد القائد العسكري السعودي مطلق المطيري في بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من الدم البريطاني، فقد اضطر حاكم مسقط سعيد بن سلطان إلى دفع ٤٠ ألف ريال لأمير الدرعية (١٤٠). ويبدو ان الوهابيين توغلوا في تلك الفترة نفسها الى الجنوب الغربي،

الى ما وراء مسقط، واقتحموا حضرموت، حيث كان اوائل المبشرين الدرعيين قد وصلوا في عام ١٨٠٣ـ١٨٠٤. ولم تكن جهودهم الدعائية موفقة آنذاك، الا ان حضرموت دفعت هذه المرة الجزية الى الدرعية (١٤١). غير ان مطلق المطيري قتل في عام ١٨١٣ خلال مناوشة بسيطة. وفي تلك الاثناء، بدأ الغزو المصري للجزيرة، فاخذ الوهابيون يسحبون قواتهم من عمان. وكان بعد هذا البلد وعداء الاباضية للوهابية ومقتل القائد العسكري الموهوب مطلق وغزو المصريين للحجاز والاجراءات المضادة التي اتخذتها بريطانيا ـ كل تلك العوامل اعاقت توسع امارة الدرعية في جنوب شرقي الجزيرة.

الزحف على عسير واليمن. على تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، انضمت عسير الى الوهابيين. وعلى اثرها رضخت امارة ابو عريش للدرعية (١٤٢). ويصعب القول ان سيطرة الوهابيين على المناطق الواقعة جنوبي مكة كانت سيطرة كاملة. فهناك على الاصح حلفاء للسعوديين بحقوق منقوصة، وليس رعية بالمعنى الكامل.

وفي الوقت الذي زحف فيه الوهابيون على اليمن، كان الوضع هناك ملائما لتوسعهم. فالبلاد منقسمة على نفسها بسبب الخلافات الداخلية والفوضى العشائرية والاقطاعية. وفقد ائمة الزيدية سلطتهم على المنطقة الساحلية الا ان التوسع في اليمن لم يحقق نصرا كاملا. إن حملة قوات أمير الدرعية عام ١٨٠٥ـ١٨٠٦ على نجران لم تتكلل بانتصار حاسم مع ان حاميات وهابية ظلت في قلاع تلك المنطقة. ووقعت الحديدة في ايدي الوهابيين مرارا. وفي الواقع، ظلت المنطقة الجبلية في اليمن مستقلة مع ان قوات السعوديين حاصرت صنعاء في عام ١٨٠٨ (١٤٣).

لقد مارس الوهابيون دعاية نشيطة في اليمن وكانوا يرسلون اليها كل عام تقريبا جماعة من العلماء ولكن دون جدوى. وكان الشافعيون من سكان الساحل ـ تهامة اليمن ـ يتعاطفون مع المذهب الوهابي بسبب عدائهم لائمة صنعاء الزيديين. الا ان الشافعيين ما كانوا راغبين بالتفريط في استقلالهم الفعلي والخضوع للسعوديين.

وكان حمود ابو مسمار صاحب ابي عريش الذي شملت سلطته جزءا من تهامة اليمن قد انضم الى الوهابيين، حتى انه شارك، على ما يبدو، في العمليات الحربية ضد امام صنعاء (١٤٤). ولكن ما كان يقلقه هو ارتفاع نجم جاره ومنافسه حاكم عسير عبد الوهاب ابو نقطة تحت رعاية الوهابيين. ويقول ابن بشر ان سعود استدعى كلا الرجلين المتنافسين الى الدرعية وحاول اصلاح ما بينهما ولكن دون جدوى. واحس سعود بان روح التمرد تتصاعد عند ابي مسمار فأمره بشن حملة على صنعاء الا ان صاحب ابي عريش رفض.

وبعد ان توافرت لدى سعود ادلة على عدم ولاء تابعه المشاكس هذا اخذ يجمع المحاربين من ارجاء الجزيرة كافة للقضاء عليه. وبلغ عدد القوات الوهابية حوالي ٥٠ ألف شخص، مع ان هذا الرقم قد تكون فيه مبالغة. وكان يقاتل الى جانب ابي مسمار بدو من نجران واليمن. وفي اواخر عام ١٨٠٩، نشبت معركة ضارية قتل فيها ابو نقطة. ولكن قوات ابي مسمار منيت بالهزيمة، ففر من المعركة وراح يعزز مواقعه في عاصمته ابو عريش التي لم يتمكن الوهابيون من احتلالها. وبأمر من سعود شغل منصب ابي نقطة قريبه طامي بن شعيب (١٤٥).

غزو العراق والشام. اذا تناولنا من جديد الوضع في الحدود الشمالية الشرقية للدولة السعودية نرى للوهلة الاولى ان الاحداث تطورت بصورة ملائمة للوهابيين.

فما كان سليمان باشا يقضي نحبه في آب (اغسطس) ١٨٠٢، حتى بدأ صراع مستميت من اجل السلطة شارك فيه الانجليز والفرنسيون بشكل محموم. وتمكن كيخياه علي قريب سليمان من القضاء على منافسيه فصار واليا على بغداد. واحتفظ بالسلطة خمس سنوات تقريبا. كانت الولاية مضعضعة بسبب القلاقل الداخلية والانتفاضات الشعبية وبسبب نضالات الاكراد المتواصلة. وفي آب ١٨٠٧، ذبح علي في احد المساجد. وبعد قليل استولى على منصبه كوجوك سليمان الذي ظل واليا لمدة ثلاث سنوات وانشغل بالحرب ضد الاكراد والوهابيين حتى قتل في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨١٠. واستمرت الصدامات الحربية مع الفرس في النصف الثاني من العقد الأول من القرن التاسع عشر.

وطوال السنوات التي اعقبت تدمير كربلاء، قام الوهابيون بغزوات عنيدة على العراق. ولكن حملاتهم التي استمرت حتى عام ١٨١٠ كانت محصورة في نهب القرى غير المحمية وفي نهب البدو. ورغم المشاكل الداخلية في العراق لم يتمكن الوهابيون من تحقيق نجاحات تضاهي غزو كربلاء.

ولم تسفر عن انتصارات حاسمة كذلك غزوات الوهابيين على الشام مع ان القبائل البدوية فيها اخذت تدفع الجزية لامير الدرعية في مطلع القرن التاسع عشر[١٤٦]. وفي عام ١٨٠٨، بعث سعود رسالة الى مشايخ دمشق وحلب ومدن الشام الاخرى طالباً تبني المذهب الوهابي والخضوع لسلطة سعود ودفع الجزية. وساد الذعر والاضطراب ودمرت فصائل الوهابيين القرى في اطراف حلب، وتغلغلت في فلسطين في الوقت نفسه. وقد اتخذت اجراءات عاجلة لحماية المدن الا ان الوهابيين لم يتجرأوا على اقتحامها[١٤٧].

وفي عام ١٨١٠، قام سعود مع بضعة آلاف من المقاتلين بغزوة جسورة على الشام ونهب بضع عشرات من القرى ووصل الى دمشق تقريبا[١٤٨]. وكانت تلك آخر حملة له في الاتجاه الشمالي.

لقد بلغت امارة الدرعية اقصى حدود توسعها. وانتشرت سلطة السعوديين في شبه الجزيرة العربية كلها تقريبا، ودفع لهم الجزية حتى سلطان مسقط وامام اليمن وحكام حضرموت. وخضعت لامير الدرعية القبائل القاطنة في البوادي والفيافي الممتدة حتى اراضي الهلال الخصيب. ويقدر مؤلف «لمع الشهاب» عدد السكان الخاضعين للسعوديين في نجد بـ ٣٠٠ ألف وفي الحجاز وتهامة ٤٠٠ ألف وفي اليمن ٤٠٠ ألف او اكثر وفي شرقي اليمن ٢٠٠ ـ ٣٠٠ ألف وفي شرقي الجزيرة ٤٠٠ ألف وفي القبائل المترحلة، مثل عنزة، في البوادي بين المدينة المنورة والشام حوالى ٤٠٠ ألف، وفي عمان وسواحلها من بدو وحضر ٢٠٠ ألف[١٤٩]. وهكذا ضمت امارة الدرعية عموما حوالى ٢,٤ مليون نسمة. وهذا الرقم يبدو واقعيا، مع ان ما يخص اليمن قليل او ربما لم يدرج المؤلف عمدا هذا البلد كله ضمن دولة السعوديين.

الفصل الرابع

النظام الاجتماعي والسياسي في امارة الدرعية

لم تغير الوهابية النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية مع ان فئة الوجهاء والاعيان في امارة الدرعية الشاسعة قد برزت من بين سواد السكان وكان نشاطها الإداري المبكر منظما بعض الشيء. ان عائدات الوجهاء الحاكمين من النهب والجزية ومصادرة الاموال وفرض الضرائب واستلام بدلات الايجار قد اتسعت، ولكنها لم تكن تختلف من حيث الجوهر عن الممارسات السابقة.

النهب في الغزوات والغرامات الحربية. كانت حملات الوهابيين تحت راية تجديد الدين تستهدف تحقيق مهمات دنيوية بحتة تتلخص في زيادة ثروات حكام الدرعية ووجهاء الجزيرة المرتبطين بها (وجهاء نجد بالدرجة الاولى) وكذلك الجند المساهمين في الغزوات. ويدل ما كتبه مؤرخو الجزيرة والرحالة الاوروبيون على ان الغزو ظل الطريق الرئيسي لحصول الوجهاء على الثروة. وكتب المؤرخ الوهابي ابن بشر يقول، بعد ان عدد الضرائب التي وردت الى الدرعية: «وما ينقل اليها من الاخماس والغنائم اضعاف ذلك»[1]. ويعتقد بور كهاردت كذلك ان الاخماس تحتل المرتبة الاولى بين عائدات حاكم الدرعية[2].

كانت غزوات الوهابيين الاولى تنتهي بالاستيلاء على بضع عشرات من الابل والاغنام ونهب الحقول او بساتين النخيل، اما في سنوات اوج قوتهم، فقد كانت غنائمهم تبلغ عشرات الآلاف من رؤوس الماشية المنهوبة. وفي عام ١٧٩٦ بعد دحر

قوات شريف مكة، وقع في ايدي الوهابيين ٣٠ ألفا من الابل و ٢٠٠ ألف من الاغنام والماعز[٣]، إذا لم تكن في ذلك مبالغة.

ويقول ابن بشر انه عندما جرى في عام ١٧٩٠-١٧٩١ دحر قبائل مطير وشمر حصل الوهابيون على «غنائم كثيرة من الابل والغنم والاثاث والامتعة». وسرعان ما تعرض سائر البدو لمثل هذا المصير. فقد كان الوهابيون يطاردونهم يومين او ثلاثة «ويأخذون منهم الأموال ويقتلون الرجال»[٤]. ان المصنفات التاريخية العربية غاصة بوقائع من هذا النوع.

وكما هو حال الغزوات البدوية كان النهب الوهابي يسفر عن تجريد القبائل المستضعفة ليس فقط من المنتوج الزائد، بل كذلك من قسم كبير من المنتوج الضروري، وغالبا ما يحكم على السواد الاعظم من السكان المنهوبين بالموت جوعا. ولم يقتصر النهب على البسطاء من ابناء القبائل او سكان المدن، فقد تعرض للنهب الوجهاء والاعيان ايضا. الا ان هؤلاء كانوا يعوضوا عن خسائرهم على حساب بسطاء البدو او الفلاحين. وكان الوهابيون المنتصرون يرأفون عادة بحال الوجهاء، ويفضلون اقامة علاقات طيبة معهم. وكان الوجهاء المغلوبون يفقدون استقلاليتهم السابقة، ولكنهم يصبحون جزءا من الطبقة الحاكمة في الدولة السعودية.

ويدل كبر حصة غنائم الحرب في مداخيل الدول الوهابية على طابعها الحربي التوسعي. فقد تعرضت للنهب القبائل والمدن والواحات والمناطق غير المنضمة اليها او التي حاولت التخلص من سلطة امراء الدرعية. وكانت الحروب والغزوات والنهب والتوسع المتواصل من اهم شروط وجود الدولة السعودية.

وكان مستوى تطور القوى المنتجة في الجزيرة العربية ما يزال عاجزا عن تمكين الوجهاء والاعيان الوهابيين من الاستئثار بمنتوج عمل السكان بواسطة الانواع الاكثر تنظيما من الاستغلال بالمقادير نفسها التي يؤمنها النهب السافر. وبغية الحفاظ على مداخيل الطبقة الحاكمة تعين على امارة الدرعية ان تتوسع بلا انقطاع. وفي حالة توقف التوسع لن يتمكن الوجهاء الحضر، وخصوصا وجهاء

البدو، من استلام المداخيل التي تعودوا على استلامها من السكان الخاضعين لهم. وفي تلك الحالة تنتفي دوافع توحيد الوجهاء والاعيان في اطار دولة موحدة. وفي ذلك يكمن التناقض الداخلي الرئيسي للدولة الوهابية الاولى التي كانت تحمل في احشائها منذ لحظة ظهورها جنين هلاكها وسقوطها.

وكان المصدر الآخر للإثراء هو الغرامات، وهي عبارة عن جزية نقدية او عينية تفرض على القبائل او الواحات الخاضعة للوهابيين او المنضمة اليهم. وكانت الغرامات تفرض مرة واحدة، ولكن تسديدها قد يستمر عدة سنوات فيكتسب شكل الجزية او الضريبة المتواصلة.

ففي عام ١٧٨٧ـ ١٧٨٨، فرضت على اهالي واحات وداي الدواسر الذين اخضعهم الوهابيون غرامات بمبلغ الفي ريال كان يجب تسديد الف منها فورا[٥].

وبعد ان مني امير الاحساء عريعر بالهزيمة في هجومه على الوهابيين تهيأ امير الدرعية للتنكيل بحلفائه الذين انتقلوا الى صف الاحسائيين. وطلبت منه واحات المحمل وثادق ان يعفو عنها، فعفا عنها، ولكنه فرض عليها، كعقوبة، غرامات «من ثمر الزرع والتمر»[٦].

وفي عام ١٧٦٧ـ ١٧٦٨، انضم الى الوهابيين سكان الوشم وسدير و«بايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة». والتزموا بان يدفعوا للدرعية غرامات نقدية وعينية [٧].

وعندما اخضع امير الدرعية سكان الحوطة والحريق واليمامة والسلمية وقسم من الخرج فرض عليهم جزية «بما شاء من النقود» [٨].

وفرض الوهابيون غرامات بشكل نقود واسلحة وافضل الخيول مع عدتها على قبائل البدو المجاورة لمكة [٩].

الاستيلاء على الملكية العقارية. لم يورد المؤرخون الوهابيون عن انتزاع الاراضي من الفلاحين وتحويلهم الى مستأجرين الا انباء متفرقة وشحيحة.

عندما احتل عبد العزيز الرياض «ملك بيوتها ونخيلها الا قليلها»[١٠]. ويبدو ان

مساكن اهل الرياض غدت ملكا لامير الدرعية. ولكن ماذا يستفيد من هذه الملكية اذا كان الكثير من سكان الرياض قد هربوا؟ وهل يستطيع الأمير ان يؤجر تلك الدور؟ لعل امير الدرعية قد باع في اغلب الظن الادوات المنزلية المنهوبة وليس واضحا كذلك كيف جرى التصرف بالنخيل. فمن الذي صار يسهر عليها؟ وما الذي يعنيه المؤرخ بقوله «الا قليلها»؟ ربما كانت هذه النخيل ملكا لانصار الوهابيين من اهالي الرياض او ان عبد العزيز وزعها على المقربين اليه.

ونجد معلومات اكثر تحديداً عن بساتين النخيل في الخرمة. فقد احتل الوهابيون الواحة ووافق سكانها على احالة النخيل الى بيت المال[11]. اما باقي المزروعات المغروسة بين النخيل او في الحقول الخالية من النخيل فلا نعرف عنها شيئا. (وبالمناسبة فان شروط هذا الاتفاق لم تنفذ. فقد اعتبرها عبد العزيز سهلة جدا، ولذا امر بتدمير اسوار الواحة وتهديم قسم من الدور وطرد جماعة من السكان).

وفي معرض الحديث عن مداخيل الدولة السعودية اشار بور كهاردت الى ان بيت المال (الخزينة) يقسم الى قسمين احدهما للامام والآخر للدولة. «ويتسلم زعيم الوهابيين القسم الاكبر من مداخيله من عائدات املاكه الخاصة. وقد جرت العادة على ان ينهب احدى مناطقه او مدنه اذا كانت قد تمردت لاول مرة. واذا تكرر التمرد لايكتفي بالنهب، بل يصادر كل اراضي السكان ويحيلها الى بيت المال. ثم يهدي قسما منها الى الغير، ولكنه يترك القسم الاكبر لاصحابها السابقين الذين يتحولون الى مستأجرين ويجب عليهم ان يدفعوا له تبعا للظروف ثلث المحصول او نصفه. ان ملكية الاشخاص الذين شاركوا انشط مشاركة في التمرد تحال الى غيرهم. اما هم انفسهم فيطردون او يقتلون... وفي الوقت الحاضر يعود القسم الاكبر من الملكية العقارية في نجد الى بيت المال اي خزينة الدولة. وان ملكية كل الاراضي في القصيم التي كان سكانها يتمردون دوما قد تركت لهم على سبيل الايجار. والكثير من القرى في الحجاز وفي الجبال الواقعة على جانب اليمن يعود الى بيت المال ايضا» [12].

ان نظام جباية المال من السكان الخاضعين الذين يتحدث عنهم المقتطف أعلاه

يبدو على العموم ناجزا وكاملا، مع ان الكثير من جوانبه يبقى غامضا، ومن ذلك، مثلاً، مسألة ما اذا كان بدل الايجار يرد الى بيت المال او يوضع تحت تصرف امير الدرعية شخصيا. ومن يقصد بور كهاردت بكلمة «الغير»، هل يقصد الفلاحين الذين استقروا في المناطق التي استولى عليها الوهابيون ام يقصد ملاكا جدد يستأجر الملاك السابقون الاراضي منهم؟ سؤال تصعب الاجابة عنه.

ان معطيات هذا الرحالة الاوروبي والمصنفات العربية تكمل بعضها بعضاً، ولكنها متعارضة بعض الشيء. وهناك مبررات تجعلنا نصدق بقدر اكبر ما يقوله مؤرخو الجزيرة. فان ابن بشر، مثلا، كانت له علاقات مع موظفي المالية في البلاط وقد استقى معلوماته منهم شخصيا. اما بور كهاردت، فكان يتناول الكثير من ظواهر الحياة في الجزيرة من مواقع الاوروبي المتحيزة دون قصد.

ان مؤرخي الجزيرة لا يتحدثون الا نادرا جدا عن ملكية الاراضي المحالة الى بيت المال. وهم يشيرون في عدة حالات فقط الى وجود الخراج (ضريبة الارض) في الدولة الوهابية، ولكنهم لا يحددون طابعه. واذا كان الخراج هو ايجار الارض الذي يقدم لقاء اراضي الدولة، فان معطيات بور كهاردت تحصل على برهنة كافية الى حد ما. وفي هذه الحالة يمكن الكلام عن اعادة توزيع مكثفة لملكية الاراضي في الدولة السعودية وعن التوافق بين ريع الارض والخراج الذي يجبيه بيت المال.

وعندما ابدى حليف الوهابيين امير حريملا مبارك بن عدوان تذمرا اقترح عليه محمد بن عبد الوهاب وامير الدرعية قائلين «خذ من نخيل حريملا ما تريد واجلس عندنا ولك الحشمة والوقار وخراجك علينا». وصار مبارك بن عدوان اسيرا فخريا عند الوهابيين [١٢]. ولكنه، على ما يبدو، احتفظ بريع بساتين النخيل.

الزكاة. من اهم المستحدثات في امارة الدرعية فرض ضريبة مركزية منتظمة على جميع سكان الدولة بشكل الزكاة المنصوص عليها في القرآن لمساعدة الفقراء والمساكين والتي هي واحد من اركان الاسلام. ان الاهداف الدينية المتجسدة في بعث الزكاة تستجيب بافضل شكل لمتطلبات ومهمات الدولة السعودية الاقطاعية. واشار

ابن بشر وهو يتحدث عن استيفاء الزكاة الى ان «الاسلام الحقيقي» انتشر في نجد وقال «بعثت العمال لقبض الزكاة وخراج الثمار بعد ان كانوا قبل ذلك يسمون عند الناس مكاسا وعشارا» [١٤].

ويقول هذا المؤرخ النجدي انه كانت تخرج من الدرعية سنويا جماعات لقبض الزكاة من البدو. وكل جماعة تتكون من سبعة اشخاص تضم اميرا وكاتبا وحامل الدفتر وجابيا لجمع النقود من بيع الابل والغنم والماعز المخصصة لتسديد الزكاة، بالاضافة الى ثلاثة حراس مسلحين يقومون بجمع القطعان واقتيادها وحراستها. وكان حكام الدرعية يرسلون الى البدو اكثر من سبعين جماعة لقبض الزكاة. وكان هناك مخولون خاصون باستيفاء الزكاة من محاصيل المزارعين ومن القرى الصغيرة والكبيرة وموظفون لاستيفاء الزكاة من البضائع [١٥].

وكتب بور كهاردت يقول «كان جباة الزكاة يرسلون سنويا من الدرعية الى مختلف المناطق والقبائل. وهم يستلمون مبلغا نقديا معينا مقابل عملهم وكذلك نفقات السفر» [١٦].

وتبين معلومات ابن بشر ان جماعات قبض الزكاة كانت تعيش على حساب الاشخاص الذين تستوفى عنهم الزكاة [١٧]. وهذا يهيىء الفرصة للفساد.

وتبلغ الزكاة عشر محصول الاراضي الديمية وخمس محصول الاراضي الاروائية وربع العشر من رأسمال التاجر [١٨]. ويقول بور كهاردت انهم كانوا يأخذون ريالا من قبيلة عنزة لقاء كل خمسة جمال وثمن نعجة واحدة لقاء كل ٤٠ رأسا من الغنم، وما يعادل ٧ شلنات على كل حصان [١٩]. ولكنه يمكن الافتراض بأن مبلغ الزكاة يختلف باختلاف المناطق.

ويصعب تحديد المبالغ الاجمالية للزكاة التي كانت ترد الى الدرعية، مع ان ابن بشر قد اورد بعض الارقام وكتب يقول: «واخبرني احمد بن محمد المدلجي قال كنت كاتبا لعمال علوي من مطير مرة في زمن عبد العزيز. فكان ما حصل منهم من الزكاة في سنة واحدة احد عشر الف ريال. قال وكان عمال بريه من مطير رئيسهم عبد

الرحمن بن مشاري بن سعود. فكان ما جبى منهم اثني عشر الف ريال. ومن هتيم سبعة الاف ريال. وكانت زكاة مطير في تلك السنة ثلاثين الف ريال. وكان عنزة اهل الشام وبوادي خيبر وبوادي الحويطات المعروفات ومَن في نجد من عنزة يبعث اليهم عوامل كثيرة ويأتون منهم بأموال عظيمة. واخبرني من اثق به قال اناخ في يوم واحد تحت الطلحة المعروفة عند باب بلد شقرا اربع عوامل من عمال بوادي الشام، كل عاملة معها عشرة آلاف ريال. قلت ويأتي غير ذلك من زكاة بوادي شمر وبوادي الظفير قريب ما يأتي من عنزة، ومن قحطان وبوادي حرب وعتيبة وجهينة وبوادي اليمن وعمان وآل مرة والعجمان وسبيع والسهول وغيرهم ما يعجز الحصر. وتؤخذ منهم الزكاة على الأمر الشرعي ولا يؤخذ فيها كرائم الاموال ولا دونها الا من غيب من ابله او غنمه شيئا عن الزكاة فيؤخذ منه الزكاة والنكال»[٢٠].

ويبدو ان حجم واردات الزكاة في الدرعية قد ازداد بقدر اكبر في عهد سعود بن عبد العزيز.

فقد قال عنه ابن بشر ما يلي: «واما عماله الذين يبعثهم لقبض زكاة الابل والغنم في بوادي جزيرة العرب مما وراء الحرمين الشريفين وعمان واليمن والعراق والشام وما بين ذلك من بوادي نجد فذكر لي بعض خواص سعود ممن قد صار كاتبا عنده، قال: كان يبعث الى تلك البوادي بضعا وسبعين عاملة في كل منها سبعة رجال... واخبرني ذلك الرجل ان سعودا بعث عماله لبوادي الغز المعروفين في ناحية مصر*، وبعث عماله ايضا لبوادي يام نجران وقبضوا من الجميع الزكاة وقال: آتوا عمال آل فدعان المعروفين من بوادي عنزة بزكاتهم بلغت اربعين الف ريال من غير خرج العمال وثماني افراس من الخيل الجياد. قال: وهذا اكثر ما تأتي به العاملة من تلك العمال كل سنة، واقل ما تأتي به العاملة من اولئك العمال المذكورين ثلاثة آلاف ريال والفين ونصف، قال: والذي يأخذه سعود على بندر اللحية المعروفة في اليمن مائة وخمسون الف ريال وهو لا يأخذ الا ربع العشر، ومن بندر الحديدة نحو ذلك....

قلت : واما غير ذلك مما يجيء الى الدرعية من الأموال من القطيف والبحرين

وعمان واليمن وتهامة والحجاز وغير ذلك وزكاة ثمار نجد وعروضها واثمانها لا يستطيع احد عده ولا حصره...»[٢١].

ولم يذكر ابن بشر المبلغ الاجمالي لمداخيل امراء الدرعية. وربما لا يعرف ذلك المبلغ الامراء انفسهم. وقد قدر بوركهاردت العائدات السنوية لبيت مال الوهابيين بمليون ريال، علما بان افضل الاعوام عاد عليهم بمليوني ريال[٢٢]. الا ان الرحالة لم يؤكد على ما إذا كان هذا الرقم يضم غنائم الحرب ومختلف انواع الغرامات ام انه يضم الضرائب فقط.

ويقول مؤلف «لمع الشهاب» بان العائدات الضرائبية السنوية لسعود في عز جبروته بلغت كما يلي: ٤٠٠ الف ريال من سكان نجد البدو والحضر و ٥٠٠ الف من بدو الشام واليمن وتهامة وعمان وحوالى ٤٠٠ الف من الاحساء و ٢٠٠ الف من القطيف و ٤٠ الفاً من البحرين، و ٣٠٠ الف من اليمن (من السكان الحضر على ما يبدو) و ٢٠٠ الف من بدو الحجاز وبعض المناطق الاخرى و ١٢٠ الفا من رأس الخيمة (بما فيها حصة النهب) و ١٢٠ الفا من حضر وبدو(؟) عمان، فضلاً عن نفقات القوات الوهابية هناك. اما غنائم الغزوات فلا تعد ولا تحصى. وكان سعود شخصيا يستلم مداخيل كبيرة بشكل هدايا من الحجاج الاثرياء، وكانت الاراضي التي يملكها في نجد والاحساء تعود عليه بـ ٣٠٠ الف ريال[٢٣] وهكذا يصل المبلغ الاجمالي لمداخيل امير الدرعية بشكل ضرائب حسب معلومات «لمع الشهاب» الى مليوني ريال تقريبا. وهذا يتفق مع ما قاله بور كهاردت.

كانت عائدات الامراء السعوديين هائلة بالنسبة للجزيرة العربية آنذاك. ولكنه ينبغي ان نأخذ في الاعتبار التذبذب الكبير في الاسعار من موسم لآخر او من منطقة لاخرى. ويكفي القول ان حمل الحطب في الدرعية، كما يقول ابن بشر، يكلف ٥-٦ ريالات وان ثمن النخلة الواحدة يصل الى ٥٠ ريالا[٢٤].

ان طابع الدولة السعودية التي كانت تخدم بالأساس مصالح وجهاء الجزيرة العربية قد تجلى كذلك في ميدان التوزيع المركزي للثروات. ولكنه لا يمكن تحديد المبالغ المطلقة والنسبية لنفقات الدولة الا بصورة تقريبية.

البلاط السعودي. ان الاموال التي تنفق على بلاط امراء الدرعية واسرة محمد بن عبد الوهاب تشكل واحدا من ابواب الصرف الرئيسية. لقد تجمعت كملكية شخصية للسعوديين ثروات بشكل اراض في الواحات وماشية واحجار كريمة ومجوهرات واموال اخرى. وكتب ابن بشر يقول ان ثلث الضرائب المستحصلة في منطقة الاحساء ينفق على بلاط السعوديين واسرة ابن عبد الوهاب والحاشية [٢٥].

ان عوائل الوجهاء العرب عموما كبيرة للغاية. فالاموال الكثيرة تمكن ابناء الوجهاء من التزوج من اربع نساء على الاقل كما ينص القرآن، بالاضافة الى الجواري. وان التغذية الجيدة والظروف الصحية الافضل بعض الشيء مما لدى باقي السكان تقلل من وفيات الاطفال في العوائل الموسرة. وكانت عائلة السعوديين كبيرة جدا (الامير واخوانه وأولاده واعمامه وابناء عمومته وابناؤهم). ويقول بور كهاردت انه كان لدى سعود عدة زوجات ووصايف حبشيات [٢٦].

ان امراء الدرعية بعد ان انضووا تحت لواء الوهابية التي باركت سلطتهم والتي تدعو الى البساطة والاعتدال صاروا يعيشون بقدر كبير من البذخ والفخفخة بالنسبة للجزيرة العربية. واشار كورانسيز الى «ان سعود ذاق طعم الترف وكان لا بد ان يتأثر به». ويضيف المؤرخ الفرنسي قائلا: ذلك هو طريق جميع الطوائف التي «تبدأ بالبساطة والتقشف لتجتذب الجماهير وتنتهي بالترف للزعماء» [٢٧].

ونقرأ في «لمع الشهاب» عن سعود ما يلي: «وكان تحته اربع نسوة بالعقد وست جوار من القرج ارسل بعض الناس خفية الى اطراف بلاد الروم فاشتروهن له بقيمة كبيرة قيل كل واحدة اشتراها بثلاثة آلاف ريال او اكثر لانهن متناهيات في حسن الصورة وايضا له عشر وصايف حبشيات بعضهن اهداه له الشريف حمود ابو مسمار صاحب ابي عريش وتهامة اليمن وبعضهن اتوه به القواسم اهل رأس الخيمة من ما اكتسب من الغنائم وقد غير بنيان البيت الذي كان لأبيه عبد العزيز فوسع عرصته وبنى غرفا وخلوات وعين لكل امرأة موضعا خاص هي وخدمها... واما لباس نسائه فكان اطيب لباس وغالبه من الحرير الهندي المصنوع بالذهب احمر

او اصفر او اخضر وغير ذلك من الالوان وكذلك يلبس من بز الشام الحرير العال المطرز بالذهب...

وقد جملهن من الحلي شيئا عظيما من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة من الياقوت الاحمر وغيره كثيرا... وكان يرسل بعض الناس الى ملك فارس فيشترون له ذلك... وكان سعود يترف في المأكول كما يترف في الملبوس وغالب قوته وقوت عياله الأرز وصار اكل الحنطة لديهم قليلا واتخذ له اناسا من اهل الاحساء او القطيف يصنعون له الاطعمة الحسنة من اللحوم المقلية والطيور المحشية والحلويات...»[٢٨].

وكتب رايمون «ان سعود يحب ابداء كل مظاهر الفخفخة. وكل شيء في قصره يدل على العظمة والبذخ و لايرفض اي شيء من اجل تزيين القصر. ولا يبخلون بالذهب واللؤلؤ واغلى الاقمشة الهندية من اجل جعله اكثر روعة. ويقال ان عباءة سعود بديعة الصنع للغاية وقد كلفته ما لا يقل عن ٦٠ الف بيزة»[٢٩].

في اقوال رايمون مبالغة. ولكن من الواضح ان امراء الدرعية في تلك الازمان الغابرة لم يبخلوا على انفسهم بالترف الذي يقدرون عليه. والى جانب الماشية والاراضي والاحجار الكريمة والسلاح المزين بالنفائس والقصور والقلاع كانوا يمتلكون كذلك الخيول الاصيلة التي يعتز بها وجهاء الجزيرة كل الاعتزاز. ومن المعروف ان سعود بن عبد العزيز انفق اموالا طائلة على رعاية تلك الخيول. وبلغ عدد الخيول الاصيلة في قطعانه ٢,٥ الف رأس[٣٠]. وخصص منها ٦٠٠ حصان لاشجع البدو والمماليك[٣١]. وكان لدى كل من ابناء سعود ١٠٠ ـ ١٥٠ حصانا، وكان عند ولي العهد عبد الله ٣٠٠[٣٢]. كان امراء الدرعية يستولون على الخيول في الغزوات ويستلمونها بشكل هدايا وزكاة وغرامات، ولايتورعون حتى عن ابتزازها. كتب بور كهاردت يقول «الاعراب يتشكون من انه عندما يمتلك احد ما حصانا جيدا فان سعود يجد ضده تهمة ما بخرق القانون او بسوء السلوك لكي يبرر مصادرة ذلك الحصان»[٣٣].

وكانت اموال كبيرة تنفق على الضيافة التقليدية. ففي كل يوم يحل على سعود

بضع مئات من الضيوف[٣٤]. وكان سعود يخصص للضيوف سنويا ٥٠٠ صاع من الارز والقمح[٣٥]. (يراوح الصاع في الجزيرة ما بين لتر واحد ولترين ونصف). وخلال يومين من ولائم زفاف احد ابناء سعود التهم الضيوف ١٤٠ ناقة و ١٣٠٠ خروف[٣٦].

ان ضيوف سعود الكثيرين لم يكونوا من الفقراء عادة. وكان سخاء الامير يعم الموسرين في الغالب. ثم ان الغذاء المقدم للضيوف يختلف. فالوجهاء يقدم لهم اللحم والأرز، والاقل منهم جاها يقدم لهم التمر والبرغل [٣٧].

وكان سعود يمتلك عددا كبيراً من العبيد. كتب ابن بشر يقول: «ومماليكه الذكور اكثر من خمسمائة مملوك وقال غيره: ستمائة الذكور وقال آخر ان مماليكه الف الذكور اكثر من خمسمائة ومائتان الاناث والذي يظهر من القصر آخر رمضان الف وثلثمائة فطرة عن خدمه وعبيده وما في قصره من الايتام»[٣٨]. وكان عبيد الامير يتمتعون بالامتيازات بالمقارنة مع مجموع سكان الجزيرة الفقراء شبه الجياع. وكانوا يشكلون حرس البلاط. وحاشية شخصية للامير. وقد ارتقى بعضهم الى مناصب عليا في الدولة. فان المملوك الخرق صار قائدا للقوات الوهابية في المعارك[٣٩]. وقد تم انعتاق الكثيرين من العبيد.

واحتفظ بلاط السعوديين، وخصوصاً في المراحل الأولى، ببساطة العادات و«بديمقراطيتها» اذا استخدمنا المصطلحات الحديثة. ولم يظهر بشكل واضح جدا الانفصال الظاهري بين اصحاب السلطة والامير الاقطاعي وبين جمهور السكان. ومن الناحية الظاهرية احتفظ امير الدرعية ببعض التشابه مع شيوخ القبائل البدوية. فان ابسط البدو كانوا يخاطبونه بدون رسميات: يا سعود، يا ابا عبد الله، يا أبا شوارب [٤٠]. وكتب كورانسيز عن «بساطة وخشونة العادات»[٤١] في بلاط امير الدرعية. كان مجلس سعود مفتوحا للجميع. ويستطيع كل قادم ان يؤمل في كرمه وحسن ضيافته. وكان الامير شخصيا ينظر في شكاوى رعيته. وكان حكمه القضائي يتميز بالسمات العشائرية. وقد كتب بور كهاردت ان سعود بنفسه كان

احيانا يجلد الكاذب، ولكنه يأسف لذلك طويلا فيما بعد، ويطلب من المحيطين به ان يخففوا من غضبه (٤٢).

وكان سكان الدرعية غالبا ما يحضرون دروس الفقه التي يأتي اليها جميع الوجهاء وابناء محمد بن عبد الوهاب وابناء سعود واقاربه. وكان الأمير نفسه يحضرها. «فاذا اجتمع الناس خرج سعود من القصر ومعه دولة وجلبة عظيمة تسمع جلبتهم كأنها جلبة النار في الحطب اليابس من قرع السيوف بعضها بعضاً من شدة الازدحام، لا ترى فيهم الأبيض من الرجال الا نادراً، بل كل مماليكه عبيد سود ومعهم السيوف الثمينة المحلاة بالذهب والفضة، وهو بينهم كالقمر تبين في فتق سحاب. فاذا اقبل على ذلك قام له الذين في طريقه لئلا يطأهم العبيد حتى يخلص الى مكانه. فيسلم على الكافة ثم يجلس بجانب عبد الله ابن الشيخ وهو الذي عليه القراءة في ذلك الدرس.. فاذا تكامل سعود جالسا التفت للعلماء والرؤساء من المسلمين... ودخل القصر وجلس في منزل من منازله القريبة للناس ورفعوا اليه حوائجهم حتى يتعالى النهار ويصير وقت القيلولة فيدخل الى حرمه... وكان من احسن الناس كلاما واعذبهم لسانا واجودهم بيانا فاذا سكت قام اليه اهل الحوائج من اهل الشكايات من البوادي وغيرهم وكان كاتبه على يساره فهذا قاض له حاجة وهذا كاتب له شكاية وهذا دافعه وخصمه الى الشرع فيجلس في مكانه ذلك نحو ساعتين حتى ينقضي اكثرها، ثم ينهض قائما ويدخل القصر ويجلس في جلسة في المقصورة ويصعد اليه كاتبه ويكتب جوابات تلك الكتب التي رفعت اليه في ذلك المجلس».

كان الحراس يحيطون بسعود دوما. وعندما يصلي في مسجد القصر يحرسه عبدان، وعندما يخرج الى الصلاة مع الناس يرافقه ستة عبيد يحملون السيوف: اثنان امامه واثنان خلفه واثنان وراء الصف الثاني من المصلين(٤٣). وقد اتخذت هذه الاجراءات تحوطا للطوارىء بعد مقتل ابيه عبد العزيز في المسجد.

ويستنتج مما ذكره ابن بشر مع ذلك انه نشأت في بلاط السعوديين مراسم

خاصة للفصل الظاهري بين الوجهاء والشعب والتأثير على بسطاء الناس عن طريق الابهة والفخفخة عند الحاشية والخدم وخصوصا آداب السلوك وهلمجرا.

نفقات الدولة خارج بلاط الامير. كانت الهدايا التي يقدمها امراء الدرعية الى الوجهاء والاعيان بشكل عيني (خيول اصيلة واسلحة وماشية) وبشكل مكافأة مالية واحدا من اساليب اعادة توزيع الثروات المستحصلة داخل الطبقة الحاكمة. وكتب بور كهاردت ان امير الدرعية كان يهدي لشيوخ البدو ما بين ٥٠ و ٣٠٠ ريال(٤٤). وقال ابن بشر ان امير الدرعية كان «كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والامراء»(٤٥).

وتلقي المعلومات الخاصة بالميزانيات المحلية وميزانيات المناطق ضوءا اضافيا على طابع النفقات في الدولة الوهابية. ويتوقف بور كهاردت طويلا عند هذه المسألة. صحيح ان ملاحظاته تنم عن رغبة غير متعمدة في تصوير جهاز الدولة الوهابية بصورة اكثر تنظيما مما كان عليه فعلا.

ويقول بور كهاردت «ان جميع المداخيل، ما عدا زكاة البدو، ترد الى بيت المال. ولكل مدينة او قرية ذات شأن بيت مال محلي يدفع له السكان ما يترتب عليهم. وفي بيت المال كاتب يبعثه زعيم الوهابيين ويأمره بعدم السماح للشيخ المحلي باساءة التصرف بالاموال بأي حال. ولا يسمح للشيوخ لا باستحصال النقود ولا بالتصرف بما يتم جمعه منها.

فهذه الاموال مخصصة للخدمات العامة وهي تقسم الى اربعة اقسام. يرسل ربع الى بيت المال المركزي في الدرعية، ويخصص ربع للتخفيف من اعباء الفقراء... وهو ينفق على علماء الدين الذين يرشدون التلاميذ وعلى القضاة وعلى اعمار المساجد وصيانة الآبار العامة... ويخصص النصف للصرف على الجنود الفقراء الذين يزودون بالاغذية اثناء الحملات، ويزودون بناقة عند الاقتضاء، وكذلك على الضيوف. وان النقود المخصصة للضيوف تسلم الى الشيوخ الذين يفتحون مضايف ليتوقف فيها الضيوف ويتغذون. وتخصص لهذا الغرض كذلك الضرائب العينية (٤٦).

ان هذا المقتطف لا يقدم جوابا على اسئلة كثيرة. فليس واضحا ما اذا كان بيت المال المحلي يستلم قسما من الزكاة او انه يفرض ضرائب اضافية، وما اذا كان بيت المال المركزي يساهم في النفقات المحلية. وكتب بور كهاردت ان المركز يعوض عن الخسائر الناجمة عن الكوارث الطبيعية وغزوات الاعداء[٤٧]. ولكن هل ان ذلك مشاركة من بيت المال المركزي في النفقات المحلية لمرة واحدة او انه يجري على الدوام؟

واورد ابن بشر تقسيما آخر للميزانية المحلية فقد كتب عن توزيع امير الدرعية لاموال الاحساء يقول: «والذي يحصل من بيت مال الاحساء يقسم ثلاثا، ثلث يدخره لثغوره وخراجا لأهلها والمرابطة فيها، وثلث خراجا لخيالته ورجاله ونوابه وما يخرجه لقصره وبيوت آل الشيخ وغيرهم في الدرعية، وثلث يباع بدراهم وتكون عند عماله لعطاياه وحوالاته... ويحصل بعد ذلك ثمانون الف ريال تظهر للدرعية» [٤٨].

وهكذا كانت الاموال المحلية توزع في عدة اتجاهات اساسية. ينفق القسم الرئيسي منها على الاغراض الحربية - لتأمين حاجة الجنود الفقراء وتزويد الحاميات بالاغذية ودفع الرواتب والانفاق على الخيالة (اي الوجهاء المسلحين). والباب الهام الثاني للصرف هو الهدايا التي تقدم الى الوجهاء المحليين الذين يحتلون اهم المناصب في الادارة الوليدة ويتصرفون بجزء من النفقات، وليس بدون نفع شخصي طبعا. اما النفقات على «الفقراء» فتغطي حاجات علماء الدين والقضاة.

الاعمال الخيرية. يتحدث ابن بشر عن سجايا امير الدرعية عبد العزيز فيقول: «وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين في الغاية، فكان منهم من يكتب اليه منه ومن امه وزوجته وابنه وابنته من كل واحد كتابا وحده، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالا واقل واكثر. وكان اذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي اولاده الى عبد العزيز وابنه يستخلفونه فيعطيهم عطاء جزيلا. وربما كتب لهم راتبا في الديوان... في كل وقت وكل سنة يعطي كل اهل بلد وكل اهل ناحية الف ريال واقل واكثر... واخبرني كاتبه قال ان عبد العزيز اخذه يوما

صداع فدعاني وقال اكتب صدقة لاهل النواحي فأملي علي لأهل منفوحة خمسمائة ريال. واهل العيينة مثل ذلك. واهل حريملا سبعمائة ريال. واهل المحمل الف ومائة ريال ولجميع نواحي نجد على هذا المنوال. قال قيمتها تسعون الف ريال. واتى اليه يوما خمسة وعشرون حملا من الريالات، فمر عليها وهي مطروحة، فنخسها بسيفه. وقال: اللهم سلطني عليها ولا تسلطها عليّ، ثم بدأ في تفريقها»(٤٩).

ووصف ابن غنام المجاعة المرعبة التي اجتاحت نجد في اواسط الثمانينات من القرن الثامن عشر حيث ارتفعت اسعار المواد الغذائية الى اقصى حد وهلك الرجال والنساء ناهيك عن الشيوخ والاطفال. كان الناس يسقطون اثناء الصلاة بسبب الهزال. واستمرت المجاعة عدة سنوات. وعند ذاك بدأ عبد العزيز باطعام الارامل والايتام والضعفاء (٥٠).

وهكذا طبقت الدولة السعودية عمليا واحدا من المستحدثات العبقرية (او على الاصح المكتسبات) التي جاء بها الاسلام، ونعني الاعمال الخيرية او العمل بالمعروف. فهذا العمل الذي «يفتح» أمام القائمين به ابواب الجنة في الآخرة كان يحميهم في الدنيا ولو مؤقتا من غضب الفقراء وانتفاضاتهم وتمرداتهم. وكانت الاعمال الخيرية تجرد الفقراء من سلاحهم الفكري وتوحي اليهم بان خلاصهم من الجوع والحرمان والتخفيف من اعبائهم يتمان ليس بالكفاح الحازم، بل بصدقات الاثرياء والوجهاء. ولعبت اعمال السعوديين الخيرية دورا سياسيا لا يقل اهمية: فقد تحسنت الاوضاع المادية بعض الشيء لسكان المناطق الوسطى من الدولة الوهابية على حساب الاطراف، وادى ذلك الى زيادة ولاء اولئك السكان لامراء الدرعية. وكان قسم من الاموال المخصصة للاغراض الخيرية يقع في ايدي الوجهاء والاعيان المحليين او يخدمهم بصورة غير مباشرة اذ يخلصهم من لزوم الانفاق من جيوبهم على فقرائهم.

وكانت الاعمال الخيرية في امارة الدرعية بمثابة ترجمة للتضامن العشائري في مواجهة الكوارث.

البنية السياسية للدولة وتنظيم السلطة. لقد توحدت بقوة السلاح تحت سلطة امير الدرعية مختلف المناطق والقبائل البدوية. وكانت درجة تبعيتها للدرعية متباينة.

ويقول ابن غنام ان القبائل او الواحات عندما يجرى ضمها الى الوهابيين تقسم امام الشيخ محمد بن عبد الوهاب والامير ابن سعود على خوض الجهاد ضد المشركين (اي غير الوهابيين) وتقديم العون للوهابيين[٥١]. وعندما انضم سكان الخرمة والمجمعة الى الوهابيين بعثوا وفدا الى الشيخ والى عبد العزيز للاعراب عن رغبتهم في التمسك بالاسلام واداء كل الفرائض بما فيها الزكاة، ولكنهم طلبوا السماح لهم بعدم المشاركة في الجهاد خلال عامين [٥٢].

فما الذي تعنيه مثل هذه الاتفاقيات؟ لقد كانت تلك، بالدرجة الاولى، تحالفات عسكرية التزم فيها الطرف المنضم الى الوهابيين بشن العمليات الحربية ضد غير الوهابيين. وهذا هو الامر الرئيسي. وليس من قبيل الصدفة ان تأجيل المشاركة في الجهاد عامين كان يعتبر استثناء من القاعدة.

لقد الزم التحالف مع الوهابيين القبائل والواحات بان تدفع ضريبة دائمة الى بيت المال المركزي وقيد استقلالها بقدر كبير.

وفي عام ١٨٦٥، زار المندوب البريطاني ل.بيلي الدولة الوهابية التي بعثت مع عاصمتها الجديدة الرياض بعد تدميرها على يد المصريين. واشار الى مختلف اشكال تبعية القبائل التي انضمت او ضمت الى الوهابيين للرياض. ويمكن، ببعض التصرف الحذر، تطبيق اقواله على الدولة الوهابية الاولى.

كانت بعض القبائل تدفع الضرائب وتشارك في الحملات الحربية وتؤدي مختلف الواجبات، بينما تقوم قبائل اخرى برعي الماشية في نجد واطرافها واذا تعرضت لهجوم من طرف ثالث فان الوهابيين لا يتدخلون. والمجموعة الاخرى من القبائل تلتزم بعدم الاعتداء على القبائل الخاضعة لامير الرياض، مقابل التزام مماثل من جانب هذه القبائل الاخيرة. وتتكون المجموعة الرابعة والاخيرة من قبائل لا تعترف بسلطة امير الرياض ولكنها تدفع الاتاوات له [٥٣].

وكانت السلطة المركزية تتخذ الاجراءات لالغاء العادات العشائرية القديمة في حل النزاعات وتسعى الى تسوية التناقضات المحلية في اطار الدولة الموحدة. وافاد بور كهاردت ان النزاعات القبلية في الدولة الوهابية تحل من قبل امير الدرعية نفسه. وهو يعاقب بشدة المذنبين فيها (٥٤).

واستخدم السعوديون قسما من الوجهاء والاعيان المحليين الذين انضموا اليهم بمثابة سند وحليف لهم. وفي بعض الاحيان ظل الامراء والشيوخ السابقون على دست الحكم في القبائل والواحات. ولكنه بقدر اتساع الدولة الوهابية وتعزز السلطة المركزية اخذت الدرعية تستبدل الحكام المحليين اكثر فاكثر بممثلي الافخاذ والبطون المنافسين لهم او ابناء الاسر التي لم يكن لها في الماضي امل في الارتقاء.

ويقول بور كهاردت: «يعتقد الوهابيون ان من الضروري استبدال جميع الشيوخ تقريبا في القبائل التي ضموها اليهم. ولم يتركوا السلطة في ايدي ابناء الشيخ بل احالوها الى اسر الاعيان المنافسة. وعندما احتل محمد علي الحجاز اعاد حقوق الشيوخ المحليين وانشأ بذلك معقلا ضد الوهابيين»(٥٥).

ومن الاجراءات التي اتخذها السعوديون لضمان ولاء القبائل والواحات للسلطة المركزية الاجراء المجرب في ممارسات الغزاة والفاتحين، ونعني اخذ الرهائن. وفي بعض الأحيان كانوا يأخذون عددا من الاعيان بمثابة رهائن بعد اداء يمين الولاء من قبل الواحة او الفخذ(٥٦). وكان بعض الشيوخ المتمردين يقيمون بصورة دائمة في الدرعية، وقد عين بدلا منهم اشخاص موالون للسلطة المركزية. وبغية اضعاف القدرة الكفاحية للبدو وتشويش تنظيمهم فرضت الاقامة في الدرعية على بعض عقداء القبائل(٥٧).

وهكذا، بدلا من الشيوخ والامراء السابقين المستقلين رسميا وفعليا ظهر اتباع لامير الدرعية يكادون يكونون غير مستقلين او صنائع سافرين له. وكتب بور كهاردت يقول«يتلقى كبار شيوخ البدو من الزعيم الوهابي لقبا تقديريا هو امير الامراء. ان سلطة هؤلاء الامراء على الاعراب محدودة جدا، ولا تزيد الا قليلا على السلطة التي يتمتع بها الشيخ البدوي المستقل، ما عدا كونه يستطيع ان يفرض

الخضوع للقانون بحبس المخالف او فرض غرامه عليه»[٥٨]. ان هذا «القليل» هو اهم سمة تميز الشيخ في الدولة السعودية عن زعيم القبيلة في عصر ما قبل الوهابية: اي تعزيز السلطة العامة (السجون والغرامات) وفصل السلطة العامة عن جمهور البدو.

كان امراء المناطق من اتباع السعوديين يجمعون القوات ويساعدون جباة الضرائب. وسلطتهم يقيدها القضاة القادمون من المركز[٥٩].

وجاء في «لمع الشهاب»: كان شأن السعوديين حيث تولوا بلدا كبيرة او كورة بنوا حصنا في تلك البلد على حدة عن حصنها الاول ان كان لها حصن وبحثوا حوله خندقا ان كانت الارض صلبة واحكموا بنيان القلعة ورتبوا في الحصن قدر خمسمائة رجل عسكري او الف رجل على قدر البلاد لكن بشرط كشف حالهم عن الاستقامة التامة بحسب الاعتقاد بهذا الدين ويعينون لهؤلاء متاعا كثيرا ربما كفاية سنتين او ثلاث سنين ويجعلون في الحصن ايضا بنادق عديدة وبارودا كذلك وربما جعلوا في بعض الحصون مدافع»[٦٠].

وعين الوهابيون المفتين والقضاة في الواحات. وفي القرى الصغيرة كانوا يعينون قضاة فقط كما يقول «لمع الشهاب». وكانت رواتبهم تأتي من بيت المال. وكانوا يبعثون قابضي الزكاة الى كل واحة. وفي بعض الاماكن كان هناك اربعة جباة، وفي بعضها الآخر سبعة. وهم مستقلون عن الامير ولكنه كان يساعدهم في قبض الزكاة. كما كان يعين محتسب وظيفته مراقبة اداء الشعائر الدينية وصواب عقد الصفقات التجارية ومراعاة المقاييس والاوزان واداء القضاة لواجباتهم وقطع دابر الارتشاء[٦١].

وهكذا، يمثل السلطة المحلية الامير قائد الحامية وكذلك القاضي (او المفتي) وجباة الزكاة والمحتسب.

كان امراء الدرعية يبتون في اهم شؤون الدولة بعد التشاور مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وابنائه واحفاده وعلماء الدين ووجهاء القبائل واعيان الوحات وافراد عائلة السعوديين.

ويقول ابن غنام انه عندما عاد سعود منتصرا من الاحساء «قصد والده والاهل والذرية، واستقر مجلسه مع والده واعيان الرعية»[٦٢]. وتحدث ابن بشر عن سعود بمزيد من التحديد فقال: «ومع ذلك اذا اهمه واراد انفاذ رأي ارسل الى خواصه من رؤساء البوادي واستشارهم فاذا اخذ رأيهم وخرجوا من عنده ارسل الى خواصه أهل الرأي من اهل الدرعية ثم اخذ رأيهم. فاذا خرجوا ارسل الى ابناء الشيخ واهل العلم من اهل الدرعية واستشارهم. وكان رأيه يميل الى رأيهم ويظهر لهم ما عنده من الرأي»[٦٣].

ولا توجد معطيات تفصيلية عن تنظيم السلطة المركزية في الدولة السعودية الاولى. وليس معروفا ما اذا كان لدى امراء الدرعية مجلس دائم من كبار الوجهاء والاعيان. فالمؤرخون الوهابيون يتحدثون عن وجود ديوان عند الامير ولكنهم لا يحددون وظائفه. وعلى اي حال فقد كانت هناك دوائر او مصالح مركزية.

علماء الدين والقضاة.. قدم علماء الدين الوهابيون دعما كبيرا للسياسة التوحيدية لامراء الدرعية. وقد اوردنا امثلة على مشاركتهم الواسعة المستمرة في اهم شؤون الدولة. وكان مؤسس الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتمتع بمنزلة رفيعة للغاية. وفي السنوات الاولى لتحالفه مع محمد بن سعود لم يكن مجرد عالم دين ومعلم ومفتٍ. فقد قام بتنظيم القوات ومارس الشؤون الداخلية والخارجية واجرى المكاتبات والمراسلات مع علماء الدين في الجزيرة وبشر بتعاليمه ودعا الى التمسك بالولاء لامير الدرعية[٦٤]. وساهم مساهمة نشيطة في تأسيس وادارة الدولة الوهابية. وكانت دعوة الشيخ قد ضبطت الوهابيين ورصت صفوفهم حول الامير واججت تعصبهم. وما كان عبد العزيز يوزع غنائم الحرب الا بعد التشاور مع محمد بن عبد الوهاب.

كان محمد بن عبد الوهاب يحافظ على سمعته فلا يستأثر صراحة بدرهم واحد من غنائم الحرب. وبعد احتلال الرياض التي كانت الخصم الرئيسي للدرعية في نجد اعتزل محمد بن عبد الوهاب شؤون الدولة واناط بعبد العزيز مراقبة بيت المال وكرس نفسه لشؤون الدين والمذهب والدعوة[٦٥]. وانهمك ابناء الشيخ واحفاده

بتأليف كتب الفقه استنادا الى تعاليمه وبتفسير مؤلفاته[٦٦]. وعلى هذا النحو نشأت مدرسة رجال الدين الوهابيين التي ظلت سالمة بعد الغزو المصري.

وكتب ابن بشر عن امير الدرعية يقول: «وكان رحمه الله تعالى مع ذلك كثير العطاء والصدقات للرعية من... القضاة واهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وائمة المساجد». وبعد انهاء التعلم كان الشبان يحصلون على هدايا كبيرة[٦٧]. وكان بيت المال ينفق على تلاميذ ابناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٦٨]. وكانت النفقات على المساجد والقائمين على خدمتها تعتبر بالطبع من اسمى وانبل نفقات بيت المال. ويقول منجين ان المساجد في الدولة السعودية، تعتمد ماليا على جزء من العشر وعلى عائدات الاوقاف المخصصة لها. ويديرها مدير يعينه علماء الدين» [٦٩]. ومما يؤسف له اننا لم نعثر على معطيات اخرى تثبت وجود وانتشار اموال الاوقاف في الجزيرة العربية. ويقول مؤلف «لمع الشهاب» ان محمد بن عبد الوهاب وعائلته يمتلكان اراضي واسعة، وبالاضافة الى ذلك كان يستلم مداخيل هائلة من بيت المال وهدايا من الامراء التابعين[٧٠].

وكانت الدرعية ترسل علماء الدين الى جميع الواحات والمدن والقبائل الهامة. وكانت مهمتهم تتلخص في توعية السكان دينيا واجتثاث تمسكهم بالمذاهب الاخرى وفرض اصول الوهابية واثارة الحماسة الحربية والولاء للدرعية. وقد افتتحت كتاتيب قام علماء الدين فيها بتعليم القراءة والكتابة وتجويد القرآن. ويقول بور كهاردت ان علماء الدين جمعوا مكتبات كبيرة في الدرعية. وقد كانت لدى سعود مكتبة كبيرة أيضاً[٧١].

وكان القضاة الوهابيون يمارسون القضاء مسترشدين بالكتاب والسنة[٧٢] على اساس المذهب الحنبلي. وكانت الشريعة تغرس بنجاح اكبر في الواحات التي تتسم بتمايز طبقي متطور.

اما البدو فان الشريعة الاسلامية لا تطبق عندهم الا قليلا[٧٣]. ودخل النظام القضائي الوهابي في خلاف شديد مع العرف البدوي. وهناك مبررات للافتراض بان العرف هو الذي فاز مع ان ازدياد الوظائف الإدارية لاعيان القبائل البدوية قد

وسع امكانيات تطبيق الشريعة. وفي الوقت الحاضر شهد كاتب هذه السطور محاكمة في منطقة مأرب في اليمن الشمالي. فان المحافظ نظر في النزاعات القبلية استنادا الى العرف وحده.

وحدثت بعض التغيرات في مطاردة المجرمين قضائيا وانزال العقوبة بهم في الدولة الوهابية. وبموجب الشريعة كانوا يقطعون يد اللص او يفرضون عليه غرامة حسب الظروف[٧٤].

وكما هو الحال في عهد النبي محمد سعى الوهابيون الى تقييد الثأر فاستبدلوه بتعويض قدره ١٠٠ ناقة أو ٨٠٠ ريال. (أورد بور كهاردت هذه المعلومات دون ان يؤكد ما اذا كان ذلك يسري على جميع مناطق الجزيرة). ويبدو ان السعوديين تمكنوا من تضييق مفعول عادات الثأر بعض الشيء دون ان يقضوا عليها.

ولم يكن الوهابيون يعترفون بعادات الحماية التي يقدمها بعض ابناء القبائل للمجرمين.

الاقتصاد والتجارة (الجوانب الايجابية للمركزية). لاول مرة خلال قرون عديدة ساد الاستقرار الجزيرة العربية. وخصوصا مناطقها الوسطى، وان بصورة مؤقتة. فقد اتخذ الامراء اجراءات لا هوادة فيها لاحلال الامن في الطرق وحماية التجارة الداخلية من النهب وحماية الملكية. وكتب المؤرخ البصري ابن سنة ان ضمان الامن والسلامة في الطرق يكاد يكون واحدا من الوصايا الاساسية للوهابيين[٧٥]. ويقول ابن بشر عن عبد العزيز «كان رحمه الله تعالى رافقا بالرعية شديدا على من جنى جناية من الاعراب او قطع سبيلا او سرق شيئا من مسافر بحيث من فعل شيئا من ذلك اخذ ماله نكالا او بعض ماله او شيئا منه على حسب جنايته وادبه غير ذلك ادبا بليغا...»[٧٦].

واستحدث امراء الدرعية نظام المسؤولية المشتركة للقبائل عن الامن في اراضيها. كما الغى الوهابيون الرسوم التي كانت تتقاضاها القبائل لقاء «حماية» و«مرافقة» القوافل ولقاء مرورها في اراضيها.

فالتجار والرحالة، كما يقول ابن بشر «لا يخشون احدا من جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق. وليس يؤخذ منهم شيء من الاخاوات والقوانين التي تؤخذ على الحجاج. وبطل جميع الاخاوات والجوائز على الدروب التي للاعراب التي احيوا بها سنن الجاهلية. يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام ولا يحمل سلاحاً بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا احد يريده بسوء[٧٧]... وكانت الاقطار والرعية في زمنه (عبد العزيز) آمنة مطمئنة في عيشة هنية. وهو حقيق بأن يلقب مهدي زمانه. لان الشخص الواحد يسافر بالاموال العظيمة اي وقت شاء شتاء وصيفا يمينا وشمالاً شرقا وغربا في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك لا يخشى احدا الا الله لا سارقا ولا مكابرا»[٧٨].

وقد استفاد السكان الحضر. سكان الواحات والمدن، من استتباب الامن والاستقرار. فقد توقفت الغارات على نخيلهم وحقولهم[٧٩]. وفي ظروف الدولة المركزية ما كان بوسع البدو ان يستحصلوا الاخاوات بالاعتماد على العنف الحربي او التهديد باستخدامه وتهيأت مقدمات الغاء علاقات الاتاوة. ويصعب القول الى اي مدى سارت مثل هذه الاتجاهات.

وكتب ابن بشر يقول: «وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والوشم والجنوب وغير ذلك من النواحي في ايام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الابل والخيل الجياد والبقر والاغنام وغير ذلك ليس لها راع ولا مراع بل اذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر الى مفاليها حتى ينقضي الربيع او يحتاج لها اهلها... وربما تلقح وتلد ولا يدري اهلها إلا اذا جاءت وولدها معها، الا الخيل الجياد، فان لها من يتعاهدها في مفاليها لسقيها وحدها بالحديد.

وكانت ابل اهل سدير ونجائبهم وخيلهم مسيبات ايام الربيع في الحمادة وفي اراط والعبلة، ومعها رجل واحد يتعاهدها ويسقيها ويزور اهله ويرجع اليها وهي في مواضعها فيصلح ربطها وقيودها ثم يغيب عنها. وكذلك خيل اهل الوشم

ونجائبهم. وهكذا يفعلون بها. وكذلك خيل عبد العزيز وبنيه وعشيرته في النقعة الموضع المعروف قرب بلد ضرمى، وفي الشعيب المعروف بقرى عبيد من وادي حنيفة وليس عندها الا من يتعاهدها لمثل ما ذكرنا. وكذلك جميع النواحي تفعل ذلك...

وكان في الدرعية راعية ابل كثيره وهي ضوال الابل التي توجد ضائعة في البر والمفازات جمعا او فرادى، فمن وجدها من باد او حاضر في جميع اقطار الجزيرة اتى بها الى الدرعية خوفا ان تعرف عندهم...وجعل عبد العزيز عليها رجلا يقال له عبيد بن يعيش يحفظها ويجعل فيها رعاة ويتعاهدها بالسقي والقيام بما ينوبها. فكانت تلك الابل تتوالد وتتناسل وهي محفوظة. فكل من ضاع له شيء من الابل من جميع البادية والحاضرة اتى الى تلك الابل. فاذا عرف ما له اتى بشاهدين او شاهد ويمينه ثم يأخذه»(٨٠).

كان الواقع الاقتصادي للدولة الوهابية الاولى بعيدا، طبعا، عن الصورة الطوباوية التي رسمها ابن بشر. فقد حدث نهب في الطرق (والا لما عاقب امراء الدرعية احدا) وحدث هجوم على بساتين وحقول السكان الحضر، وقامت انتفاضات متكررة للبدو واهل الواحات.

وقد وصف المؤرخ الحجازي احمد بن زيني دحلان النهب في الدروب عندما بدأ الوهابيون يستولون على الحجاز تدريجيا، وكان امير مكة هو الشريف عبد المعين الموالي لهم(٨١).

كانت اجراءات الوهابيين الرامية الى احلال الامن في الطرق والغاء الرسوم «الجمركية» الداخلية وحماية الملكية قد هيأت امكانيات ملائمة للتجارة داخل الجزيرة العربية. وتوفر حافز اضافي للتبادل في مجتمع الجزيرة، وهو تبادل متطور اصلا. ولكن المقصود، ونحن نؤكد على ذلك، هو التجارة الداخلية بالذات. فان سياسة الوهابيين في ميدان التجارة الخارجية كانت تدميرية كما سنتأكد ادناه.

وقد اثرى البعض بقدر هائل بمقاييس الجزيرة من التجارة، وخصوصا في

سنوات القحط عندما ارتفعت الاسعار لدرجة كبيرة جدا. وكتب بوركهاردت يقول «في نجد كانوا يتاجرون اساسا بالمواد الغذائية - واكد منجين هذه المعلومات ايضا[٨٢] - فالقبائل القادمة من اعماق البادية تشتري ما تحتاج اليه. وطالما ان سنوات القحط تتكرر فان الاثرياء يكدسون كميات كبيرة من الحبوب. ولم يتدخل سعود في ذلك مطلقا، وفي سنوات شحة الاغذية كان يسمح ببيع الحبوب بالاسعار التي يحددونها هم مهما كان ذلك صعبا على الفقراء، وكان يقول ان النبي محمد لم يمنع ابدا الحصول على اي ربح ممكن من الاموال»[٨٣]. وبالمناسبة فان الوهابيين منعوا الربا طبقا لاصول فجر الاسلام[٨٤].

لقد ساعد تطور التجارة داخل الجزيرة على ازدهار الدرعية عاصمة الدولة. وقد زارها ابن بشر في عهد سعود وترك لنا وصفا للمدينة حيث كتب يقول: «ولقد رأيت الدرعية بعد ذلك في زمن سعود... وما فيه اهلها من الاموال وكثرة الرجال والسلاح المحلى بالذهب والفضة الذي لا يوجد مثله والخيل الجياد والنجايب العمانيات والملابس الفاخرة وغير ذلك من الرفاهيات ما يعجز عن عده اللسان ويكل عن حصره الجنان والبنان. ولقد نظرت الى موسمها يوما في مكان مرتفع وهو في الموضع المعروف بالباطن، بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود المعروفة بالطريف ومنازلها الشرقية المعروفة بالبجيري التي فيها ابناء الشيخ. ورأيت موسم الرجال في جانب... وموسم النساء في جانب وموسم اللحم في جانب وما بين ذلك من الذهب والفضة والسلاح والابل والاغنام والبيع والشراء والاخذ والاعطاء وغير ذلك وهو مد البصر. ولا تسمع فيه الا كدوي النحل من النجناج وقول بعت وشريت والدكاكين على جانبيه الشرقي والغربي، وفيها من الهدوم -والسلاح والقماش...»[٨٥].

ويضيف ابن بشر «وكان قوة هذه البلد وعظم مبانيها وقوة اهلها وكثرة رجالها واموالها لا يقدر الوصف صفتها...» فلو ذهبت اعد رجالها واقبالهم فيها وادبارهم في كتائب الخيل والنجائب العمانيات وما يدخل على اهلها من احمال الأموال من سائر الاجناس التي لهم مع المسافرين من اهلها ومن اهل الاقطار لم يسعه كتاب...

وكان الداخل في موسمها لا يفقد احدا من اهل الافاق من اليمن وتهامة والحجاز وعمان والبحرين وبادية الشام ومصر واناس من حاضرتهم الى غير ذلك من اهل الافاق ممن يطول عدهم هذا الداخل فيها وهذا خارج منها وهذا مستوطن فيها.

وكانت الدور لا تباع فيها الا نادرا واثمانها سبعة الاف ريال وخمسة الاف والداني بالف ريال واقل واكثر وكل شيء بقدره على هذا التقدير.

كروة الدكان الواحد في الشهر خمسة واربعون ريالا وسائر الدكاكين الواحد بريال في اليوم وشيء نصف ريال. وذكر لي ان القافلة من الهدم اذا اتت اليها بلغت كروة الدكان في اليوم الواحد اربعة اريل.

واراد رجل منهم ان يوسع بيته ويعمره فاشترى نخيلات تحت هذا البيت يريد قطعها وتعمير موضعها كل نخلة بأربعين ريالا وخمسين ريالا... وكان غلا الحطب فيها والخشب الى حد الغاية حتى قيل ان حمل الحطب بلغ خمسة اريل وستة والذراع من الخشبة الغليظة بريال»(٨٦).

لقد غدت الدرعية مركزا تجاريا كبيراً للجزيرة العربية. فعندها تلتقي الطرق التجارية من اجزاء الجزيرة كافة . وكانت وفرة الثروات المنهوبة المتواردة على المدينة قد خلقت انتعاشا مفتعلا وتسببت في تجمهر اعداد غفيرة من الناس مما ادى الى ازدياد الغلاء. ولم تكن موجودة آنذاك المقدمات الاقتصادية الضرورية لانشاء مراكز سكنية كبرى من هذا القبيل. وتدل على ذلك الاسعار الباهظة للاخشاب والنخيل والحطب. ومع ذلك اسفرت سلامة الطرق عن تعزز الصلات الاقتصادية داخل الجزيرة بقدر ما، وان بصورة مؤقتة.

وادت الاجراءات الاقتصادية والسياسية والفكرية لمركزية الدولة الى ظواهر لم يشهدها وسط الجزيرة فيما مضى. فقد ظهر اتجاه نحو تكوين وحدة فوق القبائل. وكان ذلك امرا مدهشا جعل المؤرخ الوهابي ابن بشر يهتف متعجبا وان بشيء من المغالاة: «والرجل يأكل ويجلس مع قاتل ابيه واخيه كالاخوان»(٨٧)، ورغم المبالغة في هذا القول، فهو يدل على الاتجاه العام. واشار ابن سند الى ان الوهابيين ازالوا

غارات البعض على البعض وصار جميع البدو رغم الفوارق بينهم، من حضرموت الى الشام اخوة وابناء شخص واحد. وكان بالامكان ان يرى المرء في بعض المناطق خيمة لعنزة وخيمة لعتيبة وخيمة لحرب وكانوا يعيشون بوئام[٨٨].

الا ان العساكر ظلت هي الاداة الرئيسية لسياسة المركزية ولرص صفوف مختلف المناطق والقبائل في اطار الدولة السعودية. وطالما ان العساكر قوية ومظفرة ظل وجود امارة الدرعية مكفولا.

العساكر. كتب بور كهاردت يقول ان سعود واباه لم يحتفظا بجيش نظامي قط ما عدا بضع مئات من الجنود المختارين كانت لهما في الدرعية[٨٩]، ولكن جميع الرجال ما بين الثامنة عشرة والستين كانوا يعتبرون ملزمين بالخدمة العسكرية[٩٠]. وكان كل بدوي او حضري صحيح الجسم وقوي يعتبر في الواقع محاربا.

عندما ينوي امير الدرعية القيام بغزوة يبعث رسولاً الى شيوخ القبائل ويأمرهم بالحضور في يوم معين الى منطقة بئر معين. ويقول ابن بشر «ولا يتخلف احد عن ذلك الموعد حقير ولا جليل، لا من بوادي الحجاز ولا العراق ولا الجنوب ولا غير ذلك». واذا تخلف احد تفرض عليه غرامة. وكان اشخاص مختصون يبعثهم الامير فيأخذون الغرامة بشكل مختلف الاموال والجياد والابل ويضربون المذنبين»... ويعذبون المجرم بانواع العذاب... ولا يتجاسر احد ان يقول لهم شيئا، او يشفع فيه بل كلهم طائعون مذعنون»[٩١].

وكتب المؤرخ البصري ابن سند يقول: «فاذا اراد ابن سعود قتال قرية او قبيلة فأولا يرسل الى القرى التي اطاعته ويطلب من كل قرية مقدار العسكر المفروض على تلك القرية او القبيلة فيأتي اليه...»[٩٢].

وكتب الرحالة الاسباني باديا ـ اي ـ ليبليخ «عندما يحتاج امير الوهابيين الى العساكر يكتب الى مختلف القبائل ويحدد عدد المحاربين الذين يتعين ارسالهم اليه»[٩٣].

وكتب منجين بهذا الخصوص: «قبيل بدء الحملة الحربية كان سعود يطلب من المناطق ان ترسل له العدد اللازم من العساكر. وكان الامراء يصدرون الاوامر لمن هم تحت سلطتهم. وكان كل من وجهاء المدينة والمنطقة يقود محاربيه المسلحين بنفسه الى المكان المخصص له ويبقى رئيسا وقائدا لهم طوال فترة الحرب.

وتتشكل في كل منطقة مفارز خاصة بقيادة اميرها، وفي كل مفرزة كاتبان وامام. وتتلخص وظيفة الامام في اداء الصلاة في المعسكر، وهو في الوقت نفسه حكم في الخلافات التي يمكن ان تنشأ»(٩٤).

كانت اكبر قبائل وسط الجزيرة - عنزة وقحطان ومطير - تخضع لاوامر حكام الدرعية وان كانت تقيم بعيدا عن مسرح العمليات الحربية(٩٥). صحيح ان وصف الغزوات يبين ان القبائل القريبة فقط تشارك فيها بالقدر الكامل عادة.

وكتب منجين «ان كل محارب يحمل معه سلاحه وطعامه وذخيرته. وكانوا يقدمون للمحاربين الفقراء مساعدة في التجهيز. والاثرياء يزودون اسرة الفقير بما تحتاج اليه. ويستطيع الشخص الذي يطلب منه الامير المشاركة في الغزو ان يقدم شخصا آخر بدلا منه لهذا الغرض. وهو يزوده بكل ما يلزم او يتعهد بمنحه جملا او حصانا. ولم يكن الرجالة والهجانة على الجمال يستلمون اي اجور. اما الخيالة فيستلمون علفا للحصان وراتبا شهريا»(٩٦).

ويقول بوركهاردت ان قوت الجندي يتكون من ١٠٠ اوقية من الدقيق و ٥٠ - ٦٠ اوقية من التمر و ٢٠ اوقية من السمن وكيس من القمح او الشعير للبعير وقربة ماء(٩٧).

بديهي ان هذه الاحتياطيات اقصى ما يمكن ان يأخذه المحارب، وان كميتها تختلف باختلاف مدة الغزوة. وقد اشار ابن سند الى ذلك. فهو يقول ان ابن سعود نفسه يحدد مقدار الدواب او الذخيرة التي يتعين على المشاركين في الغزوة ان يأخذوه معهم. ولكنه لم يكن يحب الغزوات التي تطول اكثر من شهر، كي لا يزود الجنود بالعتاد والاغذية بنفسه. ففي الغزوة التي لا تزيد على شهر يتزود المحاربون

بما هو ضروري بانفسهم، واذا زادت الفترة على الشهر فان امير الدرعية يقدم لهم جزءا[٩٨]. واذا جاء المتطوعة سيئي التجهيز فان الامير الوهابي يعيدهم من حيث جاؤوا، ثم يعاقب الواحات او القبائل التي ارسلتهم اليه بهذه الصورة.

ان المؤونة الشخصية التي يتزود بها المحاربون تعفي بيت المال من الاهتمام بتغذيتهم وتزيد من استقلالية العساكر في الحملات. الا ان تجنيد المحاربين وتهيئة المؤونة لهم كانا عبئا ثقيلا على القسم الفقير من السكان. فهم لا يستطيعون، مثل الاغنياء، ان يقدموا البدل من الخدمة العسكرية، وكانوا يضيعون الايدي العاملة، ولا يمكن لأي معونة ان تعوض عن فقدان المعيل. ولا يعول المحاربون البسطاء الذين يشاركون في الغزوات على شيء سوى حصة في الغنائم. ولذلك فان سكان الواحات والبدو، كما يقول بوركهاردت كانوا كثيرا ما يتهربون من المشاركة في الحملات[٩٩].

وبعد اقتطاع خمس غنائم الحرب لصالح امير الدرعية يقسم الباقي على المحاربين: ومن المقرر ان الفارس، اي ممثل الوجهاء والاعيان، يستلم بقدر حصتي الرجالة. وفي الواقع كان الوجهاء ، على ما يبدو، يستأثرون بحصة الاسد. واشار رايمون الى ان الجند في عهد عبد العزيز كانوا يتشكون من الظلم في توزيع الغنائم، حيث يستلم قادتهم حصة الاسد. وكان يتعين على امير الدرعية ان يتدخل ويحق الحق[١٠٠].

وكتب بوركهاردت ان حرس امراء الدرعية يتكون من افضل الجنود وعددهم ٣٠٠ شخص. وهذا الحرس هو الاحتياطي الرئيسي في سوح القتال. وهم مسلحون جميعا افضل تسليح وينفق الامير عليهم[١٠١]. ولا يذكر المؤرخون النجديون شيئا عن مثل هذا الحرس. فهم يتحدثون فقط عن العبيد المسلحين. ويبدو ان الحرس الشخصي للامير يضم المماليك المسلحين والاحرار.

كان سعود منذ الطفولة وحتى الشيخوخة يحب الغزو والجهاد. وشارك معه في الغزوات علماء الدين من الدرعية والواحات القريبة. وكان يترك في العاصمة احد ابنائه خليفة له، وهو عبد الله في اغلب الاحوال[١٠٢]. ويقول ابن بشر ان سعود يثير

الرعب في الاعداء «فاذا سمعوا بمغزاه هرب كل مهتم وترك اخاه واباه وماله وما حواه»(١٠٣).

ويقول منجين «خلال الحملات النهارية والليلية تخصص مقدمة ومؤخرة، وتتقدم العساكر بطابور او عدة طوابير تبعا للملابسات. وكان الامراء دوما يقودون المحاربين الخاضعين لهم. وتسير الخيالة والهجانة في مقدمة الطابور وفي مؤخرته. والوسط يخصص للمدفعية والرجالة الذين يمتطي كل اثنين منهم جملا.

واثناء الحملات يقتات الوهابيون على التمر مع لبن الابل ونادرا ما يتناولون الخبز واللحم.

ويدخل الوهابيون المعركة بشكل كتائب. ويترك الرجالة الجمال تحت رعاية الخدم(١٠٤). وعندما يقترب العدو او يتفوق تغدو الجمال بمثابة الدروع الواقية للمتحاربين. وتتكون كل كتيبة من سكان منطقة معينة يتزعمهم امير او وجيه قروي. صفوف المحاربين مزدوجة وعندما يتعب الصف الاول او يتكبد خسائر كبيرة يحل محله الصف الثاني. وتنقل جثث القتلى من ساحة القتال ومن العيب عدم مواراتهم التراب. وفي حالة الهزيمة تنسحب العساكر بلا ذعر ولا اضطراب. واذا مني العدو بالهزيمة فان الرجالة لا تطارده، ولكن الخيالة والهجانة تطارده لمسافة معينة»(١٠٥).

وفي المعسكر «يعرف كل فرد مكانه. والقائد في وسط المعسكر. والخيالة حول خيمته. وعلى مقربة من المعسكر مخافر الرجالة والخيالة. ويجري استبدال الخفراء كل اربع وعشرين ساعة. وفي النهار الجميع ينامون ولا ينهضون الا لاداء الصلاة خمس مرات. وفي الليل يتجاذبون اطراف الحديث ويجودون القرآن ويحكون الحكايات والقصص.

كان الانضباط متشددا عند الوهابيين. فالقائد الذي لا يؤدي واجباته او الذي يبدر منه ما يثير الشكوى ينحى من منصبه. واحيانا تفرض عليه غرامة. وتجري معاقبة الجنود المذنبين بالجلد بالعصي. واذا اقترف الجندي جريمة كبيرة تقطع رقبته. ويفعلون به الشيء نفسه اذا فر من العدو»(١٠٦).

وفي الواحات الكبيرة والمدن (في الاحساء والقصيم ومكة والمدينة) كانت لامراء الدرعية حاميات من النجديين الموالين لهم[١٠٧].

كانت عساكر الجزيرة العربية مسلحة بالسيوف والحراب والخناجر والرماح القصيرة للرجالة والدروع والهراوات والبنادق الحارقة والمسدسات[١٠٨]. وكان الوهابيون يصنعون البارود بانفسهم[١٠٩]. واحيانا كانوا يرتدون خوذاً وأردية حماية جلدية[١١٠]. وكانت لدى الوجهاء قمصان من زرد[١١١]. ولدى المحارب كذلك خنجر مشدود الى حزامه وحقيبة مليئة بالخراطيش. وكان لدى البعض مسدسات[١١٢]. ولم تستخدم البنادق الحارقة كثيرا، فلم تكن السلاح الرئيسي لدى العساكر. ويقول ابن بشر انه كان لدى سعود ٣٠ مدفعا كبيرا و ٣٠ مدفعا صغيرا[١١٣]. وقد تم الاستيلاء على اكثر هذه المدافع من العدو ولم تستخدم تقريبا في القتال.

وبلغ عدد العساكر تحت رايات امير الدرعية ٥٠ الفا[١١٤] وكان الاوروبيون ميالين الى المبالغة، فيذكرون ارقاما مثل ١٠٠ الف و ١٢٠ الفا وحتى ٢٠٠ الف [١١٥]. لم يكن للوهابيين نظير في شبه الجزيرة، ولكن ذلك لا يعني انهم كانوا منتصرين دوما.

مقدمات تحلل وسقوط الدولة السعودية الاولى. اتضح ان مهمة اخضاع شبه جزيرة العرب كلها كبيرة على امراء الدرعية. فان اراضي الجزيرة الشاسعة وسوء طرق المواصلات عبر البوادي القاحلة والجبال الوعرة جعلت المناطق منعزلة عن بعضها بعضاً وخلقت الصعوبات امام الغزوات وتموين العساكر. ولم تكن الطاقات والعساكر كافية لامراء الدرعية كي يخضعوا المناطق الجبلية في اليمن وحتى في الحجاز وساحل مسقط وحضرموت، وكي يثبتوا مواقعهم في تهامة ونجران. وكان ذلك يشكل تهديدا متواصلا ومصدرا للاضطراب في اطراف الدولة وارغم الوهابيين على تبديد قواهم واموالهم على العمليات الحربية التي لم تنته دوما بالعقوبة المثلى «للمشركين» وبثواب «الموحدين» بغنائم وفيرة.

ولم تكن العساكر الوهابية خارج شبه الجزيرة العربية وفي المناطق

الصحراوية بقادرة على خوض معارك كبيرة ناجحة. فبعد غزو كربلاء، كما اسلفنا، لم تقع في ايدي الوهابيين اي مدينة محصنة وان كانت صغيرة في الشام او العراق. كانت عساكر السعوديين تحجم امام المدن المحصنة والمحمية ببسالة وبمعرفة في الفن العسكري.

كانت حماسة الوهابيين في الهجوم تتسم بطابع حروب الغزو في القرون الوسطى. ومن الصعب التكهن بمصير دولتهم لو كانت قد ظهرت قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون. بيد ان سير التطور التاريخي لا يعترف بأي افتراضات. فعندما تجاوز الوهابيون اطار الجزيرة العربية التي كان مستواها هو مستوى القرون الوسطى اصطدموا بالقوات الاكثر تطورا للامبراطورية العثمانية والتي سبقتهم من حيث التطور بعدة قرون. في تلك الاثناء كانت بعض ولايات الامبراطورية العثمانية تقوم بمحاولات مستميتة، وان دون جدوى حتى ذلك الحين، من اجل التحول الى دولة عصرية. وتبنت بالدرجة الاولى التكتيك الحربي الاوروبي والتنظيم العسكري الاوروبي. ومني الوهابيون بالهزيمة في الصدام مع جيش مدرب ومسلح على الطريقة الاوروبية.

ويكمن في وقف التوسع بحد ذاته خطر على وجود الدولة السعودية. فان المشاركة في الغزوات الموفقة والنهب المشترك، كما اسلفنا، هما الامر الرئيسي الذي وحد وجهاء واعيان مختلف الواحات والقبائل. وعندما تباطأ التوسع العسكري لامارة الدرعية بعد ان بلغ حدوده الطبيعية، ثم توقف في الواقع فقد التوحيد كثيرا من جاذبيته بالنسبة لوجهاء الجزيرة. وتقلص ورود الثروات المنهوبة. وصار بوسع الوجهاء الاقطاعيين ان يحصلوا على مداخيل اكثر عن طريق تطبيق سياسة مستقلة وممارسة الغزو التقليدي. وكانت القبائل البدوية الجبارة تشعر خصوصاً بثقل نير الدولة المركزية. فالكثير من البدو الذين لم يكونوا يعرفون الضرائب في السابق وابدا صاروا يسددون الزكاة الالزامية خوفا من التنكيل الشديد، وكثيرا ما اخذوا يتمردون. وكان البدو مستعدين دوما للتخلص من نير الوهابية. ولم يكن اعترافهم بالوهابية الا ظاهريا كما يقول بوركهاردت[١١٦]. وكانت غنائم الحرب

تعوض بشكل ما عن تسديد الزكاة وفقدان مداخيل مختلف انواع الاخاوات، ولكنه في حالة توقف الغزوات الناجحة صار عبء الدولة المركزية عبئاً ثقيلا لا يطاق.

كان الاستغلال الضرائبي والاتاوات والغرامات في بعض الحالات اثقل من مزايا السلامة والامن والاستقرار. وعند ذاك كانت قبائل ومناطق بكاملها ترفض دفع الاتاوات[١١٧]. وكان سعود يقوم سنويا بعدة حملات ليس فقط على اطراف الجزيرة المتمردة او ولايات الامبراطورية العثمانية، بل كذلك على القبائل والمناطق المتمردة في دولته.

وسارت داخل الدولة السعودية عملية التعمق المتزايدة في فوارق الملكية والتناقضات الطبقية. وصار وجهاء وسط الجزيرة الذين اثروا من الغزوات يبتعدون اكثر فاكثر عن بسطاء البدو والفلاحين ويتذوقون طعم الترف والفخفخة. وتعمقت الهوة بين الدعوة الوهابية الموجهة الى الرعية وبين نمط حياة الوجهاء والاعيان.

وكانت الحملات البعيدة تلهي فلاحي نجد عن الاعمال الزراعية دون ان تكافئهم دوما بالغنائم. وكانت من اسباب تذمر قسم من السكان الحضر ضرورة تسديد بدل الايجار للاقطاعيين او للدولة بالاضافة الى الزكاة.

ان تضاؤل مصلحة الوجهاء والاعيان في وجود الدولة المركزية بعد توقف التوسع، وتذمر البدو واعيانهم من سلطة السعوديين، وخيبة امل الفلاحين المزارعين في امراء الدرعية والوهابية ـ كل ذلك كان مقدمات موضوعية، خارجة عن ارادة الامراء، لتحلل الدولة المركزية في الجزيرة العربية. كانت تلك المقدمات موجودة بشكلها الكامن، ولكنها لم تظهر الا بعد فترة زمنية طويلة نسبيا. الا ان بعض الاجراءات السياسية والاقتصادية التي فرضها التعصب الضيق على امراء الدرعية قد ادت الى تفاقم الصعوبات امام الدولة وعجلت في تحللها.

وكان تعصب الوهابيين الشديد قد حملهم على قطع العلاقات التجارية مع «المشركين»، اي مع غير الوهابيين. وحتى عام ١٨١٠ ظلت التجارة مع الشام

والعراق محرمة[١١٨]. وكانوا اذا وجدوا تاجرا في طريق يؤدي الى «المشركين» صادروا بضاعته كلها[١١٩]. ومن السهل تصور الضربة الفظيعة التي تتلقاها الحياة الاقتصادية في بعض المناطق في حالة التطبيق الحرفي للاوامر المتعصبة.

بيد ان الحاجات الاقتصادية كانت اقوى من القرارات المتهورة والتعصب الاعمى. فقد تقلصت تجارة الجزيرة مع «المشركين» ولكنها ظلت مستمرة. وفي فترة تازم العلاقات مع مصر والعراق والشام لم تتوقف تجارة القمح[١٢٠]. وكان الوهابيون انفسهم يبيعون في الهند المجوهرات المنهوبة[١٢١]. ان امراء الدرعية عندما قاموا بمحاولة فاشلة لاقامة «الحصار الذاتي» على الجزيرة وعجزوا عن الاستغناء عن التجارة مع «المشركين» قد اساؤوا الى سمعتهم هم.

وكانت سياسة الوهابيين تدميرية خصوصا بالنسبة للحجاز. وكانت الضربة الاشد قد نجمت عن منع وصول اغلبية الحجاج من الامبراطورية العثمانية. ولم يعد البدو يستلمون بدل مرور القوافل عبر اراضيهم ولا اجور دواب الحمل. وفقد عدد غفير من المتسولين المحترفين والادلاء وسدنة العتبات المقدسة مداخيلهم. ولم تعد هدايا السلطان السنوية تصل الى الحرمين[١٢٢]. وبنتيجة ذلك، كما يقول الجبرتي، لم يعد سكان مكة والمدينة يستلمون ما يعيشون عليه: الصدقات والاغذية والنقود. فاخذوا نساءهم واطفالهم وتركوا ديارهم ولم يبق هناك الا الذين لم يكونوا يعتمدون على تلك المصادر للعيش. وتوجه اولئك الناس الى مصر والشام وسافر قسم منهم الى الاستانة[١٢٣].

وعندما اجتاحت المجاعة بسبب الجفاف المرعب الجزيرة العربية طوال خمس او ست سنوات كانت الاغذية تصل الى الحجاز مع ذلك من بلدان اخرى. بيد ان عمليا الوساطة او السمسرة وبيع البضائع من قبل الحجاج هي الانواع الرئيسية للتجارة في الحجاز.وهي بالذات التي تضررت اكثر من غيرها. وتقلص مرور البضائع عبر جدة بسبب التقلص الشديد في عدد الحجاج الذين كان كثير من البضائع يجلب من اجلهم، في حين ان تجار البن والاقمشة الهندية لم يجرؤوا على الظهور في المرفأ، لانهم يعاملون معاملة «المشركين». واصاب الكساد التجارة مع مصر. وتجلى الاثر

السلبي لذلك كله ليس فقط عند التجار الاثرياء بل كذلك بسطاء الناس في جدة ومكة ومدن اخرى، لأنهم هم أيضاً مرتبطون بالتجارة. واصاب الافلاس كثيرين منهم، وخلت جدة من اهلها(١٢٤).

والغى امراء الدرعية مختلف الاتاوات الجائرة وحالوا دون الابتزاز من جانب شريف مكة او آغا المدينة المنورة. ولكنهم فرضوا الزكاة الالزامية في المناطق غير الخاضعة للشريف مباشرة. ويمكن ان نتصور مشاعر البدو او سكان المدينة المنورة الذين فقدوا مداخيلهم من الحج وصاروا مضطرين على تسديد الزكاة.

لقد تركت لشريف مكة مداخيله، ولكنها تقلصت كثيرا بسبب تقلص توارد الحجاج وركود التجارة ومنع استحصال الرسوم من التجار الوهابيين، ناهيك عن الاثر الذي تركه فيه فقدان الاستقلال السياسي. ولم تكن المشاركة في الغزوات لتبشر سكان الحجاز عموما بخير، فقد تعودوا الحصول على اسباب العيش باساليب اسهل. ويكفي القول ان سكان المدينة المنورة الذين كانوا يمتلكون جيادا قد باعوها فورا لتفادي الاستدعاء للخدمة في عساكر الوهابيين(١٢٥).

وكانت العادات الصارمة «النقية» التي استحدثت في مكة تتعارض مع عادات ومفاهيم سكانها. ان الانتماء الى الحرم الشريف قد ولد لدى سكان مكة شعورا بالتفوق على سائر المسلمين، الأمر الذي قدم لهم تبريرات جاهزة للتسيب(١٢٦). وكانت الانظمة الجديدة تحظى بتأييد علماء الدين الاتقياء والمؤمنين الصادقين، ولكنها كانت ثقيلة على اغلبية السكان. وكان ثقيلا ايضا الشعور بالاهانة بسبب الخضوع للنجديين لاول مرة بعد قرون عديدة.

ان كل هذه العوامل الاقتصادية والسياسية والسيكولوجية قد اثارت في الحجاز جو العداء والحقد على الوهابيين الذين كانت مكانتهم وسلطتهم تستندان الى القوة العسكرية فقط.

وكان بوسع اي دافع خارجي قوي ان يؤدي الى بدء عملية تحلل الدولة السعودية الاولى، في حين ان التناقضات التي كانت تفتتها من الداخل ببطء قد اكتسبت طابعا تدميريا.

الفصل الخامس

دحر الوهابيين على ايدي المصريين (١٨١١ـ ١٨١٨)

مقدمات لتوسع الحملة المصرية على الجزيرة العربية. كان احتلال الوهابيين لمكة والمدينة المنورة قد الحق ضررا هائلا بسمعة السلطان العثماني سليم الثالث. فان خليفة المسلمين وسادن الحرمين الشريفين لم يكن قادرا على تأمين الحج لرعيته وهو واحد من اركان الاسلام الخمسة.

وبعد الاطاحة بالسلطان سليم الثالث حاول السلطان الجديد الذي كان في السابق لعبة في ايدي الانكشارية اعادة الحجاز مهما كلف الثمن الى حظيرة الامبراطورية العثمانية. واتضح انه لا امل في محاولات دفع والي بغداد ووالي دمشق الى العمليات النشيطة ضد الوهابيين.

وكانت الامكانية الواقعية الوحيدة لدحر امارة الدرعية هي استخدام قوات والي مصر الذي اخذ يتقوى.

وعندما ترسخت اقدام محمد علي في مصر وصار واليا على القاهرة في عام ١٨٠٥، كلفه الباب العالي بمهمة استعادة الحرمين من الوهابيين. كان الوالي الجديد مشغولا بتعزيز سلطته ومكافحة منافسيه والمماليك والدفاع عن مصر دون الانجليز ومهتما بالاصلاحات الداخلية فلم تكن لديه طوال عدة سنوات قوى كافية لمعالجة شؤون الجزيرة العربية. ولكنه اعتبارا من نهاية عام ١٨٠٩ اخذ يبدي اهتماما جديا بالتحضير للحملة[١].

ولم تكن رغبة الباب العالي السبب الرئيسي الوحيد الذي دفع حاكم مصر

المستقل في الواقع للقيام بحملة طويلة الامد وباهظة التكاليف على الجزيرة العربية. كان محمد علي يأمل من وراء تحرير الحرمين الشريفين بتقوية سمعته في الامبراطورية العثمانية كلها وبكسب شعبية كبيرة. وكانت خطط والي القاهرة، مثل خطط علي بك في حينه، تستهدف السيطرة على تجارة السلع الهندية والبن اليمني التي تمر عبر جدة، ثم الاستيلاء على اليمن نفسه. وكان محمد علي ينوي كذلك، من وراء الشعارات النبيلة لتحرير مكة والمدينة المنورة، اخراج الجنود الذين نصبوه على دست الحكم في مصر ولكنهم تحولوا الى قوة خطيرة للغاية وصاروا يقيدون اعماله. واخيرا فان الباب العالي قد وعد، على ما يبدو، في مباحثات غير رسمية بتسليم ولاية دمشق الى احد ابناء محمد علي حالما يتم تحرير مكة والمدينة[٢].

كان بضع مئات من العمال يمارسون بناء السفن في السويس، وحتى آذار (مارس) ١٨١٠، كانت هناك تقريبا عشرون سفينة جاهزة[٣].

ثم بنيت عدة سفن اخرى. وحول المصريون احد مرافئ البحر الاحمر الى قاعدة رئيسية لتموين الحملة وعززوا القلاع في القسم الشمالي من طريق قوافل الحجاج من مصر الى الحجاز حيث ارسلوا اليها حاميات من الجنود المغاربة المرتزقة، ووزعوا الهدايا على القبائل البدوية[٤].

وفي الاول من آذار (مارس) ١٨١١، فتك والي مصر بالمماليك في قلعة القاهرة، ثم استمر قتلهم في المدينة كلها. تمت تصفية منافسي محمد علي الخطرين في الوجه البحري.

وكانت الحرب في اوروبا قد ازالت مؤقتا خطر اقتحام دولة من الدول الاوروبية لمصر وساعدت على القيام بالحملة على الجزيرة العربية.

وعين لقيادة الحملة طوسون بن محمد علي وهو فتى شجاع كان ما يزال آنذاك في السادسة عشرة او الثامنة عشرة من العمر[٥].

وبغية الحصول على تأييد شريف مكة غالب بدأ محمد علي مراسلات سرية معه. ووعده الشريف بالتأييد. وكانت المعلومات التي حصل عليها رجال محمد علي

تبعث على الارتياح. فان سكان الحجاز يكنون العداء للوهابيين وكانما كانوا ينتظرون «الاتراك» كمخلصين لهم. (في بادئ الامر دخل محمد علي الجزيرة العربية وكأنما نزولا عند ارادة السلطان العثماني، لذا استقبل السكان جيشه بوصفه جيشا تركيا). وكانت مثل هذه المعلومات تتوارد على حاكم مصر من مصادر اخرى ايضا، فقرر ان الوقت قد حان[٦].

هزيمة طوسون في وادي الصفراء. في اواخر العقد الاول من القرن التاسع عشر لوحظ ضعف العمليات الهجومية لامارة الدرعية. فبعد تدمير كربلاء والاستيلاء على الحجاز لم يحقق الوهابيون انتصارات كبيرة. فقد الحق الانجليز المتحالفون مع اهل مسقط عدة هزائم شديدة بالوهابيين في البر والبحر ومكنوا البحرين من الخروج على الدرعية. وقامت في عمان تمردات متواصلة على الوهابيين.

وادى الجفاف والقحط في الجزيرة العربية لسنوات عديدة وحتى عام ١٨٠٩ الى اضعاف تحرك الدولة السعودية. ومما زاد في الطين بلة وباء الكوليرا الذي تفشى آنذاك. ففي الدرعية وحدها كان يموت يوميا عشرات الاشخاص[٧].

وكانت الخلافات في الاسرة الحاكمة تفتت سلطة السعوديين من الداخل.

الا ان الدولة السعودية احتفظت ببعض جوانبها القوية. فان تعصب الوهابيين القتالي لم يستنفذ بعد. وكان امراء الدرعية ما يزالون قادرين على الاعتماد على مفارز صلبة من حضر نجد وبعض القبائل البدوية. ثم ان الطبيعة الصعبة في الجزيرة اخيرا كانت الى جانب الوهابيين في الكفاح ضد العدو الخارجي.

كان الجيش المصري المكون من المرتزقة الاتراك والالبان والمغاربة مسلحا بصورة جيدة، ولديه مدفعية. وكانت لدى العديد من قادته خبرة الحروب ضد الفرنسيين والانجليز وكانوا مطلعين على التكتيك الحربي الاوروبي. بيد ان الانضباط والمعنويات عند الجيش لم تكن عالية آنذاك.

وفي آب (اغسطس) ١٨١١، ارسل قسم من القوات المصرية الى الحجاز بحرا

للاستيلاء على ينبع بواسطة الانزال، بينما توجهت الخيالة بقيادة طوسون الى هناك برا. ويقول بوركهاردت انه ارسل عن طريق البحر ١٥٠٠ جندي، بينما وصل مع طوسون ٨٠٠ فارس (يذكر عبد الرحيم أ. عبد الرحيم، استنادا الى الارشيفات المصرية، ان عدد الذين جاؤوا معه ثلاثة آلاف، بمن فيهم البدو). ووصل مع طوسون واحد من افضل القادة العسكريين عند محمد علي وهو احمد الملقب بونابرت، وكان بمثابة مستشار عسكري عنده، وكان هو القائد الفعلي.

وفي تشرين الاول(اكتوبر) من العام نفسه احتلت قوات الانزال البحري المصرية مدينة ينبع، ولم تكن فيها قوات وهابية، بل كانت هناك حامية صغيرة خاضعة لشريف مكة ولم تبد في الواقع اي مقاومة[٨]. ونهب الجنود كل ما كان في ينبع «من الودائع والاموال والاقمشة والبن وسبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر واخذوهن اسرى ويبيعونهن على بعضهم البعض»[٩]. ومن المستبعد ان يحظى سلوك الجنود هذا باستحسان السكان. بيد ان المهمة الرئيسية للمرحلة الاولى من الحملة قد نفذت فقد تم الاستيلاء على رأس جسر هام لمواصلة العمليات ضد الوهابيين.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) وصل طوسون وخيالته الى ينبع. ويقول ابن بشر ان اكثر من ١٤ الف شخص تحشدوا في ينبع[١٠]. وحتى لو اخذنا في الاعتبار ان بوركهاردت حاول التقليل بعض الشيء من تعداد القوات المصرية فان عدم تطابق ارقامه مع ارقام المؤرخ النجدي يثير الدهشة. ويبدو ان حاميات اخرى ارسلها محمد علي سابقا الى القلاع على طريق القوافل قد التحقت بقوات طوسون في مسيرتها بالاضافة الى بعض البدو[١١].

ظل طوسون عدة اسابيع في ينبع، وبعد ان وصلته امدادات من مصر سار بقواته نحو المدينة المنورة.

كان سعود مطلعا على استعدادات محمد علي الحربية، فقد اطلعه مخبروه في القاهرة على انبائها. ويبدو ان ذلك هو سبب اهتمامه المتواصل بتعزيز المدينة المنورة. وعندما احتل طوسون ينبع عبأ سعود افضل قواته وارسلها الى الحجاز

بقيادة ابنه عبد الله. وشغل ١٨ الفا من الوهابيين، بمن فيهم ٦٠٠ من الخيالة، مواقعهم عند وادي الصفراء على منتصف الطريق بين ينبع والمدينة[١٢].

ونشبت المعارك الحاسمة في كانون الاول (ديسمبر). كان جيش طوسون يلاحق قبيلة حرب التي لم يقم معها علاقات ودية فدخل في ممر جبلي ضيق قرب وادي الصفراء وتعرض لضربات قوات الوهابيين المختارة التي لم يكن لطوسون اي علم بوصولها. وفر الجيش المصري البالغ تعداده ٨ آلاف شخص. ولم تنقذ الموقف بسالة طوسون شخصيا. فقد دمرت قواته تدميرا وفقدت نصف افرادها. ولم ينقذ المصريين من الهلاك عن بكرة ابيهم الا انشغال الوهابيين بنهب المعسكر الذي تركوه، فعادت الى ينبع بقية ضئيلة من قوات طوسون الا ان الوهابيين لم يهاجموا هذه المدينة. فظل المصريون يحتفظون بأهم رأس جسر[١٣].

ووصف الجبرتي سلوك جنود طوسون حالما لاحت اولى علامات الهزيمة: «فما يشعر السفلانيون الا العساكر الذين في الاعالي هابطون منهزمون فانهزموا جميعا وولوا الادبار وطلبوا جميعا الفرار وتركوا خيامهم واحمالهم واثقالهم وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من امتعة رؤسائهم فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله وأخذ دابته وساروا طالبين الوصول الى السفائن بساحل البريك لأنهم كانوا اعدوا عدة مراكب بساحل البريك من باب الاحتياط ووقع في قلوبهم الرعب واعتقدوا ان القوم في اثرهم والحال انه لم يتبعهم احد لأنهم لا يذهبون خلف المدبر ولو تبعوهم ما بقي منهم شخص واحد فكانوا يصرخون على القطائر فتأتي اليهم القطيرة وهي لا تسع الا القليل فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها فيصعد منهم الجماعة يمنعون البواقي من اخوانهم فان لم يمتنعوا مانعوهم بالبنادق والرصاص...»[١٤].

كان الجبرتي من الازهريين المعارضين لمحمد علي. وقد قدم توضيحاته لاسباب هزيمة القوات المصرية: «وقد قال لي بعض اكابرهم الذين يدعون الصلاح والتورع أين لنا بالنصر واكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا وصحبَتُنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به

فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين والقوم اذا دخل الوقت اذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف امام واحد بخشوع وخضوع واذا حان وقت صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الاخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته وينادون في معسكرهم هلموا الى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط والشاربين الخمر والتاركين للصلاة الاكلين الربا القاتلين الانفس المستحلين المحرمات» (١٥).

وبالاضافة الى الاسباب العسكرية الصرف ـ عنصر المباغتة عند الوهابيين وسوء الموقع عند القوات المصرية، وتدهور معنويات جنود طوسون ـ لعب دورا كبيرا عجزه في تلك الفترة عن اقامة علاقات ودية مع القبائل البدوية المحلية. فان قوات طوسون مرت بمناطق كان سكانها حلفاء للوهابيين ولم يقرروا بعد مهاجمتهم.

احتلال الحجاز. كان تصحيح الأوضاع قد تطلب استمالة شيوخ البدو المحليين. وتطلب ذلك أموالا. وسرعان ما وصلت تلك الأموال من مصر.

كتب قنصل روسيا في مصر ش. روسيتي: يقول «ان استمرار تصدير الأطعمة من هنا (من الإسكندرية الى مالطة وأسبانيا يقدم له (لمحمد علي) وسيلة لسد العجز في خزينته ويمكنه من انفاق الأموال على استئناف تحصين هذه المدينة... وعلى الاستعدادات الهامة للحملة على عبد الوهاب . والحال تصل من تركيا الى الاسكندرية بلا انقطاع قوات جديدة يرسلها هو بفصائل صغيرة الى ينبع عن طريق السويس. ويقال إن عبد الوهاب يتخذ من جانبه اجراءات نشيطة لمواجهة هذه الحملة الجديدة. ويوجد خلاف شديد بين عبد الوهاب المذكور وشريف مكة...»(١٦). وكتب ش. ورسيتي كذلك عن الاشاعات الدائرة عن الاستعداد للحرب بين فرنسا وروسيا. وكان ذلك قد ساعد والي القاهرة في العمل دون ان يعبأ كثيراً بالدول الاوروبية.

ووصلت الى ينبع امدادات جديدة ومعدات حربية، واجتذب طوسون بالهدايا الكبيرة شيوخ قبائل جهينة وحرب وكثيرا من الحضر. وخصص راتباً شهرياً لكل

شيخ من شيوخ القبائل[١٧]. كان التذمر من الوهابيين في الحجاز قد تحول من زمان الى حقد، ولذلك اخذت سياسة طوسون هذه تعود بثمارها.

وفي خريف ١٨١٢، توجه طوسون على رأس قوات كبيرة نحو المدينة المنورة واقترب منها في تشرين الاول (اكتوبر) دون ان يواجه مقاومة في الطريق[١٨]. وكانت حامية من الوهابيين بسبعة آلاف شخص تدافع عن المدينة. الا ان المرض، كما يقول ابن بشر، اصاب قسماً كبيراً من الجند. ولم يكن سكان المدينة راغبين في القتال الى جانب الوهابيين.

واخذ طوسون يقصف المدينة بالمدفعية ففتحت الانفجارات ثغرات في اسوارها. واستسلمت المدينة المنورة. والتجأت حامية الوهابيين الى قلعة المدينة، ولكن الجوع ارغمها على ترك القلعة بعد ثلاثة أسابيع في تشرين الثاني (نوفمبر). ووعد طوسون بالسماح بجلاء بقايا الحامية الوهابية بشروط مشرفة[١٩]. ويقول منجين ان جنود طوسون تصرفوا تصرفا نبيلا[٢٠]. الا ان بور كهاردت المطلع عن كثب على سير الحملة يقول ان هؤلاء الجنود قتلوا ونهبوا في الطريق اغلبية الوهابيين[٢١]. وارسلت الى القاهرة ٤ آلاف أذن اقتطعت من الوهابيين واعدت لإرسالها الى الاستانة [٢٢]. وانتقل آغا المدينة المنورة حسن الى صف المصريين ولكنه اعتقل ونفي الى الاستانة حيث اعدم. وعين حاكما للمدينة بدلا منه توماس قيس وهو اسكتلندي اسر في مصر واعتنق الاسلام[٢٣].

ولعب الشريف غالب على حبلين. فقد كان مسروراً لهزيمة الوهابيين وكان يأمل في التخلص من ظلمهم بمساعدة المصريين. الا انه لم يكن راغبا في تقوي مواقع والي القاهرة في الحجاز لدرجة كبيرة. وكان افضل ما يناسب غالب هو استنزاف القوات المصرية وقوات الوهابيين وعودة السلطة الفعلية في الحجاز اليه.

وها هو يقسم الولاء من جديد لسعود الذي ادى فريضة الحج آخر مرة في نهاية عام ١٨١٢[٢٤]، ويستعد لتسليم مكة وجدة الى قوات والي القاهرة. وفي تلك الفترة كان معسكر قوات عبد الله يرابط ليس بعيدا عن مكة. الا ان مصنفات ابن بشر

والمصادر الاخرى لا تشير الى قيام الوهابيين باستعدادات ما لعمليات حربية. ولم تكن سلبية سعود وابنه تعني بانهما لم يفهما مدى الخطر الذي يتهددهما. ولا يمكن ان يفسر سكوتهما الا بالحالة الداخلية للدولة الوهابية وعدم الاستقرار في المؤخرة وعدم امانة البدو.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨١٣، احتل فصيل مصري غير كبير مدينة جدة بلا قتال. وخوفا من تلقي ضربة غادرة من غالب سحب عبد الله الحامية الوهابية من مكة وانسحب بجيشه كله الى الخرمة. وفر عثمان المضايفي وعائلته من الطائف. وسقطت مكة، والطائف بعد بضعة ايام، ووقعتا في يد طوسون بلا قتال[٢٥]. واعلن غالب، وعلى اثره قبائل الحجاز البدوية، الولاء للاسياد الجدد.

وانتزع المصريون الحجاز من الوهابيين بدون جهود حربية كبيرة رغم هزيمتهم الفادحة ولعب الدور الحاسم في انتصارهم عداء الحجازيين لأمير الدرعية وللوهابية وكذلك الذهب المصري الذي وزع بسخاء على وجهاء واعيان البدو وعلى البدو انفسهم، واخيرا انتقال شريف مكة الى جانب والي القاهرة.

وبمناسبة احتلال المدينتين المقدستين اقيمت في القاهرة احتفالات صاخبة اطلقت فيها نيران المدافع وأجريت الالعاب النارية. وتوجه رسول من محمد علي الى الاستانة يحمل مفاتيح مكة والمدينة المنورة وجدة. وكتبت السفارة الروسية من الاستانة تقول: «حضر جميع اعضاء الحكومة العثمانية لاستلام المفاتيح في مسجد ايوب، ومن هناك نقلت الى السلطان في السراي. وفي ذلك اليوم دوت ثلاث مرات صليات المدفعية من جميع بطاريات المدينة والاسطول ومضيق البحر الاسود احتفالا بهذا الحادث. واستمرت الاحتفالات سبعة ايام»[٢٦]. وعين السلطان العثماني طوسون واليا لجدة، واستلم محمد علي والشريف غالب هدايا ثمينة من السلطان[٢٧].

ولم تعد الاشهر التالية على المصريين بما يفرحهم. ففي ربيع وصيف ١٨١٣، قام الوهابيون بغزوتين موفقتين على الحجاز. وظهر سعود بنفسه قرب المدينة

المنورة مع انه لم يتمكن من احتلالها. وهجم اهالي عسير الذين ظلوا موالين للوهابيين على الفصائل المصرية قرب اسوار مكة وجدة تقريبا.

وفقد جيش الاحتلال المصري بسبب الارهاق والحر والامراض المتواصلة الناجمة عن سوء التغذية وتلوث المياه عددا من الجنود اكبر مما فقده في المعارك. ويقول منجين ان جيش والي القاهرة فقد خلال هذه الحملة ٨ آلاف شخص و ٢٥ ألف جمل. وكان هلاك دواب الركوب والنقل قد حرم المصريين من امكانية المناورة والمسيرات البعيدة وايصال العتاد والذخيرة والاغذية في الوقت اللازم. وبدأت آمال البدو في والي مصر تخيب، وصاروا يتعاونون مع قواته على مضض [٢٨].

وفي خريف ١٨١٢، ابتسم الحظ لطوسون من جديد. فقد قام القائد العسكري الوهابي عثمان المضايفي بغارة على الطائف ولكنه مني بالهزيمة وفر. وقبض عليه بدو عتيبة وسلموه الى غالب[٢٩]. ثم ارسل الى القاهرة ومنها الى الاستانة حيث اعدم.

سياسة محمد علي في الحجاز. كان حاكم مصر يدرك أن الوهابيين لم ينتهوا رغم احتلال الحجاز. فقرر ان يتوجه شخصيا الى الجزيرة العربية ويدرس الموقف هناك، ويؤدي فريضة الحج في الوقت نفسه. وفي خريف ١٨١٣، وصل محمد علي مع بضعة آلاف من الجنود الى جدة[٣٠]. واستقبله غالب. وعاهد احدهما الآخر بالصداقة، واقسما على ذلك في الكعبة، الا ان خلافا جديا كان يختمر بين الوالي والشريف.

كان مركز شريف مكة قويا بحيث لا يسمح بالتطاول السافر على سلطته. وكان مبعث قوته وجود بضعة آلاف من العبيد المسلحين والجنود المرتزقة والحجازيين الموالين له وسيطرته على قلعة مكة[٣١]. الا ان الوالي الداهية اعتقل غالب غدرا في اواخر عام ١٨١٣ بزعم ان السلطان طلب ذلك وارغم محمد علي شريف مكة تحت تهديد الموت على ان يصدر امره الى ابنائه ليكفوا عن المقاومة، وبعد ذلك نفاه مع عائلته كلها الى القاهرة. وعين محمد علي بدلا منه صنيعته يحيى بن سرور وهو من

اقرباء الشريف غالب وصادر اموال الشريف من نقود واثاث وبضائع وبن وتوابل بلغت قيمتها ما يعادل ٢٥٠ الف جنيه استرليني.

الا ان السلطان امر باعادة قسم من تلك الأموال الى الشريف غالب الذي اقام في سالونيكي وتوفي فيها بعد بضع سنوات[٣٢].

لقد فاز محمد علي دون شك من حيث الهدف البعيد الذي يتلخص في اخضاع الحجاز بصورة تامة. فقد جرد شريف مكة من السلطة والنفوذ واستبعد احتمال انتقال غالب الى صف الوهابيين. ووضع يده على مداخيل الشريف السابقة كلها تقريبا وساعد ذلك على تمويل الحملة الباهظة. واخيرا حرم الباب العالي من امكانية الاستفادة من التناقضات بينه وبين غالب.

الا ان النتيجة المباشرة لغدر محمد علي تجلت في غضب سكان الحجاز، وخصوصا البدو، ولجوء الكثير من عوائل الوجهاء الى الوهابيين خوفا من التنكيل ومشاركتها في الحرب الى جانب الوهابيين. وكان من بين هؤلاء الشريف راجح وهو قائد عسكري شجاع. كما لجأ الى الوهابيين جزء من حرس غالب[٣٣].

ومن الناحيَة العسكرية كان الاخفاق يلاحق محمد علي في بادىء الامر. ففي اواخر ١٨١٣ وأوائل ١٨١٤ منيت قواته بالهزيمة في تربة والقنفذة .

وعندما استولى الانزال البحري على مدينة القنفذة قتل الجنود كثيرا من السكان العزل وقطعوا آذانهم لارسالها الى الاستانة كدليل على البسالة في القتال. وقال ج. فيناتي الذي شارك في هذا الانزال ان الجنود كانوا احيانا يقطعون آذان الأحياء لكي يحصلوا على المكافأة الموعودة[٣٤]. وتوحد السكان المحليون الغاضبون بسبب ذلك حول طامي امير عسير الذي حاصر القنفذة وقطع عنها مياه الآبار الموجودة حولها ثم بدأ الهجوم بعد أن استنزف قوى المحاصرين. وفر الجنود الى السفن في هرج ومرج. وقتل الكثيرون منهم وغرق آخرون أو هلكوا في الطريق بسبب العطش[٣٥].

كان محمد علي يدرك أنه اذا لم يحقق نصراً حاسما في الجزيرة العربية فان

مكانته في مصر سوف تتزعزع، ولذا بدأ باتخاذ اجراءات عاجلة لمواصلة الحملة. وفرضت ضرائب اضافية على الفلاحين المصريين، ووصلت الى جدة امدادات جديدة وذخيرة وعتاد واغذية. فصارت المدينة بمثابة مستودع رئيسي. ووصلت عدة مئات من الخيالة من بدو ليبيا الموالين لمحمد علي باشا. وكانوا سندا ثمينا له لأنهم متعودون على العمليات في الظروف الصحراوية. وازدادت وسائط النقل بآلاف الجمال التي اشترى محمد علي بعضها من الشام وجلب البدو الليبيون بعضها الآخر. واتفق محمد علي مع امام مسقط حول ارسال السفن لنقل القوات[٣٦].

واتخذت خطوات لتحسين العلاقات مع السكان المحليين. والغى محمد علي بعض الاتاوات المرهقة جدا وقلص الرسوم الجمركية في جدة. ووزع النقود على المحتاجين ورمم الكعبة وقدم الهدايا لعلماء الدين وكشف خصيصا عن ورعه وتدينه. وامر جنوده بان لا يمارسوا النهب والتنكيل وان يدفعوا ثمن ما يأخذونه من اغذية. وتغير موقف الحجازيين من قوات محمد علي نحو الافضل[٣٧].

الا ان الامر الرئيسي يتلخص في استئناف الحج. فقد استلم البدو نقودا من قافلة الشام بعد ان كانت السلطات العثمانية لا تدفع شيئا منذ عشر سنوات. واسفر توارد عشرات الآلاف من الحجاج عن ازدهار احوال سكان الحجاز من جديد[٣٨].

وكانت وفاة امام الدرعية سعود في ربيع ١٨١٤[٣٩] قد افادت والي مصر. فان موهبة سعود كقائد عسكري ورجل دولة معروفة للجميع. ولم يبخل ابن بشر بالكلمات في مدحه، فرسم له صورة الحاكم المثالي التي وردت اوصافها في الكثير من الروايات الشفهية وفي الادب العربي. ويقول المؤرخ ان سعود كان محبوبا عند الرعية. وكان جيد الاطلاع على الكتاب والسنة بفضل تعلمه على يد محمد بن عبد الوهاب. وقد كافح في سبيل الاسلام وخاض الجهاد ببسالة. وكتب وصايا للرعية ادهشت الجميع بعمق معرفة الفقه، ودلل على افكاره بآيات من القرآن واقوال من الحديث ومقتطفات مما كتبه اشهر الفقهاء. ودعا الى الامتناع عن المحظورات: الزنا والنميمة والافتراء والاكاذيب والربا. وكان متواضعا ورعا سخيا وكان بسيطا في

معاملة المقربين اليه. كان فطينا حاد الذكاء وقد حظي باعجاب كبير وشعبية واسعة(٤٠).

في فترة وفاة سعود كان الوهابيون قد فقدوا الحجاز كله وعمان والبحرين وقسما من تهامة. وتسلم ابنه عبد الله دولة انتابها الخراب. وبعد ان قهر مقاومة المتذمرين ثبت مركزه على العرش واخذ يستعد لمواصلة الحرب ضد جيش محمد علي. وتشير اغلبية المؤرخين الى ان عبد الله كان محاربا شجاعا، ولكنه اقل من والده من حيث الدهاء السياسي والمرونة وسائر خصال رجل الدولة. وربما كان في هذا القول بعض الحق. فالتاريخ يدين المغلوبين بوصفهم غير موهوبين، مع ان الملابسات كانت في كثير من الاحيان اقوى منهم.

انتصار المصريين في معركة بسل وتقدمهم نحو عسير. اخذت سياسة محمد علي في الحجاز تؤتى ببعض الثمار. فقد تمكن من تحسين العلاقات مع البدو. والدليل على ذلك ما قاله ابن بشر من ان عبد الله هاجم مرارا القبائل البدوية الحجازية الموالية لمحمد علي. واضطر امام الدرعية الى القيام بحملة تنكيلية ضد بدو مطير ايضا(٤١). وفي اواخر عام ١٨١٤، تمكن محمد علي من الاتصال مع الشريف راجح واقناعه بالعودة للخدمة عنده ودفع له مبلغا ضخما.

وحتى ذلك الوقت، صارت لدى محمد علي قوات كافية. ويقدر بوركهاردت تلك القوات بـ ٥ آلاف شخص، ولكن محمد علي كان يعتقد بأن لديه ٢٠ الفا(٤٢). ويبدو ان الرقم الحقيقي هو بين هذا وذاك.

وفي اواخر ١٨١٤ وبداية ١٨١٥، حشد الوهابيون في بسل، على مقربة من تربة، جيشا بلغ ٣٠ الفا كما يقول ابن بشر، و ٢٠ الفا كما يقول بور كهاردت. واكثر من نصفه احضره طامي بن شعيب من عسير. وترأس تلك القوات الموحدة فيصل شقيق عبد الله. وفي كانون الثاني (يناير) ١٨١٥ نشبت معركة انتصرت فيها قوات محمد علي المتحالفة مع البدو. ودفع محمد علي ٦ ريالات مقابل كل قتيل من الاعداء. واحتفل محمد علي بالنصر حيث أعدم في مكة مئات الاسرى. وبلغت خسائر الوهابيين عدة الاف.

ثم احتلت قوات محمد علي تربة ورنية وبيشة. ووصل المصريون الى ساحل البحر الأحمر واستولوا على القنفذة. وجرى تسليم زعيم عسير طامي بن شعيب الى محمد علي الذي ارسله الى مصر ثم الى الاستانة حيث اعدم. وكان محمد علي ينصب على القبائل البدوية في كل مكان اناسا طائعين له(٤٣). وبنتيجة العمليات الحازمة التي شنها محمد علي جرى دحر الوهابيين في عسير وفي المناطق الهامة من الناحية الاستراتيجية بين الحجاز ونجد وعسير.

وبعد عدة اشهر، عاد محمد علي الى مصر حيث وصلته انباء عن القلاقل. وبالاضافة الى ذلك كان محمد علي، بعد احتلال الحلفاء لباريس، يخشى من انزال جديد يقوم به الانجليز على مصر او من هجوم الاتراك(٤٤).

دخول طوسون القصيم والصلح مع عبد الله. لم تكلل بالنجاح محاولة طوسون الاولى لدخول القصيم. فقد عاد ادراجه عندما علم بظهور عبد الله مع قوات كبيرة. الا ان التذمر في القصيم من سلطة الوهابيين قد اشتد. واتصل وجهاء الرس بطوسون ووعدوه بالمساعدة اذا دخل القصيم. وتحرك طوسون بلا ابطاء مع عدد غير كبير من القوات نحو مدينة الرس ودخلها. ودمر هنا قسما من التحصينات وفرض الضرائب على السكان ونصب معسكرا على مقربة من المدينة مؤمنا تزويد الجيش بالاغذية على حساب السكان المحليين. فلم يتمكن من تأمين المؤن من المدينة المنورة بصورة منتظمة.

وكانت قوات عبد الله مرابطة في عنيزة. وقام الوهابيون بهجمات متفرقة باتجاه الرس وكانوا يستولون على قسم من القوافل القادمة من المدينة المنورة. فقد وقع فصيل الامدادات الذي قاده توماس قيس في كمين نصبه الوهابيون وأبيد(٤٥). واستمرت العمليات الحربية سجالا طوال عدة اشهر حتى صيف ١٨١٥(٤٦).

غدت حالة طوسون عصبية للغاية. فان ضغط الوهابيين الشديد كان يمكن ان يدمره. بيد ان قوى عبد الله لم تكن كافية على ما يبدو، ثم انه كان يخشى تمرد اهل القصيم في مؤخرته. وتم توقيع الصلح بشروط تعكس توازن القوى المترجرج هذا.

ونص الاتفاق على توقف العمليات الحربية. وترك جيش طوسون القصيم

وكف المصريون عن التدخل في شؤون نجد. وتأكد ضمان حرية التجارة والحج للجميع. وأورد ابن بشر وبور كهاردت كلاهما هذه المعلومات عن الاتفاقية. الا ان الرحالة بور كهاردت اورد بضعة شروط اخرى من الاتفاقية: يجب ان تخضع لعبد الله كل القبائل المتواجدة شرقي الحناكية. ويقول بور كهاردت كذلك ان عبد الله وافق على اعتبار نفسه من رعية السلطان العثماني. ويؤكد المؤرخ المصري المعاصر أ. عبد الرحيم هذه الحقيقة استنادا الى وثائق من ارشيفات القاهرة(٤٧).

ووصل مبعوثو عبد الله مع طوسون الى القاهرة، خريف ١٨١٥(٤٨).

وبعد انسحاب طوسون اخذ عبد الله ينحي امراء القصيم الذين ابدوا ترددا اثناء وجود الفصيل المصري في الرس، أو الذين تعاونوا مباشرة مع طوسون، وبدأ كذلك عمليات تأديبية ضد بدو حرب ومطير الذين خانوا العهد.

والى الجنوب من ذلك، في مناطق بيشة وتربة ورينة التي كانت، باعتقاد بوركهاردت، مستثناة من الاتفاقية بين عبد الله وطوسون، استمرت الصدامات بين الوهابيين والقوات المصرية (٤٩).

واثارت اعمال عبد الله التذمر في القصيم، ناهيك عن البدو، فأرسلت شكاوى الى محمد علي. وفي المراسلات التي جرت بين عبد الله وبين محمد علي وابنه وردت اشارات متكررة الى خرق الوهابيين لشروط الاتفاقية (٥٠).

ارتفعت منزلة محمد علي في الامبراطورية العثمانية بفرض سيطرة مصر على الحجاز. واخذ محمد علي يطالب الباب العالي بتسليمه الشام على سبيل المكافأة عن الانتصارات في الحجاز. ولذا اصبحت اكثر الحاحا بالنسبة له مهمة تثبيت اقدامه في الحجاز وفي الجريرة العربية عموما بتقويض الدولة السعودية الاولى نهائيا(٥١).

احتلال نجد من قبل ابراهيم باشا. عين ابراهيم الابن الاكبر لمحمد علي لقيادة الحملة هذه المرة. وظلت معروفة احدى الطرائف التي قيلت بمناسبة تعيين ابراهيم قائدا للحملة الجديدة. يقال ان محمد علي جمع قواده العسكريين في القاهرة قبيل

بدء الحملة ليناقش معهم خطة العمليات. ثم اشار محمد علي الى تفاحة موجودة وسط سجادة كبيرة مفروشة في القاعة. وقال: من يحضر هذه التفاحة ويسلمها لي دون ان يمس السجادة برجليه سيقود القوات. انبطح المقربون الى الوالي على الارضية ولكنهم لم يبلغوا التفاحة. وعند ذاك اقترب ابنه ابراهيم، وهو قصير القامة، من السجادة فطواها وبلغ التفاحة وسلمها الى ابيه. وهكذا لمح لأبيه، كما يقال، ان القوات المصرية تحت قيادته سوف تطوي «سجادة» بوادي الجزيرة في البداية بتأمين المواصلات والعلاقات الطيبة مع السكان المحليين(٥٢)

كانت مثل هذه المبادىء بالفعل اساسا للسياسة المصرية في الجزيرة العربية اثناء حملة ابراهيم. فقد كان يفهم جيدا ان التوغل في اعماق الجزيرة مستحيل بدون مساعدة البدو، لذا سعى الى اجتذابهم. ولهذا الغرض الغى ابراهيم الزكاة الوهابية على البدو، وراح يدفع المال نقدا لقاء كل الخدمات. الا ان فلاحي مصر هم الذين دفعوا ثمن انتصارات ابراهيم.

كان ابراهيم عارفا بمدى العداء الذي خلفته تصرفات وتعسف جنوده المتباينين في الحجاز، لذا حاول ان يترك انطباعا طيبا عند الاعراب بورعه وتقواه ونبله وايفائه بالوعد. وقد قطع بكل حزم دابر اي اعمال للعنف ضد السكان المحليين الى ان تم تدمير الدرعية.

في تلك الاثناء أصاب الضعف دولة السعوديين. وكانت القبائل البدوية الرئيسية مستعدة في اي لحظة لتقلب لها ظهر المجن. وابتعد وجهاء واعيان واحات وسط الجزيرة عن الوهابيين بسبب التوقف التام تقريبا في مسيل الثروات المنهوبة. وكان السكان الحضر يتذمرون من الحروب المتواصلة الطويلة الامد والاتاوات التي لا تنقطع. ولم تكن منزلة عبد الله رفيعة كمنزلة أبيه سعود. ولم يبق سندا لامراء الدرعية في كل مكان الا علماء الدين الوهابيون.

وما كان بوسع المصريين ان يرسلوا الى نجد قوات غفيرة. الا ان جنودهم صاروا يختلفون عن اولئك الذين قاموا بالانزال في الحجاز قبل ست سنوات. فهم الآن يجيدون تدبير حصار القلاع وبناء الطوابي الحامية من الهجمات المباغتة

واستخدام المدفعية بمهارة ليست قليلة. وكان مع ابراهيم مدربون من جيش نابليون واطباء اوروبيون (٥٣).

اما عساكر عبد الله فقد ظلت على غرار المتطوعة العشائرية والحضرية كما كانت سابقا. وكان الوهابيون متخلفين عن المصريين من حيث الاعداد الحربي. صحيح انهم كانوا يقاتلون في ظروف مناخية تعودوا عليها ويدافعون هذه المرة عن ديارهم ونخيلهم وحقولهم، الا ان وطنيتهم النجدية لم تكن قوية، وكانت المشاعر التي يكنونها لآل سعود آنذاك متعارضة.

ويبدو ان عبد الله كان يدرك تعقد الموقف بالنسبة له. كان ينوي دحر المصريين في معركة مكشوفة، وفي حالة الاخفاق كان يريد ان يرغمهم على محاصرة واحة محصنة بعد اخرى وينسحب الى وسط نجد. وكانت صعوبات الحملة وسط الجزيرة البعيد عن قواعد التموين لا بد ان ترغم المصريين، كما يعتقد على التخلي عن نيتهم في احتلال نجد.

وفي خريف ١٨١٦، وصل ابراهيم الى المدينة المنورة مع قوات كبيرة. وجاءته من مصر قوات جديدة واغذية ومعدات. واجتذب ابراهيم القبائل في ضواحي المدينة لعمل معه وبدأ زحفه البطيء على نجد. وبعد ان احتل الحناكية انشأ فيها معسكرا محصنا. ودعا اليها زعماء القبائل المجاورة وقدم لهم الهدايا واستعرض جيشه امامهم. وفي تلك الاثناء وصل من الاستانة نبأ منحة لقب باشا. وكان ذلك بمثابة مغازلة لمشاعره لا اكثر، فهو لا يعني اي دعم له.

وفي تلك الاثناء، كانت القبائل البدوية تبتعد عن عبد الله الواحدة تلو الاخرى. فان زعيم مطير فيصل آل دويش، مثلا، جاء الى ابراهيم وعرض عليه خدماته مقابل تعيينه فيما بعد اميرا للدرعية. ووصل عبد الله الى القصيم وهاجم المصريين ولكنه مني بهزيمة. وقتل كثيرون من الوهابيين واقتطعت آذانهم وارسلت الى القاهرة.

وفي صيف ١٨١٧، اقترب ابراهيم من الرس وبدأ حصارا استمر عدة اشهر، ودافع المحاصرون عن انفسهم ببسالة. ويمكن الافتراض من ضراوة المعركة ان

عبدالله الذي يفهم الاهمية الاستراتيجية للرس قد ترك هناك افضل ما كان متوفرا لديه. وخلال الحصار الطويل لمدينة الرس كان عبد الله على مقربة منها دون ان يتمكن من نجدتها بشكل فعال. ولم تتمكن من دخول المدينة عبر المعارك الا قافلتان وهابيتان.

وبلغت خسائر ابراهيم ثلاثة الآف وخمسمائة شخص. واغلبهم بسبب الامراض. فالحصار في أوج الصيف، مما زاد في الصعوبات اما جيش ابراهيم. ولكنه كان يتمتع بمزايا المدفعية ومختلف آلات الحصار والقيادة الماهرة. والامر الاهم انه استلم امدادات. فان عبد الله لم يتمكن من قطع طرق التموين. وكان للذهب المصري الذي وزعه ابراهيم بسخاء ولالغاء الزكاة على البدو اثر كبير بهذا الخصوص.

وفي تشرين الاول (اكتوبر) استسلمت الرس بشروط مشرفة. والتحقت حامية الوهابيين المتبقية حاملة اسلحتها بقوات عبد الله[٥٤] وحسبما يقوله ج. سالير كان مصير الرس يختلف بعض الشيء. فالمدينة لم تستسلم، بل وعدت بالاستسلام للمصريين بعد ان يحتلوا عنيزة[٥٥].

كان يقود الدفاع عن عنيزة اشخاص من أقرباء امام الدرعية. وكانت حامية الوهابيين مزودة بالمؤن والذخيرة بصورة جيدة. ولكن المدينة احتلت بعد عدة ايام من الحصار، واستسلمت حاميتها بشروط مشرفة. والتحق المحاربون الوهابيون حاملين السلاح بعبد الله[٥٦].

ولم يحاول امام الوهابيين ابداء مقاومة اكثر لجيش ابراهيم في سوح مكشوفة. فان احتياطات مصر تحمي ظهر ابراهيم. وكان هجومه بطيئا، ولكنه لا مرد له. وبعد عنيزة استسلمت بريدة، وفي اواخر عام ١٨١٧ اعلنت القصيم كلها عن خضوعها لابراهيم[٥٧]. وكتب ابراهيم باشا لابيه ان كل سكان المنطقة يكرهون حجيلان امير بريدة العجوز وكذلك عبد الله[٥٨].

في البداية انسحب عبد الله الى شقراء حيث كان يجري على جناح السرعة بناء المنشآت الدفاعية، وبعد ذلك انسحب الى الدرعية.

ظل ابراهيم في بريدة حوالى الشهرين لاستلام الامدادات. ثم تحرك نحو شقراء. وذكر منجين ان عدد قوات ابراهيم قليل جدا ـ الف جندي. ويبدو ان هذا الرقم اقل مما في الواقع. وبعد ذلك ذكر منجين الرقم ٤٥٠٠ جندي دون ان يوضح ما اذا كان البدو بضمنهم ام لا. ولكن الحقيقة هي ان ابراهيم تمكن من قهر نجد بقوات قليلة نسبيا. الا ان حملته على شقراء شارك فيها بدو مطير وحرب وعتيبة وبنو خالد. وكان اولئك من البدو الذين كانوا آخر من خضع للوهابيين واول من قلب لهم ظهر المجن. وكتب ابن بشر بمرارة يقول انه سار مع ابراهيم كثير من زعماء القبائل ووجهاء الواحات في نجد بأمل الغنيمة والاستقلال المرتقب، ولكن آمالهم خابت بعد سقوط الدرعية أشد خيبة(٥٩). فعندما ترك ابراهيم المدن التي احتلها كان يدمر في البداية كل التحصينات ويأخذ رهائن معه(٦٠).

وفي كانون الثاني (يناير) وصل ابراهيم الى ضواحي شقراء. وبعد القصف المدفعي بدأ اقتحام المدينة. وسقطت شقراء بعد عدة أيام. واطلق سراح حاميتها بعد ان جرد افرادها من السلاح ووعدوا بأنهم لن يشاركوا في الحرب. واستولى ابراهيم على الوشم كلها(٦١). ثم احتل سدير والمجمعة بلا قتال في الواقع ، واعلنت حريملا والمحمل عن خضوعهما (٦٢).

وتحرك ابراهيم من شقراء الى ضرمى التي كان يدافع عنها محاربون أشداء من الخرج. ورغم القصف المدفعي واستخدام تكتيك الحصار لم يتمكن ابراهيم باشا من ارغام الحامية على الاستسلام. الا ان القوى لم تكن متعادلة. واقتحم جنود ابراهيم المدينة ونكلوا بأهلها جزاء لهم على المقاومة، وقطعوا آذان القتلى، كما هي العادة، وارسلوها الى القاهرة. ونهبوا المدينة عن آخرها. وجرى ذلك في شباط (فبراير)-آذار (مارس) ١٨١٨ (٦٣). وبذلك فتح الطريق نحو الدرعية.

سقوط الدرعية. في نيسان (ابريل) جرى المشهد الاخير من فاجعة الدولة السعودية الاولى. فقد بدأت معركة الدرعية. ومع أن واحات ومدن نجد سقطت الواحدة تلو الاخرى في يد الغازي المصري، الا انه كان في كل منها وهابيون

راسخو العقيدة رفضوا حتى فكرة التعايش سلميا مع «المشركين» وظلوا مخلصين حتى النهاية لآل سعود. وتقاطروا على الدرعية للمشاركة في المعركة الاخيرة.

وواجهت القوات المصرية فصائل من العاصمة والواحات الاخرى في وسط الجزيرة. وقاد هذه الفصائل ثلاثة من اشقاء عبد الله، وهم فيصل وابراهيم وفهد. وكانت في الدرعية قوات من منفوحة بقيادة العقيد الشجاع عبد الله بن مزروع وكذلك فصائل من حريق وسدير. وكان كهول من سكان العاصمة يدافعون عن مراكز الاسناد الصغيرة. وكانت هناك مفارز تحت قيادة أبناء آل سعود وأفراد عائلة آل معمر وغيرهم من القادة البارزين (٦٤).

وكان تحت امرة ابراهيم باشا حوالى الفين من الخيالة و ٤٣٠٠ من الجند الالبان والاتراك و ١٣٠٠ من الخيالة المغاربة و ١٥٠ من المدفعيين ومعهم خمسة عشر مدفعا وكذلك ٢٠ من المختصين بالبنادق و ١١ من المختصين بالقذائف (٦٥).

كانت واحة الدرعية تمتد لعدة كيلومترات بشكل خط على طول وادي حنيفة. وتتكون المدينة نفسها والواحة من عدة نزل متلاصقة. وتطل على المنطقة قلعة الطريف ومسجدها ومختلف المباني التابعة لها. وهي محمية بصخرة جبلية عالية من جهة وبقناة من الجهة الاخرى.

بدأ ابراهيم هجومه ببطء على طول الوادي. وبعد المناوشات الاولى مع العدو ترك المترددون عبد الله وانتقلوا الى ابراهيم وزودوه بمعلومات عن الوضع في المدينة. وكان تفوق المصريين في المدفعية قد مكنهم من تدمير تحصينات الوهابيين، وكان المهاجمون يحمون انفسهم من الهجمات المباغتة ببناء الطوابي على النمط الاوروبي هنا كما فعلوا في السابق. ومرت لحظة خيل فيها للوهابيين انهم سينتزعون النصر. فقد انفجر مستودع البارود الرئيسي عند ابراهيم وتوجه الوهابيون في هجوم سريع ولكنه اخفق.

كان توارد الاغذية والذخيرة والامدادات على ابراهيم طوال الوقت قد أمن النجاح لزحفه البطيء. وكان المرضى والجرحى من قوات ابراهيم ينقلون الى

مستشفى أنشىء في شقراء. وكانوا يتماثلون الى الشفاء هناك أحيانا ويعودون الى صف المقاتلين. وأرغم ابراهيم الامراء الذين التحقوا به على ان يرسلوا الى الدرعية محاربين يقاتلون تحت ألويته. وكان جنود جدد يحتلون مواقع الجنود القتلى من أفراد قوات ابراهيم في حين كانت صفوف المدافعين عن الدرعية تتضاءل. وكان من أسباب ذلك نقص الاغذية في الواحة (٦٦).

وغدت حالة الوهابيين ميؤوسا منها. وتكررت حالات الفرار. وفي مطلع ايلول (سبتمبر) بدأ الهجوم العام على المدينة. واحتمى عبد الله وقسم من اقربائه في قلعة الطريف. وفي ٩ أيلول، أقدم عبد الله على المفاوضات بعد أن أدرك أن كل شيء قد ضاع. وتوجه الى معسكر المصريين عمه عبد الله بن عبد العزيز وعلي ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذلك محمد بن مشاري بن معمر. وطالبهم ابراهيم باشا بالاستسلام. واتفق مبعوثو عبد الله معه على الاستسلام بشروط مشرفة لسكان واحة الدرعية الذين كانوا ما يزالون يقاومون. وقاتل عبد الله ومحاربوه المرابطون في القلعة قتالا باسلا يومين آخرين. وأوصل ابراهيم الى منطقة القلعة كل مدفعيته، وفي ١١ أيلول استسلم عبد الله.

وانتهت ستة أشهر من المعارك الطاحنة (٦٧). وفقد السعوديون أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من أقرباء الامام بمن فيهم ثلاثة من اخوانه. وقدر ابن بشر الخسائر العامة للوهابيين برقم صغير يثير التساؤلات، وهو ١٣٠٠ شخص، بينما يقول ان خسائر ابراهيم في معركة الدرعية حوالى ١٠ آلاف(٦٨). وأفاد ابراهيم في رسائله الى القاهرة والاستانة بأن الوهابيين خسروا ١٤ ألفا من القتلى و ٦ آلاف من الاسرى، ومن بين الغنائم ٦٠ مدفعا (٦٩).

وبمناسبة احتلال الدرعية جرت في القاهرة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨١٨ احتفالات بهيجة أطلقت فيها نيران المدافع وأجريت الالعاب النارية وكان الناس يسرحون ويمرحون(٧٠). وعلى أثر ذلك أعرب السلطان عن ارتياحه العميق عندما بلغه نبأ هزيمة «اعداء الاسلام»(٧١) وأعرب شاه ايران في رسالة الى محمد علي باشا عن تثمينه لدحر الوهابيين (٧٢).

نقل عبد الله عن طريق القاهرة الى الاستانة بصحبة اثنين من المقربين اليه في مطلع كانون الاول (ديسمبر). وأفادت السفارة الروسية من الاستانة: «في الاسبوع الماضي قطعت رؤوس زعيم الوهابيين ووزيره وامامه الذين أسروا في الدرعية ونقلوا الى العاصمة مؤخرا. وبغية اضفاء المزيد من الفخفخة على الانتصار على ألد أعداء المدينتين اللتين تعتبران مهد الاسلام أمر السلطان في هذا اليوم بعقد المجلس في القصر القديم في العاصمة. وأحضروا الى القصر الاسرى الثلاثة مقيدين بسلاسل ثقيلة ومحاطين بجمهور من المتفرجين. وبعد المراسيم أمر السلطان باعدامهم. قطعت رقبة الزعيم امام البوابة الرئيسية للقديسةصوفيا، وقطعت رقبة الوزير امام مدخل السراي وقطعت رقبة الثالث في احد الاسواق الرئيسية في العاصمة. وعرضت جثثهم ورؤوسها تحت الابط... وبعد ثلاثة أيام القوا بها الى البحر.

وأمر صاحب الجلالة باداء صلاة عمومية شكرا لله على انتصار سلاح السلطان وعلى ابادة الطائفة التي خربت مكة والمدينة ونشرت الذعر في قلوب الحجاج المسلمين وعرضتهم للخطر[٧٣].

الوهابية خارج الجزيرة العربية: ان تعاليم محمد بن عبد الوهاب التي بدت وكأنها ظاهرة خاصة بالجزيرة العربية وحدها قد وجدت لها بغتة انصارا في بلدان اخرى تبعد عن الجزيرة آلاف الكيلومترات. لقد نشرها الحجاج الذين كانوا في مكة في مطلع القرن التاسع عشر. فقد وجد شجب الوثنية ورفض عبادة الاولياء ومكافحة البدع ونشر الجهاد ضد «الكفرة» و «المشركين» والجمع بين الشعارات الطبقية والتعادلية - معتقدات وممارسات الوهابيين - تربة صالحة في بلدان ذات أنظمة اجتماعية وسياسية متباينة بعد تكيف وتعديل مناسب. ووصلت الوهابية الى الهند وأندونيسيا وأفريقيا.

وكان لتعاليم محمد بن عبد الوهاب تأثير كبير في الهند. فقد استخدم بعض احكامه المصلح الاسلامي والسياسي الهندي سيد أحمد بارلوي، وهو من اتباع المفكر الاسلامي المعروف ولي الله شاه. وكان سيد أحمد قد باشر بدعوته في مطلع

القرن التاسع عشر. وفي العشرينات حج الى مكة واطلع هناك على تعاليم محمد بن عبد الوهاب وتبناها. وعندما عاد الى الهند اتخذ من باتنا مقرا له واخذت تتوارد عليه جموع الانصار.

وفي عام ١٨٢٤، أعلن سيد أحمد الجهاد ضد الكفار، ثم، في عام ١٨٢٦، اجتاحت قواته البنجاب وأخذت تفتك بالسيك. وفي عام ١٨٣٠، احتل الوهابيون بيشاور وأسسوا دولة لهم حتى انهم بدأوا بصك قطع نقدية تحمل اسم احمد. ولكن امام الوهابيين قتل في العام التالي. ونشط اتباعه اعمالهم في المناطق الاسلامية من الهند، وخصوصا في الشمال وفي البنغال الشرقية واعلنوا الجهاد ضد المستعمرين الانجليز.

وكتب مؤلف انجليزي بمرارة في القرن التاسع عشر «كان المبشرون المتمردون الذين وعدوا المؤمنين بالخلاص أو الجنة قد اججوا الحقد على الانجليز والذي كان يضمره بعض المسلمين الهنود. وكانت كل صلاة يؤدونها مفعمة بهذا الحقد»(٧٤). كان نضال الوهابيين ضد السيطرة البريطانية قسطا في حركة الشعب الهندي ضد الاستعمار. واستمر هذا النضال عدة عقود حيث كان يشتد تارة ويخفت تارة اخرى. ومعروف جيدا دور الوهابيين الكبير في انتفاضة ١٨٥٧ - ١٨٥٩ الشعبية ضد السيطرة البريطانية(٧٥).

وعلى الحدود الشمالية، في سيتان، صمد المركز الوهابي في وجه حوالى عشرين حملة من القوات الاستعمارية. ولم يندحر الا في عام ١٨٦٣. الا ان نشاط الوهابيين استمر بعد ذلك. وكانت السلطات البريطانية، كما يقول المؤرخ الانجليزي و. هنتر، تعتبرهم «جماعة... تشكل، في رأي جميع الحكومات التي حلت محل بعضها بعضاً، مصدرا لخطر دائم على الامبراطورية الهندية»(٧٦).

ودفعت الوهابية بعض الحجاج الاندونيسيين الذين أمّوا مكة في العقد الاول من القرن التاسع عشر الى ممارسة النشاط الاصلاحي. ففي سومطرة بدأت حركة دينية سياسية استخدمت عددا من الشعارات الوهابية. وكانت في البداية موجهة ضد السكان المحليين غير المسلمين، ثم اكتسبت طابعا مناوئا للهولنديين. وطوال

حوالى خمسة عشر عاما، اعتبارا من عام ١٨٢١، خاض المستعمرون الهولنديون الحرب ضد وهابيّي سومطرة.

ويرى بعض الباحثين ان الوهابية مارست تأثيرا معينا على حركة عثمان دان فوديو في غرب افريقيا في مطلع القرن التاسع عشر والتي أدت الى تأسيس دولة سوكوتو الشاسعة هناك، وكذلك على السنوسيين في ليبيا[٧٧].

وكان سلطان مراكش مولاي سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) الذي اشتهر بثقافته وورعه وحرصه على الاسلام قد استخدم الافكار الوهابية في مكافحة التجزئة الاقطاعية والعشائرية في البلاد. وواجه نشاط المرابطين الانفصالي بمبدأ: سلطة واحدة ودين واحد ودولة واحدة. وتقليدا للوهابيين شجب السلطان الشعائر السنوية لتكريم الاولياء والغى مختلف الضرائب التي لا ينص عليها القرآن وأخذ يرسل الى مناطق البربر قضاة مسلمين يعملون على نشر الشريعة واجتثاث العرف القبلي عند البربر. وكانت اصلاحات مولاي سليمان الوهابية تشكل خطرا على المصالح المادية للجمعيات الدينية والمرابطين وسلطتهم بل حتى على وجودهم. فتوحدوا، الا القليل منهم، ضد السياسة الوهابية للحكومة والحقوا الهزيمة بالسلطان وارغموه على التنازل عن العرش[٧٨].

الفصل السادس

من سقوط الدرعية حتى جلاء المصريين عن الجزيرة العربية (١٨١٨ - ١٨٤٠)

السياسة المصرية في الجزيرة العربية بعد دحر الوهابيين.

بعد سقوط الدرعية لم يعد للدولة السعودية الاولى وجود وأصبح المصريون اسيادا بالتمام والكمال في أواسط الجزيرة، وأخذوا يزيلون بالحديد والنار نفوذ آل سعود والوهابيين.

عذبوا الامراء والعقداء والفقهاء واطلقوا النار عليهم فرادى وجماعات وربطوهم الى فوهات المدافع ومزقوهم بالقذائف تمزيقا. وأرغموا سليمان بن عبد الله، حفيد محمد بن عبد الوهاب، على الاستماع الى انغام الربابة قبيل الاعدام ساخرين من مشاعره الدينية[١]. وفي مدن وواحات جبل شمر والقصيم والدلم قتلوا افراد عوائل الوجهاء والاعيان والعقداء واستولوا على أموالهم[٢].

وأرسلوا أفراد عوائل آل سعود وآل الشيخ ووجهاء نجد (حوالى ٤٠٠ شخص مع النساء والاطفال) للاقامة في مصر. وتمكن بعضهم من الهرب فيما بعد، بينما ارتقى بعض قليل الى مناصب عالية في مصر. وغدا احد احفاد محمد بن عبد الوهاب وهو عبد الرحمن بن عبد الله، محاضرا للفقه الحنبلي في الازهر[٣].

وكتب الكابتن ج. سادلر «ان تاريخ حملة ابراهيم باشا عموما يكشف عن سلسلة من ابشع القساوات الوحشية التي اقترفت خلافا لاكثر الالتزامات قدسية. ففي بعض الحالات اغتنى من نهب القبائل نفسها التي ساهمت بقسط في

انتصاراته، وفي حالات اخرى ينتزع ثروات اعدائه المغلوبين انفسهم الذين تمكنوا في وقت ما من تحاشي غضبه»[٤].

وبعث محمد علي الى ابراهيم امرا بازالة عاصمة الدولة الوهابية من الوجود. وقبيل تدمير المدينة ابتز المصريون النقود من اهلها ونهبوهم دون رحمة. ولم يستلم فيصل بن وطبان آل دويش منصب أمير الدرعية، بل طالبه المصريون بان يسدد لهم الزكاة للسنوات الخمس التي كان مدينا بها للسعوديين. فرفض زعيم مطير تلبية هذا الطلب وارتحل الى الفرات الاوسط[٥].

وانتهز عدد من افراد عائلة آل عريعر فرصة سقوط الدولة السعودية فاستولوا على السلطة في الاحساء. الا ان ابراهيم باشا طردهم من شرقي الجزيرة وصادر كل اموال آل سعود ونهب الواحات[٦].

وكانت بريطانيا التي تكره امارة الدرعية تراقب بتذمر تعزز المصريين في الجزيرة العربية. وقامت عمارة بريطانية بانزال في القطيف[٧]. وكتب فيلبي يقول «يصعب الافتراض بان انزال القوات البريطانية في القطيف في وقت احتلال المصريين للاحساء تقريبا كان يمثل شيئا غير استعراض العضلات ضد المصريين. فقد كان بسط نفوذهم على ساحل الاحساء تحديا للمواقع البريطانية في ساحل الصلح البحري مع ان المصريين يمكن ان يعتبروا أنفسهم ورثة لسلطة الوهابيين في هذه المنطقة»[٨].

كان الانجليز يريدون أن يعرفوا نوايا المصريين في الخليج. فأرسلوا ج. سادلر لمقابلة ابراهيم باشا. وكان ج. سادلر أول اوروبي اجتاز الجزيرة من شرقها الى غربها وشاهد انقاض الدرعية. الا ان ابراهيم باشا غادر نجد في اواسط عام ١٨١٩ وتوجه الى المدينة المنورة. ولم يكن للعمليات المشتركة التي اقترحها عليه سادلر ضد الوهابيين اي معنى. زد على ذلك أن مصر عموما كانت ذات وجهة مناوئة للانجليز. ورفض ابراهيم اقتراح الانجليز بشأن التعاون وطرد سادلر من جدة في خريف ١٨١٩. وسرعان ما غادر فصيل الاحتلال البريطاني القطيف بعد ان فقد كثيرا من جنوده بسبب الامراض[٩].

في أواخر عام ١٨١٩ دمر الانجليز رأس الخيمة من جديد. ووضعت الادارة الانكلوهندية ما يسمى «بمعاهدة الصلح العامة» التي فرضت فيما بعد على جميع حكام الساحل والبحرين[١٠]. وكانت تلك في الواقع معاهدة الحماية التي اضيفت اليها بمر السنين مواد جديدة متزايدة.

وسرعان ما أدرك ابراهيم باشا أن عائدات البلد لا تسد نفقات احتلاله. فالقوات المصرية بعيدة عن القاهرة بآلاف الكيلومترات وبعيدة عن قاعدتها الرئيسية التعبوية في الحجاز بمئات الكيلومترات. واخذ السكان، من بدو وحضر، يضمرون للغزاة عداء متزايدا. ولم يكن عدد الجمال كافيا. ولا يندر ان يستولي البدو على قوافل الاغذية. ويمكن تصور المجاعة التي اجتاحت نجد اذا علمنا أن في وقت ما حتى جنود ابراهيم كانوا يقتاتون على الاعشاب. وقامت تمردات في جيش الاحتلال[١١].

واخيرا قرر ابراهيم ان يجلي قسما كبيرا من قواته من نجد ومن شرق الجزيرة، فهو يعرف ان اباه يسعى بالدرجة الاولى الى السيطرة على حوض البحر الاحمر وليس على اواسط الجزيرة العربية. وحشد المصريون قواتهم في منطقة الرس.

وقبيل الانسحاب دمروا كل القلاع والتحصينات الدفاعية واقتادوا الماشية وقطعوا النخيل وخربوا الحقول. وكتب ج. سادلر: «كان سكان منفوحة آنذاك في حالة يرثى لها، في حالة اسوأ مما كانت في أي زمان في الماضي منذ ان قامت سلطة الوهابيين. فان اسوار المدينة التي هي الحامي الرئيسي لملكيتهم قد ازيلت عن سطح الارض واخذ الاتراك محصول الموسم ولم يكن بالامكان هنا لا شراء القمح ولا الشعير. ولم تبق في القرى ولا فرس واحد»[١٢].

وبعثت الخلافات القبلية والمحلية بتغاض سافر او مستتر من جانب الاسياد الجدد، وبدأت النزاعات واخذ البعض يغزو البعض الآخر. وتعرضت طرق القوافل للخطر. وحتى في المدن لم يكن السكان يتجرأون على الخروج الى الشارع بدون سلاح. ونشأ انطباع وكأن سياسة المصريين تتلخص في اغراق وسط الجزيرة في

حالة الفوضى والركود والخراب والغاء احتمال انبعاثه[١٣]. وكانت الحاميات المصرية الصغيرة لا تلعب دور العامل الايجابي للمركزية واحلال النظام، بل غدت مجرد اداة للنهب والدمار.

كانت الدولة السعودية تحت الانقاض وقد قهرت عساكرها ودمرت ادارتها. وبدا وكأن قوى التشتت والتجزئة التي انطلقت من عقالها بعد دحر الوهابيين قد مزقت التوحيد السابق شذر مذر.

ولكن بقيت داخل مجتمع أواسط الجزيرة القوى التي تمكنت قبل نصف قرن ونيف من رص صفوفها وتأسيس امارة الدرعية.

بعد تصفية الدولة السعودية كان مزارعو نجد وتجارها وصناعها يتحسرون على العهود القديمة، عهود الاستقرار والسلامة الشخصية وسلامة الملكية والمداخيل. وكانت حروب السعوديين الموفقة التي عادت بغنائم وفيرة قد رسمت حولهم هالة في انظار وجهاء نجد. وراح الفقهاء الوهابيون الذين سلموا بجلودهم يدعمون الذكريات ويتغنون بأمجاد السعوديين الغابرة.

والى جانب النزاعات القبلية الاقطاعية كان هناك تيار لرص الصفوف وسعى الى توحيد نجد بغية طرد المحتلين الاجانب واستئناف الظروف الملائمة للحياة الطبيعية والنشاط الاقتصادي. وبين تطور الاحداث لاحقا ان وجود الدويلات - الواحات الصغيرة والمتناهية في الصغر قد عفا عليه الزمن. فبعد بضع سنوات من سقوط امارة الدرعية اسفرت الحركة الواسعة للامة ضد الاحتلال الاجنبي عن بعث الدولة السعودية التي اختيرت الرياض هذه المرة عاصمة لها.

النزاعات القبلية الاقطاعية في ظل الاحتلال المصري. حل خليل باشا ابن اخت محمد علي محل ابراهيم باشا كحاكم للجزيرة العربية. الا ان خليل باشا سرعان ما توفي وعين بدلا عنه اخوه احمد شكري يكن بك الذي ظل في الجزيرة باسم احمد باشا حتى عام ١٨٢٩ حيث استدعاه محمد علي الى القاهرة وعينه رئيسا لحربيته[١٤].

وفي خريف ١٨١٩، عين محمد بن مشاري بن معمر حاكما لنجد. وهو من العائلة التي حكمت العيينة في فجر الحركة الوهابية. حاول ابن معمر ترميم انقاض الدرعية، الامر الذي واجهه السكان بالاستحسان. واخذ اهالي مناطق الاطراف يبعثون الوفود اليه ليعبروا عن تاييدهم[١٥]. وأمنت الامطار الوفيرة محصولا لا بأس به وساعدت ابن معمر على التخفيف من المجاعة. ولكن مع ذلك فالأغذية لم تكن كافية.

وظهر منافسون لابن معمر. فقد بعث ماجد بن عريعر، وهو من شيوخ بني خالد، سلطته في شرقي الجزيرة. وحكم آل عريعر تلك الانحاء حتى عام ١٨٣٠[١٦].

وظهر على مسرح الاحداث في نجد تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، وهو ممثل فرع جانبي من آل سعود، وقد فر من المصريين بعد سقوط الدرعية. وكان لبعض الوقت يعمل الى جانب ابن معمر [١٧].

وكان احد اخوان آخر امام سعودي وهو مشاري بن سعود بن عبد العزيز، قد فر من الحرس المصري في الطريق من المدينة المنورة الى ينبع، ثم ظهر في سدير حيث اعلن نفسه اماما، وفي آذار (مارس) ١٨٢٠، استولى على الوشم. وحظي ببعض التأييد في القصيم وفي مناطق اخرى. بيد ان ابن معمر تمكن من الاعتماد على قبيلة مطير ودحر قوات مشاري وتأسيره[١٨].

ظلت سلطة ابن معمر مضعضعة. واخذ المتذمرون يلتفون حول تركي بن عبد الله. واقتربت الصدامات الحاسمة بين المتنافسين. واخيراً استولى على الدرعية بسرعة كبيرة حتى تمكن من تناول الطعام في وليمة الغداء التي كان الامير السابق قد اعدها لضيوفه. ثم تحرك نحو الرياض حيث قبض على ابن محمد بن معمر. وفي الاسر قتل ابن معمر مع ابنه[١٩]. كان حكم ابن معمر قد استمر عاما واحدا تقريبا. وكان من اسباب سقوطه تلوث سمعته كعميل للمصريين وبقاء منزلة آل سعود رفيعة كالسابق.

وعندما بلغت انباء الاضطرابات في نجد محمد علي قرر تعزيز الحاميات في

اواسط الجزيرة. وفي خريف ١٨٢٠، وصل الى القصيم حسين بك مع امدادات وقرر التخلص من الامير السعودي. وتحصن انصار تركي في قلعة الرياض، ولكنهم بعد حصار قصير من المصريين وافقوا على الاستسلام للأسر بشرط الحفاظ على حياتهم، الا انهم فيما بعد قتلوا كلهم تقريبا. وتمكن تركي من الهرب[٢٠].

وفي آذار ١٨٢١، أمر حسين بك جميع اهالي الدرعية الذين عادوا اليها بان يجتمعوا واعدا اياهم بتوزيع الاراضي عليهم. وعندما جاء ٢٣٠ من اهالي الدرعية قتلهم الجنود المصريون. وكان القتل والسجن بلا محاكمة وتقطيع الاعضاء والتعذيب امورا معتادة في نجد. وكانت الحاميات في المدن تنهب الأهالي. ويقتطع الجنود النخيل ويخربون الحقول. وفر الكثير من السكان الى البوادي أو غادروا نجد[٢١]. وكتب ابن بشر يقول «وترأس عليهم الشيطان»[٢٢]. وفي عام ١٨٢١ تفشى وباء الكوليرا فزاد في الطين بلة.

وقبيل العودة الى مصر جمع حسين بك رهائن من مدن عديدة وحبسهم في الحصن الذي انشىء في ثرمداء[٢٣]. وظلوا هناك حتى وصل الى نجد في ربيع ١٨٢٢ قائد مصري جديد هو حسن بك الذي انشغل بجمع الاتاوات والنهب. واصبح الامر لا يطاق، حتى ان انتفاضات كثيرة ومقاومة مسلحة قامت ضد المحتلين رغم الارهاب. ولم تكن لدى المصريين قوات كافية. فاكتفوا بابقاء حاميات في عدة مدن هامة ـ الرس وشقراء وبريدة وعنيزة وثرمداء والرياض[٢٤].

لقد اخفقت المحاولات الاولى لبعث السلطة المحلية من قبل ابن معمر في البداية ثم من قبل اثنين من افراد العائلة السعودية. الا ان الوهابية احتفظت بجذور عميقة بين اهالي نجد، في حين كانوا يتصورون ان العائلة السعودية هي منفذة المشيئة الالهية على الارض.

بعث سلطة السعوديين في عهد تركي. بعد ان وفق تركي في الهرب من المصريين عام ١٨٢٠، ظل متخفيا طوال عدة سنوات، في المناطق الجنوبية على ما

يبدو، ولكنه ظهر من جديد على مسرح الاحداث في نجد في ايار (مايو) أو حزيران (يونيو) ١٨٢٣، حيث يشير ابن بشر الى عمليات فصيله الصغير في الحلوة [٢٥].

ووجد تركي حلفاء وانصارا له من بينهم سويد حاكم مدينة جلاجل في سدير[٢٦]. ووصلت مع سويد فصائل من بعض المناطق الاخرى. فتشجع تركي وقام بغزوة على مدينتي منفوحة والرياض المتواجدتين قرب بعضهما بعضاً وفيهما حاميات مصرية من ٦٠٠ شخص. ولم تكن جميع المناطق بعد تؤيد الامير تركي. وعلى اي حال فان ابن بشر ذكر ان ثرمداء وحريملا والخرج تعاديه وان قسما كبيرا من واحات الوشم وسدير فضل الانتظار [٢٧].

وفي تلك الاثناء بدأت في القصيم انتفاضة شاملة ضد المصريين سببها الاتاوات والابتزاز من جانب حسن بك. واضطر المصريون على الجلاء الى الحجاز وتركوا حاميتين في الرياض ومنفوحة فقط[٢٨].

وانتهز تركي فرصة ضعف المواقع المصرية في نجد في عامي ١٨٢٣ـ١٨٢٤ فوسع نفوذه في المنطقة المحيطة بالرياض ومنفوحة وعزل الحاميتين المصريتين واخضع سدير والمجمعة والوشم. وفي اواخر تموز (يوليو) ١٨٢٣ شدد تركي الضغط على الرياض وثرمداء والخرج. واجليت الحامية المصرية من منفوحة. وبعد عدة اشهر من الحصار سقطت الرياض على يد تركي وتم جلاء المصريين من الحجاز وأعلنت بعض مناطق القصيم عن اعترافها بحكم تركي. وتم تطهير اواسط نجد كلها من المحتلين[٢٩].

استمر حكم تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود من عام ١٨٢٣، عندما بدأ يحتل نجد، حتى مقتله في عام ١٨٣٤. ويرى الكثيرون من المؤرخين ان تركي هو مؤسس الدولة السعودية الثانية لانه كان يحكم بصورة مستقلة رغم اعترافه بسلطة الامبراطورية العثمانية شكليا والمصريين فعليا. ولكنه لا يمكن الكلام عن الاستقلال الحقيقي للامارة الجديدة الا بعد جلاء المصريين نهائيا من الجزيرة العربية عام ١٨٤٠. كان الائمة السابقون يتحدورن من عبد العزيز بن محمد بن سعود، في حين

ان تركي وجميع الحكام اللاحقين، بمن فيهم الملك الحالي فهد وهو من سلالة تركي كانوا يتحدرون من عبد الله بن محمد بن سعود.

وفي اواخر عام ١٨٢٤، استقر تركي في الرياض التي ظلت عاصمة لنجد ثم للعربية السعودية باسرها حتى اليوم. وبدأ انشاء المسجد والقصر والتحصينات وفي نيسان (ابريل) - ايار (مايو) ١٨٢٥، توجه امير الرياض الى منطقة الخرج واخضعها بعد معارك [٣٠].

وسيطر تركي على العارض والخرج والحوطة والمحمل وسدير والافلاج والوشم. وفي منطقة القصيم خضعت له بعض الواحات فقط. وظلت منطقة جبل شمر في الواقع ليست في متناول يد الامير. وربما كان تركي يدفع الحد الادنى من الضريبة للسلطات العثمانية، او على الاصح للمصريين مباشرة في الحجاز أو في القاهرة [٣١]، مع ان ابن بشر لا يشير الى ذلك.

وكان بعض الفارين قد عادوا الى نجد التي سادتها فترة من الاستقرار المؤقت. وكان من ابرز العائدين مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود الذي فر من مصر. وفي عام ١٨٢٥، عين حاكما للمنفوحة. وفيما بعد، قتل مشاري هذا الامير تركي غدرا. ووصل من المنفى احد احفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو عبد الرحمن بن حسن الفقيه الكبير ومعلم جيل كامل من افراد آل الشيخ الاصغر منه سنا [٣٢]. وقد بعث الى انحاء نجد على الفور رسائل طالب فيها الجميع، وخصوصا الفقهاء والامراء، بالعودة الى «الاسلام الحقيقي» ورفض ممارسات المشركين من ادعياء الاسلام والخضوع لامام المسلمين. واتخذ الشيخ عبد الرحمن سيرة جده الشهير مثالا وقدوة لخدمة الدين الحقيقية [٣٣]. ويقول الرحالة السويدي فالين ان عبد الرحمن كان قاضيا في الرياض عام ١٨٤٥[٣٤]، اما بلغريف الذي زار الرياض عام ١٨٦٢ فيتحدث عنه بوصفه «الزعيم الروحي للبلاط»[٣٥]. وتعززت سلطة السعوديين الدنيوية من جديد بفضل تأثير الوهابية مع انها لم تعد تتميز بالتعصب الذي كانت عليه في السابق.

بديهي ان تركي قد حاول تسديد الضربة الى البدو، بعد ان احتل عدة مناطق

ذات سكان حضر بكثافة كبيرة نسبيا. وفي الفترة ١٨٢٦-١٨٢٨، قام بغزوات على قبائل بني خالد وهتيم والدواسر وغيرها. وسرعان ما أرسل العديد من شيوخ قبائل سبيع والسهول والعجمان وقحطان وكذلك مطير (الامر الذي أفرح الامير تركي بخاصة) ارسلوا وفودا اعربت عن خضوع تلك القبائل له. وبالمناسبة فان ذلك لم يمنعها من الحنث بالوعد والقيام بغزوات جديدة[٣٦].

وكان من الاحداث الهامة في ١٨٢٧-١٨٢٨ فرار فيصل، ابن تركي، من الاسر المصري [٣٧]. فقد كان مقدرا له ان يحكم امارة الرياض مرتين.

ان عدم وجود منافسين كبار وعدم تدخل المصريين او الاتراك مؤقتا في شؤون نجد قد مكن الرياض من اخضاع القصيم وان بصورة غير كاملة[٣٨]. ثم جاء دور جبل شمر[٣٩].

وفي عام ١٨٢٧، قتل يحيى، شريف مكة، فعين محمد علي بدلا منه محمد بن عبد المعين بن عون الذي ظل في هذا المنصب حتى عام ١٨٥١.

واتضح ان عسير كان عسيرا على محمد علي. فقد دحر اهل هذه المنطقة مرارا في معارك مكشوفة ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها.

شرق وجنوب شرق الجزيرة في عهد تركي. لم تكن في شرقي نجد قوات تستطيع ان تهدد امارة الرياض كالقوات المصرية في الحجاز. وبديهي ان تركي الذي عزز مواقعه في نجد قد بدأ غزوات على الشرق، على ا لأحساء. في تلك الاثناء كان محمد وماجد من آل عريعر قد حكما هذه المنطقة منذ عشر سنوات تقريبا. وربما كانا قد عينا رسميا من قبل محمد علي او ربما كانا يدفعان له الاتاوة [٤٠].

وفي عام ١٨٣٠ اجتاح نجد تجمع بدوي كبير من بني خالد وسبيع وعنزة ومطير وبني حسين. وبالاضافة الى حضر نجد الموالين لتركي التزم جانبه قسم من البدو من قبائل اخرى. ونشبت معركة استمرت عدة ايام بين اهل نجد وخصومهم، وانتهت بمقتل ماجد آل عريعر وتدمير بدوه. وتقررت في هذه المعركة مسألة من سيسيطر على شرق الجزيرة، هل هم آل سعود ام آل عريعر[٤١].

وسيطر تركي على الاحساء.

وخلافا للامراء السابقين واللاحقين طبق تركي وفيصل في الاحساء سياسة متسامحة[٤٢]، الامر الذي ساعدهما في التمركز هنا. وتجدر الاشارة الى ان امراء الرياض رغم استخدامهم راية الوهابية السابقة، قد ابتعدوا عن التقوقع الطائفي والتعصب اللذين كانا ملازمين لسابقيهم. ومن الصعب اعتبار انصارهم من افراد الطائفة الوهابية. ولذا فسوف نستخدم مصطلح «الوهابيين» بصورة محدودة.

وفي اواخر عام ١٨٣٠ فرض تركي سلطة السعوديين على حاكم البحرين عبد الله بن احمد آل خليفة (١٨١٦-١٨٤٣) الذي كان يسيطر كذلك على قسم كبير من قطر. وفي تلك الفترة توافقت مؤقتا مصالح امير الرياض وسلطان مسقط الموجهة ضد البحرين. وبعد ذلك اختلفا فيما بينهما. وبعد مرور اقل من ثلاث سنوات قطع حكام البحرين علاقات التبعية للرياض حتى الواهية منها. وفي عام ١٨٣٤، انتقل عبد الله آل خليفة الى الهجوم وحاصر المرفأين السعوديين القطيف والعقير [٤٣].

وقبل فرض السيطرة السعودية على شرقي الجزيرة اخذ الانصار القدامى للنجديين ينشطون في جنوب شرقي الجزيرة. ففي عام ١٨٢١، استولى سعد بن مطلق، وهو ابن حاكم البريمي السعودي السابق، على مجموعة واحات البريمي الهامة استراتيجيا واخضع قسما من عمان[٤٤]. وعندما ثبت تركي في عام ١٨٢٤ منصبه كحاكم للرياض اجرى معه مباحثات سلطان بن صقر، حاكم الشارجة، وراشد حميد من العجمان وكان قسم كبير من سكان الشارجة وعجمان يتعاطفون مع الوهابيين كالسابق[٤٥]. وفي الوقت نفسه اجرى حكام امارات الساحل مفاوضات مع الانجليز مؤملين بمساعدة منهم ضد خطر الوهابيين. الا ان الانجليز آنذاك كانوا متمسكين بسياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة العربية[٤٦].

وفي عام ١٨٢٨، مهد انصار الوهابيين على ساحل الخليج العربي وخليج عمان التربة لتدخل جديد من قبل القوات الموالية للرياض. وعين تركي اميرا للبريمي عمر بن محمد بن عفيصان الذي بدأت غزواته للمناطق الداخلية من عمان ومنطقة

الباطنة الساحلية[٤٧]. وفي عام ١٨٣٢، اعتدت قوات النجديين الكبيرة على عمان عبر البريمي. ووافق سلطان مسقط سعيد على دفع ٥ آلاف ريال لامير الرياض. ثم اتفقا على مساعدة بعضهما بعضاً في اخماد الانتفاضات في اراضيهما واقتسما ساحل الجزيرة الجنوبي الشرقي[٤٨].

ويقول الدبلوماسي والمؤرخ الانجليزي ولسون «ان ساحل الخليج العربي كله اعترف بسلطة الوهابيين منذ عام ١٨٣٣ وصار يدفع لهم الجزية»[٤٩].

الوضع في امارة الرياض في عهد تركي. في مطلع الثلاثينات كانت مكانة تركي في الرياض راسخة تماما. فان نجد المخربة التي ارهقها نير الاحتلال كانت خاضعة لسلطة تركي. الا ان خلافا نشب في عائلة السعوديين. ففي عام ١٨٣١، تمرد مشاري بن عبد الرحمن حاكم منفوحة مع بعض افخاذ قحطان على الامير. ولكنه فر بسبب عدم حصوله على تأييد واسع. وفي عام ١٨٣٢، عاد الى نجد بعد ان عفا عنه الامير[٥٠].

كانت محدودية موارد الدولة الجديدة وعدم امكان الحصول على غنائم وفيرة في الغزوات قد دفعا الوجهاء والاعيان الى تشديد استغلال الرعية، وكان امير الرياض يجد صعوبة كبيرة في فرض مبادىء معاملة السكان «بالعدل». واورد ابن بشر حادثة ذات دلالة. ففي عام ١٨٣٢، عاد تركي من الهفوف الى الرياض وعقد المجلس الكبير للامراء واخذ يلومهم بصرامة لأنهم يعاملون الناس بتعسف ويأخذون منهم ما ليس لهم حق به بموجب القانون. وقال في ما قال: «وانكم اذا ورد امري بالمغزا حملتموهم زيادة لكم واياكم وذلك فانه ما منعني ان اجعل على اهل البلدان زيادة ركاب في غزوهم الا الرفق بهم واني ما حملتهم الا بعض ما حملهم الذين من قبلي... وانه اذا ورد عليكم امري فرحتم بذلك لتأكلوا في ضمنه وصرتم كراصد النخل يفرح بشدة الريح ليكثر الساقطة عليه واعلموا اني لا أبيحكم ان تأخذوا من الرعايا شيئا ومن حدث منه منكم ظلم على رعيته فليس أدبه عزله بل اجليه عن وطنه. (ثم قال للرعايا) ايما امير ظلمكم فاخبروني...»[٥١]

واوصى الامير تركي الرعية بان يعرضوا تدينهم في الايمان بالتوحيد واداء

الصلاة ودفع الزكاة. وشجب امير الرياض الربا وحذر من محاولات الالتفاف على منع ممارسته واوصى جميع الحكام بأن يوحدوا الموازين والمكاييل في اقاليمهم وطالب بأن لا يحنث احد باي صفقة او اتفاقية حتى اذا كانت معقودة مع اهل الذمة من يهود او مسيحيين أو زرادشتيين والزم الامراء بان يمنعوا التدخين ويشجعوا التعليم الديني ويبنوا المساجد (٥٢).

ورغم القحط المتوالي فان الاوضاع الاقتصادية في اواسط الجزيرة أبان حكم تركي قد استقرت بقدر ما بعد النهب والنزاعات والاقتتال. ولكن بعض الناس في سدير والقصيم ماتوا من المجاعة الناجمة عن الجفاف في ١٨٢٦ ـ ١٨٢٧ أيضا. وفي مطلع الثلاثينات، وبفضل المحصول المتوسط والاستقرار النسبي انخفضت الاسعار وتوقفت المجاعة(٥٣). الا ان وباء الكوليرا تفشى في نجد في عهد تركي. ظهر هذا الوباء في ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ ثم في ١٨٣٠ ـ ١٨٣٢. وفي نيسان (ابريل) ايار (مايو) ١٨٣١ انتشرت الكوليرا بين الحجاج في مكة، فتوفي حوالى ٢٠ الفا منهم. وهلك ثلث حجاج قافلة الشام، كما هلك نصف حجاج قافلة نجد. وفي العام التالي اجتاح الوباء نجد كلها. ووصف ابن بشر لوحة مرعبة حيث توفي عدد هائل من الناس ولم يبق من يتمكن من دفنهم. ولا احد يحرس الاموال المتروكة. وكانت الماشية تنفق لان احدا لا يقدم لها العلف والماء. وتوفي كثير من الاطفال في المساجد لأن آباءهم عندما اصيبوا بالمرض تركوهم في المساجد على أمل أن يساعدهم أحد هناك. ولكن لم يبق احد ليساعد اولئك الاطفال. فقد خلت الواحات من اهلها(٥٤).

مقتل تركي والفترة الاولى من حكم فيصل. لم تكن القبائل البدوية في اواسط الجزيرة تهتم كثيرا بمنزلة امير الرياض، فكانت تتصرف بصورة مستقلة.

وفي عام ١٨٣٣، بدأ حاكم البحرين عمليات حربية ضد امير الرياض، وفي بداية عام ١٨٣٤، تعرضت مرافىء الاحساء الى ضربات البحرانيين الذين اعتمدوا على اسطولهم وعلى قلعة الدمام على ساحل الجزيرة العربية (٥٥). وحاصر فيصل بن تركي بلدة سيهات التي تمركز فيها انصار البحرانيين. وفي تلك اللحظة وصل نبأ مقتل ابيه في الرياض على ايدي مرتزقة مشاري بن عبد الرحمن الذي استولى

على السلطة في العاصمة. رفع فيصل الحصار فورا واسرع الى نجد.

يعتقد البعض ان مشاري فعل فعلته بتكليف من المصريين. ويعتقد البعض الآخر، ومنهم لوريمير ان لحاكم البحرين ضلعا في قتل تركي (٥٦). ولكن مطامح مشاري الشخصية هي التي لعبت، على ما يبدو، الدور الرئيسي. في التاسع من ايار (مايو) ١٨٣٤، خرج تركي من باب جانبي بعد صلاة الجمعة فاحاط به ثلاثة اشخاص، شهر احدهم المسدس واطلق النار على الامام. وحاول عبد الامام زويد ان يدافع عنه، فتمكن من اصابة احد القتلة بجرح قبل ان يقبضوا عليه. وبعد ذلك فر الى فيصل. وظهر مشاري في الحال شاهرا سيفه وطالب السكان بان يبايعوه(٥٧).

كان تركي حكيما. ولم يكن يستخدم القوة بلا رحمة الا في حالة الضرورة. ومن الادلة على عدم تمسكه بالثار موقفه من مشاري، قاتله فيما بعد. وبالمناسبة فان العفو عن الخصوم لم يكن ظاهرة استثنائية في الجزيرة العربية، بل كان دليلا على ضرورة المساومات مع الاقرباء والشخصيات القوية. وكان تركي يتسم بالسخاء، شأنه شأن الحكام السعوديين الذين سبقوه، وحاول ان يحد من جشع وجهائه واعيانه. وتجدر الاشارة الى انه درس في وقت ما التطبيب عند العوام واشتهر بانه حكيم(٥٨).وكان بتصرفاته الذكية قد عجل في انسحاب المصريين من نجد. وكانت اواسط الجزيرة موحدة في عهده طوال احد عشر عاما.

واسفر مقتل تركي عن نزاعات قبلية واضطرابات في نجد استمرت تسعة اعوام. وخلال هذه الفترة اعتلى عرش الرياض اربعة من آل سعود.

ولم يبق مشاري بن عبد الرحمن في السلطة غير شهر ونيف. فقد وصل فيصل وانصاره العاصمة وباغتوا مشاري وقبضوا عليه. ففي ليلة ٢٨ ايار (مايو) ١٨٣٤، ارسل فيصل الى الرياض محاربين من ابناء المدينة مؤملا بانهم سيواجهون بمقاومة اقل من اهلها. واصطدموا بجماعة من الحرس فعرفوهم ولكنهم تمكنوا من ان يتخذوا مواقع حول القلعة. وعندما سمع مشاري اطلاق النار نصب المتاريس في القلعة. وفي صباح اليوم التالي، احتل فيصل المدينة وبدأ حصار القلعة. ثم اقتحم محاربوه القلعة، وتم القبض على مشاري واعدم(٥٩).

استلم فيصل زمام الحكم وهو في حوالى الاربعين من العمر في اوج نضوج قابلياته الجسمانية والروحية. واسرع لتقبل البيعة من اهالي العاصمة واستدعى القضاة من مختلف المناطق الى الرياض حيث حلوا ضيوفا عليه طوال شهر تقريبا ثم عادوا الى ديارهم بعد أن اغدق عليهم فيصل الهدايا. وبعد ذلك وجه الامام الى الواحات والبوادي رسالة دعا فيها الجميع للولاء له. واخذ امراء الواحات وشيوخ البدو يتقاطرون على الرياض ليعربوا عن ولائهم للحاكم الجديد. وبعد ذلك فقط ارسل فيصل عملاءه الى البوادي لجمع الزكاة.

الا ان مقتل تركي قد زعزع السلطة في امارة الرياض. فقد رفض اهالي وادي الدواسر والافلاج وقبيلة قحطان دفع الزكاة واضطر فيصل ان يرسل اليهم فصائل لاخماد القلاقل[٦٠].

وسرعان ما اضطرب شرقي الجزيرة، حيث نشبت معارك بين عساكر امير الرياض التي قادها المملوك زويد وبين البحرانيين الذين حاصروا القطيف والعقير من جديد، ولكنهم واجهوا خطرا آخر يتمثل في مطامع ايران. ووافق حاكم البحرين على دفع جزية رمزية مقدارها الفا ريال، والتزم فيصل بحماية البحرين من العدوان الخارجي. ورفع الحصار عن القطيف والعقير[٦١].

كان نفوذ امير الرياض في عمان كبيرا في اواسط الثلاثينات. وفي شتاء ١٨٣٥ - ١٨٣٦، تأكد كولونيل الاسطول الانكلوهندي ج. ويلستاد ورفيقه وايتلوك، وهما يتجولان في هذا البلد تحت حماية سلطان مسقط سعيد، من ان الوهابيين في عمان كانوا احيانا اقوى من السلطان[٦٢]. الا ان عداء الاباضية ومعارضة الانجليز جعلا مواقع النجديين هنا غير مأمونة اطلاقا.

الا ان فيصل كان قلقا اشد القلق للانباء الواردة من الحجاز، حيث تأكد له ان المصريين يستعدون لهجوم جديد على نجد.

فبعد الهزائم الجديدة في عسير ١٨٣٣ - ١٨٣٤، حاول محمد علي مرة اخرى في عام ١٨٣٥ ان يستولي على هذا الاقليم الذي كان يعتبره مفتاح الجزيرة. الا ان قواته منيت بالهزيمة من جديد.

وقبل أن ننتقل الى الاحداث المرتبطة بالهجوم المصري الاخير على نجد من المناسب ان نتحدث عن امارة جديدة لا يعرف عنها الكثير بعد، وقد شاركت في قصة الجزيرة العربية الفاجعة. ونعني امارة جبل شمر التي قدر لها ان تلعب دورا هاما في اواسط الجزيرة.

بعد سقوط امارة الدرعية بدأت النزاعات في جبل شمر. فقد هب ضد الأمير محمد آل علي الحاكم هنا فخذ من قبيلته هو آل رشيد، ولكنه مني بالهزيمة. فقد طرد زعيم هذه الامارة اسرة علي آل رشيد وابناءه عبد الله وعبيد من حائل عاصمة الامارة(٦٣). وبعد عدة سنوات دخل عبد الله في خدمة تركي امير الرياض وتصادق مع ابنه فيصل. وكان من بين العقداء الذين بايعوا فيصل بعد مقتل ابيه مباشرة.

كان فيصل ينتظر الفرصة ليشكر صديقه المخلص، فاستفاد من الشكاوى على حاكم حائل صالح بن عبد المحسن آل علي ونحاه من منصبه. وبعد ازاحة المنافسين امسك الاخوان عبد الله وعبيد بزمام السلطة في جبل شمر وسرعان ما اخذا ينشآن قلعة في العاصمة في محلة البرزان التي غدت فيما بعد رمزا لامجاد وجبروت آل رشيد.

واعرب الاخوان عبد الله وعبيد آل رشيد عن ولائهما للامير فيصل ان يشارك الذي اكد تعيينهما لحكم جبل شمر وارسل الى حائل فقيها وهابيا، ولكن الاخوين آل رشيد اخذا في الوقت نفسه يهيئان الجمال ويرسلانها الى المصريين في المدينة المنورة (٦٤).

هزيمة فيصل. كان المصريون قد طلبوا من امير الرياض فيصل ان يشارك في حملاتهم على اهالي عسير الذين هم حلفاء له سرا، او ان يقدم الجمال للقوات المصرية. تملص فيصل بلباقة دون ان يلبي هذا الطلب ولكنه ارسل اخاه الى مكة يحمل الهدايا لاحمد باشا(٦٥).

في عام ١٨٣٥ - ١٨٣٦، لم تسقط الامطار الموسمية في اواسط الجزيرة فبدأ القحط والمجاعة، ونزح قسم كبير من سكان نجد الى منطقة البصرة والزبير. واشار

ابن بشر الى ظهور مذنّب في كوكبة الدب الكبير واعتبر ذلك نذيرا بالقحط، وفسر القحط بدوره على انه عقاب على الخطايا التي اقترفت بمقتل الامام تركي [٦٦]. ولكن اذا صدقنا التكهنات فان المذنب والقحط كانا ينذران بمصائب اكبر بكثير. فقد عزم محمد علي على فرض سلطته على نجد ونصب هناك صنيعته خالد وهو ابن الامام سعود الشهير. وكان هذا الامير الشاب الذي قضى سنوات عديدة في بلاط محمد علي هو الاخ الاكبر من اخوان عبد الله الذين ظلوا على قيد الحياة بعد اعدامه في الاستانة.

وفي تموز (يوليو) ١٨٣٦، زحفت من القاهرة قوات بقيادة اسماعيل بك، وهو مدير سابق لشرطة القاهرة. وتتكون هذه القوات من اتراك والبان ومغاربة وبدو مصريين، وهي معززة بالمدفعية.

وبعد ان نزل اسماعيل في ينبع واصل زحفه الى المدينة ومن هناك الى الحناكية. اما فيصل الذي يعرف ان التدخل سيجري عبر القصيم فقد شغل المنطقة ونصب معسكرا في الرس التي هي بوابة القصيم من جهة الحجاز. الا ان جنود فيصل كانت تعوزهم ارادة القتال وكانوا منسحقين بائسين، اذ ما يزالون يتذكرون جيدا مصير اخوانهم الاكبر وابائهم. وعندما بدأ فيصل في نيسان (ابريل) ١٨٣٧ سحب الاليات الثقيلة الى عنيزة اصاب الذعر عساكره فاخذوا يتفرقون[٦٧].

وعاد فيصل مع جماعة من اتباعه المخلصين الى الرياض واتضح له ان روح الهزيمة استولت على اهالي العاصمة الذين لا يريدون باي حالة دعمه والتضحية بالنفس والاموال من اجله[٦٨].وعندما ادرك فيصل ان الوضع في العاصمة غير مأمون توجه نحو الجنوب، الى الخرج، ثم ذهب الى الهفوف حيث وضع حاكمها الموالي له، عمر بن عفيصان، قواته تحت تصرفه. وظل فيصل في الهفوف حتى تموز (يوليو) ١٨٣٧.

اعترفت القصيم بسلطة خالد بن سعود بدون مقاومة تقريبا. وبعد ذلك ارسل المصريون فصيلا نظاميا ومتطوعة من القصيم للاستيلاء على جبل شمر. واقنعهم عيسى آل علي، وهو احد المرتدين من افراد الاسرة التي اسقطت في حائل، بان

يعينوه اميرا. ويبدو ان المصريين لم يكونوا يثقون بالاخوين من آل رشيد. وتم احتلال المدينة سلميا تقريبا. وفر عبد الله واخوه عبيد. وعاد قسم كبير من المصريين الى القصيم بعد ان اكتفوا بغرامات حربية نقدية. الا ان عيسى لم يتمكن من البقاء في حائل الا بضعة اشهر. فان ابتزاز وقساوة حماته المصريين جعلا الاهالي يهبون في وجه المحتلين وصنائعهم، ويحرضهم في ذلك الاخوان عبد الله وعبيد اللذان اختبآ في البادية. واصبح الوضع عسيرا لا يطاق بالنسبة للمصريين، فأجلوا عن جبل شمر. وارتحل معهم عيسى بن علي. وعاد عبد الله بن رشيد حاكما لجبل شمر[٦٩].

وفي ايار (مايو) ١٨٣٧، دخل اسماعيل بك وخالد الرياض. وانتهت رسميا الفترة الاولى من حكم فيصل (١٨٣٤-١٨٣٧).

وتعزى سرعة هزيمة امير الرياض وسهولة احتلال المصريين لنجد الى فظاعة شبح ابراهيم باشا وذكر احتلاله للبلد والمصائب التي لحقت به. فالنجديون يتذكرون تفوق المصريين في العساكر، وخصوصا في المدفعية. وكانت اواسط الجزيرة كلها قد اضعفها القحط والمجاعة والاوبئة. ومما لا شك فيه ان ظهور خالد بن سعود قد ولد انقساما بين الموالين لآل سعود. وعلى اي حال فان اهالي نجد لم يبدأوا بالتمرد على المحتلين الا بعد ان ادركوا بان الخضوع لن يحميهم من التعسف والنهب.

وبعد الاستيلاء على الرياض ارسل خالد رسالة الى امير الحريق تركي الهزاني يطالبه فيها بالخضوع، ولكنه استلم ردا يكشف عن طبيعة الامزجة في الواحات الجنوبية: «ان كان الامر لك ولا يأتينا في ناحيتنا عسكر من الترك فنحن رعية لكم وان كان الامر للترك فنحن لهم محاربون»[٧٠].

وفي تموز (يوليو) ١٨٣٧، توجه اسماعيل بك وحلفاؤه بقوات قدرها ٧ آلاف شخص تقريبا الى الجنوب ولكن لحقت بهم هزيمة ماحقة في معركة الحلوة. وكانت الهزيمة شديدة لدرجة جعلت البدو، حلفاء المصريين، ينتزعون منهم الخيول ليهربوا عليها من ساحة المعركة باسرع ما يمكن. وترك المصريون مدفعيتهم كلها. وفر خالد

واسماعيل بك وبعض الضباط المصريين مع فصيل صغير. وهكذا، ففي تموز ١٨٣٧ تم دحر قسم كبير من قوات الاحتلال المصرية في نجد[٧١]. وحاول فيصل استعادة العاصمة، فحاصرها، ولكنه لم يتمكن من احتلالها بعد شهرين من الحصار.

وكانت قوات المتخاصمين متعادلة مؤقتا، مع ان امدادات مصرية وصلت الى القصيم في بداية عام ١٨٣٨ وقد بعثها خورشيد باشا من المدينة. وتم بين فيصل والمصريين اتفاق نص على تقسيم نجد في الواقع الى قسمين. ظل فيصل مسيطرا على شرقي الجزيرة والبريمي وجزء من جنوب نجد. وكانت اواسط نجد خاضعة رسميا لخالد[٧٢].

ولكن خورشيد باشا وصل شخصيا الى نجد في حزيران (يونيو) ١٨٣٨. وكانت من المهمات الرئيسية لحملته كالسابق جمع الجمال لارسالها الى الحجاز. وفي عنيزة جاء عبد الله الى خورشيد باشا من حائل واقنعه بالاعتراف به اميرا لمنطقة جبل شمر الخاضعة للمصريين[٧٣].

وجاء شيوخ القبائل البدوية الكبرى ليعبروا عن خضوعهم لخورشيد باشا. وطوال عدة اشهر قام خورشيد باشا بتعزيز عنيزة كقاعدة رئيسية له وبنى فيها قلعة متينة.

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٨، توجه المصريون الى الرياض وانضمت اليهم متطوعة بقيادة خالد بن سعود. وكان مجموع ما عند خورشيد من قوات ٤ آلاف مقاتل و ١٠ مدافع. وتحركت تلك القوات نحو الجنوب للقضاء على فيصل المتمركز في الدلم. وبعد حصار استمر اكثر من شهر سقطت الدلم في ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٣٨ . وللمرة الثانية، اضطر فيصل للسفر الى مصر بمثابة اسير. وللمرة الثانية سقطت اواسط الجزيرة مدمرة تحت اقدام المصريين[٧٤].

الفترة الاخيرة من الاحتلال المصري. استمرحكم خورشيد باشا كعامل لمحمد علي في نجد سنة ونصف. وكان المصريون هذه المرة يعتبرون نجد لا دولة معادية

يجب تدميرها وتخريبها، بل جزءا من ممتلكاتهم الدائمية. وكان خورشيد يأمل في بسط سلطته من اواسط الجزيرة الى الاحساء وعمان[٧٥] وربما العراق ايضا[٧٦]. وفر امير الاحساء عمر بن عفيصان الموالي لفيصل واعرب الباقون عن خضوعهم للمصريين الذين ارسلوا حامياتهم الى مدن شرقي الجزيرة.

وحاول خورشيد باشا عبثا ان يرغم حاكم البحرين على دفع الجزية مجددا لصنيعة المصريين امير نجد خالد ووضع جزيرة تاروت وقلعة الدمام تحت السيطرة المصرية وكذلك تسليم عمر بن عفيصان الذي فر الى البحرين[٧٧]. وبدا القلق على الانجليز.

ومنذ عام ١٨٣٨، كان القنصل البريطاني العام في القاهرة الكولونيل كامبيل قد حذر محمد علي من محاولات التمركز في منطقة الخليج، ومنها البحرين. واصدرت السلطات البريطانية في الهند امرا الى الاميرال ف. مايتلاند قائد العمارة البحرية في الخليج بان يدافع عن البحرين عند الاقتضاء[٧٨].

وعندما سمع حاكم البحرين عبد الله آل خليفة انباء انتصارا محمد علي في الشام والجزيرة العربية فضل دفع جزية رمزية الى خورشيد بمبلغ الفي ريال سنويا مع انه رفض ان يكون له ممثل في جزر البحرين.

وفي عامي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ظهر وجود مصري في الكويت ايضا. فقد وصل مخبر من خورشيد باشا الى المشيخة لشراء اغذية. وكتب لوريمير ان هذا المخبر كان على ما يبدو يؤدي وظائف سياسية وتجسسية فيما يخص نية خورشيد باشا لانتزاع العراق من الاتراك. وكان حاكم الكويت جابر الصباح يخشى المصريين لدرجة كبيرة، حتى انه قدم للمندوب المصري مكان الشرف في مجلسه الى جنبه. وكان رد فعل الانجليز شديدا جدا بهذا الخصوص.

وفي الوقت نفسه اخذ خورشيد باشا يزحف نحو عمان. ونصب هناك صنيعته سعد بن مطلق الذي كان يخدمه مثلما يخدم الامير السعودي فيصل. وايدته ابو ظبي والشارجة، ولكن دبي وام القيوين امتنعتا عن تأييد المصريين. وكان المقيم

البريطاني الكابتن هانيل قد زار امارات الساحل ووقع اتفاقيات مع اربعة من حكامها الذين وعدوا بتأييد الانجليز. وكتب هانيل رسالة الى سعد بن مطلق ينصحه فيها بالعودة الى نجد، واخذ يحرض قبائل عمان ضده.

كانت قوات محمد علي تحقق الانتصارات في المعارك في عسير ولكنها لم تتمكن من السيطرة على البلد. وفي ايلول (سبتمبر) ١٨٣٧، قام اهل عسير بانتفاضة جديدة. وتم اخماد الانتفاضة في ايار (مايو) ١٨٣٨، ولكن احمد باشا المقيم في مكة وابراهيم باشا كوجوك الموجود في الحديدة كانا في عام ١٨٤٠ ما يزالان يشنان حملة غير موفقة [٧٩].

ويعزى استيلاء بريطانيا على عدن في عام ١٨٣٩، الى الرغبة في الحيلولة دون تقدم المصريين في عسير واليمن وانشاء قاعدة بحرية بريطانية ومحطة للفحم في القسم الشمالي من المحيط الهندي.

في عام ١٨٤٠، انهارت امبراطورية محمد علي. فاصدر امره الى قواته بالجلاء عن نجد واليمن في آذار (مارس) ١٨٤٠. وفي حزيران (يونيو) سار على قدم وساق انسحاب قوات خورشيد من نجد والمنطقة الشرقية وانسحاب قوات ابراهيم كوجوك من اليمن. كان محمد علي بحاجة الى تحشيد قواته قريبا من مصر تحوطا لما اذا كانت ستنشب حرب كبرى بين مصر وفرنسا من جهة، وبين تركيا والانجليز وحلفائهم من جهة اخرى.

وغادر المصريون اواسط الجزيرة العربية الى الابد. لكن احداً لم يكن يعرف ذلك آنذاك. فقد تركت في نجد حاميات رمزية من جنود مصريين. كان عليهم ان يرفعوا العلم ويدعموا خالد[٨٠].

الفصل السابع

الدولة السعودية الثانية (١٨٤٣-١٨٦٥)

في العقد الخامس من القرن التاسع عشر ازيحت مصر في الواقع من المسرح السياسي في الجزيرة العربية. ولم تكن لدى الباب العالي بعد امكانية ورغبة في التدخل النشيط في شؤون نجد، وكان الانجليز مشغولين بتعزيز مواقعهم على ساحل الخليج العربي وخليج عمان وفي عمان نفسها. ومن جديد تركت اواسط الجزيرة وشأنها وتهيأت فيها الظروف لبعث الدولة السعودية في اراضٍ محدودة.

من جلاء المصريين حتى عودة فيصل: لم يتمكن الامير خالد من البقاء في دست الحكم بعد جلاء قوات خورشيد من اواسط الجزيرة الا عاما واحدا. وعندما استسلم محمد علي في عام ١٨٤٠، ابدى الباب العالي ادعاءه في نجد متحججا بان الذي احتلها كان واليا للسلطان العثماني، ولذا يجب اعتبار خالد تابعا للعثمانيين. وعلى اي حال، هذا ما قاله المؤرخ التركي المعروف جودت[1]. الا ان مواقع خالد كانت تضعف وتتدهور. فقد كان مكروها من قبل الجميع بوصفه صنيعة للمصريين. وخلال فترة نفيه الى مصر تكونت لديه فكرة ما عن التعليم الاوروبي، الامر الذي اضر به في نجد، ولم يخدمه على ما يبدو. وكان قد انهمك في الملذات مما الحق ضررا كبيرا بسمعته. اما الجنود المصريون المتبقون فقد انخرطوا في الابتزاز ولم يكونوا يستلمون رواتبهم[2]. وبدأت النزاعات القبلية الاقطاعية من جديد.

وعندما توجه خالد الى خورشيد باشا في آب (اغسطس) ١٨٤١ لتوديعه رفع راية الانتفاضة احد اقربائه البعيدين وهو عبد الله بن ثنيان، ابن حفيد مؤسس

الاسرة السعودية والممثل الوحيد لفرع آل ثنيان الذي حكم نجد في فترة ما. وكان ابن ثنيان قد فر في السابق الى قبيلة المنتفق في جنوب العراق ثم ظهر في نجد وحظي بتأييد حاكم الحريق تركي الهزاني الحليف السابق للامام فيصل وآل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذلك قبائل سبيع وعجمان وآل مرة. وفي الخريف سحب خالد قواته الى المنطقة الشرقية اما طلبا للنجاة واما املا في استجماع القوى. ولكنه لم يعد بعد ذلك الى الرياض مطلقا.

وبعد خروج خالد فرض ابن ثنيان سيطرته على نجد. وكانت لديه في البداية بضع مئات فقط من الاتباع، ولكن عددهم ازداد كثيرا فيما بعد. وفي اواخر عام ١٨٤١ استولى ابن ثنيان على الرياض. وبعد ان وافقت الحامية المصرية في القلعة على الجلاء تحررت نجد بالكامل من القوات الاجنبية. ويبدو ان الحاميات المصرية الاخرى قد تفرقت. فنحن لا نعرف عنها شيئا بعد الآن[٣].

حاول ابن ثنيان تعزيز مركزه كامير للرياض، ولكن سلطته لم تشمل في الواقع القصيم وجبل شمر والمنطقة الشرقية. وقد وجه حملته الاولى الى الاحساء عندما كان خالد ما يزال موجودا فيها مع فصيل من المرتزقة المصريين. ومني خالد بهزيمة ففر الى البحرين ثم الى الكويت، ومن هناك الى الحجاز حيث اقام واخذ يستلم راتبا من محمد علي[٤].

وارسل امير نجد الى الهفوف عمر بن عفيصان الذي تمكن بالتدريج من فرض سيطرة النجديين على هذه المنطقة واستطاع ان ينتزع العقير من البحرانيين.

كانت اساليب ابن ثنيان قاسية، وربما كانت موروثة عن الاحتلال المصري. فقد كان كثيرا ما يفتك بخصومه، مثل آل سديري الذين عارضوه، وذلك خلافا لتقاليد الجزيرة العربية التي تنص على العفو عند المقدرة. وكان الاهالي يكرهونه لأنه حاول على ما يبدو ان يجمع المزيد من الاموال بشكل زكاة من البلد المدقع. وكان المؤرخ الشمري ضاري بن الرشيد يعتبره رجلا شجاعا ولكنه اراق دماء كثيرة وقتل كثيرا من المؤمنين. كان الناس يكرهونه ويحبون فيصل[٥].

هرب فيصل بن تركي من مصر في عام ١٨٤٣ بعد ان كان اسيرا فيها منذ عام ١٨٣٨. ويعتقد بعض المؤرخين ان عباس باشا حفيد محمد علي ساعده على الفرار. والاغلب ان محمد علي وورثته ادركوا ان وجود امارة مستقلة في اواسط الجزيرة العربية يجعلها خصما للامبراطورية العثمانية[٦].

ووصل فيصل الى جبل شمر حيث استقبله عبد الله آل رشيد واخوه عبيد بالترحاب بوصفه صديقا قديما. كانت سلطة عبد الله قد شملت كثيرا من القبائل غير الشمرية. «كان جميع البدو من القصيم حتى حوران، ومن بلاد ابن سعود في شرقي نجد حتى جبال الحجاز، خاضعين وملزمين بالاعتراف بسلطة ابن رشيد حيث يدفعون له الزكاة»[٧]. وعندما اقتضت الحاجة الاختيار بين السيطرة المصرية والتبعية لفيصل اختار عبد الله التبعية، ولا سيما ان فيصل كان صديقه الشخصي، الامر الذي يعتبر عاملا سياسيا ليس بقليل الاهمية في ظروف الجزيرة. وعرض حاكم حائل على الامير فيصل رجالا ودوابا ونقودا، وعبأ ابن ثنيان انصاره ولكن افراد عساكره سرعان ما بدأوا يفرون.

ومما اعاق خطط فيصل العداء بين اهالي جبل شمر والقصيم، وخصوصا بين اهالي جبل شمر ومدينة بريدة. وكان متوقعا ان حاكم بريدة سيضمر العداء لفيصل لأن ابن رشيد صار من انصاره. الا ان مدينة عنيزة ربطت مصيرها بمنافسة ابن ثنيان.

وانتقلت نجد بالتدريج الى جانب فيصل - في البداية انتقلت القصيم، ثم سدير والوشم. وفر ابن ثنيان الى الرياض وحظي فيصل بتأييد قبائل سبيع والسهول والعجمان وكذلك مطير. وفي صيف ١٨٤٣، سقطت الرياض، وتم القبض على ابن ثنيان وتوفي في السجن في تموز (يوليو) من العام نفسه، ويعتقد المؤرخ ضاري بن الرشيد ان حرس السجن اعدموا الامير المخلوع، فقد كان بينهم اشخاص قتل الامير اقاربهم في حينه. وعندما سلم فيصل منافسه الى هذا الحرس كان قد حكم عليه بالموت بهذه الطريقة[٨].

وبعثت الامارة النجدية من جديد بعد تسع سنوات من الفوضى والصراع الداخلي والاحتلال الاجنبي. وصار فيصل سيدا في دياره من جديد لمدة تقرب من عشرين عاما. كانت القوى المركزية تعمل بسرعة كبيرة على توحيد مناطق اواسط الجزيرة وشرقيها كلما ظهرت شخصية قوية وانعدم التدخل الخارجي المباشر.

ومما لا ريب فيه ان فيصل كان حاكما قويا. وكانت لديه خبرة الحياة في مصر الاكثر تطورا وخبرة الحكم في ظروف الجزيرة العربية والقدرة على الجمع بين الشدة واللين والاستعداد للمساومة مع الاصرار. وكانت الصلات المتزايدة مع المصريين والاتراك والانجليز قد حملت امير الرياض على ابداء المزيد من الاعتبار للعالم الخارجي.

بعث امارة السعوديين في الرياض. نشأت الدولة السعودية الجديدة على مساحة من الاراضي اقل من اراضي امارة الدرعية. وكانت الحركة الانفصالة قوية فيها رغم الاستقرار المتزايد. ويقول فيلبي: سرعان ما استأنفت نجد في عهد فيصل «سير الامور الطبيعي المعتاد، ولكن ذلك لم يكن على الاطلاق مرادفا للحياة في سلام ووئام وازدهار، لتلك الامور التي كانت على الدوام ظواهر نادرة أو تتخللها ظواهر اخرى في البادية»(٩).

كانت المهمة الاولى للامير بعد السيطرة على المناطق الوسطى في نجد استعادة المنطقة الشرقية. وفي خريف ١٨٤٣، حاصر مدينة الدمام التي يسيطر عليها البحرانيون. وفي تلك الاثناء نشب في جزر البحرين نزاع داخل الاسرة الحاكمة وفر الحاكم السابق الى القسم القاري واستقر في الدمام. وفي الوقت نفسه سدد فيصل الضربة الى قبائل المناصير وآل مرة وبني هاجر التي ساعدت على تموين القلعة.

وفي آذار (مارس) ١٨٤٤، استسلمت حامية البحرين. واستولت العساكر النجدية على غنائم كبيرة. وبدلا من البحرانيين ترك امير الرياض في القلعة حامية نجدية من مائة شخص. ووافق حاكم البحرين الجديد محمد بن خليفة على استئناف

تسديد الاتاوات السنوية للرياض وتسديد الديون مقابل تصفية منافسه. وهكذا بدأ فيصل مرحلة جديدة من حكمه حيث دمر قوات البحرانيين التي لم تكن كبيرة ولكنها كانت تقض مضجعه، واستانف سيطرته على جزر البحرين[١٠].

واندلعت في المنطقة الشرقية انتفاضات مرتبطة بالصراع بين قبيلتي بني خالد والعجمان. كان بدو العجمان يسلكون الطريق المعتاد لنزوح قبائل الجزيرة ـ من الجنوب الى الشمال أو من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي. وكانوا قد نزحوا من نجران ضعفاء مشتتين. ولم تكن لدى النازحين الجدد مراعٍ خاصه بهم، فصاروا يعتمدون على القبائل الاخرى حيث تحولوا الى زبائن لها غير متكافئين. بيد أن الامير التركي اخذ يدعمهم وهيأ لهم امكانية الاقامة في المنطقة الشرقية، وهي منطقة عائدة تقليدياً لبني خالد، ويبدو أن من اهداف هذه الاقامة ايجاد قوة توازن لمواجهة بني خالد ووجهائهم الذين كانوا يتمردون على الرياض بين الحين والآخر، وكانوا ينافسون امراءها في وقت ما.

وصار العجمان اكثر قوة وجسارة.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٥، هجم عليهم فيصل بعساكر كبيرة، وفي عام ١٨٤٦ دمرهم عن بكرة ابيهم. وحضر صغار شيوخ العجمان وحلفاؤهم من سبيع الى الامام فيصل واعلنوا عن خضوعهم له. وطوال خمسة عشر عاما لم يسمع احد شيئا عن العجمان[١١].

وبعد ان فرض فيصل سيطرته على المنطقة الشرقية انشغل بالجنوب، بالافلاج ووادي الدواسر. ففي عام ١٨٤٥، ارسل قواته الى الافلاج لاخماد القلاقل هناك[١٢]. وعندما كان امير الرياض مشغولا باخماد حركة العجمان واحلال النظام في المناطق الجنوبية من نجد اندلع من جديد العداء القديم بين القصيم وجبل شمر. وسدد عبيد ضربة شديدة الى فصيل من عنيزة ونظم عبيد آل رشيد شعرا بخصوص انتصاره. وفيما بعد، عندما زار الجزيرة شارلز دوتي، وهو من اعظم الرحالة الانجليز، سمع ذلك الشعر تتناقله الالسن[١٣]. كانت قصيدة عبيد افتخارا عاديا بالنصر. فهو يتبجح بكونه قد قتل ٩٠ من الاعداء حتى تعبت يده من حمل

السيف وتخثر دم الاعداء على ردنه. وواجه ابن رشيد صعوبة كبيرة في تهدئة فيصل الذي استشاط غضبا بسبب الحرب بين اتباعه. وبعث حاكم جبل شمر الى امير الرياض رسالة توضيحية منظومة، يقال انها اثرت في فيصل تأثيرا حسنا[١٤].

وطالما كان عبد الله بن رشيد على قيد الحياة ظلت العلاقات ودية بين حائل والرياض. واعتبر عبد الله نفسه تابعا لفيصل، ولكنه احتفظ باستقلالية واسعة. وبالاضافة الى الصداقة التي تربط بين الاميرين فقد ربطت بينهما صلة القربى، اذ تزوج عبد الله الابن الاكبر لفيصل من ابنة عبد الله بن رشيد، بينما تزوج طلال ابن حاكم حائل من ابنة فيصل[١٥]. وكان عبيد، شقيق حاكم حائل، يقضي كل سنة شهرين او ثلاثة في الرياض حيث يحل ضيفا على فيصل. وقد توسعت منطقة جبل شمر الى الشمال. ففي عام ١٨٣٨، مثلا، انضمت اليها منطقة الجوف وهي واحة كبيرة تقع على بعد ٣٥٠ كيلومترا تقريبا شمال غربي حائل.

وفي ايار(مايو) - حزيران (يونيو) ١٨٣٧، توفي عبد الله وحل محله ابنه طلال البالغ الخامسة والعشرين من العمر، وبعث الى الرياض ابلا وخيلا بمثابة هدية تعبر عن استمرار تبعيته للحكومة المركزية[١٦].

مشكلة القصيم: الصراع مع العجمان. لم يتمكن فيصل من فرض سيطرته بصورة تامة على القصيم. وكانت هذه المنطقة، كما تفيد حسابات يوبير الخاصة بالسبعينات، تضم حوالى ٢٠ مدينة وقرية. وكان في بريدة التي تعيش بالاساس على تجارة الابل والنقل بالقوافل حوالى ١٠ آلاف نسمة[١٧]. وقبل ستينات القرن التاسع عشر حكمها اكبر اقطاعيي المنطقة - آل عليان. وكان عدد سكان عنيزة، حسب معطيات يوبير، ١٨ - ٢٠ الفا. وكان يعيش حوالى الف شخص آخرين في القرى المحيطة بها [١٨]. وكان امراء الاسرة الاقطاعية التي حكمت عنيزة، آل زامل، شأنهم شأن سائر الامراء، ينتمون الى وجهاء البدو الذين استقروا وتحولوا الى حضر، ولكن سلطتهم على العكس، كانت مقيّدة كثيراً. ونعت الرحالة عنيزة بانها «جمهورية مدنية»، ونعتوا اميرها بانه «أول المتكافئين»، وقالوا عنه ايضاً انه بمثابة «رئيس جمهورية منتخب»[١٩].

وكان القول الفصل في شؤون عنيزة يعود للاثرياء من اهاليها الذين يقدمون الى المتطوعة جملا او جملين مع اثنين او اربعة من الهجانة ويدفعون بدلا دائميا للصرف على الحراس والعبيد وتسديد اجور الرعاة وتكاليف الضيافة العامة. وكانوا يشاركون مع الاعيان والوجهاء الاقطاعيين في تصريف شؤون عنيزة عن طريق مجلس الامارة (٢٠). ويصادف ان تتوتر العلاقات بين الوجهاء الاقطاعيين والتجار وبين فقراء المدينة، الامر الذي تدل عليه بصورة غير مباشرة ملاحظة دوتي: «... الكثير من الفقراء يعارضون زامل بغضب مكشوف يلومونه وهو صبور حكيم»(٢١).

وفي عام ١٨٤٦ - ١٨٤٧، عندما غزا شريف مكة نجد ابدى اهالي القصيم استعدادهم للتعاون معه (٢٢). وبعد انسحاب الحجازيين غيّر امير الرياض حكام المدن الرئيسية. الا ان شتاء وربيع ١٨٤٨ - ١٨٤٩ تصرما في اخماد انتفاضة جديدة في القصيم. فالوجهاء المحليون لم يعترفوا بالامراء الذين عينتهم السلطة المركزية، اذ كانوا يؤيدون هذا الفرع من العوائل الحاكمة سابقا او ذاك. وكان القتل يعقب الخيانات، الخيانة تعقب فترات السلم، وكانت المبايعة تعقب العصيان المتكرر، ولكن المنطقة ظلت غير خاضعة.

وكان امير بريدة عبد العزيز آل عليان هو الزعيم المعترف به للمنطقة. وقد نحاه فيصل عدة مرات ولكنه كان يعينه من جديد كل مرة. وغدا عبد العزيز حاكما لبريدة من جديد في مطلع عام ١٨٥١. ويبدو ان امير الرياض لم يتمكن من الحصول على تأييد وجهاء القصيم ولم يستغن عن المساومة مع زعيمها المعترف به(٢٣).

وفي السنوات الثلاث اللاحقة انصب اهتمام امير الرياض على غزوات مختلف القبائل. ففي ايار (مايو) ١٨٥٤، تمردت عنيزة من جديد. ولم يكن وجهاؤها، وخصوصا آل زامل، راضين عن حكم جلوى، عامل الامير فيصل، في القصيم. ويقول دوتي ان حاكم القصيم هذا كان ينهب السكان ويستأثر باموالهم (٢٤). وبدأ التمرد.

وكانت مشاركة الفقراء في هذا التمرد قد اضفت عليه صبغة جديدة. فقد هب ضد مضايقات امير الرياض القسم الاكثر فقرا من السكان، في حين لم يؤيد التجار الاثرياء المتمردين. وعلى اثر جلوى فر من عنيزة الشيخ عبد الله ابو بطين الذي كان قاضيا لهذه المدينة مدة طويلة واخلص الولاء للرياض. وصار عبد الله بن يحيى آل زامل الملقب سليم اميرا لعنيزة.

وفي اواخر ١٨٥٥، انتهى التمرد صلحا. واضطر فيصل الى تنحية حاكم المنطقة الذي عينه بنفسه، بينما ظل زعيم المتمردين عبد الله بن يحيى في منصبه[٢٥].

وفي اواسط الخمسينات هطلت امطار غزيرة وكان المحصول جيدا فهبطت الاسعار. الا ان وباء الكوليرا تفشى في نجد آنذاك.

كان الوباء قد بدأ في الهند ونقل الحجاج عدواه الى مكة في عام ١٨٤٦، وانتشر منها في اوروبا واميركا.

وفي عام ١٨٦٠، واجه امير الرياض تمرداً جديدا من العجمان الذين صاروا اكثر جسارة. وارسل الامير قوات كبيرة بقيادة ابنه عبد الله الى الشرق، حيث نشبت على مسافة ثلاثين كيلومترا تقريبا جنوبي مدينة الكويت في ٩ نيسان (ابريل) ١٨٦٠ معركة جديرة بالتقاليد البدوية الجاهلية. فقد اجلسوا الفتيات من قبيلة العجمان وبنات او قريبات الشيوخ في هوادج خاصة على سبعة جمال. واسبلت سبع من اجمل بنات عوائل الوجهاء شعورهن وارتدين افضل ملابسهن وظهرن في مقدمة البدو يطلقن صيحات الحرب. وكان المحاربون متحمسين الى اقصى حد، لأنهم يرون بأم العين أنهم سيحاربون، فيما يحاربون، من اجل سلامة بناتهم الحسناوات اللواتي يمثلن شرف القبيلة. وكانت المعركة دموية لأن العجمان واجهوا قوات من ابناء المدن والحضر الاكثر تنظيما وانضباطا وهي قوات عززها محاربون من قبائل سبيع والسهول وقحطان ومطير. وقتل حوالى ٧٠٠من العجمان ففروا تاركين الفتيات والجمال وكل ما يملكون. واختبأ في الكويت من ظل

على قيد الحياة. وعمت البهجة والاحتفالات بهذا الحادث في الرياض وكذلك في البصرة والزبير اللتين تضررتا من غزوات العجمان وارسلتا بعد النصر هدايا ثمينة الى عبد الله[٢٦].

الا ان النصر الحقيقي كان بعيدا. فالعجمان احتفظوا بقوات كثيرة وتحالفوا مع قبيلة المنتفق القوية في جنوب العراق. وسرعان ما بدأت القبيلتان غزو اطراف البصرة والزبير والكويت.

واعلن فيصل الجهاد. ونشبت معركة الجهراء في ٢٧ آذار (مارس) ١٨٦١، وتم من جديد دحر العجمان والمنتفق. وحاصر النجديون خصومهم ودفعوهم الى مياه الخليج، وعندما ارتفع المد ابتلعت المياه ١٥٠٠ محارب ممن لم يكونوا مطلعين على هذا النوع من الأخطار. واثار النصر موجة جديدة من الفرح في العراق وفي نجد على حد سواء[٢٧]. الا ان انتصارات عبد الله الدموية على العجمان قد تركت لعشرات السنين حقدا عليه في هذه القبيلة، الامر الذي كان فيما بعد من الاسباب التي حرمته عرشه.

وبعد النصر شرقا توجه عبد الله الى القصيم. وقرر عبد العزيز امير بريدة الهرب خشية مواجهة مخاطر اكبر، فتوجه الى عنيزة ومنها الى مكة. الا ان فصيلا ارسله عبد الله بن فيصل اختطف عبد العزيز في الطريق وقتله مع ابنه. واختطف ابناً آخر لحاكم بريدة ممن كانوا قد شاركوا في حملة عبد الله على العجمان وقتل في السجن[٢٨].

وعلى الرغم من الانتصارين الكبيرين في ١٨٦٠ ـ ١٨٦١ فقد واجهت امارة فيصل خطرا جديدا. وكان مبعثه هذه المرة ايضا هو القصيم، وخصوصا عنيزة، كان اهالي عنيزة قد نعتوا تمردهم على الرياض في ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ بالحرب الاولى، اما العمليات الحربية التي بدأت في ١٨٦٢ فقد نعتوها بالحرب الثانية.

ظهر محاربون من عنيزة في ضواحي بريدة، ونشبت صدامات في المنطقة كلها. واعلن فيصل الجهاد من جديد. ونشبت معركة كبرى في اطراف عنيزة في ٨

كانون الاول (ديسمبر) ١٨٦٢. وذكر دوتي تفاصيل تلك المعركة[٢٩]. ساعدت النساء رجال عنيزة بتزويدهم بالماء وحمل الجرحى. وكان رجال عنيزة مسلحين ببنادق الفتائل. وقاتل محاربو امير الرياض اساسا بالرماح والسيوف. وفي معمعان المعركة هطلت الامطار فتعطلت بنادق فصيل رجال عنيزة فاندحروا وابيدوا عن بكرة ابيهم تقريبا. وقتل منهم حوالى ٢٠٠ شخص. وكانت عساكر امير الرياض حوالى الف محارب. ويتضح من ذلك نطاق العمليات الحربية.

واضطر اهالي عنيزة الى الاحتماء باسوار مدينتهم. وفي بداية عام ١٨٦٣ استلمت عساكر امير الرياض قرب عنيزة امدادات من جبل شمر والمنطقة الشرقية. وكانت لدى قوات الحصار عدة مدافع. وطلب رجال عنيزة الصلح[٣٠]. ولما كان امير الرياض عاجزا عن تدمير عنيزة وافق من جديد على العفو عن اهالي المدينة وابقاء حكامهم السابقين[٣١].

علاقات نجد مع الحجاز والحكومة العثمانية في عهد فيصل. كانت علاقات نجد مع الحجاز معقدة دوما. وظل الباشوات العثمانيون في جدة والمدينة وشريف مكة يدعون بحق التدخل في شؤون اواسط الجزيرة. وفي عام ١٨٤٦ شن الشريف محمد بن عون حملة على نجد متحججا برفض فيصل دفع الاتاوات للباب العالي. وقد جرت العادة على ان يدفع امير الرياض ١٠ آلاف ريال، وربما كان ذلك من شروط «فراره» من مصر[٣٢]. والحجة الاخرى لحملة الشريف هي القلاقل في القصيم التي جعلت حاكم مكة يأمل في الحصول على مساعدة فعالة في هذه المنطقة[٣٣].

كانت عساكر محمد بن عون تتكون من حوالى الفي شخص، وهم بالاساس من البدو. ومعهم فصيل صغير من القوات التركية النظامية. وفي ربيع ١٨٤٧ وصل الشريف الى القصيم دون أن يواجه مقاومة في الطريق. الا ان فيصل كان يستعد بهمة للحرب.وكانت القوى متعادلة تقريبا، فكان الطرفان يتحاشيان الاشتباك في معركة. وارسل فيصل «هدية» الى محمد بن عون، وهي في الواقع اتاوة لمرة واحدة بمبلغ ١٠ آلاف ريال ومعها خيول وابل[٣٤]. ويبدو أن الاتفاق نص من جديد على

دفع ١٠ آلاف ريال سنوياً،ولكن من الصعب القول بكيفية تنفيذه. وفي عام ١٨٥٤ـ ١٨٥٥ اثناء القلاقل في الحجاز تخلف فيصل عن ارسال الجزية[٣٥].

حاولت السلطات العثمانية ان تحقق في عسير واليمن ما لم يتمكن والي مصر من تحقيقه. وفي نيسان (ابريل) ١٨٤٩، قامت القوات التركية بانزال من السفن الحربية في الحديدة. ووصل الى الحديدة ايضا فصيل بقيادة شريف مكة محمد بن عون. ووافق امام اليمن على وجود حامية عثمانية في صنعاء ودفع الاتاوات الا ان الاتراك انهزموا في عسير واليمن عام ١٨٥١ـ ١٨٥٢.

وعزز شريف مكة مواقعه واقام علاقات طيبة مع قبائل عسير ومع قبيلة حرب الحجازية، كما أقام ارتباطا مع عباس باشا والي مصر. الا ان هذا السلوك بالذات اثار ارتياب السلطات العثمانية. وفي عام ١٨٥٢، وصل الى والي جدة امر بنفي الشريف محمد بن عون وابنيه الاكبرين الى العاصمة العثمانية. وامكن القيام بذلك بخديعة غادرة. وعين المدعو عبد المطلب شريفا لمكة[٣٦].

اجتاحت الحجاز في الخمسينات قلاقل خطيرة كان من اسبابها تأخر دفع رواتب الجنود الاتراك سنة كاملة. وفي ١٨٥٥ ـ ١٨٥٦ فقد الاتراك مؤقتا السيطرة على مكة وتعين عليهم ان يبذلوا جهودا كبيرة لاستعادة سلطتهم هناك باعادة ابن عون الذي ورث ابنه عبد الله منصبه بعد عامين. وطرد اهالي عسير الحاميات العثمانية. ولم يتمكن الاتراك من ارسال القوات بانتظام الى سواحل الجزيرة العربية على البحر الاحمر واحتلال عسير من جديد في عام ١٨٧١ الا بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩[٣٧].

في عام ١٨٥٨، قتل في جدة نائب القنصل البريطاني ونائب القنصل الفرنسي واربعة عشر من الرعايا المسيحيين، ونهبت منازلهم. وفر الذين ظلوا على قيد الحياة الى الفرقاطة البريطانية «سايكلوبس» التي قصفت المدينة وقامت بانزال فصيل بريطاني غير كبير. وبحضور الانجليز قطعت رقاب ١١ شخصا، ثم جرى اعدام مدير الشرطة ورئيس الحضرميين والقائممقام[٣٨].

ومع ان امارة الرياض، آنذاك، كانت في الواقع مستقلة عن الامبراطورية

العثمانية التزم فيصل بقدر كبير من الحذر وسعى الى تحاشي الصدام مع الاتراك. لم يقم بغزوات على الشام والحجاز والعراق. وفي عام ١٨٥٥ وعام ١٨٦٠ اكد فيصل في مراسلاته مع الانجليز بشأن الاوضاع في الخليج بانه يعتبر نفسه تابعا للباب العالي[٣٩]. وكان هذا التأكيد نافعا له في علاقاته مع الانجليز. وكان الموظفون العثمانيون، عندما تقتضي مصالحهم، يتحدثون ايضا عن السيادة العثمانية في اواسط الجزيرة.

التناقضات بين امارة الرياض وبريطانيا في منطقة الخليج: كتب ج. لوريمير عن السياسة البريطانية ازاء امارة الرياض يقول «انها عدم التدخل في امارات الساحل والمقاومة المعتدلة في سلطنة عمان والمعارضة بلا هوادة في البحرين». وهو يرى ان هذه السياسة مبعثها «هجمات الوهابيين العدوانية المتواصلة على طول خط الساحل»[٤٠].

الا ان امير الرياض كان يعتبر المناطق الساحلية ملكا له. فقد تحدث الامير فيصل عن دولته الى بيلي وقال له ما فحواه: انها تشمل اراضي الجزيرة العربية من الكويت عبر القطيف ورأس الخيمة وعمان ورأس الحد وكل ما يقع وراء ذلك. هذا ما وهبنا الله[٤١]. واضاف فيما بعد: مسقط تابعة لنا. وقد اخذناها بقوة السلاح[٤٢]. ويرى امير الرياض ان الانجليز عندما يفرضون حمايتهم على حكام الساحل انما يتدخلون فيما لا يعنيهم[٤٣]. ولكن فيصل يعرف قوة بريطانيا.

ظلت العلاقت بين فيصل وحاكم الكويت ودية [٤٤].الا ان حربا طويلة الامد كانت قائمة بين نجد والبحرين.

ولم تسفر الصدامات الجديدة بين امارة الرياض والبحرين في عام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ عن انتصار لأي من الطرفين. ولم يستمر الصلح طويلا. ففي خريف ١٨٥٠ اندلعت الحرب من جديد بين نجد والبحرين. واحتلت عساكر فيصل قطر. وحظي امير الرياض، بدعم من فرع انقلب على عائلة حكام البحرين، الامر الذي ساعده في تكوين اسطول له والتحضير لانزال على جزر البحرين. الا ان عمارة بريطانية ارسلت آنذاك للدفاع عن البحرين، فأنقذت حاكمها من الهزيمة. واضطر فيصل الى

الاتفاق بشأن الصلح مع البحرانيين، ولكنه تمكن من جعلهم يدفعون الاتاوات والديون السابقة. كما انه نصب في قلعة الدمام منافسي حكام البحرين(٤٥).

وفي عام ١٨٥٩، عندما تهيأ النجديون للهجوم من جديد على البحرين ابلغ المقيم البريطاني في منطقة الخليج، الكابتن جونس، الامير فيصل بأن الحكومة البريطانية تعتبر البحرين «امارة مستقلة» وهي مستعدة للدفاع عنها دون اي هجمات(٤٦).

وفي عام ١٨٦١، فرض الكابتن جونس بمدافع العمارة البريطانية على شيخ البحرين اتفاقية كالاتفاقيات التي اضطرت الامارات الصغيرة على ساحل الصلح البحري ان تقبل بها في السابق. وغدت البحرين محمية بريطانية ولم تعد تتعرض لادعاءات الحكام السعوديين. صحيح انها ظلت تدفع الاتاوات لامير الرياض لقاء ممتلكاتها في قطر.

وفي العام نفسه، حاول الانجليز ان يخلصوا انفسهم من التبدلات غير المتوقعة في العائلة الحاكمة البحرانية وبعثوا انذارا لفيصل يطالبونه فيه بطرد منافس حاكم البحرين من الدمام. وقصفت العمارة البريطانية الدمام دون ان تنتظر وصول الجواب. وفر من القلعة محمد بن عبد الله آل خليفة(٤٧).

وفي عام ١٨٦٧، نشبت من جديد معركة بين عساكر امير المنطقة الشرقية والبحرانيين. ويقول النبهاني، مؤرخ البحرين، ان تلك كانت آخر معركة في البحرين لأن الانجليز وصلوا بعد ذلك.

وكانت عمان ايضا موضع تنافس بين النجديين والانجليز. وبعد ان عاد فيصل الى دست الحكم في عام ١٨٤٥ سرعان ما ارسل الى البريمي قوات بقيادة سعد بن مطلق. وكان هذا العقيد حاكما للبحرين حوالى ثلاثين عاماً وخدم عند تركي ثم عند ابنه فيصل في العهد الاول من حكمه، وعند خورشيد باشا وخالد ثم عند فيصل من جديد، وكان مطلعا اطلاعا ممتازا على شؤون عمان. وطلب الشيوخ المحليون النجدة من الانجليز، الا ان هؤلاء كانوا ما يزالون يتحاشون التدخل المباشر في شؤون البر.

وعلى اثر وصول سعد بن مطلق الى البريمي طالب عددا من الحكام المحليين بدفع الاتاوات، ومنهم سلطان مسقط وحاكم الصحار. وعزز مطلبه بارسال فصيل الى مسقط. الا أن الانجليز اخذوا يمارسون الدوريات عند ساحل الباطنة، فانسحب سعد بن مطلق ووافق على استلام جزية سنوية من مسقط مقدارها ٧ آلاف ريال.

وفي عام ١٨٤٨، تمكن حاكم ابو ظبي من الاستيلاء على البريمي. الا ان منافسيه من دبي والشارجة ساعدوا ابن مطلق على العودة بعد بضعة اشهر. ثم نحاه فيصل من منصبه عام ١٨٥٠ وسرعان ما توفي.

وفي آذار (مارس) ١٨٥٠، عندما تقلصت الحامية النجدية في البريمي الى ٥٠ شخصا، استولى حاكم ابو ظبي على البريمي من جديد. وفي عام ١٨٥٣ وصلت الى هنا عساكر بقيادة عبد الله، ابن الامام فيصل. واسرع شيوخ العشائر وحكام امارات الساحل للاعراب عن خضوعهم للرياض. فقد كان نفوذها كبيرا آنذاك، الا ان المعتمد البريطاني الكابتن كمبيل تمكن من مقابلة الحكام المحليين وارغامهم على توقيع «معاهدة الصلح الدائمية». ووصلت عساكر النجديين الى مسقط فانقذتها العمارة البريطانية من جديد، الا ان حاكمي الصحار ومسقط التزما بدفع ١٢ ألف ريال سنويا الى الرياض.

وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥٣، غادر عبد الله واحة البريمي بعد ان عين احمد السديري حاكما لها، وظل هذا الاخير في منصبه حتى عام ١٨٥٧. ورغم التبعية للانجليز ظلت مسقط والصحار وامارات الخليج تدفع الاتاوات لامارة الرياض . ولم تكن الاراضي التي يشرف عليها النجديون محددة بدقة، فهي تتقلص تارة وتتسع تارة اخرى، مع ان لديهم احيانا عمال جباية الزكاة في قسم كبير من أراضي عمان. وورث منصب احمد السديري ابنه تركي الذي ظل حاكما للبريمي من ١٨٥٧ حتى ١٨٦٩ (٤٨).

النظام الاجتماعي السياسي والحياة الاقتصادية في الدولة السعودية الثانية. كان امير الرياض، مثلما في الدولة السعودية الاولى، اماما للمسلمين، اي انه قائد عام وحاكم اعلى وكذلك رئيس السلطة التنفيذية. وكان يبت شخصيا في

اهم مسائل السياسة الداخلية والخارجية والقضايا المالية والحربية ويتخذ القرارات بشأن الغزوات أو الصلح ويشرف بنفسه على تنفيذها ويراقب استقبال وارسال الممثلين الدبلوماسيين واستلام وارسال الرسائل الرسمية، ويمارس الشؤون المتعلقة بالحلفاء والاتباع والجيران والقبائل البدوية.

ولم يكن بلاطه كبيرا، كما لم يكن مثقلا بالرسميات وبالجهاز البيروقراطي. وفي اهم المسائل كان الامير يتشاور مع اقرب اقربائه الذين يعتبر ولاءهم له اسمى من المصالح المحلية. ولعبت عائلة آل الشيخ كذلك دورا هاما مع ان احدا منها لم يبلغ منزلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه(٤٩).

وكان توزيع المناصب المربحة والرفيعة قد ساعد على تلبية المطالب المتعارضة لافراد العائلة. واعلن فيصل ان عبد الله وريثه واشركه في الشؤون الحربية وفي حكم الرياض والمناطق الوسطى. ومنح فيصل ابنه الثاني سعود المنافس لعبد الله استقلالا كبيرا في حكم المناطق الجنوبية. وسلمت الى محمد، الابن الثالث، المناطق الواقعة شمالي العاصمة. ومال محمد الى عبد الله في خلافه مع سعود. وكان الابن الاصغر عبد الرحمن الذي كان سيغدو فيما بعد أب مؤسس الدولة السعودية الجديدة قد ولد في عام ١٨٥٠ وكان آنذاك صغير السن لا يصلح لوظيفة مستقلة(٥٠). الا ان تقسيم الامارة بين ابناء فيصل ساعدهم على كسب انصار في مناطقهم، الامر الذي هيأ اساسا للنزاعات المرتقبة التي ادت الى تمزيق الدولة السعودية الثانية.

وتدهورت صحة فيصل في السنوات الاخيرة من حياته. فعندما كان في مصر اصيب بالرمد، وربما بالتراخوما، وغدا اعمى كليا عندما قام العقيد ل. بيلي ممثل الادارة الانكلوهندية بزيارته الثانية الى الرياض. وكان فيصل آنذاك في حوالى السبعين من العمر فلم يتمكن من تصريف شؤون دولته بنشاط فسلم زمام الامور الى عبد الله. وكتب ر. ويندر يقول «ان عائلة السعوديين افرزت في اللحظات الحاسمة اقوى الاشخاص الذين يتمتعون بالفطنة وقوة الطباع والذين تمكنوا من السيطرة على مختلف العناصر الانفصالية في مملكتهم الشاسعة واستطاعوا ان

يؤمنوا العدالة الصارمة»[٥١]. وكان من هؤلاء الرجال الاشداء فيصل بن تركي. ورغم موقف الانجليز المعادي لامارة السعوديين اعترف المقيم البريطاني ل. بيلي قائلا: «ما كان بوسعي الا ان الاحظ ان الامير فيصل، في رأي الجميع، كان حاكما عادلا صارما وموفقا الى اقصى حد في قمع العادات الوحشية للقبائل. وكان يريد أن يغرس بينها عادات اكثر تنظيما ويوجه اهتمامها الى الزراعة والتجارة. وكان يخيل لي انه لا احد يحب الامير، ولكن الجميع معجبون به. وكانوا يتحدثون عنه برهبة اختلط فيها الاحترام بالكراهية على نحو طريف»[٥٢].

وبعد اللقاء الاول مع فيصل رسم بيلي صورته على النحو التالي: «وجدت الامام جالسا في الركن الابعد للغرفة على سجادة صغيرة جذابة متكئا بظهره الى تكية ثقيلة... وعندما اقتربت منه نهض بصعوبة. اخذ يدي وتلمسها. كان ضريرا، الا ان محياه رائع بتقاسيم معتدلة وتعلوه مسحة من الهدوء والصرامة والاطمئنان. كان يبدو في اكثر من السبعين، وملابسه فاخرة تنم عن ذوق رفيع. وعلى كوفيته عمامة من حرير اخضر. نبرات صوته عذبة وكلماته هادئة موزونة كانت هيئته تدل على الاعتزاز بالنفس وتكاد تتسم بالرقة. ولكن المرء يشعر بانه يمكن ان يكون قاسيا دون رحمة»[٥٣].

ان درجة السيطرة المركزية القائمة في مختلف مناطق واقاليم الدولة السعودية الثانية، شأنها شأن الدولة السعودية الاولى، تختلف من منطقة لاخرى وتتقلص كلما ابتعدت المسافة عن الرياض. ويعود دور للوضع الداخلي في هذه المنطقة او تلك ولوزنها النسبي وللمعتقدات الدينية عند اهلها. وكان حاكم الرياض يعين الامراء وكذلك علماء الدين في المناطق الوسطى.

وكانت من اسباب القلاقل في القصيم محاولات امير الرياض لتقوية سلطته هناك. وقد اضطر الى ترك ابناء الوجهاء المحليين في اماكنهم. وكانت العلاقات مع جبل شمر معتدلة الى حد مدهش، وذلك لأن الرياض لم تحاول بسط سيطرتها بصورة مباشرة على جبل شمر واكتفت بالتبعية الاسمية. وكانت هناك علاقات

ودية بين الاسر الحاكمة وقد عززها التزاوج بينها. وكانت تلك الاسر بحاجة الى مساعدة بعضها بعضاً عسكريا.

وكان امراء الهفوف يعينون دوما من بين النجديين. ولم يكن سكان المنطقة الشرقية متعاطفين كثيرا مع الرياض والوهابيين، الا ان اهمية هذه المنطقة كبيرة لدرجة جعلت امير الرياض يرى ضرورة الاحتفاظ بحاميات دائمية هناك.

وكانت للنجديين حامية في البريمي، كما عين لها امير من الرياض. الا ان مجموعة واحات البريمي احتفظت بسمات المنطقة الجبهوية اكثر من الهفوف.

وكما كان الحال في الازمان السالفة ظل الاحتفاظ بالرهائن في العاصمة وسيلة لارغام المناطق والقبائل على الولاء. وعندما دعا فيصل بيلي لزيارة السجن قال له إنه سيرى هناك الآن حوالى سبعين من شيوخ العشائر(٥٤).

وكانت القبائل البدوية على درجات متباينة من التبعية لامير الرياض، الا ان فيصل لم يتمكن قط من السيطرة عليها بالشكل الذي كان في زمن الدولة السعودية الاولى. فقد شهدت سنوات حكمه الكثير من التمردات البدوية المتواصلة.

وكانت الوهابية في الدولة السعودية الثانية قد فقدت جزئيا طابعها المتعصب المتشدد. ويبدو ان الخبرة الشخصية التي اكتسبها فيصل في مصر قد اوحت اليه ان المصريين والحكومة العثمانية اقوى بكثير من نجد وان استفزازهم بابداء مظاهر التعصب الديني يعني جلب الهلاك لنجد. الا ان المشاعر الدينية كانت تشتد في بعض الاحيان.

كان التنظيم العسكري لامارة الرياض في عهد فيصل مثلما كان في عهد السعوديين الاوائل. فقد كان على كل مدينة او قبيلة ان تقدم في حالة الاستدعاء عددا معينا من المقاتلين والدواب. وكانت تلك الارقام تدوّن في سجلات تعتبر كذلك اساسا لجباية الزكاة. وعندما يصدر الامير امرا بالتعبئة يخبر الحكام المحليين بعدد المحاربين الذين يحتاج اليهم، بينما يتحمل هؤلاء الحكام مسؤولية جمعهم وتموينهم. ويشمل الاستدعاء عادة نصف العدد الالزامي للمحاربين وفي الحالات

الاستثنائية تستدعى كل القوات طبعا. وكان المحاربون يأتون مع سلاحهم الخاص وماشيتهم. وكانت الحكومة، من الناحية النظرية، تقدم العتاد اللازم. وكان الفرسان اكبر شأنا، لذا كانوا يتمتعون بالامتيازات.

كانت كل قبيلة أو مدينة تشكل في عساكر امير الرياض وحدة خاصة لها رايتها.

وعندما تنتهي الحملة الحربية يجري حل العساكر كلها. ولا تستلم المتطوعة رواتب منتظمة، الا ان اربعة اخماس الغنائم تقسم بين المحاربين - حصة للمشاة او الهجانة وحصتان للفرسان. ويحال الى بيت المال خمس الغنيمة. ولدى الامير فصيل من الحرس الشخصي مكون من حوالى ٢٠٠ عبد ومعتوق، كانوا عند الاقتضاء يمارسون وظيفة الشرطة. وكان السكان الحضر يشكلون نواة عساكر نجد[٥٥].

كانت لدى النجديين بضعة مدافع، ولكن من المشكوك فيه انهم استخدموها الا في حالات نادرة جدا. ولم يتخذ فيصل خطوات جدية لتشكيل اسطول حربي. فبدلا من ذلك كان يعول على شبه الاتباع كالبحرين. وبديهي ان حكام السواحل كانوا يجدون الاعذار للتملص من تنفيذ مطاليه. زد على ذلك ان المعاهدات التي فرضها الانجليز عليهم قيدت امكانيات العمل بالاشتراك مع الرياض [٥٦].

ولم تكن الضرائب في عهد فيصل لتختلف عنها في ظل الدولة السعودية الاولى.. كان الزراع يدفعون زكاة الحبوب فقط والثمار القابلة للكيل والحفظ: ١٠٪ من محاصيل الاراضي الديمية و ٥٪ من محاصيل الاراضي السيحية. وكان البدو يدفعون زكاة الماشية في حدود ٢,٥ - ٥٪ من قيمة الذهب والفضة، وكذلك النسبة نفسها من قيمة بضائع التجار. ويمكن ان يعفى من الزكاة الذين يحصلون على دخل سنوي اقل من الحد المعين. الا ان ضرائب اضافية تطبق في حالة الحرب[٥٧].

وكما كانت الحال سابقا تتوارد على بيت المال مكوس الحج واتاوات مسقط والبحرين والامارات الاخرى وعائدات ممتلكات حاكم الرياض.

ولا يمكن حساب المداخيل العامة للدولة على وجه التدقيق. وقدم العقيد بيلي اثناء زيارته للرياض جردا تقريبيا للسكان والمداخيل والعساكر. وتفيد حساباته ان سكان نجد والاحساء، والمقصود على ما يبدو الحضر فقط، بلغوا ١١٥ الف نسمة، وان المداخيل ٦٩٢ الف ريال وان عدد المحاربين ٧٩٠٠٠[٥٨]. اما البدو فقد حدد عددهم الاجمالي بـ ٢٠ الفا ومداخيلهم بـ ١١٤ الف ريال. وهكذا بلغت مداخيل الدولة، في رأي بيلي، ٨٠٦ آلاف ريال. وهو يضيف اليها اتاوات مسقط وجبل شمر والبحرين والاقاليم الاخرى، وكذلك مليوني ريال تجبى من الحجاج[٥٩]. وربما كانت هناك مبالغة في أرقام العائدات، بينما قد يكون عدد الحضر والبدو اكثر من الرقم المذكور. وحتى بيلي اخذ في الحسبان الذكور الراشدين فقط.

وقدر بلغريف المداخيل العامة للدولة بما يعادل ١٦٠ الف جنيه استرليني [٦٠].

والمعلومات المتوافرة عن نفقات الدولة السعودية الثانية اقل من تلك. واذا اهملنا نفقات اسرة الامير وبلاطه فان نصف النفقات، على ما يبدو، يصرف على الاغراض الحربية، بينما يخصص الباقي للشؤون الاجتماعية - صيانة الآبار والمساجد وكذلك معونات المرضى والعجزة ورواتب الموظفين الذين تعينهم الحكومة المركزية ورجال الدين والمعونات المقدمة الى الشيوخ المحليين وامراء الاقاليم[٦١].

وكان قسم كبير من الزكاة يسدد عينا، ولكنه يدفع نقدا في بعض المناطق.

وكانت العملة الرئيسية هي الريال الذهبي (ريال ماريا تيريزا)، ومع ذلك استخدم في التداول الشلن الانجليزي والنقود العثمانية والفارسية الذهبية والفضية. وفي المنطقة الشرقية غالبا ما كانت تستخدم النقود الهندية. وفي منطقة سواحل الخليج استخدم ما يسمى بالنقود الطويلة، وهي قطع نقدية معدنية مستطيلة تشبه الابزيم النسوي وعليها كتابة عربية. كانوا يصكونها من النحاس ويضيفون اليها قليلاً من الفضة. وكانت هناك نقود طويلة فضية[٦٢].

وفي عهد فيصل صار تصدير الخيول العربية الاصيلة بابا لعائدات ثابتة. وكانت خيول جبل شمر تصدر عبر الكويت، اما الخيول الاخرى فتصدر عبر

القطيف والعقير. وفي عام ١٨٦٣، بيع عن طريق الكويت ٦٠٠ من الخيول العربية بسعر متوسط قدره ١٥٠ ريالا للرأس الواحد. وارسل عباس باشا من مصر عدة بعثات لشراء الخيول. وكان الرحالتان الاوروبيان المعروفان فالين وغوارماني قد زارا الجزيرة العربية بحجة شراء الخيول. الا ان عدد الخيول المتبقية في عام ١٨٦٤ كان قليلا جدا، واتضح ان الخيول التي ارسلها فيصل الى الاستانة سيئة للغاية مما اثار استياء الباب العالي الذي منع تصدير الخيول طوال اربعة اعوام. ولم يكن بالامكان تطبيق هذا المنع عمليا[٦٣].

وقبل اكتشاف البترول كان صيد اللؤلؤ هو العمل الرئيسي لسكان سواحل الخليج. الا ان الاحساء اقل شأنا في صيد اللؤلؤ من البحرين وامارات الصلح البحري وقطر. وكان لؤلؤ الخليج يرسل الى بومباي، ومن هناك يباع الى اوروبا. ونجد عند لوريمير وصفا ضافيا لصيد اللؤلؤ مع قواعده الاجتماعية والمالية الثابتة. ومع ان ما كتبه لوريمير يخص عام ١٩٠٦ الا ان اللوحة التي رسمها من المستبعد ان تكون قد تغيرت منذ ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر. ولئن كان قد مارس صيد اللؤلؤ في سواحل امارات الصلح البحري ٢٢ الف شخص، وفي قطر ١٣ الف شخص وفي البحرين ١٨ الف شخص وفي الكويت ٩٢٠٠، ففي واحة القطيف مارسه حوالى ٣٤٠٠ شخص فقط[٦٤].

* * *

تمكنت الدولة السعودية الثانية من الانبعاث والنهوض بسبب توقف التدخل الخارجي في شؤون نجد. وكانت مصلحة قسم كبير من وجهاء واعيان نجد وتجارها وصناعها وزراعها في التوحيد وتأييد الفقهاء الوهابيين وارتفاع منزلة آل سعود قد مكنت فيصل من بسط سيطرة الرياض على قسم كبير من اواسط الجزيرة وشرقيها. الا ان علائم الضعف والخور، واحيانا عجز السلطة المركزية، والنزعة الانفصالية لدى الاقطاعيين ونزوات القبائل البدوية كانت واضحة لدرجة كبيرة لا تجعل احدا من المعاصرين يتوقع لامارة الرياض عمرا مديدا. وكان اقليم جبل شمر القوي حليفا اكثر من كونه تابعا طيعا. ودافعت القصيم عن استقلاليتها

في تمردات متكررة. وكانت القبائل البدوية تتحدى فيصل المرة بعد المرة. وخيم ظل الامبراطورية البريطانية من جهة الخليج وبحر العرب، وكانت قد ابتلعت في الواقع الامارات الصغيرة على سواحل شبه الجزيرة. واضيف الى ذلك كله تعمق الخلافات والانقسام داخل اسرة امير الرياض.

الفصل الثامن

سقوط امارة الرياض
ونهوض امارة جبل شمر (١٨٦٥ - ١٩٠٢)

الانقسام في عائلة الامراء. توفي فيصل بن تركي في كانون الاول (ديسمبر) ١٨٦٥. وفي الحال بدأ الصراع من اجل السلطة بين ابنائه. وتسلم مقاليد الحكم ولي العهد عبد الله الذي حظي بتأييد سكان العارض وكذلك اخيه الاصغر محمد. وكان اخوه الآخر - سعود - منافسا له. واخذ الانجليز الذين لهم مصلحة في اضعاف امارة الرياض يشجعون مطامع سعود. كان عبد الله يسعى في امارته الضعيفة غير المستقرة الى تقوية المركزية فأثار بذلك استياء الوجهاء والاعيان في الاطراف[١].

ويقول بلغريف ان عبد الله كان رجلا نشيطا شجاعا، ولكنه كان صارما قاسيا، الامر الذي يروق لسكان المدن المحافظين. اما سعود فكان صريحا سخيا يحب الفخفخة، الامر الذي يروق للبدو[٢]. ان فيلبي متفق مع اقوال بلغريف هذه بالخطوط العريضة[٣].

كانت ام سعود واحدى زوجاته من قبيلة العجمان الذين يكرهون عبد الله وصاروا من اخلص حلفاء سعود. اما قحطان فقد ايدوا عبد الله[٤].

وكان اول ما فعله عبد الله بعد ان تولى الحكم هو قضايا عمان وليس الصراع مع اخيه، فهذا الصراع سيأتي وقته. قبيل وفاة فيصل كان ابن قيس حاكم الرستاق في عمان، وهو من ابناء فرع جانبي للعائلة الحاكمة في مسقط، قد ثار على قريبه ثويني سلطان مسقط وطلب المساعدة من تركي آل سديري حاكم البريمي. وتم في

اواخر عام ١٨٦٤ طرد قوات ثويني بمساعدة فيصل تركي آل سديري. وانتهز حاكم الرياض فيصل هذه الفرصة فحاول ارغام سلطان مسقط على دفع اتاوة له مقدارها ٤٠ الف ريال بدلا من ١٢ الفا، وعزز طلبه هذا بارسال قوات الى هناك [٥]. الا ان ثويني وافق، بنصيحة من الانجليز، على دفع ١٢ الفا فقط. وفي العام نفسه استولى على مدينة صور ثوار ايدهم فصيل من النجديين بقيادة عبد العزيز بن مطلق، شقيق سعد بن مطلق الشهير. بديهي ان المدينة تعرضت للنهب وكان بين المتضررين تجار هنود ورعايا بريطانيون. وعجز ثويني عن طرد النجديين فدفع لهم ١٠ آلاف ريال، ثم ٦ آلاف اخرى.

واخذ الانجليز يساعدون ثويني وبعثوا باحتجاج الى الرياض. ووافق عبد الله الذي امسك بزمام الحكم في الامارة على اطلاق سراح جميع الأسرى الذين تم القبض عليهم في صور واعادة الاملاك ولكنه لم يقل شيئا بخصوص التعويضات[٦].

واوصى بيلي السلطات البريطانية في الهند بمساعدة سلطان مسقط[٧]، وسرعان ما ارسل اليه المدافع. وتلقى امير الرياض في الوقت نفسه انذارا يطالب بتقديم الاعتذار والوعد بعدم تكرار مثل هذه الاعمال في المستقبل ودفع التعويضات، والا فالانجليز يهددون بتدمير قلاع الامير على الساحل والاستيلاء على سفنه. وانتقل الانجليز من التهديدات الى الافعال. فقد اطلقت السفينة الحربية البريطانية «هاي فلاير» النار على عجمان التي كانت مرفأ للنجديين على ساحل عمان في الخليج. وفي بداية شباط (فبراير) ١٨٦٦، دمرت القلعة في القطيف وعدة سفن صغيرة في مرفئها وبعد محاولة فاشلة لانزال قوات في الدمام اطلقت «هاي فلاير» النار عليها. ثم قصفت السفينة البريطانية صور المتمردة ودمرت فيها زوارق السكان. الا ان السلطان ثويني قتل آنذاك على يد ابنه سالم، الامر الذي خلق المصاعب امام المناورات السياسية للانجليز[٨].

وبدأت مراسلات بين عبد الله والمعتمد البريطاني بيلي. وسعى امير الرياض الى الحيلولة دون تدهور العلاقات والى تأمين اعتراف الانجليز به حاكما للامارة

وابعاد الدسائس البريطانية المحتملة وتوجيهها صوب سعود، ولذلك اتفق عن طريق ممثله مع بيلي بشأن التسوية[9].

كان عبد الله يدرك ان الانجليز ضده، لذا لعب لعبة الضعيف فحاول ان يجد في الاتراك عونا له على الانجليز، الامر الذي كلفه غاليا في آخر المطاف.

وفي تلك الاثناء استجمع سعود القوات في مناطق جنوب نجد للصراع في سبيل عرش الرياض. وعزز عبد الله عاصمته[10]، وعبأ سكان المدن وبدو نجد ووجههم ضد اخيه المتمرد. وبعد ان اصيب سعود بجراح ثخينة فر من ساحة المعركة الى بدو آل مرة، ونكل امير الرياض بانصار سعود وعاقب القبائل والواحات المتمردة في وادي الدواسر.

وبعد ان عالج سعود جراحه تحدى اخاه عبد الله من جديد بعد اربعة اعوام.

استمرار النزاعات: في اواخر الستينات نشب في البحرين من جديد صراع داخل الاسرة الحاكمة، واسفر هذا الصراع عن فرار أحد أفراد العائلة ولجوئه الى السعوديين وشن غزوات متبادلة وتدخل الانجليز الذين لم يسمحوا لامير الرياض هذه المرة ايضا بأن يبسط نفوذه على البحرين[11].

اجتاحت القلاقل عمان بعد مقتل ثويني. وكان عهد حكم سالم الذي قتل اباه قصيرا. فقد انتهى بتمرد جديد قام به عزان بن قيس من الرستاق الذي استولى على مسقط في الاول من تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٨. وقد رفع راية الاباضية المحافظة. واستمرت السلطة الجديدة في ساحل عمان حتى عام ١٨٧١ فقط، ولكنها ظلت باقية عشرات السنين في المناطق الداخلية.

وفي عام ١٨٦٩، قتل امير البريمي تركي آل سديري في الشارجة عندما حاول التدخل في النزاع المحلي. وفي حزيران (يونيو) ١٨٦٩، تمكنت القبائل المحلية بعد الاتفاق مع عزان من الاستيلاء على البريمي بمساعدته. وقد رفعت تلك القبائل رايات الاباضية وتوجهت ضد الوهابيين الذين تعتبرهم زنادقة[12].

في تلك الآونة اعترف الانجليز بان البريمي جزء من الدولة السعودية، وقد كتب

المندوب البريطاني في مسقط المقدم ديزبرو في آب (اغسطس) ١٨٦٩ يقول: «ان عزان، حسب تقديراتي، قد استولى على البريمي ظلما وعدوانا وبلا مبرر. ولا بد له من توقع انتقام الوهابيين»[١٣].

لم يكتف عزان بالاستيلاء على البريمي، بل رفض دفع الاتاوة للرياض. وكان رد فعل عبد الله حازما، اذ كتب الى عزان بانه ينوي التوجه نحوه بعشرين الف محارب[١٤]. وفي تلك الاثناء كان سعود قد تحالف مع عزان. ونشأ ضد عبد الله ائتلاف بين سلطان مسقط الجديد عزان وحاكم ابو ظبي وسعود بن فيصل. وحاول شقيق عبد الله ان يقوم بهجوم على قطر، ولكنه هزم والتجأ الى البحرين. وظهر تصور بان الانجليز يقفون من وراء ظهر سعود، وربما لم يكونوا يقدمون له مساعدة مباشرة، ولكنهم، على اي حال، لم يعترضوا على اعماله[١٥].

استمرار نهوض جبل شمر. في آذار (مارس) ١٨٦٨، انتحر حاكم حائل طلال آل رشيد، الامر الذي يعتبر من اندر الظواهر في شبه الجزيرة. واشار المؤرخ ابن عيسى الى ذلك الحادث قائلا ان طلال اختل عقله فانتحر[١٦].

ومع ان امير حائل حكم المنطقة الواسعة بصورة مستقلة تقريبا، فانه لم يعلن القطيعة ابدا مع فيصل وابنه عبد الله، بل كان يقدم لهما مساعدة عسكرية كبيرة. وكانت وفاة طلال قد هيأت الامكانية لاعادة النظر في العلاقات المتبادلة بين حكام حائل والرياض، وخصوصا عندما توفي بعد عام واحد عبيد بن علي عم طلال العجوز والمتنفذ في الوقت نفسه. كان عبيد من انصار التعاون مع آل سعود. وقد نعته بلغريف بالتعصب[١٧] اما في رأي آن بلانت فهو «البطل الرئسي لتقاليد شمر»[١٨]، وهو شجاع كريم سخي. وكان تقدير دوتي لعبيد رفيعا ايضا، حيث اعتبره عقيدا وشاعرا تتناقل الالسن قصائده[١٩].

كان طلال قد فرض سيطرته على خيبر وتيماء الواقعتين شمالي المدينة المنورة. ومع ان حاكم حائل كان يتصرف بصورة مستقلة بقدر كاف، فمن المشكوك فيه انه كان يستطيع ان يجمع قوات شديدة البأس تكفي لتحدي حاكم الرياض.

كان امير شمر يتميز بالتسامح الديني وقد سمح للشيعة واليهود بأن يقيموا

ويتاجروا في حائل، وكان يجبي منهم ضرائب غير قليلة[٢٠]. وكتب بلغريف «ان التجار من البصرة ومشهد - علي وواسط والباعة من المدينة وحتى من اليمن كانوا يستقرون في سوق حائل الجديد بعد عروض مغرية. وقدم طلال لبعض منهم مقاولات رسمية، وهي نافعة لهم وله بقدر واحد. ومنح البعض الآخر امتيازات وتسهيلات، وكان يولي الجميع الدعم والحماية»[٢١]. وبالاموال الواردة الى بيت المال من الغزوات والحج والتجارة انجز طلال قلعة بارزان وانشأ حول العاصمة سورا ارتفاعه سبعة امتار، وبنى حي السوق ومسجدا كبيرا وكثيرا من الآبار العامة[٢٢].

واذا كان الدين في جبل شمر لا يلعب دور القوة التوحيدية الاولى فان التعاضد القبلي ادى هذه الوظيفة. وحتى الحضر في حائل والمدن الاخرى كانوا يعتبرون انفسهم من ابناء شمر بالدرجة الاولى، و«موحدين» بالدرجة الثانية. لقد لعب البدو في امارة جبل شمر دورا اكبر مما في امارة الرياض. الا ان سيطرة قبيلة واحدة كانت تؤمن استقرار السلطة في منطقة محدودة، ولكنها كانت عائقا امام توسيع امارة جبل شمر، لانها تثير حفيظة القبائل القوية الاخرى.

كان طلال يدفع الاتاوات لفيصل وعبد الله بشكل خيول وحصة من الضريبة المفروضة في حائل على الحجاج الفرس وحصة من الغنائم. الا ان نفوذ الرياض في اواسط الجزيرة اخذ يضعف، بينما صارت الراية الخضراء الحمراء لامارة جبل شمر ترتفع. وكتب فالين بحق منذ عهد عبد الله بن الرشيد: «انني اعتبر اهالي شمر دون ريب من انشط القبائل في الجزيرة حاليا. وان سلطتهم ونفوذهم يشملان جيرانهم اكثر فاكثر من عام لآخر»[٢٣].

وورث متعب شقيق طلال العرش. وبعد عشرة اشهر قتل متعب في مجلسه بيد بندر الابن البكر لطلال، وصار بندر اميرا، ولكنه ظهر لديه منافس خطر هو عمه محمد بن عبد الله آل رشيد، الابن الثالث لمؤسس السلالة. وقد قتل هذا بندر في عام ١٨٧٤، مع علمه بان الثار ينتظره واخذ الامير الجديد يلاحق اخوان بندر الخمسة فانتقم من اربعة منهم. واعترفت جبل شمر بالامير الجديد. ومع ان حكمه بدا

بالانتقام الدموي من منافسيه، فانه دشن عهدا من الازدهار والسلطة القوية في الامارة[٢٤]. وكتب فيلبي يقول «لم تكن الحكومة فعالة ابدا مثلما كانت في عهده»[٢٥]. وتعتبر كتابات ضاري بن رشيد التي استخدمها ويندير على نطاق واسع اهم مرجع في تاريخ آل الرشيد منذ وفاة طلال حتى استيلاء محمد على السلطة.

وخلال امد طويل لم تخرج امارة آل الرشيد عن اطار جبل شمر واقرب الواحات اليها ـ خيبر وتيماء والجوف. وقدر الرحالة عدد السكان الخاضعين لحائل في اواخر القرن التاسع عشر (قبل ضمها الى نجد) ما بين ٢٠ و ٥٠ الف نسمة من الحضر، ومثل هذا العدد تقريبا من البدو. وتفيد معطيات اخرى ان عدد البدو يمكن ان يكون ضعف عدد الحضر[٢٦].

كان حاكم جبل شمر يلقب بالامير او شيخ المشايخ، اي انه ظل زعيما لاتحاد قبائل شمر التي يعتمد عليها[٢٧]. وكان آل رشيد يحكمون بمساعدة اقربائهم ومفارز خدمهم الشخصيين. وفي ظل الصراع المتواصل تقريبا داخل الاسرة الحاكمة وعدم الثقة بالاقرباء كان الامير يعتمد اكثر فاكثر على مفارز الخدم والمرتزقة المصريين والاتراك. وتفيد معطيات فالين ان مفرزة الامير تتكون من ٢٠٠ شخص تقريبا [٢٨]، ويذكر رحالة الستينات ـ الثمانينات من القرن التاسع عشر الرقم ٥٠٠ ـ ٦٠٠. ومنهم ٢٠ شخصا يشكلون حرس الامير الأكثر اخلاصا، وحوالي ٢٠٠ شخص كانوا في حائل اما الباقون فيرافقون التجار والحجاج وجماعات جباة الزكاة ويؤدون حسب الدور الخدمة في الحاميات في المناطق الملحقة بالامارة.

وكان بين افراد مفارز الامير محاربون بسطاء و«رجال شيخ المشايخ». وهذا المصطلح يطلق على كبار افراد المفرزة وكذلك على المقربين الى الامير، وعموما على كل من يتمتع بثقة خاصة لديه. والكثيرون منهم متحدرون من العبيد. وكان «رجال الشيخ» يمثلون كبار الموظفين وقادة مفرزته والقائمين على امور القصر وحكام ممتلكات الامير[٢٩]. وبعد ان تطورت الامارة صاروا يترأسون مختلف اصعدة

جهاز ادارة الدولة. واعتبارا من سبعينات وثمانينات القرن التاسع عشر كان بين اكثر المتنفذين في الامارة، كما يقول الرحالة، صاحب المضايف في القصر وصاحب بيت المال والكاتب الاول وحامل الراية والجليس ووزير آل الرشيد (٣٠).

كان امراء جبل شمر ملتزمين بتقاليد كرم الضيافة التي يرمز اليها القدر النحاسي الضخم الذي يحمله بصعوبة اربعة من الرجال الاشداء. وفي ثمانينات القرن التاسع عشر كان القصر يستضيف يوميا ١٥٠ ـ ٢٠٠ شخص، ويصل هذا العدد الى ١٠٠٠ شخص أثناء مرور القوافل الكبيرة (٣١).

ومع تطور نظام الدولة طبقت الشريعة باتساع متزايد، مما ضيق على العرف والعادات. وهذا امر أشار اليه الرحالة(٣٢). وكان من بين العقوبات قطع الايدي ومصادرة الاموال على العصيان ضد الامير والسجن على السرقة وعلى رفض دفع الزكاة، والجلد بالعصي على الضرب والاصابة بجراح، والغرامات المالية (٣٣). واستخدم مقر آل رشيد السابق بمثابة سجن، الا ان الرهائن والسجناء الذين يتمتعون بمنزلة رفيعة صاروا منذ ستينات القرن التاسع عشر يحتجزون في مضيف القصر الجديد(٣٤). وكان لحائل عمالها المباشرون في الاطراف، ولكنهم في الغالب كانوا من الوجهاء المحليين. وظل شيوخ جميع قبائل البدو يحكمونها كالسابق.

ونظرا لقلة التزام واخلاص الهجانة البدو اخذ آل الرشيد يعتمدون اكثر فاكثر على سكان المدن والواحات وعلى حرس من العبيد. وقدر غوارماني الحد الاقصى لعساكر جبل شمر في ستينات القرن التاسع عشر بـ ٦,٥ آلاف شخص، واذا اضيف اليها محاربو المناطق الملحقة يبلغ هذا العدد ٩ آلاف(٣٥). ويقول نولدي ان الامراء في التسعينات كان بوسعهم ان يقدموا ٤٠ الف محارب(٣٦). وكان العساكر يمتطون ظهور الجمال، بينما كان الوجهاء يركبون الخيل. أما الاسلحة فكانت الرماح والسيوف، واحيانا السلاح الناري. كما كانت هناك عدة مدافع (٣٧).

وفي عهد محمد الرشيد (١٨٧١ ـ ١٨٩٧) بلغت امارة جبل شمر اوج ازدهارها. ففي السبعينات تم الاستيلاء على العال وقرى في وادي السرحان حتى حدود وادي

حوران. وكان استمرار ركود امارة الرياض والتحالف مع الباب العالي قد مكنا محمد من بسط نفوذه على مدن القصيم في البداية، ثم في عام ١٨٨٤ على نجد كلها.

وما كان بامكان امارة جبل شمر ان تنهض الا بتضعضع امارة الرياض ذات الكثافة السكانية الاكبر والتي تمتلك قدرة عسكرية كبيرة دون شك. كانت حروب السعوديين في مطلع القرن وغزوات المصريين الفتاكة والنزاع القبلي المضني قد شملت جبل شمر بقدر أقل من اواسط نجد. واستفاد عدد من الحكام المحنكين من هذه الظروف الملائمة بالنسبة لهم فجعلوا من حائل لوقت قصير سيدة لاواسط الجزيرة كلها.

سقوط امارة الرياض. استيلاء الاتراك على الاحساء. في خريف ١٨٧٠ عقد سعود بن فيصل من جديد تحالفا مع قبائل العجمان وآل مرة ودخل العقير واستولى على الاحساء. وارسل عبد الله اخاه محمد على رأس عساكر لاستعادة السيطرة على الاحساء وعاصمته الهفوف. وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٠ نشبت في البادية معركة الجودة. وفي اللحظة الحاسمة التزم بدو سبيع الذين جاؤوا مع محمد جانب سعود فحقق هذا نصرا تاما. وتم القبض على محمد بن فيصل وزج به في سجن القطيف حيث ظل حتى اطلق الاتراك سراحه. واعلن الاقليم الشرقي كله البيعة لسعود(٣٨). وهذا ما أربك امير الرياض عبد الله بن فيصل الذي يواجه الهزيمة وادى ذلك الى ازدياد تدهور الاوضاع في إمارته. وفي تلك الاثناء حل جفاف مرعب، مما ادى، طبعا، الى قلاقل وفتن جديدة(٣٩).

وفي نيسان-ايار (ابريل-مايو) ١٨٧١ تحرك سعود، اخيرا، نحو الرياض.

وعندما دخل العاصمة نهبت عساكره البدوية هذه المدينة وسكانها لدرجة جعلت الجميع يحقدون عليه. واندلعت النزاعات القبلية في نجد من جديد. واشار ابن عيسى الى ان السلطة الجديدة كانت ضعيفة فتشوشت الامور لدرجة اكبر وتدهورت الاوضاع بسبب المجاعة وارتفاع الاسعار، وصار الناس يأكلون جيف الحمير، ومات الكثيرون بسبب الجوع، بعدما تركوا يواجهون الموت والمصائب

والنهب والقتل والفساد[٤٠]. ولكنه ينبغي، كما يرى ر. ويندير، ان نأخذ في الاعتبار ان ابن عيسى كان من انصار عبد الله.

وواجهت الامارة المحتضرة خطرا جديدا. فان والي بغداد مدحت باشا، وهو حاكم عثماني كبير معروف ومن انصار السياسة النشيطة، قد قرر الاستفادة من الموقف بإضافة اراضٍ جديدة الى الامبراطورية العثمانية التي تقلصت اراضيها. واسفرت اعماله في شرقي الجزيرة العربية عن نشوب ازمة دبلوماسية بين لندن والاستانة[٤١].

وادعى مدحت باشا بان السيادة العثمانية تشمل نجد وبان عبد الله بن فيصل كان مجرد قائمقام للاتراك. وكانت الحجة للتدخل هي «استعادة النظام ونجدة القائمقام المذكور ضد شقيقه العاصي»[٤٢].

وارسل الاتراك اسطولهم لغزو الاحساء، وقد حصلوا من حاكم الكويت على حوالى ٣٠٠ سفينة اخرى. وكانت القوات النظامية مكونة من أربعة آلاف شخص، من المشاة بالاساس، وكذلك الفرسان والمدفعية. وأرسلت قبائل المنتفق عن طريق البر حوالى ثلاثة آلاف شخص. وفي ايار (مايو) ١٨٧١ نزلت القوات التركية في رأس تنورة وزحفت نحو القطيف دون أن تواجه مقاومة. وبعد معارك غير كبيرة احتل الاتراك المدن والقلاع الرئيسية في الاقليم كله. وهكذا فقد الاخوان السعوديان الاقليم الشرقي بسبب العداء العائلي. وفي الوقت نفسه تقريبا فقد السعوديون واحات البريمي. وفي خريف العام نفسه زار مدحت باشا الاحساء، ولكن محاولة غزو الرياض أخفقت.

واستمر الصراع داخل أسرة آل سعود. وظهر عبد الله في الاراضي المحتلة من قبل الاتراك، في حين طرد سعود من الرياض مؤقتا، وقد طرده عمه عبد الله بن تركي شقيق الامير فيصل. واستجمع سعود حلفاءه من العجمان وآل مرة واخذ يهاجم الحاميات التركية، ولكن دون جدوى[٤٣].

وفي أواخر ١٨٧١ ومطلع عام ١٨٧٢ عاد عبد الله من جديد الى الرياض، الا ان

الوضع في الامارة كان ميؤوسا منه. فالمجاعة مستمرة، وكان الناس، كما يقول ابن عيسى، يأكلون الجيف والجلود وأوراق الشجر(٤٤). وحاول الاخوان ان يتعاونا ضد الاتراك، ولكن دون جدوى.

وفي آذار (مارس) ١٨٧٣، عاد سعود مجددا الى الرياض. واستمرت المعارك سجالا بين الاخوين، واقترنت، كالعادة، بالنهب والقتل. ونظرا لأن عبد الله بن فيصل أخذ يعتمد على الاتراك زاد الانجليز من دعمهم لسعود حتى انهم أرسلوا اغذية له(٤٥).

وفي منتصف السبعينات ظهر على المسرح عبد الرحمن الابن الرابع للامير فيصل. كان قد ولد في عام ١٨٥٠ على وجه التقريب. ويعتقد ر. ويندير أن عبد الرحمن يؤيد سعود، بينما يتصور فيلبي أن عبد الرحمن التزم جانب عبد الله(٤٦). ولا يستبعد انه كان متذبذبا في اختيار أحد الاخوين الاكبر.

وفي آذار (مارس) ١٨٧٤، تخلى الاتراك عن حكم الاحساء مباشرة لكي يقللوا النفقات. وصار زعيم بني خالد وهو من آل عريعر اداة لتنفيذ سياستهم. وكان ناصر باشا بن سعدون والي البصرة التي تشكلت اداريا من جديد وزعيم قبيلة المنتفق قد عينه متصرفا. وتم سحب القوات النظامية التركية واستبدلت بمفرزة شرطة عثمانية.

وتزعم عبد الرحمن بن فيصل في عام ١٨٧٤ انتفاضة على الاتراك في الاقليم الشرقي. والتحق به قسم من قبائل العجمان وآل مرة وبدو آخرون. وانزل ناصر باشا بن سعدون في العقير ٢٤٠٠ جندي من القوات النظامية مزودين بأربعة مدافع فتم دحر الثائرين. والتجأ عبد الرحمن الى سعود في الرياض. وتعرضت الهفوف لنهب من الغالبين استمر ثلاثة أيام. وترك ناصر باشا الاقليم في شباط (فبراير) ١٨٧٥ بعد أن عين متصرفا فيه(٤٧).

وكانت سلطة سعود في نجد متضعضعة. ففي اواخر عهده لم تعد جبل شمر والقصيم تخضعان له. وصارت الرياض مركزا لامارة صغيرة مقطعة الاشلاء في

اواسط الجزيرة. وانقطعت العائدات المنتظمة. ولما كان سعود يعتمد على بدو العجمان فان سكان الواحات والمدن لم يكونوا راضين عنه.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٧٥، توفي سعود، وربما كانت وفاته بسبب الجدري، مع أن معطيات اخرى تفيد بانه مات مسموما[٤٨].

وصار عبد الرحمن بن فيصل حاكما للرياض: وبدأ يخوض القتال ضد أشقائه الاكبر وضد حلفائهم من البدو. وفي تلك الاثناء ثار عليه في العاصمة نفسها أولاد أخيه سعود الذي حل محله. وتوجه عبد الرحمن، خوفا من أبناء اخيه، الى عبد الله، فقرر الاخوة الثلاثة تشكيل جبهة موحدة بزعامة عبد الله ضد أولاد سعود الذين تمكنوا من السيطرة على الرياض بضعة اسابيع. ثم فر أولاد سعود واحتفظوا بحلفائهم في اقليم الخرج وفي الاحساء.

ودخل عبد الله الرياض من جديد. وخلال السنوات الاحدى عشرة التي مرت على وفاة فيصل تبدلت السلطة في المدينة للمرة الثامنة[٤٩].

واورد فيلبي الجدول الزمني التالي للحكم في الرياض بعد وفاة فيصل[٥٠]:

عبد الله بن فيصل من ٢ ديسمبر ١٨٦٥ حتى ٩ ابريل ١٨٧١ .

سعود بن فيصل من ١٠ ابريل ١٨٧١ حتى ١٥ اغسطس ١٨٧١ .

عبد الله بن تركي من ١٥ اغسطس ١٨٧١ حتى ١٥ اكتوبر ١٨٧١.

عبد الله بن فيصل من ١٥ اكتوبر ١٨٧١ حتى ١٥ يناير ١٨٧٣.

سعود بن فيصل من ١٥ يناير ١٨٧٣ حتى ١٦ يناير ١٨٧٥.

عبد الرحمن بن فيصل من ٢٦ يناير ١٨٧٥ حتى ٢٨ يناير ١٨٧٦.

أولاد سعود بن فيصل من ٢٨ يناير ١٨٧٦ حتى ٣١ مارس ١٨٧٦.

عبد الله بن فيصل من ٣١ مارس ١٨٧٦.

وفي عام ١٨٧٨ قامت انتفاضة جديدة ضد الاتراك في الاقليم الشرقي، ولكنها اخمدت بعد انتصاراتها الاولى[٥١].

وكتب دوتي يقول: «الرياض وضواحيها هي كل ما تبقى من ممتلكات الوهابيين. وغدت الرياض امارة صغيرة ضعيفة مثل بريدة. ان المدينة الكبيرة المبنية من الطوف والتي كانت في السابق عاصمة الاواسط الجزيرة غارقة في الصمت. ومضيفها الفسيح مهجور (قصر الامير الوهابي المبني من الطوف اوسع من القصر في حائل). خدم ابن سعود يغادرون نجمه الذاوي ويتوجهون...الى العمل عند محمد بن رشيد. ولا يخضع احد من البدو للوهابيين. القرى الكبيرة في شرقي نجد طردت جامعي الزكاة التابعين لعبد الله»[٥٢].

وفي عام ١٨٨٠ ولد لعبد الرحمن وهو الابن الرابع لفيصل، طفل سماه عبد العزيز، وأمه سارة ابنة احمد السديري[٥٣]. وعندما بلغ عبد العزيز السابعة من العمر عهدوا بتربيته الى معلم هو قاضي الرياض.. الا ان الصبي كان مهتما باللعب بالسيف والبندقية اكثر من اهتمامه بالدروس الدينية، مع أنه تمكن من قراءة القرآن في الحادية عشرة من العمر. وفي الرابعة عشرة عندما كان أبوه يقيم في المهجر في الكويت بدأ عبد العزيز، ملك العربية السعودية فيما بعد، دراسة الفقه والعلوم الدينية الاخرى بصورة جادة تحت اشراف عبد الله بن عبد اللطيف الذي اصبح فيما بعد القاضي الاول للرياض ومفتيها. كانت الاشهر التي قضتها اسرة عبد الرحمن في التجوال بين قبائل آل مرة قد هيأت للامير الشاب امكانية التضلع في العادات والاخلاق البدوية واساليب وحيل العمليات الحربية للبدو الرحل. واخذ عبد العزيز، بصحبة أبيه او لوحده، يتردد على مجالس شيخ الكويت ويطلع على تشابكات السياسة في الجزيرة العربية وعلى قرارات الامير القضائية. وكانت الحالة المادية لعبد الرحمن بن فيصل في المهجر مزرية حتى أنه لم يتمكن من تزويج ابنه الاكبر الا بمعونة الاصدقاء. وفي هذه الظروف اختمرت احلام عبد العزيز الطموح الى استعادة كرامة العائلة وممتلكات آل سعود وأمجادهم وثرواتهم[٥٤].

نهوض امارة جبل شمر بعد سقوط امارة السعوديين. اخذت الواحات والمناطق وقبائل البدو تنفصل الواحدة تلو الاخرى عن الرياض وتنتقل طوعا او كرها الى حماية آل الرشيد وتدفع الاتاوات لهم. ولم توفق محاولات عبد الله لابعاد

قبضة آل الرشيد الثقيلة. وكان محمد بن الرشيد يلعب مع امير الرياض لعبة القط والفار.

واشتد التنافس في القصيم بين الاسرة الحاكمة سابقا في بريدة آل عليان وبين الحكام الجدد من آل مهنا الذين ايدتهم حائل. وكان توزيع القوى على النحو التالي: الرياض تتعاون مع عنيزة وتعتمد على تأييد عتيبة ومطير، اما حائل فهي تؤيد بريدة وتتعاون مع قبيلة حرب[٥٥].

وفي تلك الاثناء حاول أولاد سعود بن فيصل أن يتحدوا ابن الرشيد. فجمعوا قسما من قبائل عتيبة وبعض سكان واحات العارض، ولكنهم اندحروا[٥٦]. الا ان امارة عبد الله الصغيرة كانت تتمزق مزقا[٥٧].

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٧، استولى اولاد سعود بن فيصل على الرياض والعارض واسروا امير الرياض. وتمكن الامير قبل ذلك بقليل من طلب النجدة من حاكم حائل الذي لم يتردد في قطف الثمرة الناضجة. وكان طلب عبد الله حجة بيد محمد بن الرشيد «لانقاذه» ولبسط سلطة آل الرشيد على كل ممتلكاته. وتوجه ابن الرشيد الى الرياض على رأس قوات كبيرة، ففر أولاد سعود الى الخرج. واطلق امير جبل شمر سراح عبد الله من السجن ونقله الى العاصمة حائل «حفاظا على سلامته»، وترك واحدا من اكثر القادة العسكريين اخلاصا، وهو سالم آل سبهان الذي لا يعرف الرحمة، اميرا للرياض[٥٨].

كان عبد العزيز الذي صار فيما بعد ملكاً للعربية السعودية يرى أن هناك ثلاثة أسباب لسقوط عمه الامير عبد الله: «لم يستقم الامر لعبد الله لثلاثة اسباب: «اولا - وجود ابناء اخيه في الخرج يحرضون القبائل عليه، ثانيا - مناصرته لآل عليان امراء القصيم السابقين على اعدائهم آل مهنّا الامراء الحاكمين في ذاك الحين. وكان هذا جهلا من عبد الله في وقت ضعفه ليس من الحكمة ان يتحزب لبيت مغلوب فيضعضع نفوذه في القصيم. ثالثاً - ظهور محمد بن الرشيد الطامع بحكم نجد. فقد تحالف مع آل ابي الخيل... وكانوا كلهم يدا واحدة على ابن سعود»[٥٩].

وانتهى وجود دولة السعوديين الثانية رسميا في اواخر عام ١٨٨٧.

وفي آب (اغسطس) من العام التالي تمكن حاكم الرياض سالم آل سبهان من اللحاق بأولاد سعود. ويتضح النطاق الفعلي لقواتهم من عدد افراد فصيل شمر الذي طاردهم ـ ٣٥ شخصا لا غير. وقد قتل ثلاثة من اولاد سعود، وقتل الرابع قبل ذلك، اما الخامس فقد فر الى حائل املا في العفو من ابن الرشيد. وتقول رواية اخرى ان الابن الاخير لسعود كان اسيرا فخريا في حائل(٦٠).

وفي شتاء ١٨٨٩/ ١٨٩٠، قام الشمريون بغزوة وصلوا فيها الى الحجاز. وعندما عاد ابن الرشيد الى العاصمة علم بان ضيفه الاسير عبد الله بن فيصل مريض وان حالته خطرة. فسمح له بالعودة الى الرياض مع اخيه عبد الرحمن بن فيصل. عاد عبد الله الى عاصمته الخالية وتوفي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٩(٦١). وقبل ٢٤ عاما من ذلك، عندما تربع على العرش، كانت امارة الرياض تمتد من جبل شمر حتى المناطق الداخلية في عمان، ومن الخليج حتى الحجاز وحدود اليمن. وعندما توفي وهو تابع لحائل لم يكن عنده غير منطقة العارض وسيادة اسميه على الوشم وسدير. وكان ثلث تلك الفترة تقريبا هاربا مشردا، بينما كان آخرون يحكمون الدولة المتداعية. ونعته فيلبي بالحاكم «غير القدير». الا ان مجمل الملابسات غير الملائمة، وليس الضعف الشخصي، هي الاسباب الحاسمة في هلاك دولة السعوديين(٦٢).

وصار عبد الرحمن اميرا للرياض. وقد اصطدم في عام ١٨٩٠ مع حاكمها الشمري سالم واعلن الانتفاضة عليه. وحاصرت قوات ابن الرشيد الرياض، الا ان المدينة كانت آنذاك قد تعززت كثيرا. واخفق الحصار، فعقد الطرفان هدنة. وظل عبد الرحمن حاكما للرياض وبعض المناطق المجاورة لها ولكن بصفة تابع في الواقع لمحمد بن الرشيد (٦٣).

وفي تلك الاثناء فضل اهالي عنيزة وبريدة في القصيم التحالف مع عبد الرحمن ضد جبل شمر بعد ان تأكد لهم ان سلطة الشمريين تتقوى عليهم وان الضرائب تزداد والامتيازات تتقلص.

وفي اواخر عام ١٨٩٠، تشكل ائتلاف واسع نسبيا للعناصر المناهضة لآل الرشيد من بين اهالي القصيم وانصار عبد الرحمن وقبائل مطير. وجمع ابن الرشيد كل قواته، بما فيها وحدات من قبائل شمر وكذلك من حلفائها من بدو الظفير وحرب والمنتفق. وكتب أ. موسيل يقول ان ابن الرشيد «بعث ٤٠ رسولا على أربعين ناقة موشحة بستائر سوداء الى مختلف افخاذ وبطون شمر التي خيمت آنذاك بين كربلاء والبصرة. وكان يراد للستائر السوداء ان تبين بوضوح لجميع رعايا الامير محمد بأن عارا اسود سيلطخهم اذا لم يهبوا فورا لنجدة زعيمهم»[٦٤]. ونشبت معركة كبيرة هي وقعة المليدة في القصيم اقتتلت فيها من الجانبين آلاف عديدة من المحاربين. وربما كانت تلك اكبر معركة منذ الغزو المصري.

واستمر القتال سجالا طوال شهر. الا ان عبد الرحمن، لسبب ما، لم يهب لنجدة حلفائه وتركهم وحيدين في مواجهة الشمريين.، واخيرا، في كانون الثاني (يناير) ١٨٩١، لجأ محمد بن الرشيد الى الحيلة متظاهرا بالانسحاب، ولكنه نظم بعد ذلك هجوما مضادا مباغتا. جمع بضعة آلاف من الجمال في الوسط وحركها الى الامام بعد ان اطلق النار على القصيميين. وتقدم المشاة من وراء الجمال. وسدد الهجانة والفرسان في وقت واحد ضربات من الجناحين. وفقد القصيميون ما بين ٦٠٠ و ١٢٠٠ شخص، وفر الكثيرون الى الكويت والعراق والشام[٦٥]. وعزز ابن رشيد لعشر سنوات تقريبا مواقعه كحاكم بلا منازع لاواسط الجزيرة.

وعندما بلغ عبد الرحمن بن فيصل نبأ هزيمة حلفائه فر الى البادية. وبعد تجوال طويل استقرت عائلته في عام ١٨٩٣ في الكويت تحت حماية شيخها محمد الصباح. وخصصت الحكومة العثمانية لعبد الرحمن معاشا متواضعا بستين ليرة ذهبية شهريا[٦٦]. وانتقلت السلطة كاملة في الرياض الى عجلان وهو من عبيد محمد بن الرشيد. وتم تقسيم نجد الى عدة مناطق خاضعة لجبل شمر.

وغدا حاكم جبل شمر سيدا لبلد مستنزف مخرب، ومحروم من منفذ الى البحر. وكتب جميع الرحالة الذين زاروا اواسط الجزيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن البساتين الذابلة والنخيل الميتة والآبار التي اجتاحتها الرمال

والقرى الموات. ولم تكن الدولة الخائرة قادرة على حماية الواحات من البدو. ونزح آلاف الناس الى العراق او الى سواحل الخليج.

وتضررت التجارة. وكتب امين الريحاني عن الاحوال العصيبة التي واجهها التجار آنذاك[٦٧]. واسفرت مخاطر نقل البضائع بطرق القوافل التجارية عن تذبذب في الاسعار ونسفت العلائق الاقتصادية وادت الى افلاس الصناع والتجار.

وفي العقد الاخير من القرن التاسع عشر لم تحل دون الانتفاضات الا القوة العسكرية لدى محمد بن الرشيد. ولكن القلاقل بدأت على أثر وفاته، واخمدها بوحشية الامير الجديد لجبل شمر عبد العزيز بن الرشيد. فقد نهب المدن والقرى بلا رحمة وخنقها بالغرامات الحربية. ولكنه تورط في صراع مع الكويت فعجز عن السيطرة على النزاعات القبلية الاقطاعية التي تصاعدت في كل مكان وعن الحيلولة دون نهب البدو للواحات. وقال موسيل: «كان الحضر جميعا يحنون الى سلطة قوية تحمي اموالهم وحياتهم»[٦٨].

آل الرشيد في اواخر القرن التاسع عشر. يقول المؤرخ خالد الفرج: «اعتمد محمد العبد الله الرشيد في تشييد امارته على سياسة «فرق تسد» واتكأ على قوة عشيرته «شمر» وهي من كبريات القبائل المشهورة بالفروسية والشجاعة... وخص الاتراك بكثير من المجاملة والمسايرة لأن طرفي طريق الحجاج الذي يقوم آل رشيد على ايراده، وهما العراق والحرمان، في ايديهم، حتى انه اعترف بخضوعه للسلطان عبد الحميد. وتعددت منه الرسل والهدايا الى «الباب العالي» وحاز على النياشين الرفيعة وقبل المعتمدين المندوبين من الحكومة العثمانية. فصارت تعتمد عليه، وتعده من اكبر المخلصين لها، وتراه الوسيلة الفعالة التي قضت على آل سعود ومحت امارتهم من الوجود، فاغدقوا عليه العطاء وخصوه بالمساعدات والتعضيد. وكان على الاجمال رجل وقته، الى ان توفي سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) مريضا بذات الجنب، عقيما لم يخلف ولدا»[٦٩].

وورث الحكم عنه ابن اخته عبد العزيز المتعب الذي كان في حوالى الثلاثين من

العمر، وكان محاربا باسلا ومغامرا، ينساق للغضب والاستعجال في اتخاذ القرارات. كان يجيد استخدام السيف اكثر مما يجيد السياسة، وكان يفعل قبل ان يفكر (٧٠). وفي غضون عشر سنوات بدد القسم الاكبر من الارث الذي خلفه له خاله الجبار. ولم تستطع امارة جبل شمر ان تلعب دور الدولة الموحدة المستقرة. فهي تستند الى قبيلة شمر، لذا اعتبرها سائر السكان اداة سيطرة اتحاد قبلي واحد على القبائل الاخرى وليست سلطة لعموم الجزيرة العربية تتجاوز الاطر القبلية. وفي اواخر القرن التاسع عشر وقعت امارة جبل شمر في تبعية متزايدة للامبراطورية العثمانية فغدت وسيلة لنقل النفوذ العثماني الى شبه الجزيرة، ولذلك فان تذمر واستياء اعراب الجزيرة من حكم الاتراك شملا امراء حائل ايضا. وكانت بريطانيا قد عززت مواقعها على ساحل الخليج وأعاقت محاولات الاتراك لاستعادة مواقعهم، واخذت تؤيد منافسي امارة جبل شمر. واخيرا، بعد وفاة محمد الرشيد، لم تتمكن العائلة الحاكمة الغارقة في النزاعات من ترشيح اي حاكم بمنزلة عبد العزيز بن عبد الرحمن مؤسس العربية السعودية المرتقب. وكانت كل هذه العوامل التي اضيفت اليها فيما بعد المشاركة في الحرب العالمية الاولى الى جانب الاتراك قد اسفرت عن غروب وسقوط امارة جبل شمر القوية.

تنافس الدول على حوض الخليج في مطلع القرن العشرين والوضع في الجزيرة العربية. لقد بين تاريخ الدولتين السعوديتين الاولى والثانية بوضوح مد تشابك مصير الجزيرة العربية مع التطور العام للوضع في هذه المنطقة من العالم. فان مستقبل الكيانات الدولية في الجزيرة حدده ليس فقط تناسب القوى في البادية، واحيانا ليس تناسب القوى فيها بالذات، بل كذلك القرارات المتخذة في لندن واسطنبول والقاهرة وبرلين وكذلك بطرسبورغ وباريس.

كانت بريطانيا اقوى دولة استعمارية في اواخر القرن التاسع عشر فقد استولت، بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩، على مصر عام ١٨٨٢ وسعت الى السيطرة المباشرة أو غير المباشرة على الجزيرة العربية كلها. وكانت الامبراطورية الاستعمارية البريطانية في الهند قد شدت اليها بشكل اوثق سلطنة عمان وامارات

ساحل الصلح البحري وقطر والبحرين. وكان قد جاء دور الكويت التي كانت رسميا تحت السيادة العثمانية.

ومع ان الخليج العربي كان من الناحية النظرية ممرا مائيا دوليا، فقد غدا عمليا بحيرة بريطانية. لقد كانت المواصلات البرقية الامبراطورية تمر عبر الخليج العربي الى الهند واستراليا. وكانت حصة بريطانيا العظمى والهند البريطانية في صادرات بلدان الخليج ٤٠٪، وفي وارداتها ٦٣٪. وكانت جميع البضائع تقريبا تصدر وتستورد من هناك على سفن تحمل العلم البريطاني[٧١] كما ان الاسطول البحري الحربي البريطاني كان يسيطر على الخليج والمحيط الهندي.

وكان المندوب البريطاني السامي في منطقة الخليج يسمى «بالمعتمد السياسي لصاحب الجلالة في الخليج الفارسي والقنصل العام في فارس وخوزستان». وعلى حد تعبير نائب الملك في الهند كيرزون فقد كان «ملكا غير متوج للخليج الفارسي»[٧٢]. وعلى الساحل العربي من الخليج كان لبريطانيا معتمدون سياسيون خاضعون لها في مسقط والكويت والبحرين. وكان المعتمد السياسي مسؤولا امام الحكومة البريطانية الهندية، وكقنصل عام، كان خاضعا للسفير البريطاني في طهران.

لقد طرحت السياسة البريطانية في الخليج العربي مهمة مزدوجة هي السيطرة على طرق المواصلات البحرية وغيرها من الطرق المؤدية الى الهند واحلال «الوئام البريطاني» (Pax Britannica) في الخليج والذي يقصد به سيادة المصالح التجارية البريطانية وعدم السماح بدخول دول اخرى اليه.

وفي اواخر القرن التاسع عشر شمل تناحر الدول الكبرى وتوسعها الاستعماري حوض الخليج. وكانت الامبراطورية الالمانية تبحث بشكل مسعور خصوصا عن مكان لها تحت الشمس. وكانت حكومة غليوم الثاني التي اعلنت بانها «حامية الاسلام» قد اخذت تتقارب اكثر فاكثر مع حكومة السلطان العثماني وتعزز بنشاط مواقعها الاقتصادية والسياسية والعسكرية في الامبراطورية العثمانية. واعتبارا من اواخر الثمانينات ظهرت فكرة مد سكة حديد اسطنبول - بغداد

وايصالها الى الخليج بغية التغلغل الى هذه المنطقة بدون الطرق البحرية التي تسيطر عليها بريطانيا. وفي عام ١٨٩٩ حصل الالمان على امتياز اولى لمد السكة المذكورة مع ايصالها الى الكويت. وظهر خطر نشوء خط استراتيجي مباشر بين برلين والخليج، الامر الذي يهدد السيطرة البريطانية في الخليج والجزيرة العربية والشرق الاوسط كله. وفي غرب الجزيرة كان الالمان يساعدون الاتراك في مد سكة حديد الحجاز التي تربط بين دمشق والمدينة المنورة.

وكانت بريطانيا في اواخر القرن التاسع عشر تعتبر روسيا القيصرية التي تحالفت مع فرنسا منافسا خطرا ايضا في هذه المنطقة. ونوقش في بطرسبورغ بصورة جدية مشروع الحصول على امتياز لمد سكة حديد عبر القفقاس الى الخليج. وليس من قبيل الصدفة ان السلطات البريطانية في الهند اعتبرت زيارات السفن الحربية الروسية والفرنسية الى موانىء الخليج «لعرض العلم» ومحاولاتها للعثور على مكان لمحطة فحمية تحديا مباشرا(٧٣).

واشتدت التناقضات الانكلوفرنسية بشأن مسقط التي حاول الفرنسيون في ١٨٩٩ ان ينشئوا محطة للفحم فيها. وفي عام ١٩٠٣، قامت السفن الروسية والفرنسية بزيارة مشتركة لموانىء الخليج والجزيرة العربية (٧٤).

وفي اواخر القرن التاسع عشر بدأ تغيير في السياسة البريطانية التقليدية ازاء الامبراطورية العثمانية. ففي السابق كانت لندن تسعى الى الحفاظ على وحدة تلك الامبراطورية مؤملة في اخضاعها بالكامل واستخدامها في الصراع ضد ورسيا. الا ان مركز ثقل المصالح البريطانية في شرقي البحر الابيض المتوسط وفي الشرق الاوسط انتقل تدريجيا من القسطنطينية الى مصر وبلاد الرافدين. ولعب ازدياد النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية دورا غير ضئيل في تغيير تلك السياسة. واخذ سولزبري الذي صار من جديد رئيسا لوزراء بريطانيا عام ١٨٩٥ يتحدث عن اقتسام الامبراطورية العثمانية. وكان المقصود ان تكون الجزيرة العربية وحوض دجلة والفرات، شأن مصر والسودان، منطقة للسيطرة البريطانية. وفي سياق هذه الخطط كانت لندن تعتبر الاحتفاظ بالسيطرة على الخليج من اكبر المهمات.

وفي عام ١٩٠٣ زار اسطول بريطاني يحمل علم كيرزون نائب الملك في الهند موانىء الخليج العربي. وكان ذلك اكبر اسطول اجنبي في مياه الخليج منذ عهد العمارة البرتغالية البوكيركا عام ١٥١٥. ودافع كيرزون في خطبه عن المواقع البريطانية بالاسلوب الملازم للعصر الاستعماري عصر «نير الانسان الابيض».

ومع ان ركود الامبراطورية العثمانية استمر في اواخر القرن التاسع عشر الا ان مواقعها في الجزيرة العربية تعززت بعض الشيء بسبب تقوية وتحسين الجيش وتطور المواصلات. وكان الاتراك، بعد الانجليز، اهم عامل في شؤون الجزيرة.

وكان افتتاح قناة السويس قد غير بصورة جوهرية مكانة الاتراك في غربي الجزيرة. فلئن كانت تصل الى هنا في السابق طوابير من الجنود المتعبين بعد مسير طويل عبر البادية وكان مجرد ارسالهم يكلف غاليا، فقد صار الجنود يرسلون بحرا عن طريق القناة. وفي سبعينات القرن التاسع عشر استطاع الاتراك ان يحتلوا اليمن وعسير من جديد(٧٥).

بديهي ان والي جدة وشريف مكة كانا في نزاع دائم فيما بينهما. وكانت العلاقات بين عون، والي جدة وحاكم مكة، الذي تسنم هذا المنصب اعتبارا من عام ١٨٨٢ قد تأزمت في الثمانينات. فقد بدأ الوالي باداء اعمال عامة فحسن تزويد جدة بالمياه واعاد بناء ترعة زبيدة وانشأ مبنى جديدا لحاكمية المدينة كما انشأ عنابر ومباني للخفراء. وسمح الوالي العثماني لعون باداء وظائفه القضائية ولكن فقط في المسائل المرتبطة بعشيرته والبدو والاشخاص من غير الاتراك والذين ولدوا في مكة نفسها. واخذ الاتراك يشرفون على طرق القوافل ويقومون بحملات على قبيلة حرب بدون موافقة شريف مكة. وتقلصت عائدات عون من الرسوم الجمركية. وعند ذاك انتقل شريف مكة وقسم من ابرز افراد عائلته مع الوجهاء والتجار ومفتي الشافعيين والعلماء الآخرين الى المدينة المنورة احتجاجا على تصرفات الوالي حتى تمكنوا من اقناع السلطان بتنحيته(٧٦).

وكان الوالي الجديد جمال باشا اكثر حذرا من سابقه. وازداد نفوذ شريف مكة بعض الشيء، الا ان الصدام استمر بينه وبين الباشا. وتردى موقف العرب من

الاتراك. وبعد وفاة عون في عام ١٩٠٥، تسلم منصب الشرافة على صنيعة الاتراك. وفي تلك الفترة اندلعت ثورة تركيا الفتاة، فنحي جمال باشا بوصفه من انصار النظام السابق. وبعد فترة قصيرة من الغموض في الموقف عين لمنصب الشرافة في خريف ١٩٠٨ الزعيم المرتقب للانتفاضة العربية الحسين بن علي الذي كان اسيرا فخريا في الاستانة منذ عام ١٨٩٣ مع اولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل(٧٧).

وفي عام ١٩٠٨ نفسه افتتحت في الحجاز سكة حديد معان - المدينة المنورة. وادى مد هذه السكة الى تحسن كبير في المواقع العسكرية الاستراتيجية للاتراك في غربي الجزيرة.

الا ان الامبراطورية العثمانية في شرقي الجزيرة لم تتمكن من تعزيز مواقعها بسبب مقاومة بريطانيا وبسبب تصاعد الميول المعادية للاتراك عند عرب الجزيرة.

وسعت الكويت التي غدت في اواخر القرن التاسع عشر مرفأ رئيسيا لباطن الجزيرة ومركزا تجاريا مزدهرا الى التقليل من تبعيتها للاتراك، وهي تبعية شكلية اصلا. واخذ شيخ الكويت محمد الصباح يتدخل على نحو نشيط في الصراع داخل الجزيرة، حيث كانت امارة جبل شمر التابعة للعثمانيين تشكل خطرا فعليا عليه، ولذلك وفر الحماية لعبد الرحمن بن فيصل الذي يدعي بأحقيته في عرش الرياض. واحتفظ هذا الامير الذي فر من الرياض بعلاقات مع واحات وقبائل اواسط الجزيرة فشجع الميول المناهضة للشمريين هناك.

وفي عام ١٨٩٦ قتل محمد الصباح واخوه بيد اخيهما الثالث مبارك الذي غدا شيخا للمدينة ولقبائل اطرافها(٧٨). وصار هذا الحاكم الجديد للكويت يمارس طوال عشرين عاما تقريبا تأثيرا غير قليل على الاحداث في الجزيرة.

وكانت قبيلة المنتفق القوية وعلى رأسها فخذ آل سعدون في جنوب العراق عاملا له شأنه في السياسة في اواسط الجزيرة. الا ان المنتفق كانوا يعتبرون البادية مجرد جهة لغزوات النهب.

وفي تلك الاثناء كانت الحكومة البريطانية مشغولة البال بالخطط الالمانية التركية لاستعادة الكويت ووضعها تحت السيطرة العثمانية المباشرة وتأمين منفذ سكة حديد برلين بغداد الى البحر[٧٩]. وحاول الاتراك مرارا الاستيلاء على الكويت ونفي الشيخ مبارك الى اسطنبول. ولأن مبارك يدرك ذلك كان يطلب الحماية من الانجليز الذين كان في الماضي يتحاشى التعاون الوثيق معهم.

وفرضوا عليه معاهدة سرية غدت الكويت بموجبها محمية بريطانية. ووقعت في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٩. والتزم الشيخ، فيما التزم، بعدم تقديم امتيازات لاحد ما عدا بريطانيا [٨٠]. وعادت بخفي حنين البعثة الالمانية التي وصلت الى الكويت في العام التالي للحصول على حق ايصال سكة حديد بغداد الى الكويت[٨١].

وصار الانجليز يشعرون بالقلق من امارة حائل بوصفها تابعة مخلصة للاتراك. وكان السعي الى اضعاف هذه الامارة احدى مهمات السياسة البريطانية في شبه الجزيرة، مع ان ذلك لم يكن يستبعد في بعض الحالات استخدام الانجليز امارة حائل لاغراضهم. واخذوا يؤيدون خصوم الاتراك وجبل شمر في الجزيرة العربية، الامر الذي كان له تأثير هام، ان لم نقل حاسم، على نجاح عودة آل سعود الى السلطة في نجد.

الفصل التاسع

بعث امارة الرياض
في مطلع القرن العشرين (١٩٠٢ - ١٩١٤)

في مطلع القرن العشرين نشأ في الجزيرة العربية من جديد وضع ملائم لبعث امارة الرياض. فان سلطة حائل كانت قائمة على القوة العسكرية لقبيلة شمر وحلفائها وعلى مساعدة الاتراك، ولكن تأييدها من جانب سكان نجد كان يتقلص باطراد. واخذت بريطانيا تتدخل في شؤون الجزيرة سعيا منها الى اضعاف اعتماد الامارات المحلية فيها على الباب العالي واخضاعها للحماية البريطانية في آخر المطاف. وغدت عائلة آل سعود التي استقرت في الكويت مركز جذب طبيعيا لجميع النجديين المتذمرين من حكم آل رشيد.

استيلاء الامير الشاب عبد العزيز على الرياض والسيطرة على المناطق المجاورة لها. في خريف ١٩٠٠، تزعم عبد الرحمن بن فيصل غزوة موفقة على احد بطون قحطان ووصل الى مناطق السدير. وبعد ان عاد الى الكويت اخذ يستعد لحملات عسكرية اكثر جدية واتساعا على نجد[١].

واستنادا للسياسة العامة الموجهة ضد آل رشيد تحالف شيخ الكويت مع زعيم المنتفق سعدون باشا ابو عجيمي[٢].

وفي اواخر ١٩٠٠ - أوائل ١٩٠١، جمع حاكم الكويت عساكره المكونة من البدو والحضر وتوجه الى القصيم. والتحق به عبد الرحمن وبعض الامراء السعوديين

الآخرين الذين انضوت تحت رايتهم اقسام من قبائل العجمان ومطير[٣]. وكتب آداموف قنصل روسيا في البصرة: «حقق الجيش الكويتي نصرا وتمكن من الاستيلاء على الرياض نفسها، ومن هناك تحرك مبارك ظافرا نحو حائل عاصمة آل رشيد»[٤]. ويبدو ان مبارك بالغ في التباهي بانتصاراته الاولى. وتمكن عبد العزيز بن متعب من الحصول على اسلحة اضافية من الاتراك فعبأ كل قواته[٥] فدحر الكويتيين وحلفاءهم في شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩٠١ على مقربة من واحة الصريف[٦].

وفي تلك الاثناء حاول عبد العزيز بن عبد الرحمن ان يستولي على حصن المسمك في عاصمة اجداده الرياض. وتمكن فصيله مع الكويتيين من اقتحام المدينة، الا ان الحاكم الشمري عجلان بن محمد تمركز في الحصن وتحمل الحصار. وعندما علم عبد العزيز بنتيجة معركة الصريف عجل في العودة الى الكويت.

كانت بريطانيا تشجع اعمال الكويت وحلفائها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ويعتقد قنصل روسيا في البصرة آداموف ان بريطانيا التي لها مصلحة في اضعاف جبل شمر كانت تقف من وراء مبارك. واشترى شيخ الكويت كميات كبيرة من بنادق «مارتيني» الانجليزية في البحرين [٧].

واخذت السلطات العثمانية في العراق تحشد قواتها العسكرية لتسدد ضربة الى الكويت بحجة «احلال النظام»، ولكنها لم تتجرأ على القيام بذلك خشية الصدام مع الانجليز[٨]. وبنتيجة صراع معقد تمكنت الدبلوماسية العثمانية بدعم من برلين من الاتفاق في ايلول (سبتمبر) ١٩٠١ على الاحتفاظ بالوضع القائم في الكويت ودرء احتلال القوات البريطانية لهذه المشيخة[٩]. وكانت روسيا في بداية القرن العشرين، كما جاء في توجيه سري الى آداموف قنصلها في البصرة، كانت تسعى كذلك الى الابقاء على الوضع القائم في حوض الخليج كما هو[١٠].

وبعد الاتفاق مع الاتراك هجم حاكم حائل على المشيخة التي اصابها الضعف بعد هزيمة الصريف. وحاصر ابن متعب موقع الجهراء على ساحل الخليج. الا ان الانجليز بعثوا سفينة حربية اطلقت النار على معسكر الشمريين. واخذت الاسلحة

الانجليزية تتوارد على المشيخة، بينما احتج القائم بالاعمال البريطاني في اسطنبول في لقاء مع السلطان على اعمال الشمريين. وبعد اسبوعين او ثلاثة من حصار ميؤوس منه عاد ابن متعب الى حائل بامر من السلطان.

واقنع عبد العزيز اباه بان يسمح له مرة اخرى ان يجرب حظه في الرياض. فتوجه في حملة على رأس اربعين محاربا فقط كما تفيد اغلبية المراجع، وكان بينهم شقيقه محمد بن عبد الرحمن وابن عمه عبد الله بن جلوى. وفي تشرين الثاني - كانون الاول (نوفمبر - ديسمبر) ١٩٠١، توجهوا عبر الاحساء نحو الجنوب الى الربع الخالي. وفي الطريق اجتذب هذا الفصيل محاربين من قبائل العجمان وآل مرة وسبيع والسهول. وتحول الفصيل الى قوات من عدة آلاف شخص. واخذ عبد العزيز يغزو بهذه القوات القبائل المعادية وقرى نجد التي ظلت موالية لآل الرشيد.

وعندما علم ابن متعب باعماله بعث برسائل الى السلطات العثمانية في بغداد والبصرة طالبا ابعاد عبد العزيز عن الاحساء. وعلم البدو بذلك فتركوا الامير الشاب خشية بطش الاتراك. فظل عبد العزيز مع جماعته الاولى التي لا يتجاوز عددها الاربعين شخصا. وادرك عبد الرحمن ان اعمال ابنه تتحول الى مغامرة خطرة فطلب منه العودة الى الكويت والتخلي عن خطة الاستيلاء على الرياض. وارغمت السلطات التركية في الاحساء فصيله على ترك المنطقة. وقضى عبد العزيز شهر رمضان في واحة يبرين[11].

يبدو ان ابن متعب لم يعر اهتماما كبيرا لهجمات الامير الشاب، مما افاد هذا الاخير. وقرر عبد العزيز المجازفة مرة اخرى رغم ممانعة ابيه. وفي ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢، ظهر في اطراف عاصمة السعوديين السابقة.

وبعد ان اخذ قسطا من الراحة في واحة صغيرة ترك فيها جماعة من افراده مع الابل والخيل واوصاهم بالفرار اذا لم يعد في الفجر. اما الباقون فتوجهوا الى اسوار المدينة. وفي ظلام الليل اجتاز المحاربون وعلى رأسهم عبد العزيز سور المدينة في منطقة «الشمسية»، وتركوا احتياطا عشرة رجال وتوجهوا الى صاحبهم جويسر الذي كان يعيش قرب منزل الحاكم الشمري عجلان بن محمد. كان عجلان متزوجا

من احدى نساء الرياض وكان يعودها نهارا، ويفضّل قضاء الليل مع الحامية التي يوجد فيها زهاء ٨٠ شخصاً في حصن المسمك. اطعم جويسر عبد العزيز ورجاله ثم تسللوا الى منزل زوجة عجلان. لم يجدوا عجلان فيه، ولكنهم حبسوا زوجته وامرأة اخرى في احدى الغرف. واستدعى عبد العزيز شقيقه محمد مع الرجال العشرة الذين تركهم وراء سور المدينة. واجتمع الفصيل كله في منزل عجلان. وقالت زوجته انه يمكن ان يأتي اليها بعد صلاة الصبح فقرروا الانتظار. وبلغ التوتر اوجه عند هذه الجماعة الصغيرة التي كانت تشعر تماما بالصبغة المغامرة لاعمالها.

حل صباح ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢. وأخيراً ظهر من بوابة الحصن عجلان مع حرس غير كبير. فاطلق عبد العزيز ورجاله النار وهرعوا الى عجلان. حاول الشمريون الهرب. وفي اللحظة الاخيرة فقط قتل عبد الله بن جلوى عجلان عند باب الحصن.

لقد استفاد رجال عبد العزيز من عنصر المباغتة فانتقموا من الحامية الشمرية الموجودة في الحصن، ثم قتلوا من كان في المدينة. واطلق سراح عشرين من الشمريين بكلمة شرف بعد ان اعتصموا في البرج. وكانت خسائر الامير الشاب هي قتيلان وثلاثة جرحى لا غير. وكان انتصاره الرائع غير المتوقع قد خلب الباب اهالي نجد بالطبع، وفيما بعد صار الشعراء والرواة يتغنون به في روايات وقصائد كثيرة(١٢).

واقسم اهل الرياض يمين الولاء لعبد العزيز الذي بدأ على الفور بتحصين اسوار المدينة. وعندما علم ابن متعب بنبأ سقوط الرياض استولى عليه الهياج واقسم بان يثأر من اعدائه التقليديين. ونزح من الفرات الاوسط الى حائل ليجمع العساكر ويتوجه الى الرياض، الا ان الاستعدادات استغرقت عدة اشهر(١٣).

وفي تلك الاثناء وصلت امدادات الى عبد العزيز من الكويت ـ سبعون مقاتلا وعلى رأسهم اخوه سعد. وتمكن الشاب من القيام بحملة على الجنوب واحتلال الخرج قبل وصول الشمريين.

وفي ايار (مايو) ١٩٠٢ وصل ابوه عبد الرحمن الى الرياض. ويجمع المؤرخون العرب والاوروبيون على ان الاب والابن كانا يفهمان بعضهما بعضاً جيدا، وكانت الثقة بينهما قد ساعدت على استقرار الدولة الجديدة. فالامير العجوز كان، كما يبدو، يقدر قابليات ابنه تقديرا واقعيا. وعندما جمع عبد العزيز العلماء ووجهاء الرياض وطالبهم باداء يمين الولاء لابيه رفض عبد الرحمن هذا التكريم واعلن ان ابنه هو الامير، وصار عبد العزيز حاكما للرياض وهو في الثانية والعشرين. وظل ابوه مستشارا رئيسيا له واماما للمسلمين[١٤].

أثبتت جسارة عبد العزيز في الاستيلاء على الرياض انه يتحلى بخصال الشيخ والامير: البسالة والمهارة في القيادة والموفقية. وأثبتت الاحداث اللاحقة ان عبد العزيز كان شخصية بارزة دون ريب بمقاييس الجزيرة العربية. وهذا ما اجمع عليه كل المؤرخين والرحالة من عرب واوروبيين. فقد تمرس عبد العزيز في المنفى وتضلع في اخلاق البدو وعاداتهم ونقاط ضعفهم وقوتهم، وكان يجيد التحكم فيما عرفه عن البدو. والى جانب ذلك كان يدرك بان عليه ان يعتمد بالاساس على سكان نجد الحضر، لذا اولاهم عناية دائمة. وكان يدرك قوة الدين فأقام علاقات طيبة مع علمائه منذ البداية.

جرت العادة في المطبوعات الاوروبية، والعربية جزئيا، على تسمية مؤسس الدولة السعودية الحديثة باسم اسرته: ابن سعود. لذا سوف نستخدم نحن ايضا هذا الاسم في بعض الاحيان.

وقد تركت لنا المستعربة الانجليزية هير ترودا بيل في كتابها «الحرب العربية» صورة ادبية لعبد العزيز، مع انها تخص فترة متأخرة من حياته: «يداه نحيفتان باصابع رقيقة، وتلك سمة منتشرة بين القبائل العربية الاصيلة. ورغم طول قامته وعرض منكبيه يدل مظهره على التعب، ولكنه تعب اقرب الى الارتخاء العربي وليس صفة فردية. انه تعب شعب عريق منطو على نفسه عبأ قواه الحيوية لدرجة كبيرة ولم يغترف من الطاقة الا اقلها خارج حدود بلاده الوعرة. ان حركاته المتأنية وابتسامته الطيبة البطيئة وعينيه اللتين تتطلعان بفطنة من تحت حاجبين ثقيلين ـ كل

ذلك يضيف الى خصاله جاذبية، ولا يتفق مع المفهوم الغربي للشخصية النشيطة. ومع ذلك تشير الاحاديث عنه الى تحمله البدني النادر حتى في الجزيرة العربية ذات الظروف الصعبة»[١٥]. ونحن نترك «الارتخاء العربي» و«الانطواء على النفس» على ذمة المستعربة الملتزمة بالمدرسة الاستعمارية البريطانية، ولكننا نشيد بتقييمها الرفيع عموما لشخصية امير الرياض.

انتهز عبد العزيز فرصة الهدوء التي هيأها الشمريون فسدد ضربات في جميع الاتجاهات محاولا ان يؤمن حول الرياض على الاقل الحد الادنى من الاراضي لتكون لديه القدرة العسكرية والاقتصادية اللازمة لمواصلة الحرب.

وخلال تلك الفترة اثارت الاحداث في الجزيرة العربية اهتمام لندن وبرلين وبطرسبورغ فضلا عن اسطنبول. ومارست الدبلوماسية الالمانية ضغطا على السلطان العثماني بغية توفير منفذ امين لسكة حديد بغداد الى الخليج. وكان حاكم حائل الذي حاول استعادة السيطرة على جنوب نجد واثقا من الدعم التركي. الا ان بريطانيا كانت من وراء ظهر خصومه الكويتيين، والسعوديين في التطبيق العملي[١٦].

وفي تموز ـ آب (يوليو ـ اغسطس) ١٩٠٢ تمكن امير شمر من مهاجمة الرياض وقام في الطريق بغزوات على القبائل والواحات المعادية له. وتدل هجماته على واحات الوشم والمحمل والقصيم على ان سكان هذه المناطق كانوا ضده [١٧].

بدأ ابن سعود يجمع المتطوعين من سكان مدن العارض وبدو الدواسر وآل مرة. ولم يتمكن الشمريون من الاستيلاء على العاصمة الرياض رأسا لانها صارت جيدة التحصين. لذا فضل ابن متعب عدم اقتحام المدينةوراح يقوم بحملات حولها وخصوصا على الخرج. واستمرت الصدامات والمناوشات بين الطرفين في ايلول (سبتمبر) حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٢، الا ان الوباء الذي تفشى بين الشمريين حسم الامر لصالح عبد العزيز. واضطر ابن متعب على الانسحاب نحو الشمال[١٨].

وبعد ان عاد ابن متعب من حملته الفاشلة على الرياض قام بغزوات جديدة. وظل كالسابق يعتبر مبارك حاكم الكويت، عدوه الرئيسي فقرر ان يسدد الضربة اليه. وفي هذه المرة هب عبد العزيز مع عدة آلاف من رجاله لنجدة الكويتيين في كانون الثاني - شباط (يناير - فبراير) ١٩٠٣. وهجم الكويتيون بقيادة جابر والنجديون بقيادة ابن سعود ومن التحق بهما من قبائل العجمان وآل مرة وسبيع والسهول وبني هاجر وبني خالد والعوازم على بدو مطير الذين كانوا موالين لآل الرشيد. وقتل في المعارك احد زعماء مطير وهو عماش آل دويش وابنه [١٩]. وكانت نتيجة المعركة غامضة. وهذا ما يستفاد من تقرير قنصل روسيا في البصرة، حيث كتب عن هزيمة الحلفاء الكويتيين والسعوديين على ايدي مطير [٢٠].

وفي تلك الفترة زار عبد الرحمن بن فيصل الكويت وتقابل مع قنصل روسيا في بو شهر[٢١]. الا ان تلك الخطورة اتخذت على الاكثر لتهديد الانجليز بغية ارغامهم على تقديم المساعدة لامير الرياض، وليس لاقامة اتصالات سياسية فعلية مع روسيا. وفي ربيع ١٩٠٣ حاول الشمريون للمرة الاخيرة الاستيلاء على الرياض، الا انهم انهزموا امام حاميتها بقيادة عبد الرحمن، ابي عبد العزيز.

كانت اولى انتصارات عبد العزيز تعني بعث نواة امارة الرياض بدعم نشيط من الكويتيين، وبدعم غير مباشر من الانجليز.

التقدم نحو القصيم. في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٣ تقابل ممثل ابن سعود مع المعتمد السياسي البريطاني في البحرين وطلب منه الحيلولة دون انزال القوات التركية في حالة استيلاء امير الرياض على الاحساء. ولم يحصل ابن سعود على جواب محدد، الا ان الادارة الانكلوهندية صارت تراقب اكثر فاكثر نشاط عبد العزيز بعين الرضا[٢٢]. وبتبريك منها تعزز التحالف بين حاكم الكويت مبارك وامير الرياض عبد العزيز وشيخ المنتفق سعدون ضد جبل شمر. وفي آذار (مارس) عقدوا اجتماعا في الكويت واتفقوا على الاعمال المشتركة [٢٣].

وفي عام ١٩٠٣ صار الشمريون يفلتون اكثر فاكثر السيطرة على المناطق الواقعة جنوبي القصيم [٢٣].

وفي تلك الاثناء حدثت تغيرات جدية في الوضع الدولي. فقد نشطت بريطانيا هجومها على منافسيها الالمان والروس في حوض الخليج. وفي تشرين الثاني - كانون الاول (نوفمبر - ديسمبر) ١٩٠٣، زار نائب الملك البريطاني في الهند كيرزون بلدان الخليج بصحبة عمارة حربية وبفخفخة كبيرة. وكانت الحرب النجدية الشمرية جزءا من الصراع بين الدول الكبرى من اجل النفوذ في حوض الخليج.

وفي مطلع عام ١٩٠٤، زحفت قوات امير الرياض بسرعة نحو القصيم. وفي آذار (مارس) ١٩٠٤ على وجه التقريب اقتحم الفصيل الذي ارسله مدينة عنيزة حيث قتل القائد العسكري الشمري فهيد السبهان في سوقها الكبير[٢٥].

ولكن المدينة لم تكن قد احتلت بعد. وفي المعركة التي نشبت قرب عنيزة دحر عبد العزيز قوات الشمريين التي قادها ماجد بن حمود[٢٦]. وشارك في المعركة الى جانب الشمريين بعض اقارب عبد العزيز من ابناء اخوته واحفاد عمه سعود بن فيصل الذي ادعى بعرش الرياض. وعرفهم عبد العزيز ونعتهم «بالعرايف»، وهذا المصطلح يطلقه البدو عادة على ابلهم التي يستولي عليها العدو ثم تستعاد في حملة مضادة. وكان ابن سعود، بما يلازمه من تسامح تقليدي، وعلى الاصح مرونة كبيرة وبصيرة نافذة وقدرة على تجريد الاعداء الذين لم يعودوا خطرين من سلاحهم، كان قد عفا عن اقاربه هؤلاء بلا قيد او شرط واقترح عليهم اما البقاء معه واما الانضمام الى آل الرشيد. وفي تلك الآونة قبلوا اقتراحه بالتصالح والتعاون والضيافة، ولكنهم بعد حين صاروا مجددا من اخطر اعدائه[٢٧].

وعين ابن سعود احد ابناء الوجهاء اميرا لعنيزة، وهو عبد العزيز آل سليم الذي عاد من منفاه في الكويت مع اتباعه المسلحين.

وبعد سقوط عنيزة بعث اهالي بريدة وفداً الى ابن سعود طالبين السماح لهم بمهاجمة الحصن في مدينتهم، والذي تمركزت فيه حامية من الشمريين. إن الاستيلاء على عنيزة اقنع اهالي بريدة بان الاحداث في تلك اللحظة تتطور لصالح امير الرياض. زد على ذلك ان آل مهنا (وهم من ابرز بطون بريدة الذين كانوا في

السابق في المهجر الكويتي) قد وصلوا الى عنيزة مع فصيل غير كبير، منتظرين فرصة استلام مقاليد السلطة مجددا[٢٨].

وكان الطريق الى بريدة مفتوحا، فبعث ابن سعود الى المدينة فصيلا بقيادة صالح آل مهنا ابا الخيل. وفيما بعد، عندما دخل عبد العزيز بريدة اقسم له سكانها يمين الولاء. وسلمت الحامية الشمرية المكونة من ١٥٠ شخصا الحصن في حزيران (يونيو) ١٩٠٤، بعد ان وافق ابن سعود على السماح لهم جميعا مع اسلحتهم بالذهاب الى حائل[٢٩].

وباحتلال عنيزة وبريدة شملت سلطة ابن سعود المنطقة الممتدة من الرياض حتى القصيم عبر الوشم. الا ان ابن متعب تمكن من اقناع الاتراك بان يقدموا له مساعدة اكبر. وعندما علموا بأن عبد العزيز ضم القصيم الى امارته شعروا بالقلق وبعثوا الى نجد فصيلا قوامه الفا جندي مع ستة مدافع بقيادة العقيد حسن شكري[٣٠].

وفي حزيران (يونيو) ١٩٠٤، نصب ابن متعب معسكرا في قصيبة - في منتصف الطريق تقريبا بين حائل وبريدة، وهناك استقبل الحامية الشمرية التي سمح لها ابن سعود بمغادرة بريدة[٣١].

وقبيل العمليات الحربية الحاسمة بعث حسن شكري برسالة الى عبد العزيز عندما كان هذا الاخير ما يزال في عنيزة وحذره من العواقب الوخيمة للعمليات الحربية ضد حاكم حائل. وكتب العقيد التركي يقول: «ان جلالة الخليفة الاعظم بلغه اضطراب الفتنة في بلاد نجد، وأن يداً أجنبية محركة لها. لهذا السبب بعثني اليكم حقنا للدماء ولمنع التدخل الاجنبي في بلاد المسلمين». ثم تشكى كاتب الرسالة من تعاون عبد العزيز مع مبارك الذي يتعاون مع بريطانيا الدولة الاجنبية الكافرة. واقترح بلهجة متعالية على عبد العزيز بان يعرض شكاواه على السلطات العثمانية وليس على مبارك الذي اعلن العصيان على الخليفة. واشار شكري الى انه حليف ليس فقط لآل الرشيد، بل ولجميع الذين ينشدون المعونة والدعم من الامبراطورية

العثمانية، وقال إنه اذا رغب ابن سعود ايضا في هذه المساعدة فبوسعه ان يتمتع بالنعم نفسها التي يتمتع بها آل الرشيد من الحكومة العثمانية[٣٢].

شعر حاكم الرياض بالقلق، ولكنه كان متصلبا في موقفه. ورد على تلك الرسالة بجواب جاء فيه: «وأما الآن، فلا نقبل لكم نصيحة ولا نعترف لكم بسيادة، والاحسن انك ترجع من هذا المكان اذا كنت لا تود سفك الدماء. فان تعديت مكانك هذا، مقبلا الينا، فلا شك اننا نعاملك معاملة المعتدين علينا... فان كنت حرا منصفا فلا يخفاك ان سبب عدم اطاعتي هو عدم ثقتي بكم... وخلاصة القول ان كل العمال الذين رأينا انهم خائنون منافقون. فلا طاعة لكم علينا، بل نراكم كسائر الدول الاجنبية». ثم يستشهد عبد العزيز بالوضع في اليمن والبصرة والحجاز وبسلوك الاتراك هناك لتوضيح اعماله. واعاد الى الاذهان نهب سلطات الحجاز للحجاج امام الكعبة. وحذر الامير في ختام رسالته العقيد بأنه اذا تحرك الاتراك نحو المنطقة الخاضعة له فانه سيعاملهم معاملة المعتدين [٣٣].

وفي صيف ١٩٠٤ حاول ابن سعود الاعتماد على الانجليز في صراعه ضد الاتراك وصنيعتهم فأقام اتصالات مع الميجر بيرسي كوكس الذي كان قد صار قبل حين معتمدا سياسيا لبريطانيا في منطقة الخليج. وقبل ذلك كان كوكس مساعدا للمعتمد البريطاني في الصومال خلال الفترة من ١٨٩٢ حتى ١٩٠١ وقنصلا في مسقط للفترة من ١٩٠١ حتى ١٩٠٤. وقدر له ان يلعب دورا هاما في العلاقات الانكلوسعودية حتى احالته على التعاقد في ١٩٢٣. وباشرافه عمل المستعربون المعروفون ولسن وبيل وفيلبي. وكانوا يمثلون جيل الموظفين والمخبرين والعسكريين الاستعماريين البريطانيين الذي يعتبر كيبلنغ اميرا لهم. وكانوا يعتقدون، بهذا القدر او ذاك من الاخلاص؛ بانهم يتحملون «عبء الانسان الابيض» عندما يدافعون عن المصالح الاستعمارية البريطانية، الا ان الكثيرين منهم كانوا يقومون بدراسات عميقة، وكانوا، على سبيل المثال، مطلعين جيدا على شؤون الجزيرة العربية.

لقد اعتبرت بريطانيا ظهور القوات التركية في نجد خرقا لاتفاقية ١٩٠١ بشأن

المحافظة على الاوضاع القائمة. وبعثت لندن الى الباب العالي احتجاجا شديد اللهجة[٣٤].

وبعد ان رأى العثمانيون وابن متعب استحالة اقناع عبد العزيز بالرضوخ لمطالبهم قرروا البدء بالعمليات الحربية. كان لدى الاتراك حوالى الفين من المشاة او ثماني كتائب (١١ كتيبة حسب رواية اخرى) من القوات النظامية وستة مدافع خفيفة وكمية كبيرة من النقود والذخيرة والاسلحة والاغذية. وبالاضافة الى الشمريين التحق بقوات جبل شمر ابناء قبيلتي هتيم وحرب، وكذلك سكان حائل. وعندما علم عبد العزيز باقتراب العدو قرر مواجهته في معركة مكشوفة. وخرجت من بريدة نحو الغرب قواته المكونة من ابناء الرياض والقصيم والخرج وقبائل مطير. على هذا النحو نشأ الموقف قبيل معركتي الشنانة والبكيرية اللتين اتسمتا بأهمية كبيرة لتقرير مستقبل اواسط الجزيرة كأهمية استيلاء عبد العزيز على الرياض[٣٥].

الصراع مع الاتراك والشمريين من اجل القصيم (١٩٠٤ ـ ١٩٠٦): لم تكن موقعة البكيرية معركة فاصلة واحدة بل سلسلة من الصدامات الكبيرة والصغيرة. حدثت الموقعة في اواسط تموز (يوليو) ١٩٠٤ على وجه التقريب. وتؤكد مراجع الجزيرة ان عدد القتلى من القوات النظامية التركية بلغ ما بين الف والف وخمسمائة شخص، ومن حائل ٣٠٠ ـ ٥٠٠ شخص، اما القوات السعودية فقد فقدت حوالى ١٠٠٠ شخص، يبدو ان هذه الارقام مبالغ فيها جدا، وعلى أي حال فهي تشمل الخسائر بسبب وباء الكوليرا والقيظ والامراض. ومن شهود العيان على هذه المعركة المؤرخ ضاري بن فهيد بن الرشيد الذي اكد ان متعب فقد مائة محارب، بينما فقد عبد العزيز مائتين[٣٦].وهكذا اتسع نطاق الصدامات والصراع لأن احتلال الرياض مثلا، اسفر عن مقتل بضعة اشخاص لا غير. وفي معركة البكيرية اصيب عبد العزيز بجراح ثخينة كاد يفقد حياته بسببها[٣٧].

الا ان المعركة اخذت تتحول لصالح امير الرياض. ويفيد لوريمير بأن احد القادة العسكريين الاتراك قتل، كما قتل عدد كبير من الجنود[٣٨]. واستولى ابن جلوى على كل المدافع التركية واخذ كثيرا من الاسرى. وانهمك ابن متعب في نهب قرى القصيم

وترك كل مؤنه ومعداته الثقيلة تحت حراسة مفرزة صغيرة عند البكيرية. وعندما سمع باقتراب قوات عبد العزيز التي استلمت امدادات ارسل على الفور قسما من قواته لنجدة مفرزة الحراسة، ولكن بعد فوات الاوان. فقد استولى عبد العزيز على كل مستودعاته وعلى مدينة البكيرية(٣٩).

وتوجه ابن متعب الى منطقة الرس والشنانة في القسم الغربي من القصيم، فوصلها في آب (اغسطس) من العام نفسه مؤملا، على ما يبدو، في الحصول على مساعدة الاتراك من الحجاز. الا ان مدينة الرس التي كانت خاضعة له في السابق قررت هذه المرة الانضمام الى امير الرياض، لذا نصب الشمريون معسكرهم في الشنانة. ووصل الى المنطقة نفسها عبد العزيز مع قواته الاساسية، الا ان كلا الخصمين لم يدخلا في قتال، وربما كان ذلك بسبب حر الصيف. وتفشى وباء الكوليرا في معسكر ابن متعب، بينما اخذ البدو من كلا الطرفين يتفرقون لأنهم لم يجدوا الغنائم المنشودة. وظلت عند ابن متعب وحدات تركية من العراق وافراد من جبل شمر فقط، كما ظل في المعسكر السعودي ابناء المدن المخلصين لعبد العزيز. وفي اواخر ايلول (سبتمبر) نشبت بين الطرفين معركة قرب الشنانة، فر الاتراك بنتيجتها مع الشمريين. وفقدوا بضع عشرات من الاشخاص فقط، لكن السعوديين المنتصرين فازوا بكل اعتدة معسكر العدو وجماله واغنامه واغذيته وأسلحته وعدة صناديق مليئة بالنقود الذهبية (٤٠).

كان انتصار عبد العزيز هاما بخاصة لأنه احرزه ضد عدة كتائب من القوات التركية النظامية. وتجدر الاشارة كذلك الى ان القوات التركية كانت تعاني من فرار افرادها وأنها تقاتل في ظروف غير معروفة لها وغير ملائمة اطلاقا، في معمعان قيظ فظيع.

إلا أن دحر الاتراك بدا لعبد العزيز انتصارا خطرا جدا، فبعث الى والي البصرة رسالة طلب فيها معونة مالية معتبرا نفسه من اتباع الباب العالي (٤١) ومحاولا ابعاد خطر حملة تركية جديدة. وبعد ان استلمت السلطات العثمانية في وادي الرافدين تأكيدات عبد العزيز بولائه للسلطان جهزت رغم ذلك قوات من السماوة الى نجد

بثلاثة آلاف شخص مع المدفعية بقيادة احمد فيضي باشا من الفيلق الذي يتواجد مقره في بغداد. وبالمناسبة فان فيضي باشا كان مهتما بثرائه الشخصي اكثر من اهتمامه بنجاح الحملة، فاشترى بثمن بخس دواب نقل لا تصلح لشيء ولم يتمكن من تأمين نقل المقاتلين والذخيرة الى أعماق الجزيرة في الوقت اللازم(٤٢). وقد بدأت حملته في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥. وفي مدينة الزبير، شمالي الكويت، جرى لقاء بين والي البصرة احمد مخلص باشا وعبد الرحمن، والد عبد العزيز، ومبارك شيخ الكويت. واطلع والي البصرة الوفد السعودي بأن الباب العالي عين عبد الرحمن قائمقاماً وقرر بان القصيم يجب ان تكون منطقة محايدة عازلة بين آل الرشيد وآل سعود. وطلب الاتراك أن يسمح لهم بابقاء حامية في بريدة واخرى في عنيزة لضمان حياد القصيم. ولجأ عبد الرحمن الى تكتيك التملص فوعد بطرح هذه الاقتراحات على بساط البحث امام اهالي نجد (٤٣). الا ان قوات فيضي باشا التركية كانت قد زحفت نحو اواسط نجد، وقد اسرع لنجدتها من المدينة المنورة ٧٥٠ شخصا مع بطارية للمدفعية الميدانية بقيادة صدقي باشا.

كان ابن متعب متألما لازدياد تبعيته للاتراك وسرعان ما اختلف مع احمد فيضي باشا وترك حماته الاقوياء اكثر من اللزوم(٤٤).

وتضعضعت مواقع عبد العزيز بشدة نتيجة لتصرف امير بريدة صالح بن حسن آل مهنا. فقد حاول التخلص من آل الرشيد ومن السعوديين معا وفضل الخضوع والتبعية للامبراطورية العثمانية. وفي نيسان (ابريل) ١٩٠٥ دخل الاتراك بريدة، وبعد بضعة ايام احتلوا عنيزة. واقيمت في كلتا المدينتين حاميتان تركيتان رفع عليهما العلم العثماني وتعالى نشيد «الحميدية» وصار اسم السلطان العثماني يذكر في صلاة الجمعة(٤٥).

وقسمت نجد الى وحدات ادارية تبعا للممارسات التركية المعتادة. وصارت بريدة قضاء يحكمه صالح الحسن بن مهنا. وأصبحت بريدة وعنيزة تابعتين اداريا لولاية البصرة. واعتبر جنوب نجد قضاء ايضا، بينما صار عبد العزيز بمثابة القائمقام ومركزه في الرياض، وهو خاضع رسميا للبصرة(٤٦).

في تلك اللحظة كان ابن سعود يدرك ان القوة ليست الى جانبه، وخوفا من الاستفزازات امر فصائله بعدم القيام بأي اعمال عدائية ضد الاتراك. وتقابل امير الرياض ووالده مع فيضي باشا الذي كرر مطلب الابقاء على الحاميتين التركيتين في بريدة وعنيزة حتى يتم عقد الصلح بين آل الرشيد والسعوديين مع اعتبار القصيم منطقة محايدة عازلة. الا ان عبد العزيز واباه تملصا من قبول هذه الالتزامات (٤٧).

كان اهتمام الاتراك آنذاك منصبا على الاحداث في اليمن. فالقوات العثمانية عجزت عن اخماد حركة الامام يحيى بن حميد الدين في صنعاء. وقرر الاتراك ارسال احمد فيضي باشا من نجد الى اليمن. وسلم قيادة القوات في القصيم الى صدقي باشا. وفي نيسان (ابريل) ١٩٠٥، على وجه التقريب، انتهت المفاوضات بين عبد العزيز والاتراك بلا نتيجة (٤٨).

لقد واجه الاتراك في نجد صعوبات كبيرة بسبب قلة الاغذية وكثرة الامراض وشيوع الفرار بين الجنود. ولم تتمكن الحاميات العثمانية في القصيم من احلال الاستقرار. وكانت الافخاذ والبطون الاقطاعية المحلية تعتقد بانه تهيأت لها فرصة للانفصال عن آل الرشيد وعن السعوديين، فحاولت احراز مزيد من الاستقلال، وعمل بنشاط كبير بهذا الخصوص حاكم بريدة صالح الحسن بن مهنا. واستأنف الشمريون غزواتهم على القصيم، وصار اهالي القصيم يتعاطفون من جديد مع السعوديين، ووصلت المساعدة لابن سعود من جهة غير متوقعة. فقد انضمت اليه مطير مع زعيمها البارز فيصل الدويش الذي تزعم حركة الاخوان فيما بعد(٤٩).

وفي ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٦، نشبت في القصيم معركة بين السعوديين والشمريين شهدها المؤرخ الشمري ضاري بن فهيد بن الرشيد. ففي الفجر هاجم السعوديون معسكر ابن متعب بعد ان قصفوه بالمدافع اولا. واخذ حاكم حائل يتراكض بين محاربيه بغية احلال النظام. وهرع الى راية آل رشيد التي وقعت في ايدي محاربين من العارض متوهما انهم من افراده. فناداهم باللهجة الشمرية فعرفوه واردوه قتيلا في الحال. وفر الشمريون مذعورين. تلك هي نهاية ابن متعب

الذي كان قائدا عسكريا شجاعا ولكنه كان زعيما سياسيا غير موفق. وقد دشن مقتله فترة من عدم الاستقرار في جبل شمر.

ونحى امير الرياض حاكم بريدة صالح الحسن من منصبه وزج به مع اخوانه في سجن في بالرياض. وبعد فترة قتل صالح اثناء محاولة للهرب. وعين لمنصب الامير ابن عمه محمد العبد الله ابا الخيل(٥٠).

وسرعان ما اتفق عبد العزيز مع امير حائل الجديد متعب على اقتسام اواسط الجزيرة. فقد سلمت الى امير حائل الأراضي والقبائل الواقعة شمالي القصيم، بينما صارت لابن سعود القصيم والاراضي الواقعة جنوبيها(٥١).

إلا ان القوات التركية كانت ما تزال موجودة في القصيم، علما بانها متعاطفة مع آل رشيد اكثر. ومنح الباب العالي متعب معونة بمبلغ ٢٠٠ ليرة تركية شهريا بالاضافة الى الاغذية، اما عبد العزيز فقد استلم ٩٠ ليرة تركية فقط شهريا(٥٢).

وفي تلك الفترة هبت مطير ضد امير الرياض بعد ان حرضها عليه الاتراك. ودحر عبد العزيز هؤلاء البدو وتوجه نحو بريدة التي يرابط فيها فصيل تركي (٥٣).

في صيف ١٩٠٥ عين سامي باشا الفاروقي قائدا للقوات التركية في نجد بدلا من صدقي باشا. ولكنه لم يصل الى القصيم على رأس فصيل مشاة من ٥٠٠ شخص الا في تموز (يوليو) ١٩٠٦. ويبدو انه التقى بعبد العزيز في آب (اغسطس) ١٩٠٦ وحاولا الاتفاق. فتظاهر عبد العزيز بالغضب وانصرف بعد ان خاطب سامي باشا بكلمات تعتبر من افظع الاهانات في الجزيرة العربية: «لولا انك ضيف عندنا لما تركناك تتحرك من مكانك» (٥٤).

وحل شهر رمضان فصادف ذلك شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦ وتأجلت العمليات الحربية. واقترح ابن سعود على سامي باشا ان يختار احد امور ثلاثة فاما ان يقرب القوات التركية من الرياض، مما يجعلها تحت رحمة امير الرياض، واما ان يخرج القوات والعتاد من نجد وأما ان يستعد للمعركة(٥٥).

كان الاتراك مرابطين في الجزيرة اكثر من عامين ونصف وكانوا يعانون من

الجوع، ويشعرون حتى بنقص التبغ. وتهرأت بزاتهم، وكان العرب يشكلون قسما كبيراً من الجنود، ولكنهم يكرهون أواسط الجزيرة العربية لدرجة انهم سموها بنت الشيطان. وكان جنود كثيرون يبيعون اسلحتهم واعتدتهم لاهالي القصيم كي يطعموا انفسهم. وانتشرت الامراض وساد الفرار من الجيش. وفي هذه الظروف لم يكن امام سامي باشا مخرج غير الجلاء [٥٦].

وفي اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦، على وجه التقريب، ترك سامي باشا معسكره المعزز على مقربة من بريدة وتوجه الى المدينة المنورة. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) بدأ بالجلاء ايضا الاتراك الذين كانوا قد وصلوا من العراق (وعددهم ٨٠٠ شخص تقريبا مع مدافعهم). فقد بلغوا الكويت ونقلوا منها الى البصرة [٥٧].

وتفيد تقديرات لوريمير ان حوالى أربعة آلاف وخمسمائة جندي عثماني ارسلوا الى اواسط الجزيرة في ١٩٠٤ـ١٩٠٥. ولم يعد الى المدينة المنورة والعراق الا ألف منهم. وفقد الاتراك ٣,٥ آلاف شخص بسبب الفرار والامراض والمعارك [٥٨]. وكانت تلك هزيمة ماحقة. ولم يتمكن الاتراك حتى من الاحتفاظ بسيطرة صورية على القصيم [٥٩].

ترسخ سلطة الرياض في جنوب نجد والقصيم (١٩٠٦ـ١٩١٢).

في ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٦، قتل امير حائل الجديد متعب الرشيد (الذي حكم اقل من عام) مع ثلاثة من اخوانه على ايدي سلطان وسعود وفيصل ابناء حمود الرشيد. ولم يتخلص من الموت الا الصبي شقيق الامير متعب الاصغر الذي انقذه خاله من آل سبهان وارسله الى المدينة المنورة التي كانت تحت السيطرة العثمانية. وصارت المعونات التي يقدمها الباب العالي الى آل الرشيد تصل الى المدينة مباشرة، وكان ذلك دليلا على موقف الاتراك السلبي من مغتصبي السلطة في حائل [٦٠].

اخذت امارة آل الرشيد تزداد ضعفا. وراح شيخ قبيلة الرولة نوري الشعلان يدعي بامارة الجوف بعد ان وسع ديرة قبيلته في اراضي جنوب سورية وشرقي

الاردن حاليا. واستفاد السعوديون من القلاقل في جبل شمر ليجتذبوا الى القصيم قوافل الحجاج القادمة من العراق وبلاد فارس. واشتد الصراع بين حكام حائل، وحدثت تبدلات سريعة بين الاشخاص المسكين بزمام الامور فيها. وحل محل سعود بن حمود سعود بن عبد العزيز الرشيد الصغير السن الذي اعاده الى حائل في عام ١٩٠٩ اخواله من اسرة آل سبهان القوية. وظل ابناء هذه الاسرة يمثلون السلطة الفعلية في الامارة. وحتى سقوط امارة جبل شمر في عام ١٩٢١ استلم زمام الحكم فيها حوالى عشرة من الامراء أو الاوصياء.

ولم تتمكن امارة جبل شمر التي غدت ضعيفة من الاستفادة من التوقف الموقت في التوسع السعودي مع ان القصيم كانت مضطربة. وانفصل عن امير الرياض فيصل الدويش وسائر زعماء مطير اذ دخلوا في تحالف سري مع حاكم بريدة عبد الله ابا الخيل.

وفي نيسان ـ ايار (ابريل ـ مايو) ١٩٠٧ نشبت قرب مدينة المجمعة في سدير معركة بين مطير وقوات ابن سعود المكونة بالاساس من قبيلة عتيبة. واندحرت مطير. واصيب فيصل الدويش بجراح في هذه المعركة فطلب الصلح واعرب عن خضوعه لابن سعود. كان كالسابق زعيما لقبيلة قوية، وفي تلك الازمان العصيبة كان ابن سعود بحاجة الى اصدقاء احياء اكثر من حاجته الى اعداء موتى، لذا تقبل تأكيداته بالولاء[٦١].

وفي آب ـ ايلول (اغسطس ـ سبتمبر) ١٩٠٧، ظهر سلطان بن حمود في القصيم حيث انضم اليه اهالي بريدة بزعامة ابي الخيل، وكذلك قسم من مطير. وعندما علم عبد العزيز بغارة سلطان جمع قوات من قحطان وعتيبة وسبيع والسهول وانضمت اليه قوات من العارض. وخلال المعارك اللاحقة في ايلول ١٩٠٧، دحر عبد العزيز مطير وزعيمها فيصل من جديد. ونشبت المعركة الحاسمة عند الطرفية على بعد بضع عشرات من الكيلومترات شمالي عنيزة. وقاتل ضد عبد العزيز الشمريون واهالي بريدة وكذلك مطير. وتعتبر معركة الطرفية من معارك عبد العزيز الحاسمة ضد اعدائه. ويعتبرها المؤرخون السعوديون انتصارا. الا ان

امير الرياض لم يتمكن من الاستيلاء على بريدة واكتفى بنهب اطرافها. وبعد واقعة الطرفية انسحب الشمريون الى حائل، كما تراجع فيصل الدويش، الى البادية [٦٢].

كانت الكتلة الموالية للسعوديين في بريدة تتقوى. وعندما اقترب ابن سعود مع قواته من المدينة في ايار (مايو) ١٩٠٨ فتح له انصاره بوابتها. والتجأ أبا الخيل والمحاربون المخلصون له الى الحصن. ولكنهم طلبوا الصلح بعد ان ادركوا بأن لا امل لهم في فك الحصار. وارتحل ابا الخيل الى الكويت ومنها الى العراق. وعين احمد بن محمد السديري اميرا لبريدة. وهو يمثل فخذا مرتبطا بالسعوديين من زمان.

وفي تلك الاثناء قتل سلطان بن حمود في حائل في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨. وتزعم الامارة سعود بن حمود[٦٣].

وفي تشرين الاول - تشرين الثاني (اكتوبر - نوفمبر) ١٩٠٨ جرت في الحجاز احداث هامة. فقد اضطرت الحكومة العثمانية الى استبدال شريف مكة علي بن عبد الله بالشريف الحسين بن علي. وكان الحسين قد عاد الى مكة وهو يداري رغبة خفية في ان يكون ملكا للعرب او ان يغدو، على اي حال، عاملا جديا في سياسة الجزيرة العربية.

وفي عام ١٩٠٨ بدأ جفاف مرعب في اواسط نجد استمر عدة سنوات كما يقول فيلبي[٦٤]. ويتعارض قوله هذا مع ما كتبه بعض المؤرخين العرب. وعلى اي حال، ربما كانت الامطار تهطل في مناطق اخرى، اما الجفاف فقد اصاب اواسط نجد بالذات[٦٥]. وتجدر الاشارة الى ان الكثيرين من سكان اواسط الجزيرة كانوا يعتقدون بان الجفاف في اراضي عبد العزيز كان اشارة مباشرة الى الغضب الالهي عليه. وكتب موسيل ان الكارثة الطبيعية ساعدت على التشوش العام في امارة الرياض. الا ان امطارا غزيرة سقطت في جبل شمر فتركت بعض القبائل عبد العزيز ونزحت الى المناطق الواقعة تحت سيطرة امارة حائل[٦٦].

كان تدهور الزراعة وازدياد المجاعة وخراب البدو كل ذلك شدد من عدم

الاستقرار عموما وضعضع سلطة عبد العزيز التي لم تكن قد توطدت بعد. وكان من دلائل عدم الاستقرار في الامارة التمرد الذي حدث ضد ابن سعود في منطقة الحريق حيث قتل الامير الهزاني على يد منافسيه من العائلة نفسها. وحدث ذلك، على ما يبدو، في شباط - نيسان (فبراير - ابريل) ١٩٠٩. واجتاحت القلاقل المنطقة كلها، وتمكن عبد العزيز من اعادة النظام بشق الانفس.

ولم تصبح منزلة امير الرياض في ممتلكاته نفسها راسخة تماما. فقد افاده عدم وجود خصوم اقوياء، الا ان الاتجاهات اللامركزية والنزاعات القبلية الاقطاعية كانت تضعضع السلطة المركزية احيانا.

وفي الوقت الذي كان فيه امير الرياض مشغولا بالشؤون الداخلية اخذ يهدده من الغرب الحسين شريف مكة الهمام. حرضته الحكومة العثمانية دوما على العمل ضد نجد.

ولم ينس عبد العزيز انه محاط من الغرب والشمال والشرق بممتلكات عثمانية او باتباع للاتراك معادين له. وكانت غزواته الجسورة البعيدة تدل على امكانية بعث الدولة الوهابية في حدودها الشاسعة السابقة، الامر الذي كان يثير قلق الاتراك وحكام الجزيرة المعتمدين على بريطانيا وعلى الامبراطورية العثمانية سواء بسواء.

وفي عام ١٩١٠، استمرت العمليات الحربية على نطاق غير كبير ضد ابناء عم عبد العزيز الثلاثة الذين سماهم «بالعرايف». ولم تسفر تلك العمليات عن نتائج جدية، ولكنها كانت من عناصر عدم الاستقرار الداخلي الناجم عن تباطؤ توسع امارة الرياض وعن الجفاف الفظيع.

وفي آذار - نيسان (مارس - ابريل) ١٩١٠، لبى عبد العزيز دعوة شيخ الكويت لمحاربة المنتفق وقائدهم سعدون باشا الذين كانوا آنذاك متحالفين مع الشمريين ضد الكويتيين. وفي حزيران (يونيو) ١٩١٠، دحر سعدون باشا القوات السعودية الكويتية الموحدة فاستولت المنتفق على غنائم كبيرة.

كانت العلاقات المتبادلة بين جبل شمر والسلطات العثمانية في الحجاز تتطور

بصورة مضطربة. وفي حزيران ١٩١٠، طرد زامل آل سبهان الفصيل التركي من واحة تيماء. الا ان نوري بن شعلان استولى على الجوف في عام ١٩٠٩ واحتفظ بها لبعض الوقت وضغط بذلك على جبل شمر من الشمال والشمال الشرقي. ويبدو ان نوري بن شعلان وعبد العزيز قد اقاما تعاونا متينا جداً ضد العدو المشترك.

وحاول الشريف حسين خلال عامين من حكمه ان يثبت ولاءه للباب العالي فقام بحملة على عسير، في حين كان الاتراك مشغولين باخماد انتفاضة الامام يحيى في اليمن. واستولى على اقليم عسير لاجل الاتراك وعاد الى مكة عبر واحات بيشة ورانيه وتربة الواقعة على حدود نجد وفرض سيطرته عليها.

وفي اواخر صيف ١٩١٠، جمع الشريف متطوعة من البدو ودخل نجد. وفي الطريق تمكن بالصدفة ان يأخذ سعد شقيق عبد العزيز اسيرا. ولم يكن الحسين يتوقع حربا كبيرة، ولم تكن قواته كافية. وصار المدعو خالد بن لؤي وسيطا بين امير الرياض وشريف مكة، وتعين عليه فيما بعد ان يلعب دورا هاما في استيلاء النجديين على الحجاز. وبعد المفاوضات وعد عبد العزيز بان يدفع للسلطان العثماني ستة آلاف ريال سنويا ويؤكد سيادة الاتراك رسميا على نجد. وبعد ذلك اطلق سراح سعد وعاد الحسين الى مكة.

وبعد عقد الصلح مع شريف مكة توجه عبد العزيز الى الحريق من جديد لاخماد التمرد الذي تزعمه هذه المرة احد «العرايف». وقد اعدم جميع افراد آل هزان الذين شاركوا في العصيان. الا ان عبد العزيز عفا عن مدبر التمرد وهو قريبه سعود بن عبد الله بن سعود. وظل هذا يخدمه باخلاص مدى الحياة. وفر باقي «العرايف» الى الحجاز حيث منحهم الشريف حق اللجوء.

في بداية عام ١٩١١، طلب منه شيخ الكويت مبارك ان يوجه ضربة الى عدوهم المشترك ـ قبيلة الظفير. ولكنه في الوقت نفسه اخبر شيخ هذه القبيلة ابن سويط باقتراب قوات عبد العزيز وحرم غزوته من عنصر المباغتة. الا ان شيخ الظفير هرب بعد ان اخبر ابن سعود بان مبارك يلعب على الحبلين. كان حاكم الكويت يفرق بين

قضيتين هما مساعدة آل سعود الضعفاء ضد امارة جبل شمر القوية وبعث امارة الرياض التي تحولت بسرعة الى القوة الرئيسية في اواسط الجزيرة. ورغم التنافس الشديد ظل مبارك يخاطب ابن سعود كالسابق«يا ولدي». وكان عبد العزيز يجيبه «يا والدي».

وفي عام ١٩١٠، زار المعتمد السياسي البريطاني الكابتن شكسبير عبد العزيز. وافاد بان امير حائل والامام يحيى وحاكم عسير تكاتبوا من اجل تدبير تمرد على الاتراك. كان عبد العزيز يريد طرد الاتراك من الاحساء وكان ينشد معونة الانجليز في ذلك. وفي عام ١٩١١، كانت الحكومة العثمانية ما تزال تسمي حاكم حائل «بأمير نجد». بينما كان الانجليز يخاطبون عبد العزيز في مكاتباتهم «بالشيخ عبد العزيز ابن الشيخ عبد الرحمن آل سعود».

كان الاقليم الشرقي يجلب دوما انتباه حكام الرياض. ولم يكن الامر يقتصر على اعتبارهم له ضيعة شرعية لهم. فان واحات الاحساء الغنية والمداخيل الجمركية كان بوسعها ان تعزز الحالة المالية للسعوديين. وكان امير الرياض بحاجة الى منفذ على البحر.وكان الوضع في الاحساء ملائما لخطط عبد العزيز، لأن السكان المحليين يكرهون الاتراك. الا ان ابن سعود كان يدرك من خبرة الحياة في الكويت ان الانجليز هم القوة الرئيسية في الخليج.

زار ابن سعود الكويت في عام ١٩١١ واجرى مباحثات ودية مع المعتمد البريطاني واتفق معه على التعاون. وتخلى حاكم الرياض عن كل الادعاءات في مسقط وعمان، وتقرر ان يسيطر على الاحساء والقطيف وجزيرة دارين ومرفأ العقير وان يحول الانجليز دون تدخل اي دولة من جهة البحر. ومقابل ذلك كان يتعين على ابن سعود ان يعترف بالحماية البريطانية على امارته وان لا يدخل في حرب بدون موافقة الحكومة البريطانية. ولم توقع هذه الاتفاقية رسميا، ولكنها كانت تستجيب لطابع المباحثات السابقة ولنهج بريطانيا في عدم اعاقة عبد العزيز عن الاستيلاء على الاحساء، وللاحكام العامة في معاهدة ١٩١٥ المرتقبة. كانت

بريطانيا في تلك الفترة تعتبر امارة الرياض محمية فعلية او محمية محتملة في اطار مجال نفوذها في حوض الخليج.

وفي عام ١٩١١، بدأت في عسير انتفاضة ضد الاتراك تزعمها محمد بن علي الادريسي. وارسل اليه عبد العزيز مساعدة عسكرية معينة. وأدت مشاعر اهل عسير الدينية القديمة وتعاطفهم مع الوهابيين الى تقوية التحالف بينهما.

وفي مطلع عام ١٩١٢، حاول الباب العالي، وهو منهمك بالحرب في اوروبا، ان يحصل على تاييد من اقاليمه البعيدة في الجزيرة العربية او التأكد من وقوفها على الحياد. وبعث الى عبد العزيز وفدا اثار فيما اثار مسألة ارسال قوات نجدية لدعم الحامية التركية في الاحساء. وأدرك ابن سعود ان الاحساء ستقع في القريب العاجل بيده كثمرة ناضجة.

وعندما منيت الحكومة العثمانية بهزيمة في البلقان حاولت باصرار ان تجعل من عبد العزيز حليفا لها في الجزيرة. ووصل وفد تركي الى الرياض كي يستشيره ويستمع الى آرائه وشكاواه. ورد عبد العزيز على والي البصرة سليمان شفيق باشا بهذا الخصوص قائلا: «انكم لم تحسنوا الى العرب، ولا عاملتموهم في الاقل بالعدل. وأنا اعلم ان استشارتكم اياي هي وسيلة استطلاع، لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي. وهاكم رأيي، ولكم ان تؤولوه كما تشاءون: انكم المسؤولون عما في العرب من شقاق. فقد اكتفيتم بان تحكموا وما تمكنتم حتى من ذلك. وقد فاتكم ان الراعي مسؤول عن رعيته. وفاتكم ان صاحب السيادة لا يستقيم امره الا بالعدل والاحسان. وفاتكم ان العرب لا ينامون على ضيم ولا يبالون اذا خسروا كل ما لديهم وسلمت كرامتهم». وفي الوقت نفسه اقترح عبد العزيز عقد مؤتمر للزعماء العرب في مدينة محايدة لتتهيأ لهم امكانية الاعراب عن آرائهم. واقترح بان يعيد الاتراك النظر في مواقفهم من العرب لاجل ايجاد شكل اكثر ملاءمة للحكم بمشاركة العرب. واقترح امير الرياض بأن توجد في اطار الامبراطورية العثمانية عدة دول عربية او دولة عربية موحدة بزعامة احد الحكام او وحدات سياسية منفردة بزعامة حكام محليين يعملون بشكل ولاة عثمانيين يتمتعون بالحكم الذاتي. وكانت

اقتراحات امير الرياض متعارضة جدا مع سياسة زعماء تركيا الفتاة التي حال ضعفها العسكري والسياسي دون الرد بحملة حربية على مقترحات عبد العزيز الجسورة.

وفي اواخر ربيع واوائل صيف ، قام الحسين، شريف مكة، بحملة اخرى على نجد بعد ان جمع المتطوعين من بدو عتيبة، بينما هجم محمد شقيق امام الرياض على بدو عتيبة الخاضعين للحسين. وتوترت العلاقات بين الحاكمين الى اقصى حد. ومنع الشريف النجديين من اداء حج عام ١٩١٢. وألب مخبرو الحسين سكان القصيم على الرياض، حتى ان حاكم القصيم ابن جلوى اعدم عددا من اهاليه. وتلقى عبد العزيز حقا ضربة شديدة، الا ان كراهية النجديين اتجهت بالدرجة الاولى ضد شريف مكة. وهكذا نشأ اساس النزاع الذي سينتهي فيما بعد باستيلاء النجديين على الحجاز.

نشوء حركة الاخوان. لم يكن لدى عبد العزيز سند متين وواسع بالقدر الكافي في اواسط الجزيرة رغم نجاحاته الاولى. فلم يكن يتمتع بدعم الدعوة الدينية السياسية التي رصت صفوف السكان وجعلتهم يلتفون حول آل سعود في عهد اجداده. كان آل سعود مرتبطين بفكرة دينية باركت النضال من اجل المركزية لصالح الامير والوجهاء الحاكمين وباركت الغزوات تحت راية «الاسلام الحقيقي».

وفي تلك الاثناء ظهرت في نجد حركة الاخوان. ومن المستبعد أن يكون عبد العزيز من واضعي فكرة الاخوان او من مؤسسي هذه الحركة. فان المؤسسين الروحيين للحركة هم قاضي الرياض عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف من آل الشيخ وقاضي الاحساء الشيخ عيسى والمدعو عبد الكريم المغربي الذي وصل الى الجزيرة العربية في اواخر القرن التاسع عشر واستقر في منطقة صارت فيما بعد هجرة الارطاوية.

وبالاضافة الى الالتزام الصارم بالفرائض الاساسية الخمس في الاسلام كان الاخوان مطالبين بالاخلاص «لاخوانهم» في الدعوة وبالخضوع للامام ومساعدة

بعضهم بعضاً بكل الوسائل، وعدم التعامل مع الاوروبيين ومع سكان البلدان التي يديرها الاوروبيون.

ولا احد يعرف التاريخ الدقيق لنشوء بلدة الارطاوية الاولى، الا انها ظهرت، على ما يبدو، في النصف الاول من عام ١٩١٣. وفي الاول من آذار (مارس) ١٩٢٩ كتبت جريدة «ام القرى» لسان حال السعوديين التي تأسست بعد ضم الحجاز ان كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ هو تاريخ نشوء اول هجرة.

نشأت اولى «هجر» الاخوان حول مجموعة الآبار في الوادي ذي المراعي الجيدة والاشجار الكثيرة. ويقع هذا الوادي على طريق القوافل من الكويت الى القصيم في منطقة دير مطير التي هي من اقوى قبائل اواسط الجزيرة واكثرها اعتزازا بنفسها.

وباع قسم من مطير طوعا بعض ابلهم ومعدات الخيام الضرورية لنمط الحياة البدوي. واستقروا في منطقة الارطاوية واخذوا يبنون المنازل بعد ان عزموا على ممارسة الزراعة وحدها ودراسة التوحيد. وانضم الى مطير العريمات وهم فخذ من حرب قاموا بقسم كبير من البناء في الهجر لانهم يمتلكون المهارات اللازمة في الصنائع والبناء والزراعة خلافا لسائر البدو.

وتحول التعاضد القبلي التقليدي الى تعاضد بين الاخوان. فاذا فقد احد املاكه بسبب غزوة او بسبب هلاك الماشية فان الاخوان يجمعون له التبرعات.

ونشأت هجر كثيرة على أثر الارطاوية. فقد انشأت عتيبة هجرة في «الغطغط» وقد دمرت فيما بعد. وفي عام ١٩١٨ ظهر عدد كبير من هذه الهجر في ارجاء نجد كافة. ولئن كان عدد هجر الاخوان ٥٢ هجرة في الجزيرة كلها في عام ١٩٢٠، فقد ازداد في عام ١٩٢٣ الى ٧٢، وفي ١٩٢٩ بلغ ١٢٠ هجرة تقريبا. وكتبت «ام القرى» في عام ١٩٢٩ ان عنزة اسست ٧ هجر وشمر ١٦ وحرب٢٢ ومطير ١٢ وعتيبة ١٥ وسبيع ٣ والسهول ٣ وقحطان ٨ والدواسر ٤ وبنو خالد٢ والعجمان ١٤ والعوازم ٢ وبنو هاجر ٤ وآل مرة ٤ وهتيم ٣ والظفير ١. ولكنه حتى في اوج حركة الاخوان لم يستقر في الهجر الا عشر او، في افضل الاحوال، خمس البدو الرحل.

وكان الجفاف ومصاعب الحياة البدوية، اي الضرورة الاقتصادية، من الدوافع التي جعلت البدو يستقرون ويتحولون الى حضر. وكان نزوحهم الى الشمال محدودا بسبب عدم رغبتهم في الاعتماد على اهواء الاتراك ومن بعدهم الانجليز.

وقد شجع ابن سعود عملية استقرار البدو وساعد الاخوان بالنقود والحبوب والادوات الزراعية ومواد بناء المساجد والمدارس والهجر، كما بعث المطاوعة لتعليمهم. وبالاضافة الى ذلك زود المحاربين بالسلاح والذخيرة للدفاع عن الدين.

وكان امراء حجر يستلمون من عبد العزيز معونة نقدية ويتمتعون بحسن ضيافته. وكانت اسماء الامراء تسجل في سجلات خاصة، وكان مقدار المعونة يحدد تبعا لخدماتهم وعدد اتباعهم. وكان الاخوان المحاربون يتلقون مكافاة سنوية بعد ان تسجل اسماؤهم في سجلات ديوان ابن سعود.

ان الشرط الرسمي للانتماء الى الهجرة هو التخلي عن عادات والتزامات نمط الحياة العشائري. الا ان هذا الشرط لم يكن يطبق عمليا، فصار الاسكان في الهجر يجري في الغالب على اساس قبلي. وصارت هجر الاخوان في الواقع مقرات لشيوخ اكبر القبائل. واخفقت محاولة ابن سعود لحرمان القبائل من زعمائها التقليديين بواسطة فرق الاخوان. وقد استقر فيصل الدويش زعيم مطير في الارطاوية، كما استقر زعيم عتيبة في الغطغط، وسكن زعيم حرب في دخنة وسكن ابن جبريل وابن ثنيان زعيما شمر في الاجفر.

كان الحماس الديني لدى الاخوان يستهدف طاعة الله ويخدم بالطبع اولياءه في الارض. وكان من المنتظر الثواب على جهودهم الدينية والدنيوية، كما في السابق، عن طريق غنائم الحرب ولكن ليس بشكل غزو بعض القبائل لبعضها الآخر او النهب في الطرقات، بل في الجهاد ضد المشركين. واقترنت الضرورة الاقتصادية والاجتماعية لاستقرار البدو والانتقال الى الزراعة بالتفاني الديني والحاجات العسكرية، الا ان هذه المهمات يمكن ان تتعارض، ولذا دمرت بعض القرى - «الهجر». بديهي ان من المستبعد توقع تخلص البدو بسرعة من عاداتهم البدوية السابقة

وتحولهم الى زراع جيدين. ففي غالب الاحيان لم يكن الحماس الديني يكفيهم لامد طويل من العمل في الحقول، لذا كانوا يرغبون في القتال من اجل التوحيد اكثر مما يرغبون في الزراعة.

وظلت باقية في قرى الهجر بعض الفوارق الطائفية بين القبائل «الرفيعة» التي تقدم المزارعين المقاتلين وبين القبائل «الوضيعة» التي كان يتعين عليها ممارسة الصنائع والبناء وتأمين مستلزمات القرى الجديدة. وبالفعل فان العريمات التي استقرت مع مطير في الارطاوية هي فخذ «وضيع» من قبيلة حرب التي تعتبر من انبل القبائل في الجزيرة العربية.

وغالبا ما كان الصنائع والباعة يعتبرون من الاشخاص الذين لا تشملهم الاعمال الحربية، وكان يتعين عليهم ان يصنعوا حدوات الجياد والسلاح والادوات الزراعية ويصلحوها. وعندما تبدأ الحرب كانوا يبقون في القرى.

اما المطاوعة فكانوا يمثلون الفئة الاوطأ من علماء الدين والفقهاء الذين يجري اعدادهم في الرياض ومراكز اخرى. وكان هؤلاء المطاوعة في الواقع يؤدون في القرى دور دعاة ومخبري السلطة المركزية المتمثلة في علماء الرياض والامير شخصيا. وفي اكبر الهجر كان عبد العزيز يعين قضاة من آل الشيخ عادة.

وكان سكان الهجر الملزمون بالخدمة العسكرية يقسمون الى ثلاث فئات تضم الاولى الاشخاص الذين في حالة تأهب واستعداد دائم للقتال والذين يلبون نداء الجهاد حالا. وتضم الفئة الثانية الاحتياط. اما الفئة الثالثة فتتكون من الذين يظلون في القرى عندما تنشب الحرب، ولكن يمكن بقرار من العلماء ان يجندوا في جيش الامير في الحالات الاستثنائية. وكان سكان الهجر يؤدون الخدمة العسكرية مع ابلهم وسلاحهم واغذيتهم. وكانت بعض الهجر فقط، وهي الواقعة في اواسط نجد، تستلم معونة من بيت المال للاغراض الحربية عندما تقدم عساكرها.

كان البدو الذين استوطنوا الهجر يعتقدون بانهم انتقلوا من الجاهلية واعتنقوا الاسلام الحقيقي. وكانوا ينهمكون في نشر معتقداتهم بحماس كبير، حتى انهم

كانوا يضربون البدو والحضر الذين لا ينضمون اليهم ويعتبرونهم من الكفرة. ولأن البدو كانوا في السابق بالفعل لا يعرفون من الاسلام الا القليل، فان هذا الانتقال، وكذلك استبدال العرف القبلي بالشريعة، قد اتسما بطابع مأساوي لدرجة ما. فقد اشار موسيل، مثلا، الى اشتداد المشاعر الدينية بين الرولة الذين شاركوا في فرق الاخوان. وعلى اي حال فان الكثيرين من البدو صاروا يحفظون عن ظهر قلب سورة او سورتين من القرآن.

من المعروف ان المتدينين الجدد اكثر حزما وتعصبا في اداء الفرائض الدينية من المتدينين القدامى. ولذلك فان البدو الذين لم يعرفوا الاسلام سابقا او الذين يعرفون عنه القليل جدا صاروا يؤدون فرائضه كالصلوات الخمس بحماس شديد واخذوا يضربون بالعصي من يتنصل عن ادائها. ولكي يميز الاخوان انفسهم عن سائر المسلمين الذين اعتبروهم «مشركين» صاروا يرتدون عمامة بيضاء بدلا من الكوفية العادية، كما اخذوا يحلقون شواربهم ويقصرون لحاهم، ويصبغونها بالحناء احيانا. وقصروا دشداشتهم حتى بالكاد صارت تغطي الركبتين. ومنع الاخوان الموسيقى ايا كانت، ما عدا طبول الحرب، ولم يشربوا القهوة لانها لم تكن معروفة في زمن النبي، وتحاشوا التدخين كما يتحاشون السم. وكان تعاطي الكحول محرما بالطبع، وكذلك الحرير والنقوش الذهبية على الالبسة الرجالية. وصبت اللعنات على القمار وقراءة الفأل والالعاب السحرية. ونشير هنا الى الطابع التعادلي للكثير من محظورات الاخوان الدينية والمعيشية، وكان ذلك شكلا لاحتجاج بسطاء ابناء الشعب على «ابهة» الطبقات الحاكمة (حسب مقاييس الجزيرة العربية).

وكان الاخوان يطلقون نعت «المشركين» على جميع الذين لا يؤيدونهم من اهالي المدن والواحات والبدو. وباسم تجديد الدين قامت فرق الاخوان بقساوات كثيرة مع ان تعصبهم قوى القدرة الحربية لقوات ابن سعود. ويعتقد ديكسون ان نظام الفروسية البدوي تضعضع في الفترة بين ١٩١٣ و ١٩٣٠ بسبب حركة الاخوان.

واكد مؤلفون كثيرون ان ابن سعود نفسه لم يكن متعصبا قط. وقد انتفع من حركة الاخوان واستخدمها متجاوزا بمهارة مطالبها المتطرفة. وابان الحرب العالمية

الاولى وافق ابن سعود على الحماية البريطانية واستلم معونات شهرية من الحكومة البريطانية وادعى بان ذلك مجرد جزية كالتي كان المسيحيون يدفعونها للخلفاء الاوائل ولكنه حتى في المرحلة الاولى من مراحل حركة الاخوان لم يكن ابن سعود يثق بهم حتى النهاية، وذلك بحكم منحدرهم البدوي وبحكم الافراط في انتشار السمات التعادلية في حركة الاخوان من وجهة نظر الاقطاعي الكبير. وفي حاشية امير الرياض كان قريبه ونصيره عبد الله بن جلوى من اشد معارضي الاخوان.

ضم الاحساء. عندما علم عبد العزيز بهزيمة الاتراك في حرب البلقان اخذ يستعد لحملة على الاحساء. وفي مطلع عام ١٩١٣، وصل الى القصيم واعلن التعبئة العامة.

في تلك الاثناء كان الاخوان من ضمن قواته، ولكنهم لا يشكلون الاغلبية. وبعد ان جمع حضر نجد والبدو المنضمين اليه توجه الى الاحساء. وقبل ان يبدأ هذه الحملة تقابل مع الضابط الانجليزي ليتشمان، ولعله اخبره بخطة الهجوم على الاتراك.

كان سكان الاحساء الذين ارهقهم ابتزاز الاتراك وظلمهم ينظرون الى النجديين كمنقذين لهم. ومنذ عام ١٩٠٣، كتب قنصل روسيا في البصرة ان المتصرف العثماني في الاحساء «جعل سكان هذا السنجق العرب في حالة ارهاق بالغ بسبب تعنته وطيشه».

وكتبت القنصلية الروسية في البصرة «ان سلطة الاتراك على الاحساء كانت وهمية. وقد انتهت تقريبا خارج حدود المدن..

وفي بداية ايار (مايو) جمع ابن سعود حوالى ٨ آلاف من الاعراب المسلحين جيدا واقتحم الاحساء بغتة وقام بهجوم على الهفوف. ولم يجد صعوبة كبيرة في احتلال المدينة».

بدأ الهجوم على المدينة في الليل بواسطة جذوع النخيل والحبال والسلالم

المجهزة مسبقا. وسرعان ما سقطت المدينة وكذلك حصن الكوت، ما عدا مسجد ابراهيم باشا في داخل الحصن. والتجأ المتصرف وقسم من حاميته الى المسجد. وكان مجموع الاتراك في الهفوف آنذاك ١٢٠٠ شخص.

وقرر المتصرف ان يضع السلاح. وتم اخلاء الحامية تحت حراسة مفرزة قادها احمد بن ثنيان، وهو من اقرباء عبد العزيز الابعدين. ثم استولى النجديون على القطيف. وصار الاقليم الشرقي تحت سلطة ابن سعود. وكتبت القنصلية الروسية في البصرة «من المحتمل تماما ان يكون ذلك كله قد حدث ليس بدون علم الانجليز، وربما ليس بدون نصائحهم، فان دسائسهم بين الشيوخ العرب معروفة جيدا».

ولم يضيع حاكم الرياض الوقت فاخذ «يروض» الشيعة المعادين تقليديا للسعوديين. وعين عبد العزيز عبد الله بن جلوى حاكما للاحساء، واخذ هذا ينكل بنشطاء الشيعة دون رحمة وخصوصا في القطيف.

كانت عائدات الاقليم في عهد الادارة العثمانية تعادل ٣٧ الف ليرة سنويا، بينما بلغت نفقات الحاميات والادارة ٥٢ الفا. الا ان عائدات الاحساء، كما يعتقد القنصل الروسي في البصرة، يمكن زيادتها، وهذا ما عزم عليه عبد العزيز. فقد طرد التجار الاجانب من الاحساء والقطيف وفرض ضريبة بنسبة ٨٪ على كل الواردات التي تصل الى الاقليم الشرقي من جهة البحر واجتث عبد الله بن جلوي بيد من حديد النهب على طرق القوافل فاستطاع التجار ان يتجولوا في الاقليم بامان نسبيا.

لقد انتزعت امارة الرياض من الامبراطورية العثمانية اقليما غنيا نسبيا من اقاليم الجزيرة العربية وحصلت على منفذ الى الخليج من الكويت حتى قطر. ان اهمية الاحساء بالنسبة لامارة الرياض تفوق التقدير. فالاراضي التي كان السعوديون يسيطرون عليها حتى ذلك الحين كانت خالية من اي موارد طبيعية. وكان محصول التمور في حدودها بالكاد يكفي لسد حاجة الحضر والبدو. ولم تكن الحبوب كافية، وكانت الامارة بحاجة الى استيرادها. وكان السكان الحضر يعتمدون كليا على استيراد الاقمشة. وكانت القوات بحاجة الى مشتريات السلاح

من الخارج. وقد امن الاستيلاء على اقليم الاحساء والحصول على منفذ الى الخليج قوة حيوية للدولة السعودية واستمرار تطورها.

ولم تقف بريطانيا التي تؤمل في تحويل الدولة السعودية الى محمية لها في آخر المطاف حجر عثرة امام طرد الحامية التركية من الاحساء. وقد قام المندوب البريطاني في البحرين بزيارة مجاملة لعبد العزيز في مرفأ العقير بعد سقوط الاحساء. وفي اواخر عام ١٩١٣، زار الرياض المعتمد السياسي البريطاني في الكويت الكابتن شكسبير الذي كان قد تقابل مع ابن سعود سابقا. وقد ناقش مع امير الرياض هذه المرة الوضع العام فقط لانه لم يكن يتمتع بصلاحيات اخرى.

بيد ان بريطانيا كانت تلعب على الحبلين. ففي حزيران (يونيو) ١٩١٣، وقعت بين السفير العثماني ابراهيم حقي باشا ووزير الخارجية البريطاني ادوارد غراي اتفاقية رسم الحدود بين ممتلكات الامبراطورية العثمانية والمحميات البريطانية على الساحل العربي من الخليج - الكويت والبحرين وامارات ساحل الصلح البحري. وكانت كل هذه الاراضي مرتبطة على نحو ما بالاحساء التي لم يرد لها ذكر في الاتفاقية. وهذا يفترض رسميا انها كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية.

وفي آذار (مارس) ١٩١٤، وافقت بريطانيا والامبراطورية العثمانية على اقتسام شبه الجزيرة العربية. ونصت شروط المعاهدة على ان تمتد الحدود بين ممتلكات كلتا الدولتين بشكل خط مستقيم من شبه جزيرة قطر عبر بوادي اواسط الجزيرة العربية حتى الحدود بين محمية عدن واليمن. وكان كل ما يقع شمالي هذا الخط ملكا للعثمانيين، بما في ذلك نجد فضلا عن الاحساء، وكل ما يقع جنوبيه يعتبر من الاراضي البريطانية. وبالمناسبة فقد فقدت هذه المعاهدة قيمتها باندلاع الحرب العالمية الاولى.

وبعد سقوط الاحساء جرت مباحثات بين عبد العزيز وممثلي السلطات العثمانية. ولم تكن لدى الباب العالي القوى والنقود اللازمة لاستعادة الاقليم المفقود. وكان كل ما يريده الاتراك هو «الحفاظ على ماء الوجه». وكتبت القنصلية الروسية في البصرة في ٢٧ ايار (مايو) ١٩١٤، «ان ارسال فيلق عمليات الى

الاحساء في الوقت الحاضر غير ممكن اطلاقا بالنسبة للاتراك، فليس لديهم العدد الكافي من الجنود لا في بغداد ولا في البصرة. زد على ذلك ان الحكومة البريطانية التي تتابع ببالغ الاهتمام كل ما يجري في الاحساء ستحاول... اعاقة الاتراك عن ترسيخ اقدامهم من جديد على سواحل الخليج».

وقد وافق امير الرياض شفويا، كما يقول فيلبي، على الاعتراف بسيادة السلطان العثماني على اراضيه مقابل الاسلحة والنقود التركية.

ويؤكد الباحث الاميركي ترولير بصورة قاطعة انه تم توقيع معاهدة عثمانية سعودية رسمية في ١٥ ايار (مايو) ١٩١٤ نصت، فيما نصت، على «ان ولاية نجد يجب ان تبقى تحت حكم عبد العزيز باشا آل سعود طوال حياته بموجب فرمان سلطاني. وبعد وفاته ينتقل الحكم الى ابنائه واحفاده بفرمان سلطاني بشرط ان يبقى الامير مواليا للحكومة العثمانية ولاجداده». ونصت المادة ٧ على ان يرفع العلم التركي فوق كل دوائر الدولة وكذلك فوق السفن العائدة لولاية نجد. وجاء في المادة ٩ «ان الوالي (الحاكم او القائد) المذكور لا يحق له التدخل في الشؤون الخارجية ولا عقد المعاهدات الدولية ولا منح الامتيازات للاجانب». ونصت المادة ١٢ على ان حاكم نجد يجب ان يحارب الى جانب الامبراطورية العثمانية.

ويعتقد فيلبي ان عبد العزيز صار، مع اندلاع الحرب العالمية الاولى، في حل من «التعهد الشفوي» للاتراك. وعلى اي حال فان سلوك امير نجد منذ بداية العمليات الحربية كشف عن عدم تقديره لتعهداته امام السلطان العثماني وعن قلة المرتكزات التي كان بوسع الاتراك استخدامها لحمله على العمل في صالحهم. واكدت مذكرة حكومة العربية السعودية انه لا توجد في الارشيفات السعودية أي وثيقة تشير الى توقيع الاتفاقية السعودية التركية. ان عدم وجود مثل هذه الوثيقة في الارشيفات السعودية، ان لم تكن موجودة فعلا، فلا يدل على شيء. فبدلا من الاتفاقية التحريرية يمكن ان يوجد اتفاق شفوي ينفذه الطرفان اذا كان في صالحهما. وعلى أي حال فقد قدم ترولير النص الكامل للمعاهدة التركية النجدية مع ان توقيع عبد العزيز غير موجود عليه بالفعل.

وكان المسؤولون في الاستانة يدركون بانهم فقدوا السيطرة الفعلية على نجد والاحساء رغم المعاهدة مع بريطانيا بشأن اقتسام الجزيرة العربية ورغم تعهدات ابن سعود الشفوية بولائه للسلطان. ولذلك اخذت السلطات العثمانية تعمل على تقوية جبل شمر، حيث وعدوها، مثلا، بتقديم ١٠ آلاف بندقية واغذية ونقود. واقتنع عبد العزيز مرة اخرى بان الاستانة تعول على حائل وان الخطر التركي المحتمل على امارة الرياض ما يزال قائما.

الفصل العاشر

نجد والحجاز ابان الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

قبيل الحرب العالمية الاولى ازداد نفوذ المانيا في الامبراطورية العثمانية لدرجة كبيرة. فبعد تردد قصير علق ثلاثي تركيا الفتاة الآمال على برلين ودخل الحرب ضد بلدان الوفاق. وبنتيجة مغامرة القيادة التركية بلغت الازمة السياسية داخل الامبراطورية العثمانية نقطة حرجة فطرح سكان اغلب الاقاليم غير التركية، وبالدرجة الاولى البلدان العربية، مطلب تقرير المصير. الا ان دول الوفاق كانت تعتبر الامبراطورية المحتضرة كلها غنيمة استعمارية لها، وتعتبر القوميين العرب حلفاء مؤقتين خاضعين.

استمرت المعارك الدموية في الشرق الادنى زهاء اربعة اعوام. وانجرت اليها بدرجات مختلفة جميع بلدان شبه الجزيرة العربية تقريبا، مع ان الجزيرة كانت مسرحا لعمليات حربية من الدرجة الثالثة بمقاييس الحرب العالمية.

منذ بداية العمليات الحربية ضد الامبراطورية العثمانية كانت المهمتان الفوريتان لبريطانيا هما مواصلة السيطرة على مصر وقناة السويس والبحر الاحمر، وكذلك الاستيلاء على رأس جسر في شط العرب ـ مصب دجلة والفرات لتأمين حماية حقول البترول في ايران من الهجوم التركي الالماني المحتمل. وقد امن حل المهمة الاولى وجود القوات البريطانية في مصر وسيطرتها على مشارف القناة من جهة سيناء، اما حل المهمة الثانية فأمنه انزال فيلق الحملات في وادي الرافدين.

وفي عدن جرى تعزيز الحامية وارسال امدادات من القوات الانكلوهندية بغية احتفاظ بريطانيا بالمرفأ الاستراتيجي الهام، مع عدم التورط في عمليات حربية نشيطة ضد القوات العثمانية التي اقتحمت اليمن الجنوبي.

ومن بين جميع حكام شبه الجزيرة العربية حظي شريف مكة الحسين باكبر الاهتمام لدى الحلفاء الذين علقوا عليه آمالا تحققت فيما بعد بقدر ما. فقد كان الحسين بوصفه من العائلة الهاشمية المتحدرة من قريش من اكبر المتنفذين في العالم الاسلامي. وكان يعتبر من احفاد النبي وسادن الحرمين الذي عين في هذا المنصب بفرمان من السلطان العثماني. كان الانجليز يخشون من أن دعوة السلطان العثماني للجهاد ضد المسيحيين، وبالتالي ضد الانجليز والفرنسيين يمكن ان تؤثر على مصر والهند وشمال افريقيا والمستعمرات الاخرى التي يقطنها المسلمون. وكان الحلفاء يعتقدون بان تأييد الحسين لدعوة الجهاد من شأنه ان يقوي تأثيرها. صحيح ان دعوة السلطان كان لها صدى محدود، واتضح ان المخاوف بشأن تأثيرها كان مبالغا فيها.

وخلال العامين الاولين من العمليات الحربية في وادي الرافدين منيت القوات الانكلوهندية بعدة هزائم على يد القوات التركية التي كان فيها عدد غير قليل من العرب. وفي هليبولي حيث اندحرت قوات الحلفاء ايضا كان في الفرق التركية عرب من رعايا الامبراطورية العثمانية. ولذلك كان تشجيع الحركة القومية العربية ذات الصبغة الدينية يستجيب في تلك الاثناء للمصالح البريطانية والفرنسية.

امارة نجد والحرب العالمية الاولى. المعاهدة الانكلونجدية.

عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى، بعث امير الرياض عبد العزيز رسائل الى الشريف حسين، وسعود بن صالح، في حائل، والشيخ مبارك الصباح في الكويت. واقترح عليهم عقد لقاء للحكام العرب، للحيلولة دون جر العرب الى العمليات الحربية، وتوقيع معاهدة مع الدول الكبرى، لضمان تقرير المصير للدول العربية. ولم تكن مصالح مختلف الامراء العرب متوافقة آنذاك، لذا تعذر وضع منهاج

مشترك. فقد رد حاكم حائل بانه سيقاتل ضد الذين يقاتلون الاتراك، وسيتصالح مع الذين يتصالحون معهم.

ووصل الى نجد، مع بلاد الرافدين، مبعوث السلطات العثمانية، طالب النقيب، الذي تقابل مع عبد العزيز في بريدة، ولكن مهمته اخفقت لان القوات البريطانية احتلت البصرة آنذاك. وتوجه من المدينة المنورة، في الوقت نفسه، وفد تركي آخر ومعه دليل، من الوزن الثقيل، على رغبة السلطات العثمانية في استمالة عبد العزيز الى جانبها. فقد حمل الوفد ١٠ آلاف ليرة ذهبا. وحاول احد اعضاء هذا الوفد، وهو مؤرخ الحجاز والجزيرة العربية محمود شكري الالوسي، اقناع عبد العزيز بتأييد الاتراك. وتملص عبد العزيز عن تقديم اي وعود قائلا إنه عاجز عن مقاومة الانجليز، ولكنه وعد بعدم اعاقة تجار نجد عن تزويد الجيش التركي بالاغذية. وطوال الحرب كلها كانت القوافل التركية المحملة بالسلاح والذخيرة تجتاز اراضيه من الشام الى عسير واليمن.

الا ان الانجليز، رغم اعتمادهم على الحسين، ما كان بوسعهم ان يتجاهلوا امير نجد. ففي تلك الفترة كانت ممتلكات عبد العزيز تنبسط من الكويت وجبل شمّر حتى حدود صحراء الربع الخالي، ومن الخليج حتى الحجاز. وكانوا يريدون من عبد العزيز شيئا واحدا هو ان يشل صنيعة الاتراك امير حائل الذي يهدد جناح الجيش البريطاني، في جنوب وادي الرافدين.

وعندما بدأت العمليات الحربية في الشرق الادنى، استدعى المعتمد البريطاني في حوض الخليج كوكس مخبره الموهوب الكابتن شكسبير من اجازته وارسله الى نجد. وحالما وصل شكسبير الى الرياض، اصر على ان يبدأ الامير النجدي العمليات الحربية ضد الشمريين. وفي بداية كانون الثاني (يناير) ١٩١٥، توجه عبد العزيز نحو الشمال، على رأس قوات بألف وخمسمائة شخص، اغلبهم من سكان واحات العارض. وفيما بعد انضم اليه محاربون من مطير والعجمان وسبيع والسهول. وتوجه للقائه سعود بن صالح حاكم حائل، وكان معه، هو الآخر، الف وخمسمائة

شخص تقريبا. (حتى ذلك الحين قتل زامل السبهان). ويصعب اعتبار هذه الارقام صحيحة، ولكنها تبين، على وجه التقريب، نطاق العمليات.

وكانت عند عبد العزيز عدة مدافع يقود بطاريتها الكابتن شكسبير، مع ان روايات اخرى تقول ان شكسبير كان مجرد مراقب. ويبدو ان ابن سعود ما كان يريد لانجليزي اصلا، ناهيك عن أنه انجليزي رفض ارتداء الزي العربي، ان يتواجد ضمن قواته في وقت انتشر فيه اكثر فاكثر تعصب الاخوان. وحاول الامير اقناع المبعوث البريطاني ان يبقى في الزلفى، ولكن هذا الاخير اصر على المشاركة في الحملة، وربما كان يعتقد بان القضية تمس شرفه، او ربما كان ذلك لاجل التأكد من نوايا عبد العزيز والحيلولة دون تنصله عن القتال.

وفي اواخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٥، تصادمت قوات الطرفين قرب بئر جراب شمالي الزلفى. وبدأت معركة استمرت عدة ايام. وتفيد بعض المعطيات ان الشخص الوحيد الذي قتل هو الكابتن شكسبير، وتفيد معطيات اخرى ان الطرفين فقدا مائة شخص لكل منهما. وكان محاربو عبد العزيز المتأثرون بميول الاخوان تأثرا شديدا يطلقون صيحاتهم الحربية. اما الشمريون الذين يشكلون اساس قوات حاكم حائل فقد كانوا يقاتلون وسط صيحات قبيلتهم الحربية التي تطلقها فتيات حسناوات جالسات على الابل بشعور مسترسلة. وهذه الوقائع ذات دلالة ليس فقط لانها تشكل مشهدا صغيرا من حرب نشبت في اوروبا واستخدمت فيها المدفعية والغازات السامة والطائرات ثم الدبابات. فبالنسبة للجزيرة العربية تجدر الاشارة الى ان واقع انتقاء صيحات الحرب يبين اختلاف قاعدتي الاميرين: القاعدة القبلية لجبل شمر والقاعدة العربية العامة المستندة الى التوحيد الوهابي عند الاخوان لامارة نجد. كان الشمريون يستنهضون بعضهم بعضاً بصيحات جد قبيلتهم، اما المحاربون السعوديون فكانوا يستعينون بالجنة الموعودة في حالة الممات.

وانتهت المعركة بتعادل الطرفين. الا انها جعلت امير الرياض طوال عامين او ثلاثة يرفض الدخول في حرب كبيرة.

تمكن شكسبير من اجراء مباحثات سياسية مع عبد العزيز. فوضعا مسودة

معاهدة التزم الانجليز بموجبها بضمان مواقع امير الرياض في نجد والاحساء وحمايته من الهجمات بضمان مواقع امير من جهة البحر والبر اذا التزم بمساعدة الحلفاء. وتخلى الانجليز عن سياستهم القديمة لعدم التدخل في الشؤون الداخلية لشبه الجزيرة العربية. والزمت المعاهدة ابن سعود بعدم اقامة علاقات مع البلدان الاخرى بدون مشاورة تمهيدية مع السلطات البريطانية. وتبين الدراسة التي اجراها ترولير لوثائق الارشيفات الانجليزية ان عبد العزيز كان يدرك بدقة مضامين السياسة البريطانية في الجزيرة العربية. فبعد مقارنة النص الاولي للمعاهدة الذي اقترحه الانجليز مع التعديلات، تأكد ترولير من ان جميع اعتراضات امير نجد تهدف الى تقوية استقلاليته وتقليل تحكم بريطانيا بسياسته.

وعندما كان ابن سعود يتباحث مع شكسبير وصل الى نجد مبعوثون اتراك كانوا ما يزالون يؤملون في اجتذاب الامام للمشاركة في الجهاد ضد الكفرة.

وفي ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥، وقع بيرسي كوكس مع عبد العزيز المعاهدة في جزيرة دارين المقابلة للقطيف. ولذا سميت المعاهدة بمعاهدة دارين او معاهدة القطيف. وصادق على المعاهدة نائب ملك بريطانيا وحاكم الهند في تموز (يوليو) ١٩١٦. وقبيل توقيع المعاهدة بين بيرسي كوكس وعبد العزيز قدم الانجلين، كما يقول فيلبي، هدية الى امير الرياض هي الف بندقية و ٢٠ الف جنيه استرليني وسمحوا له بشراء ذخيرة حربية في البحرين.

واعترفت الحكومة البريطانية بان سيادة عبد العزيز تشمل «نجد والاحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافىء التابعة لهذه المقاطعات» والتزمت «بحماية مصالحه ومصالح بلاده» بعد مشاورات مناسبة. ونصت المادة الثالثة من المعاهدة على ما يلي: «يتعهد ابن سعود ان يمتنع عن كل مخابرة او اتفاق او معاهدة مع اي حكومة او دولة اجنبية». واكدت المادة الرابعة ان امير نجد لا يمكن ان يتنازل عن الاراضي او جزء منها ولا ان يؤجرها او يرهنها او يتصرف بها باي شكل ولا ان يقدمها على سبيل الامتياز الى اي دولة اجنبية اخرى او لأي احد من رعايا دولة اجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية. وتقول المادة السادسة: «يتعهد ابن سعود

كما تعهد والده من قبل بان يمتنع عن كل تجاوز وتدخل في ارض الكويت والبحرين واراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الموجودين تحت حماية انجلترا والذين لهم معاهدات معها». ولم يرد في المعاهدة شيء عن الحدود الغربية لنجد. وهكذا فرضت هذه المعاهدة في الواقع الحماية البريطانية على نجد وتوابعها. وصارت هذه المعاهدة جزءا من شبكة النفوذ البريطاني التي ارادت لندن فرضه على القسم الاكبر من الشرق الادنى، وعلى اي حال، على الجزيرة العربية كلها بعد الحرب العالمية الاولى. وفيما بعد، واعتبارا من عام ١٩١٦، استلمت نجد، مقابل توقيع المعاهدة، معونة شهرية بمبلغ ٥آلاف جنيه استرليني، مع ارساليات معينة من الرشاشات والبنادق.

انتفاضة العجمان. كان العجمان طوال خمسين عاما تقريبا من اصعب القبائل على السعوديين، وقد خضعوا للحكومة المركزية على مضض. وعلى اثر معركة جراب نهب العجمان بعض القبائل التي كانت خاضعة لحاكم الكويت. وقد بعث حاكم الكويت رسالة الى عبد العزيز يطلب فيها منه معاقبة العجمان. وكانت تلك هي الحجة المنشودة. الا ان امير الرياض ما كان يثق بحاكم الكويت وكان يخشى ان تغير الكويت موقفها اثناء حملته على العجمان وتغدو ملجأ لهم.

وفي صيف ١٩١٥، توجه عبد العزيز، قبل ان يوقع الاتفاقية مع الانجليز، الى الاحساء على رأس فصيل من ٣٠٠ شخص. وانضم اليه متطوعون محليون. ولحق بالعجمان في ايار - حزيران (مايو - يونيو) ١٩١٥ عند جبل كنزان، الا ان العجمان كانوا مستعدين للمعركة فواجهوه بمقاومة شديدة. وفقد النجديون حوالى ٣٠٠ شخص بمن فيهم سعد شقيق الامير عبد العزيز، ثم ان الامير نفسه جرح في هذه المعركة. وبعد هذا الاخفاق اضطر الى الانسحاب الى واحات الاحساء. وكان الوضع خطيرا لدرجة جعلته يلتجيء الى حصن الكوت في الهفوف. واخذ العجمان ينهبون الواحات المجاورة وظلوا يحاصرون عبد العزيز حوالي ستة اشهر، حتى ايلول - تشرين الاول (سبتمبر - اكتوبر) ١٩١٥. وساعدهم بعض الامراء المحليين و«العرايف».

ولم يسفر عن نتيجة عاجلة طلب المساعدة من شيخ الكويت. وبعد تكرار الطلب بعث مبارك ابنه سالم مع مائتي من المحاربين لنجدة عبد العزيز. وفي بداية العام التالي صار عبد العزيز قادرا على مغادرة الهفوف والبدء بالهجوم على العجمان. وسرعان ما اختلف عبد العزيز مع سالم بن مبارك فعاد هذا الاخير الى الكويت. ووصل العجمان الى الكويت يلاحقهم ابن سعود الذي صدقت شكوكه، فقد التجأت هذه القبيلة الى مبارك الذي آواها. وفي بداية كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ توفي مبارك وصار شيخا للكويت ابنه جابر الذي كانت له علاقات طيبة مع عبد العزيز منذ عهد الغزوات المشتركة. وطرد الشيخ الجديد العجمان من اراضي امارته. فتحسنت العلاقات بين نجد والكويت لفترة ما. ولكن جابر توفي في عام ١٩١٧ فصار اخوه سالم شيخا للكويت، وهو ضد ابن سعود.

في عام ١٩١٦، وصل سعود بن صالح من حائل على رأس قوات الى القصيم وحاول الاستيلاء على بريدة ليستعيد سيطرته على الاقليم، ولكنه مني بالهزيمة. فان امارة جبل شمر كانت تتدهور رغم دعم العثمانيين.

انتفاضة الحجازيين ضد الاتراك. تناولت المطبوعات السوفييتية والغربية والعربية بشكل جيد موضوع الانتفاضة العربية بقيادة الشريف حسين ضد الامبراطورية العثماينة والملابسات المرتبطة بتقسيم الامبراطورية العثمانية وحنث الانجليز بالوعود والالتزامات التي اخذوها على عاتقهم. لذا نكتفي هنا بسرد الاحداث بالخطوط العريضة مركزين على نجد التي نشأت فيها نواة المملكة العربية السعودية.

ان الاهتمام بالانتفاضة العربية ضد الاتراك في المطبوعات الغربية التاريخية والادبية كبير الى حد الافراط، وذلك بالارتباط بشخصية الكولونيل لورنس الذي وصل من القاهرة بمثابة ضابط ارتباط الى شريف مكة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٦. وبعد انتزاع مدن صغيرة من الاتراك على ساحل البحر الاحمر توجهت فصائل البدو الى شمال الحجاز لتستولي على ميناء العقبة. وفي معركة هامة على مشارف العقبة، حيث حسم الامر زعيم بدوي شجاع ماهر، كان لورنس في حالة

جنونية يطلق النار بصورة عشوائية فقتل ناقته باطلاقة في رأسها وسقط مغشيا عليه. ودحر البدو الفصيل التركي الصغير الذي سد عليهم الطريق الى العقبة واستولوا على المدينة. ثم اقتصرت عمليات الجيوش العربية على محاربة الاتراك شرقي نهر الاردن وعلى عمليات التفجير على السكة الحديدية والتي شارك فيها لورنس بنشاط. بديهي ان انتفاضة العرب ساعدت على انتصار الحلفاء وحقنت دماء الجنود البريطانيين. الا ان العرب ضحوا بحياتهم في الواقع لكي يقتسم المستعمرون فيما بعد البلدان العربية. وكان لورنس يعرف هذه الحقيقة ومع ذلك دفع عرب الجزيرة الى الموت. وكتب لورنس يقول: «بما اني لم اكن احمق نهائيا فقد رأيت انه اذا انتصرنا نحن في الحرب فان وعودنا للعرب ستكون حبرا على ورق. ولو كنت مستشارا نزيها لبعثت رجالي الى ديارهم ولما سمحت لهم بالمجازفة بحياتهم من اجل هذه القضية. الا ان الحماسة العربية كانت اداتنا الرئيسية لنكسب الحرب في الشرق. لذلك اكدت لهم ان انجلترا ستبقى على العهد نصا وروحا... ولكنني، بالطبع، كنت على الدوام اشعر بالمرارة والخجل».

وتجدر الاشارة مرة اخرى الى ان اهتمام الحلفاء بشريف مكة في الحرب العالمية الاولى كان اكثر بكثير من اهتمامهم بامير نجد. وفي المنطقة بين معان واليمن كان هناك حوالى اربع فرق تركية تقيد الانتفاضة العربية.

كانت سياسة الشريف حسين مرتبطة بنهوض حركة التحرر الوطني في المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية. وفي مطلع القرن العشرين ظهرت في الامبراطورية العثمانية مختلف الجمعيات والمنظمات للدفاع عن حقوق العرب. وكان الكثيرون من القوميين العرب في بداية القرن العشرين يتصورون بسذاجة ان بريطانيا وفرنسا يمكن ان تساعدا بنزاهة العرب في التحرر من نير الاتراك. وقد خابت آمالهم بمرارة، كما ان البعض منهم دفعوا حياتهم ثمناً لقصر نظرهم.

وقد تسلح انصار تركيا الفتاة بالفكرة التركية القومية الشوفينية واخذوا يتهمون العرب بالعمل لصالح الاجنبي.

وفي حزيران (يونيو) ١٩١٣، عقد المؤتمر العربي في باريس حيث نوقشت

حقوق العرب في الامبراطورية العثمانية. واصر المشاركون فيه، واغلبهم من السوريين، على ضرورة الاصلاحات بموجب المبادىء اللامركزية. وكان انصار تركيا الفتاة قلقين من حركة التحرر الوطني العربية فلجأوا الى التنكيل. ومع ان الحكومة العثمانية اصدرت في آب (اغسطس) ۱۹۱۳ مرسوما نص، فيما نص، على توسيع حقوق هيئات السلطة المحلية والتدريس باللغة العربية في الولايات التي يشكل العرب اغلبية سكانها، فان كل هذه الاصلاحات ظلت حبرا على ورق.

وعندما اعلنت الحكومة العثمانية الجهاد في بداية الحرب حاولت ان تشرك شريف مكة به. وتواردت عليه الرسائل طالبة منه ان يعلن تأييده للجهاد. وكان الحسين يتملص من الجواب متحججا بضعف مواقعه امام ضربات الانجليز وبخطر المجاعة في حالة محاصرة سواحل الحجاز. وفي البرقيات التي ارسلت الى وزير الحربية التركي انور باشا الذي كان في الواقع بمثابة رئيس الحكومة طالب حاكم مكة بالاعتراف باستقلال الحجاز والعفو عن القوميين العرب المسجونين. وما كان بوسع الحكومة التركية ان تلبي هذه المطالب.

وقبل بداية الحرب اقام حاكم مكة علاقات مع الانجليز عن طريق القاهرة. وكان عبد الله ابن الشريف حسين، وهو عضو في المجلس العثماني، قد تقابل مرتين مع المندوب السامي البريطاني في مصر اللورد كيتشنير (في ۱۹۱۳ وفي بداية ١٩١٤).

عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى عين اللورد كيتشنير وزيرا للحربية، وشغل هنري مكماهون منصبه في مصر. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٥، بدأ ستورس سكرتير الشؤون الشرقية لدى المندوب السامي البريطاني في مصر وكلايتون مدير المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة بوضع خطة انتفاضة العرب الى جانب دول الوفاق. وفي منتصف تشرين الاول (اكتوبر) وصل رسول من ستورس الى مكة للاتصال بعبد الله. وبدأت مراسلات بين الشريف حسين والمندوب السامي البريطاني في مصر.

وفي تلك الاثناء كان القوميون العرب، وخصوصا من جمعيتي «الفتاة» و«العهد» يستعدون للانتفاضة في منطقتي سورية والعراق اللتين اجتاحتهما القلاقل المناوئة للاتراك. وطرحوا شرطا للتعاون مع الانجليز هو اعتراف بريطانيا باستقلال البلدان العربية التي يجب ان تمتد حدودها عبر مرسين واطنة واورفا وماردين في الشمال، ولا يستثنى من «البلدان العربية» الا عدن في الجنوب. ونص برنامجهم على توقيع اتفاقية دفاعية بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة المرتقبة وتقديم امتيازات اقتصادية لبريطانيا. واعترفوا بشريف مكة زعيماً للقوميين العرب.

وفي عام ١٩١٥ و ١٩١٦، كشفت السلطات العثمانية في سورية تنظيمات عربية سرية وقبضت على زعمائها واعدمتهم على مرأى من فيصل الذي كان عام ١٩١٦ في دمشق بمثابة اسير عند الاتراك في الواقع. ويبدو ان الاتراك عرفوا بصلتها مع فيصل، ولكنهم فضلوا عدم المساس به آنذاك. وفي عام ١٩١٦ جرى تدمير منظمات القوميين العرب في العراق. واخذ انصار تركيا الفتاة ينقلون الى الجبهة الاوروبية قواتهم التي فيها كثير من العرب، وصاروا يرسلون الى البلدان العربية وحدات تركية خالصة.

استأنف الشريف حسين المباحثات مع الانجليز في عام ١٩١٥. وفي تلك الأثناء كانت الحرب بالنسبة لبريطانيا وحلفائها في الشرق الادنى تجري بصورة غير موفقة. فقد اخفقت العمليات الهجومية في هليبولي وسيناء. وكان الاتراك يهددون عدن من اليمن. وكانت حالة فيلق العمليات في العراق صعبة. وعلق الحلفاء اهمية اكبر على انتفاضة العرب التي كان يتعين عليها ان تساعد جهود الحلفاء الحربية في الشرق الادنى.

وجرى تبادل الرسائل بين الحسين ومكماهون، مما اسفر عن مجادلات شديدة. ففي الرسالة المؤرخة في ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٥ طالب حاكم مكة بان تعترف بريطانيا باستقلال البلدان العربية وتوافق على اعلان الخلافة العربية. وأشار الى ان الحكومة العربية تلتزم بان تقدم لبريطانيا امتيازات اقتصادية. ووردت في الرسالة شروط التحالف العسكري والغاء نظام الاستسلام ومسائل

اخرى. وتتضح من نص الرسالة رغبة الحسين في ان يتزعم بمساعدة الانجليز الدولة العربية المستقلة التي من شأنها ان تضم جميع المحميات العربية (وقسما من الممتلكات الكردية والتركية الصرف للامبراطورية العثمانية) وكذلك محميات بريطانيا في الجزيرة العربية ماعدا مستعمرة عدن.

وكتب مكماهون في رسالته بتاريخ ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ «لا يمكن القول ان مناطق ميرسين والاسكندرونة وقسماً من سورية الواقع غربي مناطق دمشق وحمص وحلب هي مناطق عربية صرف لذا يجب ان تستثنى من التحديد المقترح وبشرط هذا التعديل وبدون الحاق ضرر بالمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض الزعماء العرب نقبل هذا التحديد. اما بخصوص المناطق الواقعة داخل الحدود المقترحة والتي تستطيع بريطانيا ان تعمل فيها بحرية دون الحاق ضرر بحليفتها فرنسا فأنا مخول باعطائكم الالتزامات التالية باسم الحكومة البريطانية... ١) ان بريطانيا مستعدة، بشرط اجراء التعديلات المذكورة اعلاه، للاعتراف باستقلال العرب وحمايته في جميع المناطق الواقعة داخل الحدود المقترحة من قبل شريف مكة. ٢) تضمن بريطانيا حماية العتبات المقدسة من اي عدوان خارجي... ٣) يفترض ان العرب قرروا طلب النصح والمساعدة من بريطانيا وحدها وان المستشارين والموظفين الاوروبيين الذين سيحتاجهم ايجاد نظام صائب للادارة سيكونون من البريطانيين. ٤) فيما يخص ولايتي بغداد والبصرة فان العرب يعترفون بان المصالح والمواقع البريطانية فيهما تتطلب اجراءات ادارية خاصة لحماية هاتين المنطقتين من العدوان الاجنبي».

ان التزامات بريطانيا للشريف حسين تحتمل معنيين وقد قيدت مطالب حاكم مكة الذي قضى عشرات السنين في جو الاستانة المشحون بالنشاط السياسي، جعلته يدرك تماما الحدود الحقيقية والمكنون الفعلي للوعود البريطانية. ولكن حتى اكثر التفسيرات تقييدا للرسالة البريطانية بدت له كافية لضمان مكانته المرتقبة كملك للعرب وكافية لاعلان الانتفاضة على الاتراك. فقد فسر الالتزامات البريطانية في بياناته العامة وفي مراسلاته مع الانجليز وفي ميدان الدعاية تفسيرا موسعا

واعتبرها حاوية على الاعتراف باستقلال العرب برئاسته شخصيا كملك لهم، وربما كان يؤمل في انتزاع امور من الانجليز بالقوة اكثر مما وعدوا به.

ولكن حتى التفسير الحذر لرسالة مكماهون لم يمكن الشريف وحاشيته من التصور بان جميع وعود لندن كانت خداعا وتضليلا، وان المفاوضات جارية بشأن التقسيم الاستعماري للبلدان العربية، تلك المفاوضات التي انتهت بمعاهدة سايكس ـ بيكو. فقد وقعت تلك المعاهدة قبل بضعة اسابيع من اندلاع الانتفاضة وشطبت التزامات مكماهون.

وعشية الانتفاضة حذر حاكم مكة ابنه فيصل فتمكن من التملص من الرقابة التركية مع موكب صغير.

واعلن الحسين الاستقلال في ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٦، وفي ١٠ حزيران بدأ الانتفاضة خوفا من ضربة وقائية يسددها الاتراك. وفي تموز (يوليو) استسلمت الحامية التركية في مكة، وتم بالتدريج الاستيلاء على سائر المدن الكبيرة في الحجاز، ما عدا المدينة المنورة التي يصل اليها فرع من سكة حديد الشام. وظهرت في جدة بعثتا اتصال بريطانية برئاسة الكولونيل ويلسون وفرنسية برئاسة بريمون.

وفي اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٦، أعلن الشريف حسين انه ملك البلدان العربية. الا ان احدا خارج الحجاز لم يعترف بالحسين ملكا لجميع العرب. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٧، ابلغت الحكومتان البريطانية والفرنسية الحسين بأنهما تعترفان به «ملكا على الحجاز».

وفي اواخر عام ١٩١٦، انضوى تحت لواء الحسين في الحجاز ٣٠ ـ ٤٠ الف محارب، ولكنه لم يكن لديهم غير ١٠ آلاف بندقية. وفي البداية اوكلت مهمة تنظيم العمليات الحربية لعزيز المصري وهو ضابط من مصر، ثم لجعفر العسكري وهو ضابط من العراق غدا فيما بعد رئيسا للوزراء في العراق عدة مرات. الا ان الحسين وقادته العسكريين فضلوا الاساليب التقليدية لخوض العمليات الحربية على نصائح الضباط المتدربين في الجيوش النظامية.

وفي بداية عام ١٩١٧، احتل الاسطول البريطاني وفصيل حجازي بقيادة فيصل آخر موضع للاتراك على ساحل الحجاز وهو الوجه. وفي مطلع تموز (يوليو) ١٩١٧، استولى الثائرون العرب على العقبة. واجتذبت النقود الانجليزية التي وزعها الحسين وابناؤه على البدو عددا متزايدا من الانصار للانتفاضة.

وعلى اطراف البادية، في اراضي الاردن حاليا، بدأت القوات العربية زحفها نحو دمشق، الامر الذي سهل عملية الجيش البريطاني التي قادها اللنبي في فلسطين. واقتربت نهاية الامبراطورية العثمانية. واخذ العرب يفرون من القوات التركية.

وعندما نشرت روسيا السوفييتية بعد ثورة اكتوبر المعاهدات القيصرية السرية (ومن ضمن ما نشر معاهدة سايكس - بيكو بشأن تقسيم الاقطار العربية)، سلم الاتراك الى الشريف حسين نص هذه المعاهدة. فاتصل الحسين بالانجليز طالبا رأيهم في صحة هذه المعاهدة فاستلم منهم «تأكيدات صادقة» بأن هذه المعاهدة مزورة. وصدق الشريف حسين الانجليز او تظاهر بأنه يصدقهم وواصل العمليات الحربية ضد الاتراك. وكان ذلك يعني ان الدماء العربية تراق في الواقع لاغراض ضد العرب. الا ان حكومة الحجاز كانت معتمدة كليا على المساعدات العسكرية والمالية والغذائية من الانجليز وكانت لا تتمتع بحرية للعمل.

وفي المرحلة الختامية من الحرب وبعدها غدا واضحا ان الانجليز لا ينوون تنفيذ الوعود المائعة التي قدموها للحسين والقوميين العرب، بل راحوا يعمقون المشكلة بالتقسيم السافر للاراضي العربية وبوعد بلفور الصادر في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ بشأن تأسيس «موطن» لليهود في فلسطين. وتأزمت العلاقات بين الحسين والانجليز. الا ان بريطانيا ثبتت «مصالحها الخاصة» في الجزيرة العربية من خلال مؤتمر صلح فرساي.

وفي ٣٠ ايلول (سبتمبر) ١٩١٨، دخلت جماعة من المحاربين من قبيلة عنزة الى دمشق وجالت في ساحتها الرئيسية حاملة العلم العربي. وبعد يوم كامل دخلت

وحدات اللنبي الانجليزية المدينة وصار فيصل ملكا مؤقتا لسورية حيث تشكلت حكومة عربية. لكن الفرنسيين طردوا فيصل من دمشق بعد عامين واغرقوا الحركة التحررية لعرب سورية بالدماء.

عبد العزيز وانتفاضة الحجاز. بعد بداية الانتفاضة المناهضة للاتراك في الحجاز كانت المهمة الرئيسية للحكومة البريطانية في شبه الجزيرة العربية هى حث عبد العزيز على الانضمام الى الشريف حسين، او على الاقل، الحيلولة دون اشتداد التناقضات بينهما. الا ان عبد العزيز لم يكن منذ البداية يثق بالشريف حسين. وعندما علم امير الرياض من بيرسي كوكس بنبأ الانتفاضة في الحجاز في حزيران (يونيو) ١٩١٦ اعرب عن مخاوفه من ان رغبة الحسين في قيادة العرب يمكن ان تخلق وضعا غير مقبول اطلاقا بالنسبة له[٢٥].

وبعد بداية انتفاضة الحسين كان النجديون يساعدون الاتراك تارة ويساعدون الحجازيين تارة اخرى، كما يقول المؤرخ الزركلي الموالي للسعوديين.

وكتب موسيل يقول ان فصائل عبد العزيز قامت بغزوات على القبائل الخاضعة للشريف حسين وخصوصا في المناطق الحدودية. واقام ابن سعود صلات مع الوالي العثماني والقائد العام للقوات التركية في اطراف المدينة المنورة. وفي اواخر ايلول (سبتمبر) ١٩١٧، توجه وفد نجدي الى دمشق لمناقشة مختلف القضايا مع السلطات العثمانية، مع أن عبد العزيز نفسه زار الانجليز في البصرة في اواخر تشرين الثاني (نوفمبر).

ويبدو ان عبد العزيز احس بالجهة ذات الكفة الراجحة، فصادر ٧٠٠ جمل اشتراها احد التجار الاثرياء لاجل الاتراك وسلمها الى الانجليز في الكويت. ولاحظ الشريف حسين ان الجهود البريطانية عاجزة عن وقف منافسة النجدي فبعث رسولا الى عبد العزيز يحمل ذهبا ودعوة للعمل ضد العدو المشترك (ضد الاتراك).

وبعد اندلاع الانتفاضة في الحجاز بدأت امارة جبل شمر تستلم من الاتراك اسلحة. وعندما ادرك عبد العزيز ان القدرة العسكرية لحائل بعثت من جديد اخذ

يسعى الى تحسين العلاقات مع الشريف حسين، الا ان السبب الرئيسي في تغير موقفه العدائي من الحجاز هو الضغط البريطاني.

وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦، عقد بيرسي كوكس في الكويت اجتماعا حضره عبد العزيز وشيخ الكويت جابر وشيخ المحمرة خزعل وامتدح ابن سعود اعمال الشريف حسين واكد على ضرورة تعاون جميع العرب المخلصين معه للدفاع عن القضية العربية. ولكن الامير، كما هي العادة، لم يعد بتقديم دعم ملموس. واقنع الانجليز الحسين بارسال برقية تحية الى الحاضرين في اجتماع الكويت.

وقرر عبد العزيز اثناء هذا الاجتماع التزام جانب بريطانيا كليا. واستلم، آنذاك، مع شيخ الكويت جابر الوسام البريطاني. وعند ذلك قدم عبد العزيز الى الانجليز بصورة تظاهرية الـ ٧٠٠ جمل التي كانت مخصصة للاتراك.

وبعد اجتماع الكويت زار ابن سعود البصرة حيث استعرض الانجليز امامه الاسلحة الحديثة ورأى الطائرات لاول مرة. ولم يبد الامير اعجابه الشديد فهو قليل الكلام، ولكن الآليات الحديثة، كما هو المفروض، قد تركت لديه انطباعا عميقا. وفي تلك الفترة تم الاتفاق على المعونة الشهرية لامير الرياض بمبلغ ٥ آلاف جنيه استرليني.

وبالاضافة الى المعونة المالية عرض بيرسي كوكس على امير نجد ٤ رشاشات وثلاثة آلاف بندقية مع ذخيرتها، وردا على ذلك وعد عبد العزيز بتجنيد ٤ آلاف شخص ضد حائل.

ومع ذلك تأكد الانجليز من عدم امكان دفع امير الرياض الى العمليات المباشرة ضد جبل شمر، وكانوا يؤملون، على الاقل، في ان ترغمه المعاهدة الموقعة معه على فرض الحصار على الاتراك في الحجاز وسورية .الا ان امير الرياض، شأنه شأن الحكام الآخرين، لم يعيقوا حتى نهاية الحرب التهريب الذي كانت ترد عائدات منه الى الخزينة. وذات مرة نقلت قافلة من ٣ آلاف جمل بضائع الى الحجاز فظهرت بسبب ذلك تعقيدات في علاقات ابن سعود مع الانجليز.

وعندما اعلن الشريف حسين انه ملك العرب اعرب امير الرياض عن احتجاجه وطالب برسم الحدود بين نجد والحجاز والاتفاق على عائدية بدو الحدود.

واعتبارا من عام ١٩١٧، حاول بيرس كوكس ان يصرف انظار ابن سعود عن اعمال الحلفاء في الحجاز، وظل يحرضه على مهاجمة امارة جبل شمر التي كانت تقلق القوات الانكلوهندية في وادي الرافدين من جهة الجناح. (وفي تلك السنة صار بيرسي كوكس معتمدا مدنيا لبريطانيا في بغداد لدى فيلق العمليات الانكلوهندي). وحاول الانجليز من جديد ان يوقفوا التهريب عبر بوادي الجزيرة ولكن دون جدوى. وكان سيل البضائع يجري كذلك من العراق الذي ترابط فيه قواتهم، ومن موانىء الخليج، بما فيها الكويت. ثم كانت القوافل تتجه الى القصيم او جبل شمر، ومن هناك الى المدينة المنورة او دمشق.

وفي خريف ١٩١٧، كانت فصائل الحسين تقاتل بفتور. فطالب المندوب السامي البريطاني الجديد في مصر وينهايت بممارسة ضغط اشد على ابن سعود لجعله يقوم بعمليات انشط ضد جبل شمر. وتوجه ستورس مبعوث وينهايت الى بغداد حيث ناقش الموقف مع بيرسي كوكس. وعندما زار ستورس الرياض اصيب بضربة شمس فاضطر الى مغادرة الجزيرة العربية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، نزل ممثلو بيرسي كوكس وعلى رأسهم الكولونيل هاملتون في العقير وتوجهوا الى الرياض ليناقشوا الوضع مع الامير في اواخر الشهر.

وكان في هذه البعثة فيلبي الذي غدا من اكبر دارسي الجزيرة العربية وربط حياته فيما بعد بعبد العزيز والعربية السعودية. وغدا مندوبا دائميا لبريطانيا عند امير الرياض. وكتب فيلبي نفسه ان مهمته كانت دفع عبد العزيز لشن الحملة على جبل شمر والحيلولة دون تأزم العلاقات مع الحجاز والعثور على حل لمشكلة العجمان. ووعد عبد العزيز ببدء العمليات النشيطة اذا قدموا له السلاح.

ولكن الانجليز، في نيسان (ابريل) ١٩١٨ عندما تم احتلال القدس، لم يعودوا بحاجة الى تصفية امارة جبل شمر، بل صاروا يرفضون ارسال ما طلبه فيلبي في كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧، فخابت آمال عبد العزيز.

وفي ٥ آب (اغسطس) ١٩١٨، بدأت الحملة على جبل شمر، وشارك فيها فيلبي الذي كتب عنها بحثا مفصلا. وفي ايلول (سبتمبر) ١٩١٨، تحرك الاخوان رافعين راياتهم نحو حائل. وكان عند النجديين حوالى ٥ آلاف شخص. وفي تلك الاثناء تأزم الوضع على الحدود مع الحجاز بسبب واحة الخرمة. وعقد الحسين صلحا مع حائل واقلق ذلك كله امير نجد. وعندما كان الشمريون على وشك الاستسلام قرر الانجليز ان انتصار ابن سعود في حائل سيثير رد فعل سلبياً عند الحسين فأمروا الحملة بان تعود. واستشاط عبد العزيز غضبا. الا ان هذه الحملة عادت عليه بغنيمة كبيرة هي الف وخمسمائة جمل وآلاف الاغنام و ١٠ آلاف خرطوشة. ولكنه ادرك ان الانجليز لم تعد لهم مصلحة في اعماله ضد حائل ناهيك عن احتلاله جبل شمر.

واثناء حصار الهاشميين للمدينة المنورة الذي استمر من آذار (مارس) ١٩١٧ حتى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ حدث في معسكر عبد الله بن الحسين خلاف بين احد شيوخ عتيبة وبين امير واحة الخرمة الشريف خالد بن منصور بن لؤي. وتعرض هذا الاخير لاهانة اثارت غضبه.

وفي خريف ١٩١٧ أدت مجموعة كبيرة من النجديين فريضة الحج، وقابلهم الحسين بالتكريم. واصر النجديون على تعيين حدود رسمية بين الدولتين، ولكن الملك حسين تملص من الجواب وربما انتهز خالد فرصة الحج ليجري اتصالات مع النجديين ويتبنى «التوحيد» الوهابي. وقد لاحظ الحسين ذلك. وبعد فترة قصيرة طرد خالد من الخرمة القاضي الذي بعثه شريف مكة. وعندما طلب الشريف من خالد ان يحضر لتوضيح هذا التصرف رفض خالد الحضور وقد احس بان حياته في خطر.

وفي عام ١٩١٨، بعث الملك حسين فصيلا للاستيلاء على الخرمة، الا ان عبد العزيز تمكن آنذاك من ارسال الاخوان لنجدة خالد، لذا دمروا بجهود متضافرة القوات التي جاءت من مكة عن بكرة ابيها.

وكان ذلك تحديا سافرا للشريف حسين. الا ان خالد قد تقوى آنذاك واخذ يقوم بغارات على المناطق الخاضعة للحسين. وكانت المدينة المنورة ما تزال في ايدي

الاتراك، وكان في الواقع ذلك العمل تعاونا مع الاتراك. واخيرا استسلمت حامية المدينة المنورة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، وانتهت الحرب العالمية الاولى بالنسبة للجزيرة العربية.

وجرت الاحداث لاحقا في تربة والخرمة الواقعتين بين الحجاز ونجد. وكان في تربة حوالى ثلاثة آلاف نسمة، وعدد من الاشراف يمتلكون كثيرا من ارضها. كانت هذه الواحة تعتبر بوابة الطائف من جهة نجد. اما الخرمة فكان فيها حوالى ٥ آلاف نسمة بعضهم من قبيلة سبيع وبعضهم من العبيد والمعتوقين. كما كانت فيها بضع عشرات من الاشراف.

الاحداث في اليمن وعسير. بعد استسلام الامبراطورية العثمانية ظلت في الجزيرة العربية خمس دول مستقلة في الواقع هي الحجاز ونجد وجبل شمر وعسير واليمن. وكان مستقبلها مرتبطا بالصراع فيما بينها حيث ينتصر الاقوى، وهو امارة نجد، وكذلك بسياسة بريطانيا. وكتب اللورد ميلنر وزير المستعمرات البريطاني في ١٦ أيار (مايو) ١٩١٩ يقول «كانت الجزيرة العربية المستقلة مبدأ اساسيا دائما في سياستنا الشرقية. ولكن ما نعنيه بذلك هو ان الجزيرة العربية رغم انها ستكون مستقلة بحد ذاتها، فانها ستبقى خارج نطاق الدسائس السياسية الاوروبية وداخل مجال النفوذ البريطاني، وبعبارة اخرى فان ذلك يعني أن حكامها المستقلين لن تكون لديهم معاهدات اجنبية مع احد سوانا».

ولكن قبل ان نعود الى الاحداث الاساسية في السياسة في الجزيرة العربية والتي صارت تعتمد اكثر فاكثر على التنافس بين نجد والحجاز ووجود بريطانيا كمحكم بينهما يتعين ان نتناول الوضع في اليمن وعسير.

ظل امام اليمن في الحرب العالمية الاولى مواليا للاتراك، ومن اسباب ذلك عدم رغبته في الوقوع في تبعية للانجليز وكذلك مخاوفه من الامير محمد الادريسي الذي بسط سيطرته على جنوب عسير. وكان الادريسي ضد الاتراك فقد وقع معاهدة مع المعتمد البريطاني في عدن في ايار (مايو) ١٩١٥. وحاول على رأس

قوات من ١٢ الف محارب ان يستولي على اللحية ولكن دون جدوى. إلا انه تمكن من الاستيلاء على قسم كبير من شمال تهامة، اما اللحية فقد استولى عليها الاسطول البريطاني بواسطة فصيل من ابناء عسير في مطلع عام ١٩١٧. وظل الحسن آل عايض شيخ القسم الشمالي من عسير (وعاصمته ابها) حتى حزيران (يونيو) ١٩١٦ محايدا ولكنه بدأ عمليات حربية محدودة ضد الاتراك فيما بعد.

وفي معرض تقييم الوضع في جنوب الجزيرة العربية في اواخر الحرب العالمية الاولى وبعدها مباشرة، نشير الى ان اليمن وعسير كانتا مشغولتين بشؤونهما الداخلية فلم تمارسا تأثيرا يذكر على نتيجة الصراع بين نجد والحجاز.

معركة تربة. كان الحلفاء المنتصرون يتصارعون في المؤتمرات السلمية من اجل الانتداب والامتيازات في الشرق الادنى دون ان يهتموا بكيفية تطور الاحداث في شبه الجزيرة العربية. وكانت الموجة المرعبة من «الحمى الاسبانيولية» في شتاء ١٩١٨ ـ ١٩١٩ قد حصدت ضحايا في الجزيرة العربية اكثر ممن قتلوا في العمليات الحربية. وكان من بين الضحايا تركي الابن البكر لعبد العزيز واثنان من ابنائه الآخرين وكذلك زوجته الكبرى جوهرة. الا ان هذا الوباء لم يحل دون نشوب نزاع جديد على الحدود بين نجد والحجاز.

وأرسل الملك حسين شاكر بن زيد على رأس فصيل من ١٢٠٠ بدوي و ٥٠٠ من مشاة القوات النظامية للاستيلاء على الخرمة، ولكن قواته منيت بالهزيمة تلو الهزيمة. وفي مطلع عام ١٩١٩، ارسل حاكم مكة قوات ابنه عبد الله البالغ عددها ٨ آلاف لاحتلال الخرمة. وفي تلك اللحظة لم يكن واضحا هل ان الصدام بين الحجاز ونجد نافع للانجليز. الا ان سلوك الملك حسين واستياءه من السياسة البريطانية وتذكيره للانجليز بانهم خرقوا التزاماتهم وادعاءه بلقب ملك العرب كافة، لعل ذلك كله هو ما دفع لندن للتفكير بايقاف الشريف عند حده. صحيح أن الانجليز قد لا يكونون يعرفون آنذاك القدرة القتالية الفعلية للنجديين. فقد كتب فيلبي أن جميع الحاضرين تقريبا في اجتماع عقده اللورد كيرزون في آذار (مارس) ١٩١٩، اعربوا

عن رأيهم بهزيمة الوهابيين لا محالة، وتقرر آنذاك تأييد ادعاءات الحجاز بواحة الخرمة.

وفي اواخر ايار (مايو) ١٩١٩، استولى عبد الله على واحة تربة وسمح لجنوده بنهبها. وفي تلك الاثناء اجتمعت على مقربة من تربة وحدات الاخوان من الغطغط بقيادة سلطان بن بجاد وفصيل محاربين من قحطان بقيادة حمود بن عمر.

ووصل الى تلك البقعة خالد بن لؤي من الخرمة. وتفيد المعطيات النجدية انه كان لديهم حوالى ٤ آلاف شخص. وتحدث رسل عبد العزيز الذين عادوا من تربة عن حوادث فظيعة للنهب والقتل والعنف قام بها جيش عبد الله، وزعموا ان عبد الله تباهى بانه سيبدأ صيام رمضان في الرياض وسيحتفل بعيد الفطر في الاحساء.

وهجم الاخوان على قوات عبد الله ليلا من ثلاث جهات وابادوها عن بكرة أبيها. واعترف عبد الله بأن ثلاثة فقط ظلوا على قيد الحياة من الـ ٥٠٠جندي النظامي الذين كانوا عنده، ولم يسلم الا ١٥٠ شخصا من الـ ٨٥٠ حجازيا الذين كانوا معه. ووقعت في ايدي الاخوان جميع الاسلحة والذخيرة تقريبا. ومع ان الاخوان شاركوا سابقا في بعض غزوات عبد العزيز فإن هذه المعركة كانت اول اختبار في عملية قتالية جدية. وبينت المعركة ان لدى امير نجد قوة قادرة على القتال.

ونشأ وضع خطير بالنسبة للحجازيين.

وصل عبد العزيز الى تربة في بداية تموز (يوليو) ١٩١٩ مع امدادات كبيرة من ١٢ ألف شخص، مع ان هذا الرقم كان مبالغاً فيه على ما يبدو، ولكن رسولا وصل من جدة في ٤ تموز ١٩١٩ يحمل رسالة من المعتمد البريطاني: «امرتني حكومة جلالة الملك ان ابلغكم بان تعودوا الى نجد حالما يصل الى يدكم كتابي هذا وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود، وإذا ابيتم الرجوع بعد الاطلاع على هذا الكتاب فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم وبيننا ملغية وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية».. وطلب الانجليز من عبد العزيز ان لا يتحرك نحو الطائف.

وعندما استلم امير الرياض هذا الانذار ادرك بانه تمادى كثيرا، فعاد الى الرياض في الحال. وامر الاخوان بأن يغادروا الواحات في هذه المنطقة واستبدلهم بفصيل وصل من منطقة حائل، كما اعاد امير تربة السابق الى منصبه.

وعزز الانجليز انذارهم بارسال طائرات وجنود الى جدة. وكانوا آنذاك يعتقدون، على ما يبدو، بأن الملك حسين قد تلقى درسا وما كانوا ينوون اطلاق العنان لامير نجد الذي يصعب عليهم ضبط تصرفاته.

ولقد خضع ابن سعود لمطالب الانجليز، ولكن دحر الحجازيين السهل نسبيا بين له مدى القوة التي يمتلكها، ولذا صار يعتقد بان الحجاز سيكون ملكا له في آخر المطاف. ويمكن اعتبار معركة تربة نهاية التاريخ الحديث وبداية التاريخ المعاصر للجزيرة العربية.

بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ظلت نجد مجرد دولة من عدة دول في الجزيرة العربية. وظلت قائمة امارة جبل شمر، وكانت الكويت تحت الحماية البريطانية، ولم تكن عسير قد ضمت الى نجد بعد. وكانت الحجاز تدعي بالتهام الجزيرة العربية كلها مع انها لا تمتلك القوة اللازمة لذلك. وعلى اشلاء الامبراطورية العثمانية وزعت الدول الاستعمارية الاوروبية اراضي الانتداب فيما بينها. وكتب لويد جورج يقول: «ان احدا ما لا ينوي ارسال قوات اجنبية لاحتلال جزء ما من الجزيرة العربية. فهي بلد فقير جدا لا يستحق ان تحتله دولة ضارية». ولم يتبادر الى ذهن احد ان في هذا البلد يمكن ان توجد احتياطيات خيالية من البترول.

وفي اعقاب الحرب العالمية الأولى، وبتأثير نسبي من ثورة أكتوبر في روسيا، شهد العديد من البلدان العربية حركات التحرر الوطني من مختلف التلاوين. ورغم تنوع القوى التي شاركت في تلك الحركات فقد كانت موجهة ضد الانظمة الاستعمارية التي فرضتها بريطانيا وفرنسا وضد التقسيم الامبريالي للبلدان العربية ونظام الانتداب الذي ابتدعته عصبة الامم. وكانت انتفاضات ١٩١٩ و ١٩٢١ في مصر و ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ في العراق والحركة الجماهيرية الشعبية

المناهضة للاستعمار في ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ في سورية ولبنان والانتفاضة السورية في ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ والانتفاضة في عدن عام ١٩١٩ ـ كل تلك الاحداث كان لها تأثير مباشر وغير مباشر على الجزيرة العربية. وغدا واضحا ان زمان النظام الاستعماري باشكاله القديمة قد ولى بالتدريج.

الجزء الثاني

الفصل الحادي عشر

توحيد اراضي الجزيرة من حول نجد (١٩١٨-١٩٢٦)

اصبح وضع امارة نجد بعد الحرب العالمية الاولى اكثر تعقيدا مما كان عليه عشية نشوبها. فلئن كان بوسع امير الرياض قبل الحرب ان يستثمر التناقضات بين الامبراطورية العثمانية وبريطانيا العظمى، فان الانجليز غدوا بعد الحرب القوة الفعلية الوحيدة في المنطقة. وتيقن عبد العزيز من ذلك حينما منعوه من مهاجمة الحجاز وجبل شمر. ولكن بريطانيا، من جهة اخرى، تحاشت التدخل مباشرة في شؤون شبه الجزيرة العربية وسعت الى التملص من الانفاق على حكامها.

العلاقات بين نجد والكويت. احدث ارتفاع شأن امارة نجد قلقا لدى حاكم الكويت، الذي شعر بخطر مباشر يهدده بفعل انضمام عشيرة مطير التي كانت الكويت هدفا تقليديا لهجماتها الى حركة الاخوان. وتحت ستار حماية دعوة «التوحيد» ونشرها، اعتبر مطير ان من حقهم نهب الكويت، بلد «المشركين» المتعاون مع الانجليز.

في عام ١٩١٥، ساعد الكويتيون قبيلة العجمان على تفادي الهلاك بايوائهم ابناء هذه القبيلة. وانصاع العجمان آنذاك لعبد العزيز خلافا لارادتهم. فقد احتوتهم حركة الاخوان، ولكن عبد العزيز كان يعتزم تقسيم العشيرة الى زهاء عشرين هجرة صغيرة مبعثرة في المناطق الداخلية من نجد. وعلى الرغم من ان العجمان لم يعارضوا حركة الاخوان، فإنهم رفضوا رفضا قاطعا الاقامة في مناطق مبعثرة خارج ديارهم في منطقة الاحساء.

وكان تدهور العلاقات بين الانجليز والكويتيين عونا غير منتظر للنجديين. اذ اكتشف الانجليز ان تموين الاتراك في الشام كان يجري جزئيا، عن طريق الكويت ويحصل شيخها سالم على دخل من التهريب [٢].

وقد كان حاكم الكويت سالم على علم بالاتفاقية البريطانية ـ التركية لعام ١٩١٣ التي ترسم حدود الكويت في منطقة جبل منيف[٣]. ولكنه لم يعرف بان المعاهدة البريطانية النجدية لعام ١٩١٥ لم ترسم حدود الكويت[٤]. (كان يدعي بجزء كبير من الاحساء).

وقد اقام عبد العزيز هجرة اخوانية على حدود الكويت، ولكن ضمن حدود ديرة مطير، فاحتج الشيخ سالم وجرى اشتباك بين الكويتيين والاخوان الذين كانوا بامرة فيصل الدويش، وانتهى بهزيمة الكويتيين[٥].

وازاء الخطر الداهم سأل الشيخ سالم الانجليز ان يعينوه، ولكن هؤلاء طالبوا بان يوافق الطرفان المتخاصمان سلفا على حكم الانجليز كقضاة [٦].

في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٠، وافق الامراء على مطالب الانجليز، ولكن الاشتباكات استمرت. وعندها طلب الكويتيون النجدة من قبائل شمر، فوصلت قوة من حائل. اوعز ابن سعود لفيصل الدويش بالتحرك نحو الكويت. وفي ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٠، وصل اخوانيون من قبيلة مطير يقارب عددهم الاربعة آلاف الى مكان يبعد بضعة كيلومترات الى الجنوب من مدينة الكويت[٧]. وفي الشهر نفسه اجرى بيرسي كوكس مفاوضات مع عبد العزيز في العقير[٨]، في محاولة لحل نزاعات الحدود حلا يرضي الانجليز. ولكن فيصل هاجم في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٠، في موقع قرب الجهراء، القوات الكويتية الشمرية وهزمها، رغم تكبده خسائر كبيرة. واحتمى الشيخ سالم بقصر له قرب الجهراء ودخل مفاوضات لكسب الوقت، وفي الوقت نفسه طلب النجدة من الانجليز. وفي الشهر نفسه قرر الانجليز اغاثته فأرسلوا سفناً إلى سواحل الكويت وهددوا بالتدخل في النزاع إلى جانب الكويت، مما اضطر فيصل الى الانسحاب[٩].

في اواخر شباط (فبراير) عام ١٩٢١ باغتت المنية الشيخ سالم. وقد وقع

اختيار اعيان الكويت، الذين انهكتهم حرب هم في غنى عنها، على احمد بن جابر الصباح، وهو الابن الاكبر للشيخ جابر بن مبارك الصباح الراحل. وكان احمد ذا شعبية ويؤيد التوصل الى حل مقبول مع امير الرياض[١٠]. وفي تلك الاثناء كان يجري مفاوضات مع ابن سعود في نجد.

أدرك عبد العزيز أن الانجليز لن يتنازلوا له عن الكويت. وفي ذلك الحين كان اهتمامه منصرفا الى الحملة المرتقبة على حائل، وامكانية احكام سيطرته على جبل شمر بأسره.

الحاق جبل شمر. خلال العامين المنصرمين بلغت النزاعات بين آل سبهان وآل رشيد درجة الغليان. وفي عام ١٩١٩، فرّ سعود آل سبهان إلى الزبير، فانتقل منصب الوزير الذي كان يشغله الى المدعو عقاب بن عجل الذي شرع يبحث عن واصلة بعبد العزيز[١١]. وفي أواخر آذار (مارس) عام ١٩٢٠ لقي أمير شمر سعود بن عبد العزيز مصرعه على يد ابن عمه عبد الله بن طلال الذي قتله فيما بعد احد خدام سعود. وبالتالي آلت الامارة الى عبد الله بن متعب بن عبد العزيز[١٢].

تلقى امير نجد معلومات تفيد بوجود كثير من انصار اسرة شريف مكة في حاشية آل رشيد، وصار خطر اتحاد خصوم آل سعود القدامى خطرا فعليا في الظروف التي كان ابانها الانجليز يعدون فيصل لتولي عرش العراق[١٣]. في آذار ـ نيسان (مارس ـ ابريل) عام ١٩٢١، واثر عقد الصلح مع ممثل الكويت، قرر عبد العزيز تجهيز حملة على حائل. وفي تلك الأثناء نكبت المناطق الوسطى من الجزيرة مرة اخرى بالجفاف الشديد وارتفعت الاسعار، مما زاد من مصاعب جبل شمر[١٤].

في نيسان ـ ايار (ابريل ـ مايو) عام ١٩٢١، الحقت فصائل بن سعود الهزيمة بقبائل شمر واصبحت عند جدران حائل، فبدأ حصار مديد. قرر حاكم جبل شمر عبد الله بن متعب بن عبد العزيز الاحتماء وراء جدران حائل المنيعة، ولكن حينما اوشكت المؤونة في المدينة على النفاد، أرسل وفداً للتفاوض وكان مستعدا للقبول بان تقتصر امارة جبل شمر على مدينة حائل واراضي قبيلة شمر، ولكن ابن سعود الذي شعر بقوته، طالب بالاستسلام الكامل[١٥].

استمرت الاشتباكات بين الطرفين طوال عدة اشهر، دونما نتائج تذكر. ورغم ان سكان حائل تمكنوا من الحصول على قدر من المؤونة يكفي لمقاومة الحصار، الا ان الصراع الداخلي في المدينة استمر مستعرا. وقد خلع اعيان حائل عبد الله بن متعب ونصبوا مكانه محمد بن طلال (شقيق عبد الله بن طلال) بعد اطلاق سراحه من السجن، واستجار عبد الله بن متعب بامير الرياض. وحتى ذلك الحين لم يسفر الحصار عن شيء.

في تلك الاثناء، وضع ونستون تشرشل في اجتماع عقد بالقاهرة بنية الشرق الاوسط لفترة ما بعد الحرب. قرر الانجليز تنصيب فيصل، ابن الشريف حسين، ملكا على العراق، وسرعان ما توج. كما قرروا اسناد امارة شرقي الاردن لعبد الله. وادرك ابن سعود ان عليه الاسراع، والا فان جبل شمر سوف يفلت منه. قبل بدء الحملة الجديدة على حائل عقد عبد العزيز مجلسا لاعيان وشيوخ القبائل وعلماء الدين حيث تقرر ان يخلع على الامير لقب «سلطان نجد والاراضي الملحقة» لرفع الهيبة الدولية للبلد.

في آب (اغسطس) عام ١٩٢١، عاد عبد العزيز الى مواقع قرب حائل على رأس قوة مؤلفة، وفق بعض المصادر، من زهاء عشرة آلاف شخص من ضمنهم الاخوانيون بزعامة فيصل الدويش[١٦]. اصبحت اوضاع المحاصرين ميؤوساً منها، وبعد شهرين من الحصار اوفد اعيان المدينة احد افراد آل سبهان للتفاوض ثم اتفقوا على الاستسلام. وفي الوقت المحدد شرعت ابواب حائل امام قوات عبد العزيز. لاذ ابن طلال بالقلعة وارسل نداء استغاثة الى السلطات البريطانية في العراق والى الملك فيصل، ولكن النجدة لم تصل وبعد فترة استسلم بشرط ان تصان حياته. اقام ابن طلال في الرياض اسيرا مكرما وزوج ابنته لابن سعود. وقد لقي آخر امير مستقل لحائل مصرعه في الرياض على يد احد عبيده عام ١٩٥٤[١٧].

في الاول من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٢١ لم يعد هناك وجود لامارة جبل شمر المستقلة. وفي الثاني من الشهر بايع سكان حائل عبد العزيز الذي جعل من ابراهيم السبهان واليا على المنطقة الجديدة في سلطنته. وقد حرّم امير نجد

السلب في المدينة، وزود الجياع ببعض المؤن. وكان الشيعة اكثر من يخشى على حياتهم، ولكن ابن سعود اصدر ايعازا خاصا يكفل لهم الحماية[١٨]. ويجدر بالذكر ان الاخوان لم يوافقوا على تسامح اميرهم وانتقدوه علانية لغضه النظر عن «المشركين»[١٩].

بسقوط جبل شمر اضحت كل المناطق الوسطى من الجزيرة تحت سيطرة امير الرياض واصبحت نجد والمناطق الملحقة بها القوة الرئيسية في شبه الجزيرة العربية. ولم يقو جبل شمر على الصمود ازاء ضغط الجار الجنوبي الاقوى الذي استلهم جنده شعارات المذهب الوهابي بعد انبعاثه. لقد اعتمد جبل شمر، في الاساس، على قبيلة كبيرة واحدة ولم يصبح نواة لدولة موحدة في الجزيرة العربية، وضعفت مواقعه ازاء المنافس القوي الحازم بسبب الحزازات الداخلية وغياب الزعيم القوي. وقد ربط حكام جبل شمر مصيرهم بالامبراطورية العثمانية، في حين ان الحركة القومية لعرب الجزيرة كانت ذات طابع مناهض للاتراك بوضوح. وفي تلك الاثناء لم تكن بريطانيا تعتبر الحاق الجزء الشمالي من وسط الجزيرة بنجد خطرا كبيرا على مصالحها في العراق وشرقي الاردن، وآثرت ان تبقى بمعزل عن الاحداث هناك، على الرغم من ان تعزيز مواقع نجد حملها هموما غير قليلة.

بداية النزاعات والاشتباكات الحدودية بين نجد والعراق وشرقي الاردن.

بعد الاستيلاء على جبل شمر جابهت امارة نجد ثلاث دول معادية لها يحكمها افراد الاسرة الهاشمية، وتحد نجد من الغرب والشمال.

لم ترسم الحدود بين جبل شمر وبين العراق وشرقي الاردن. وعلاوة على ذلك فان مسألة الحدود البرية الثابتة كانت جديدة نوعا ما على حكام الجزيرة. وكان ابن سعود يرى ان كل قبائل شمر وعنزة تابعة له، لذا فان رعاياه متواجدون في مناطق بعيدة يعتبرها الانجليز جزءا من العراق. اضف الى ذلك ان بعض قبائل شمر وغيرها من القبائل الرافضة لمطامع السعوديين قد ارتحلت الى العراق[٢٠]. وفيما بعد كتب غلوب باشا قائد الجيش (الفيلق) العربي في الاردن: «لم تكن هناك حدود في اواسط الجزيرة. ولم تحاول الادارة في بغداد قط احكام سيطرتها في الصحراء

لمسافة تزيد عن ميلين او ثلاثة من الفرات... وكانت حياة العديد من القبائل نفسها مرتهنة بحقها في التنقل بحرية في المناطق الواقعة ضمن الحدود الحالية للعراق وسورية. وتصرفت القبائل السورية والعراقية على النحو نفسه. لذا فان رسم حدود ثابتة بدا لها امراً خطراً»(٢١).

ادت الخلافات والاشتباكات بين القبائل الى تفاقم النزاعات بين العراق ونجد. وفي خريف عام ١٩٢١، عين المدعو يوسف بن سعدون قائدا لفيلق الجمالة العراقي المشكل حديثا. وكان لهذا عداء شخصي مع شيخ قبيلة الظفير حمود بن سويط الذي فر الى الرياض مستجيرا بعبد العزيز وعاد بعد فترة من الزمن مع جباة الزكاة الذين اوفدهم امير الرياض. والتحقت بحمود مجموعة من الاخوان من مطير برئاسة فيصل الدويش، فهاجموا سوية معسكرة يوسف في آذار (مارس) عام ١٩٢٢ وابادو غالبية جنده، فارسل الانجليز طائراتهم لنجدة العراقيين. عند ذاك سرحت الحكومة العراقية فيلق الجمالة واقالت قائده يوسف بن سعدون الذي ساءه الامر فهرب الى الرياض حيث عرض خدماته على عبد العزيز(٢٢).

في ربيع ١٩٢٢، التقى ممثلون عن عبد العزيز ببيرسي كوكس في المحمرة، واصر الانجليز على اقامة حدود ثابتة بين العراق ونجد، وطالب الوفد النجدي برسم الحدود اعتمادا على تقسيم الديار التقليدي للبدو الرحل، وفي الخامس من ايار (مايو) عام ١٩٢٢، وقعت معاهدة المحمرة التي جعلت قبائل المنتفق والظفير والعمارات التي هي فخذ من قبيلة عنزة تابعة للعراق، بينما جعلت قبائل شمر تابعة لنجد. غير ان عبد العزيز رفض ابرام الوثيقة بحجة ان الظفير بزعامة حمود بن سويط احتموا به ورفضوا الانصياع للعراق(٢٣).

في حزيران (يونيو) عام ١٩٢٢ شرع الاخوان يتحركون باتجاه الشمال الغربي، نحو شرق الاردن. وبعد الاستيلاء على واحة الجوف في تموز (يوليو) من العام نفسه اشتبكوا مع دوريات تابعة لامارة شرقي الاردن. واثر ذلك استولوا على واحتي تيماء وتبوك وارغموا سكانهما على اخراج الزكاة للرياض(٢٤). وبعد ذلك زحف الاخوان على وادي السرحان الذي كان في السابق جزءا من جبل شمر،

وسرعان ما هاجموا واحة بني شاكر، مما جعلهم على مقربة من عمان، عاصمة شرقي الاردن[٢٥]. وفي الوقت نفسه دنا النجديون من حدود سورية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي، واخذوا يهددون بقطع ممر الارتباط المباشر بين الممتلكات البريطانية.

وفي ذلك الحين كان الانجليز يدرسون مسألة مد خط للسكك الحديد بين فلسطين والعراق عبر هذا الممر بالذات.

رأى بيرسي كوكس ان من الضروري العمل على وضع حدود ثابتة، واتفق على عقد لقاء شخصي مع امير نجد. وفي ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٢٢، بدأ كوكس وعبد العزيز مفاوضات استغرقت ستة ايام في العقير. وأسفرت المفاوضات عن وضع بروتوكولات (ملاحق) العقير التي وقعت في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٢، والحقت بماهدة المحمرة. وكان هذا يعني نوعا من النجاح للدبلوماسية البريطانية التي ارغمت سلطان نجد على الاعتراف بحدود العراق الخاضع للانتداب[٢٦].

رسم البروتوكول الاول الحدود بين العراق ونجد واسس المنطقة المحايدة التي يحق للقبائل العراقية النجدية أن ترعى أغنامها فيها. ومنحت القبائل النجدية التي كانت تستخدم بعض الآبار في اراضي العراق الحق في مواصلة استخدامها بشرط الا تستثمر مصادر الماء في منطقة الحدود لاغراض حربية. وبذا فان هذه الاتفاقية راعت حدود الديرة التقليدية لمختلف القبائل.

نص البوتوكول الثاني على ان لاي قبيلة تروم ان تكون تحت رعاية حكومة اخرى الحق في ذلك.

والى جانب رسم الحدود بين نجد والعراق وقع عبد العزيز ومندوبون عن الكويت اتفاقية حول الحدود، ضمنت بدورها منطقة محايدة للبدو من الطرفين، لاستخدامها لاغراض رعي الاغنام[٢٧].

ان مفاوضات العقير بحد ذاتها حرية بان نتوقف عندها بشيء من التفصيل. وهاكم ما كتبه احد المشتركين فيها وهو ديكسون: «في اليوم السادس قال السير

بيرسي...لكلا الطرفين ان الوتيرة التي تجري عليها المفاوضات لن تفضي الى تسوية شيء طوال سنة. وفي لقاء خاص اقتصر على بيرسي كوكس وابن سعود وانا لم يطق كوكس صبرا على ما سماه بموقف ابن سعود الصبياني من فكرة الحدود القبلية. ولم يكن السير بيرسي يجيد العربية كما ينبغي، فتوليت الترجمة. كان امرا غريبا ان يلاحظ المرء كيف يوبخ المندوب السامي لصاحب الجلالة سلطان نجد وكأنه تلميذ مشاكس. قال كوكس لابن سعود بصرامة، انه هو (كوكس) الذي يقرر شكل الحدود وامتدادها العام... كاد عبد العزيز ينهار تماما وقال بتأثر ان السير بيرسي بمثابة ابيه وامه اللذين انجباه ورفعاه من الحضيض الى مقامه الحالي، وانه مستعد للتنازل عن نصف مملكته، بل عن المملكة كلها اذا امر السير بيرسي».

اثر ذلك اخذ كوكس قلما احمر ورسم بحذر على خارطة الجزيرة الحدود من الخليج العربي الى شرقي الاردن. وفي مساء اليوم نفسه، كما يقول ديكسون، جاءت «التتمة المدهشة». «فقد طلب ابن سعود مقابلة السير بيرسي على انفراد. اصطحبني السير بيرسي، وكان ابن سعود يقف بمفرده وسط سرادقه الكبير الذي كان مضيفا. بدا مغتما للغاية وقال متوجعا: «يا صديقي، لقد حرمتموني نصف مملكتي. الافضل ان تأخذوها كلها وتسمحوا لي بالاستقالة». وظل هذا الرجل القوي الضخم البنيان المتسامي بأساة، واقفا ثم انحدرت من مآقيه الدموع على حين غرة. تأثر السير بيرسي غاية الاثر واخذ يده وانشأ ينتحب هو الآخر. انحدرت الدموع على خديه. لم يحضر احد، سوانا نحن الثلاثة، هذا المشهد وانا انقل بدقة ما رأيت. لم تستمر الزوبعة العاطفية امدا طويلا. قال السير بيرسي وهو ما يزال يمسك بيد ابن سعود: «يا طويل العمر، انا اعرف بدقة حقيقة مشاعرك، لذا فانني اعطيك ثلثي اراضي الكويت. لا اعرف كيف سيكون وقع هذه الضربة على ابن الصباح»[٢٨].

ومهما كان من امر لا يجب ان يغيب عن بالنا ان عبد العزيز وكوكس كانا ممثلين جيدين، ورغم ان كل الاوراق الرابحة كانت في يد كوكس لان بريطانيا بالذات هي التي تملي ارادتها في الجزيرة ، فان عبد العزيز تمكن من تحقيق الكثير من مطالبه.

ففي تلك الفترة بالذات كان ابن سعود يعتزم تجهيز حملة على غرب الجزيرة، وصار بوسع كوكس ان يلمح اليه بان بريطانيا سوف تتغاضى عن استيلائه على الحجاز[٢٩].

لم يتم التوصل الى اتفاق حول الحدود مع شرقي الاردن. وفي مستهل عام ١٩٢٣ شنت مجموعة صغيرة من الاخوان هجوما جديدا على شرقي الاردن. اسر المهاجمون واعدم احد عشر شخصا منهم في عمان[٣٠]. وفي تلك الاثناء استمرت تصفية الحسابات بين القبائل القاطنة على الحدود بين العراق ونجد، والتي جرى في العقير تقرير مصيرها دون مشاركتها. تمكن يوسف بن سعدون من تعبئة مجموعة من الاخوان لمهاجمة خصومه من قبيلة الظفير، ولكن عبد العزيز حينما علم بذلك أرسل قوة لمعاقبته. عندئذٍ هرب يوسف وانصاره (ومن بينهم الاخوان) وطلب اللجوء من الحكومة العراقية[٣١].

عند تقييم السياسة البريطانية في هذه المنطقة في بداية العشرينات، لا يمكن الزعم بان ايصال التناحر بين نجد والعراق والاردن الى حد القطيعة كان من مصلحة لندن. فقد آثر الانجليز ان يستثمروا بهدوء ممتلكاتهم الجديدة. وعلاوة على ذلك فانهم قدموا منحا كبيرة لجميع حكام المنطقة، ولم يتوقفوا عن تقديمها الا في ٣١ آذار (مارس) عام ١٩٢٤[٣٢].

في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٣ عقد في الكويت، بمبادرة بريطانية، مؤتمر حضره ممثلون عن شرقي الاردن والعراق ونجد، للقيام بمحاولة تسوية القضايا المتنازع عليها، ولكن الاطراف لم تتفق على شيء. واستمرت غزوات القبائل عبر الحدود المرسومة شكليا، وفي آذار (مارس) ١٩٢٤، اوعز عبد العزيز الى فيصل الدويش بمعاقبة القبائل التي شنت هجمات على نجد من جهة العراق. استؤنف مؤتمر الكويت في آذار (مارس) عام ١٩٢٤ واستمر حتى شهر نيسان (ابريل) دون اي نتيجة[٣٣].

في اواسط آب (اغسطس) اتجهت قوة كبيرة من الاخوان نحو عمان عبر وادي السرحان، ومرت بمحاذاة حصن القاف الذي شيده الانجليز منذ امد قريب، ولكن

حامية الحصن لم تكن لديها وسيلة للاتصال لذا فان ظهورهم على بعد بضعة كيلومترات من عمان كان مفاجئا. استخدم الانجليز الطائرات والمدرعات ووحدات الفيلق العربي فابعدوا الاخوان وكبدوهم خسائر كبيرة(٣٤).

بيد ان الحجاز اخذت تستأثر باهتمام متزايد من لدن امير نجد عند حلول صيف ١٩٢٤.

منذ سنوات عديدة وعيون النجديين تتطلع بشوق الى الحرمين، بينما كان زعماؤهم يحصون العوائد التي يمكن ان يدرها عليهم الحجاج ورسوم الجمارك في جدة. واقترن الحماس والتعصب الديني بمخططات الغزو التي اعدتها الارستقراطية الحاكمة في نجد.

ظلت العلاقات بين نجد والحجاز في اقصى درجات التوتر بعد معركة تربة. وحينما جهز عبد العزيز قوة مسلحة للاستيلاء على مدينة ابها في شمال عسير في ايار (مايو) ١٩٢٠، منع الحسين النجديين من دخول الحجاز لاداء فريضة الحج في آب - ايلول (اغسطس - سبتمبر) عام ١٩٢٠. ورفع النجديون ظلامة الى بيرسي كوكس بوصفه حكما، ونزولا عند اصرار الانجليز سمح الحسين لهم باداء الفريضة في العام التالي، ولكنه حدد عدد الحجاج خوفا من تقاطر عدد كبير من الاخوان على الحجاز. وعند حلول عام ١٩٢٣، كان النجديون قد ثبتوا اقدامهم في عسير، فتزايدت مخاوف الحسين.

الاستيلاء على شمال عسير. ابتداء من عام ١٨٧١ وحتى الحرب العالمية الاولى كان الاتراك يمارسون ادارة عسير بشكل مباشر، اذ كان يوجد متصرف تركي الى جانب امير من فخذ آل عايد. وعندما نشبت الحرب انسحب الاتراك من عسير واصبح الامير حسن بن علي آل عائض مستقلا في الواقع. ولكن الكثير من القبائل، مثل قحطان وزهران وغامد، وقفت ضده وارتحلت الى عمق الجزيرة، وفي الوقت نفسه ارسلت وفدا لمبايعة عبد العزيز. وقد اوفد امير الرياض ستة من العلماء ليهدوا ابناء عسير الى رسالة «التوحيد»(٣٥).

كانت غالبية سكان عسير من اتباع المذهب الشافعي، ولكن على الرغم من ذلك

فانهم كانوا منذ ازمان دولة السعوديين الاولى يميلون الى المذهب الوهابي، ولم تنقطع صلاتهم بنجد[٣٦]. وقد استقبل عبد العزيز موفدي القبائل وبعث برسالة الى الامير حسن يطالب فيها باحترام حقوقهم. وطالب حسن من جانبه بالا يتدخل عبد العزيز في الشؤون الداخلية لعسير. وفي ايار (مايو) عام ١٩٢٠، ظهرت في جبال عسير قوة قوامها ثلاثة آلاف شخص مؤلفة من سكان العارض وبدو قحطان، بقيادة عبد العزيز بن ساعد بن جلوي، وانضم اليها بعض السكان المحليين. وقد هزم الامير حسن في موقع قرب العاصمة ابها، واحتل بن جلوي اراضي تمتد حتى المنطقة الواقعة تحت سيطرة محمد الادريسي. ونظرا لعدم توفر القوى لبسط سيطرة مباشرة على الامارة، فان عبد العزيز نقل الامير حسن وابن عمه محمد الى الرياض، وبعد اشهر اعادهما الى ابها كعاملين من الرياض. استمر الصراع الداخلي في عسير، واخيرا تولى الامارة المدعو فهد العقيلي، ولكن حسن تمكن من تدبير عصيان ضده واستولى على أبها بعد حصار دام عدة ايام. وقد ساعده الشريف حسين في الوقوف ضد صنائع النجديين[٣٧].

بعد سقوط حائل جهز عبد العزيز قوة قوامها زهاء ستة آلاف شخص اسند قيادتها الاسمية الى ابنه الصبي فيصل، بينما تولى القيادة الفعلية ابن لؤي. غادرت القوة الرياض في حزيران ـ تموز (يونيو ـ يوليو) ١٩٢٢، وفي الطريق التحق بها قرابة اربعة آلاف بدوي من قحطان وزهران وشهران. وبعد الاستيلاء على واحة بيشة في ايلول ـ تشرين الاول (سبتمبر ـ اكتوبر) عام ١٩٢٢ شارف فيصل مدينة ابها واستولى عليها دون قتال، وفر حسن بن عائض الى الجبال. وقد اخفقت محاولة ملك الحجاز لنجدته، وهزم الاخوان الحملة الحجازية. وبعد الاستيلاء على هذا الجزء من عسير، ولى فيصل امارة ابها لسعد بن عفيصان وابقى معه حامية وعاد الى الرياض في اوائل عام ١٩٢٣[٣٨]، وسرعان ما توفي ابن عفيصان فولي الامارة بعده عبد العزيز بن ابراهيم. وبعد فترة من الزمن استسلم حسن ووجّه الى الرياض حيث عاش مكرما[٣٩]. وبذا باءت بالفشل محاولة آل عائض لانشاء امارة مستقلة في شمال عسير.

الاستيلاء على الحجاز. عند حلول عام ١٩٢٣، غدا واضحا ان الاصطدام بين الملك حسين والنجديين بات وشيكا. وتزايد في الحجاز الاستياء من سلطة الملك، اذ ان الفساد والرشوة استشريا واخذ جهاز الدولة يتآكل بفعلهما. وعند جباية الخراج المعتاد من الحجاج عمد الحسين الى زيادة الزكاة لتعزيز قواته المسلحة واستاءت القبائل من محاولته ارسال قوات لجباية الضرائب، والتجأ الكثير من المستائين الى نجد. وظل الملك حسين يعتبر عسير من ممتلكاته، وفي نيسان (ابريل) عام ١٩٢٣، حاصرت قوة من الحجاز مدينة ابها ولكن دون طائل[٤٠].

يشير حافظ وهبة الى ان عبد العزيز قرر غزو الحجاز عام ١٩٢٣، غير انه لم يكن واثقا من موقف الحكومة البريطانية، فان سلطان نجد لم ينس انها هي التي ارغمته على سحب قواته بعد معركة تربة، وحذرته من التقدم في الحجاز[٤١]. وبديهي ان ابن سعود كان على علم بالاستياء من نظام الحسين في الحجاز وكان ذلك من العوامل التي دفعته الى التحرك. وفي الوقت نفسه بدأت حزازات بين الحسين والحجاج الوافدين من الهند ومصر بسبب سوء الخدمات الطبية [٤٢].

ساءت العلاقات بين الانجليز والملك الحسين الذي رفض ابرام معاهدة فرساي احتجاجا على تسليم سورية للفرنسيين ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني. وفي عام ١٩٢١ وفد لورنس يحمل الى الحسين عرضا بعقد معاهدة بين بريطانيا والحجاز، يحصل بمقتضاها الملك على اعانات من بريطانيا ويعقد معها معاهدة عسكرية، وفي المقابل يعترف بان لها مصالح خاصة في الحجاز. واكد الحسين على انه لا يمكن ان يسود فلسطين السلام ما دام العرب يتهيبون من ان الهدف الاخير للصهاينة يتمثل في اقامة دولة يهودية في فلسطين على حساب مصالحهم القومية. وقد رفض ملك الحجاز توقيع المعاهدة واهاب برئيس الوزراء البريطاني ان ينفذ الوعود التي قطعها اثناء الحرب ولكنه لم يحصل على جواب [٤٣].

وقد تراجعت هذه الخلافات الى المقام الثاني بعد ان اعلن الشريف حسين نفسه خليفة في آذار (مارس) عام ١٩٢٤ (اثر الغاء الخلافة في تركيا التي صارت جمهورية). وكان الحسين يأمل من وراء اعلانه الخلافة تعزيز سلطته وتأكيد

مطامعه في ان يكون اميرا لكل العرب، او على الاقل المقيمين الى الشرق من السويس. ولئن كانت هذه الخطوة قد قوبلت بالاستياء في مصر حيث كان الملك فؤاد يطمع في الخلافة، وفي اوساط المسلمين بجنوب آسيا، فإنها اعتبرت في نجد تحديا لمشاعر الاخوان الدينية وسياسة السلطان ابن سعود. وعلاوة على ذلك فقد ازّم هذا القرار العلاقات بين الملك حسين والبريطانيين الذين خافوا من فقدان سيطرتهم على ملك الحجاز الذي كانوا يعتبرونه خصما محتملا يقف عائقا دون احكام سيطرتهم الاستعمارية على الشرق الاوسط.

في تموز (يوليو) ١٩٢٤، افتتحت في جدة قنصلية عامة سوفييتية مما اثار حنق البريطانيين.

ولا يجدر ان ننسى وجود معاهدة شكلية عقدت بين بريطانيا ونجد عام ١٩١٥ حول الحماية. وادرك سلطان نجد ان بريطانيا سوف تقف، على الارجح، هذه المرة على الحياد في حالة قيام نزاع بينه وبين الحجاز [٤٤].

في تموز (يوليو) ١٩٢٤، جمع عبد العزيز قادة الاخوان الذين وفدوا الى الرياض بمناسبة عيد الاضحى ليعرض عليهم مسألة غزو الحجاز فلقي عرضه صدى ايجابيا في نفوسهم [٤٥]. وقد اراد الاخوان ان يجاهدوا في سبيل «تطهير» بيت الله، ولكي يغنموا الاموال اجرا لجهادهم.

قرر عبد العزيز ان ينزل ضربته الاولى بالطائف، قرب مكة. وفي ٥ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٤، دخل الاخوان الطائف ومكثوا فيها ينتظرون اوامر عبد العزيز. وكان قوام قوات عبد العزيز مقاتلون من هجرة الغطغط بامرة سلطان بن بجاد ومن هجر اخرى لعتيبة وقحطان وقبائل اخرى، وانضمت اليها قوة من الخرمة بقيادة ابن لؤي. وقد استولى الاخوان على خزين الذخائر العسكرية في الطائف، واستبيحت المدينة لمدة ثلاثة ايام، ففر الكثير من ابنائها وسقط الباقون صرعى بيد الاخوان. وقد روعت الحجاز للامر [٤٦]. وفي ٢٢ ايلول (سبتمبر) اصدر عبد العزيز امرا حذر فيه بشدة من العودة الى البطش وقطع عهدا بالحفاظ على اموال اهل

الحجاز ودمائهم[٤٧]. وثمة معطيات تفيد بان اربعمائة رجل وامرأة وطفل قد قتلوا في الطائف[٤٨].

وقد حاول علي بن الحسين تجميع قوات في الهدة ووقف زحف الاخوان على مكة ولكنه مني بهزيمة اخرى في خاتمة المطاف[٤٩].

اصبح وضع الحسين ميؤوسا منه، فاجتمع اعيان الحجاز، ومنهم اشراف مكة وعلماء الدين وكبار التجار، في جدة وقرروا خلع الحسين في محاولة لترضية ابن سعود. وبعد اخذ ورد وافق الحسين على التنازل عن العرش لولده علي الذي نصب ملكا على الحجاز في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤. وشكل وجهاء الحجاز مجلسا (حزبا) وطنيا، وهو شيء اشبه بالبرلمان، وصارت الحجاز بمثابة «مملكة دستورية». وبعد ثلاثة ايام ارسل الحسين مع امتعته الى جدة، وفي اواسط تشرين الاول (اكتوبر) غادر الى العقبة ومنها نقله الانجليز الى قبرص[٥٠].

لم تتحقق الامال المعقودة على ترضية ابن سعود. وبعد برهة دنا الاخوان من مكة، واضطر على الانسحاب الى جدة على رأس قوة من ٤٠٠ فرد. وفي اواسط تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٤ دخل الاخوان مكة وبنادقهم منكسة الى اسفل. وتجدر الاشارة الى ان نية عبد العزيز في التريث وعدم دخول مكة حتى يستبين فعل البريطانيين، قد صارت طيّ النسيان بعد احراز النصر الاول. بيد ان سلطان جدة آثر المكوث في الرياض، كي يحمل الاخوان مسؤولية غزو الحجاز اذا ما تدخل البريطانيون. وعلى الرغم من نهب الكثير من بيوت اشراف مكة بعد استيلاء الاخوان عليها، فان المدينة لم تشهد حمامات دم. وقد نصب الشريف بن لؤي اميرا لمكة وظل ابن بجاد في الطائف[٥١].

كان اعيان جدة ومكة يأملون، بتنصيبهم علي ملكا، بالتخلص من الغزو النجدي، لأن الكثيرين منهم اعتقدوا بان خلاف سلطان نجد مع الملك حسين هو سبب المشاكل. غير ان السلطان اراد طرد الاسرة الهاشمية بأسرها من الحجاز ولم يوافق على عقد الصلح بشروط اخرى[٥٢].

حاول اعضاء المجلس الحجازي اجراء مفاوضات، ولكن ابن سعود اصر على وجوب مغادرة علي الحجاز. وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ عاد وجهاء الحجاز الى جدة وطلبوا من علي التنازل عن العرش. وبدأت مفاوضات بين انصار علي وخصومه اضطر على اثرها المجلس الى اعلان حله، وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٤ اعتقل الكثير من خصوم علي(٥٣).

تجدر الاشارة الى ان معتمدي الدول الاجنبية في جدة بعثوا الى خالد بن لؤي رسالة يشيرون فيها الى التزام حكوماتهم بالحياد ويطلبون ضمان حقوق رعاياهم وممتلكاتهم في جدة في حالة استمرار الحرب. ووعد خالد بان يكفل الاخوان امن الرعايا الاجانب(٥٤). وفي اواخر تشرين الاول (اكتوبر) غادر عبد العزيز الرياض على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل واستغرق طريقه الى مكة ثلاثة اسابيع، وذلك لخشيته من تدخل البريطانيين في النزاع. ولكن حينما وصلت كتب من قناصل الدول الاجنبية تعلن الحياد التام، ادرك عبد العزيز ان الحجاز قد وضع تحت تصرفه(٥٥).

في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٤، دخل عبد العزيز مكة، وفي الثالث عشر من الشهر نفسه نشرت جريدة «ام القرى» الرسمية التي بدأت بالصدور بلاغه الذي استعرض فيه برنامجه في الحجاز. وجاء فيه: «١. سيكون اكبر همنا تطهير هذه البلاد المقدسة من الاعداء انفسهم الذين مقتهم العالم الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها بما اقترفوه من الاثام في هذه الديار المباركة. ٢. سنجعل الامر في هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين، وقد ابرقنا للمسلمين كافة في سائر الانحاء ان يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر اسلامي عام يقرر شكل الحكومة التي يرونها صالحة لانفاذ احكام الله في هذه البلاد المطهرة. ٣. ان مصدر التشريع والاحكام لا يكون الا من كتاب الله، ومما جاء عن رسول الله عليه الصلاة والسلام او ما اقره علماء الاسلام الاعلام بطريق القياس. ٤. كل من كان من العلماء في هذه الديار او من موظفي الحرم الشريف او المطوفين ذو راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل...»(٥٦).

في فترة مكوث علي في جدة اجرى ابن سعود في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٤ انتخابات في مكة كان الغرض المعلن منها تكوين نوع من الادارة الذاتية، ولكن الهدف الحقيقي هو استمالة الوجهاء والتجار المحليين. وقد انتخب مجلس شورى قوامه ١١ عضوا برئاسة الشيخ عبد القادر الشيبي وعين حافظ وهبه حاكما مدنيا لمكة[٥٧].

سرعان ما حصل ابن سعود على تأكيد جديد لحياد الدول الاجنبية من قناصلها، وكان هذا اهم ما يصبو اليه. وعندما القت طائرة ارسلها علي بن الحسين مناشير فوق مكة يعلن فيها الملك عن اعتزامه استرداد المدينة، قرر عبد العزيز ان اوان العمل قد حان[٥٨]. وفي الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥، دنت من جدة قوة اخوانية وبدأ حصار دام زهاء عام[٥٩]. حصن على المدينة واحاطها بحقول ألغام. ووصل الى المدينة بضع مجموعات من المسلمين السوريين والفلسطينيين واليمنيين، جندتهم الاسرة الهاشمية فيما يبدو[٦٠]. ويقدر خير الدين الزركلي تعداد القوات السعودية بـ ٥ ـ ٦ آلاف مقاتل معظمهم من عتيبة وبعض من مطير وكذلك من قبيلتي غامد وزهران الحجازيتين. وكان لدى علي زهاء ٥٠٠ مقاتل حجازي وبضع مئات من الفلسطينيين والمصريين واليمنيين والسوريين. وفي المدينة كان هناك ٢٠٠ بدوي وما يزيد على ٣٠٠ مقاتل من فلسطين وشرقي الاردن وزهاء ٢٥٠ يمنيا، وكان في ينبع حوالى ٣٠٠ من عتيبة وعقيل، وبضع مئات اخرى في سائر المناطق. بيد ان الجيش السعودي تناقص في خلال الحصار لأن البدو لا يطيقون البقاء امدا طويلا عند الساحل القائظ[٦١].

ولم يحصل علي بن الحسين على عون يذكر من العراق وشرقي الاردن، وفي هذا الخصوص اشار عبد الحميد الخطيب في كتابه «الامام العادل» الى ان الانجليز تصرفوا وكأنهم يريدون ان يضمنوا لابن سعود النصر[٦٢]. وقد وافق عبد الله امير شرقي الاردن على ان يتولى الانجليز نقل ابيه الحسين من العقبة خوفا من غزو قوات ابن سعود بحجة وجوده فيها. وفي ايار (مايو) ١٩٢٥ وصل الملك السابق الى السويس حيث كان في استقباله معتمد الحجاز في القاهرة عبد الملك الخطيب واخوه

عبد الحميد الخطيب. وقال لهما الحسين ان الانجليز هم الذين نفوه وخانوه لرفضه الاعتراف بوعد بلفور وتمسكه بحق العرب في دولة مستقلة(٦٣).

وفي مطلع عام ١٩٢٥، حاول مندوبون عن جمعية الخلاف الهندية وعدد من القناصل الاجانب التوسط بين علي وعبد العزيز. وفي شهر نيسان (ابريل) من العام نفسه عقد لقاء بين وزير خارجية حكومة جدة وعبد العزيز ولكنه لم يسفر عن نتيجة(٦٤).

في حزيران (يونيو) رفع الحصار عن جدة بسبب القيظ، وفي آب (اغسطس) توجه علي الى الانجليز بطلب آخر يناشدهم فيه التدخل ولكنهم رفضوا.

وقد اشار البريطاني جيلبرت كلايتون الامين العام السابق للحكومة في فلسطين، في ملاحظة دونها بدفتر مذكراته في اواسط تشرين الاول (اكتوبر) اثناء مروره بجدة، اشار الى ان علي كان منهارا معنويا وجسديا. وأعرب كلايتون عن استغرابه من احجام عبد العزيز عن الاستيلاء على جدة التي تعاني من الجوع. ويبدو ان سلطان نجد آثر التريث حتى تستسلم له المدينة حقنا للدماء(٦٥).

ابان غزو الحجاز وبعد احكام السيطرة عليه استمرت الغزوات على اراضي العراق. كما عبر الاخوان وادي سرحان ووصلوا الى الحدود السورية وقطعوا شرقي الاردن عن العراق، مما جعل الممتلكات البريطانية في الشرق الاوسط عرضة للتقسيم(٦٦). وبعد ان احتل عبد العزيز مكة بمباركة غير معلنة من قبل الانجليز، ادرك ان عليه وضع حد لمطامعه في الشمال.

كان ذلك عشية عقد اتفاقيات لوكارنو، في وقت تأزمت ابانه العلاقات البريطانية الفرنسية بسبب قضية الموصل، واهتزت مواقع بريطانيا بفعل مد الحركة القومية في فلسطين. لذا لم تشأ بريطانيا التدخل في النزاع بين نجد والحجاز تدخلا صريحا.

في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٥، وصل الكولونيل كلايتون إلى مقر عبد العزيز في الحجاز. واظهر ابن سعود ثانية انه سياسي مرن ووافق على اعطاء تنازلات في الشمال مقابل اعتراف بريطانيا الفعلي بضمه الحجاز. وتمخضت

المفاوضات عن اتفاقيتي بحرة وحدّة اللتين وقعتا في ١ و ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥. وتخص الاتفاقية الاولى العراق ونجد وتنص على ان غزو العشائر القاطنة في اراضي اي من الدولتين على اراضي الدولة الاخرى يعتبر اعتداء يستلزم عقاب مرتكبيه من قبل الحكومة التابعة لها. ونصت الاتفاقية على تأليف محكمة خاصة من ممثلي الحكومتين للنظر في تفاصيل اي تعد يقع من وراء حدود الدولتين. كما اشارت الاتفاقية الى ان من حق العشيرة عبور الحدود لرعي الماشية بعد استحصال رخصة بذلك.

اما اتفاقية حدّة فقد ثبتت للمرة الاولى عمليا الحدود بين نجد وشرقي الاردن، وتنازل بموجبها سلطان نجد لشرقي الاردن عن الممر الذي يربطه بالعراق. وتضمنت اتفاقية حدّة نصوصا مماثلة لاتفاقية بحرة حول غزو الاراضي وتأليف محكمة للنظر في الدعاوى المتعلقة بذلك، وعن رخص الرعي، كما حظرت الاتفاقية الدعاية الدينية على اراضي البلد الآخر. ومن الواضح ان هذا البند له علاقة بالتبشير بالدعوة الاخوانية[٦٧].

وهكذا اقيمت الحدود مع الكويت والعراق ومع شرقي الاردن فعليا، رغم ان نزاعات الحدود استفحلت بعد برهة وجيزة.

حينما بلغ ملك الحجاز نبأ اتفاقيتي بحرة وحدّة، بينما رفض كلايتون مساندته، ادرك ان ايام حكمه معدودة. وقرر علي بن الحسين الاستسلام بعد تيقنه من ان اخويه في العراق والاردن حريصان على الاحتفاظ بعرشيهما اكثر من حرصهما على مؤازرته. وفي ١٦ كانون الاول (ديسمبر) اوفد على القنصل البريطاني للتباحث في شروط الاستسلام مع ابن سعود، وقد استسلمت جدة في ٢٢ من الشهر نفسه وغادرها علي بن الحسين، وفي اليوم التالي، دخل عبد العزيز المدينة[٦٨].

في مطلع شباط (فبراير) ١٩٢٥، حينما كان حصار جدة في اوله، ارسل عبد العزيز قوة من الاخوان بامرة فيصل الدويش الى المدينة، ولكن السلطان حذر بشدة من دخول المدينة بدون اذن منه، خوفا من تعرض قبر النبي للاذى. وعندما لم يعد

سكان المدينة قادرين على الصمود أمام الحصار كتبوا الى عبد العزيز يعربون عن موافقتهم على تسليم المدينة ولكن لأحد انجاله وليس للأخوان، فارسل عبد العزيز ابنه محمد الى هناك في تشرين الاول (اكتوبر). وفي هذه الاثناء استلم اهالي المدينة برقية من علي تعد بالنجدة، فأجلوا الاستسلام[٦٩]. وفي الشهر التالي اصبح وضع المدينة حرجا ولم يبق امل في النجدة، فقرر اعيانها الاستسلام، وفي ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ دخل محمد المدينة وصلى في المسجد النبوي.

عشية سقوط جدة ابلغ اشراف مكة وعلماؤها واعيان جدة عبد العزيز عن استعدادهم لمبايعته ملكا على الحجاز. وفي ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ اجتمع الناس عند باب الصفا من المسجد الحرام بمكة وتلي نص البيعة، واطلقت المدفعية مئة طلقة. وتقبل عبد العزيز البيعة من اشراف مكة ثم الوجهاء والاعيان واركان المحكمة الشرعية فالائمة والخطباء واعضاء المجلس البلدي، ثم اهل المدينة، ثم المطوفون والزمازمة وسدنة وخدم الكعبة، ثم سائر اهل المدينة ومكة[٧٠].

واصبح عبد العزيز يعرف بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها.

وفي ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٦، اعترف الاتحاد السوفييتي رسميا بحكومة الحجاز. وسلمت مذكرة الى ابن سعود جاء فيها «... ان حكومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، انطلاقا من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، ونظرا لاحترامها العميق لارادة شعب الحجاز المعبر عنها في مبايعتكم ملكا، تعترف بكم ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها. وفي ضوء ذلك تعتبر الحكومة السوفييتية نفسها في حالة علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة جلالتكم».

واعرب الملك في مذكره جوابية عن الشكر والاستعداد التام لمعاملة الحكومة السوفييتية ورعاياها بما يليق بالدولة الصديقة[٧١].

واعقب اعتراف الاتحاد السوفييتي بابن سعود اعتراف دول اخرى.

بايع وجهاء الحجاز سلطان نجد وهم يخشون تسلط «بدو نجد» على الحجاز

الاكثر تطورا، فحاولوا الاحتفاظ بحقوق واسعة. وقد شكل ٥٦ من ممثلي الارستقراطية المحلية والعلماء والتجار «مجلسا تأسيسيا» قرر ان الحجاز يجب ان يظل مستقلا عن نجد في الشؤون الخارجية والداخلية ولا يجمع بين مملكتي الحجاز ونجد الا شخص الملك، وتشكل في الحجاز حكومة اسلامية ويشرع دستور يستمد احكامه من القرآن والسنة. واقترح «المجلس التأسيسي» صياغة اشكال البناء الداخلي والاحكام الادارية وفقا للظروف المحلية. وخشي بعض الحجازيين من ان يكون ابن سعود ما زال واقعا تحت تأثير المعاهدة المعقودة مع بريطانيا عام ١٩١٥ والتي تجعله تحت الحماية البريطانية، الامر الذي يتناقض مع توقهم الى الاستقلال[٧٢].

وحاول وجهاء الحجاز تحديد سلطة الملك، غيران تناسب القوى كان لصالح ابن سعود. وفي عام ١٩٢٦ شكلت، وفق مرسوم ملكي، المجالس الاستشارية في مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف، وصار لها فيما بعد طابع بلدي، ومن ثم شكل مجلس شورى يضم ١٣ شخصا[٧٣].

كانت الخطوة التالية تتمثل في الحصول على اعتراف بسلطة ابن سعود على الحجاز من لدن الدول الاسلامية، وان كانت هذه مسألة وقت ليس إلا.

وبعد استيلاء النجديين على الحجاز وصلت الى نجد بعثة اسلامية من الهند طالبت بان تتولى الاشراف على الاماكن المقدسة لجنة تمثل جميع البلدان الاسلامية. مكثت البعثة فترة قصيرة ولم يطق ابن سعود صبرا فهيأ باخرة تنقلها الى الهند[٧٤].

في عام ١٩٢٦، قرر ابن سعود الدعوة لمؤتمر اسلامي ينعقد في شهر حزيران (يونيو) بعد اداء فريضة الحج، لكي يضفي المزيد من «الشرعية» على توليه الحجاز. ووجه ملك الحجاز الجديد رسائل الى عاهلي مصر وافغانستان والى الرئيس التركي وشاه ايران وملك العراق وامير جمهورية الريف وامام اليمن يحيى وسائر الحكومات الاسلامية، والى رئيس المجلس الاسلامي الاعلى في القدس ورئيس

جمعية الخلافة في بومباي، يعاهدهم فيها بأنه سيرعى الاماكن المقدسة ويعمل على تهيئة ظروف افضل للحجاج.

اجتمع في المؤتمر الاسلامي بمكة ٦٩ مندوبا عن المنظمات الاسلامية في الهند ومصر والاتحاد السوفييتي وجاوا وفلسطين ولبنان وسوريا والسودان ونجد والحجاز وعسير وافغانستان واليمن ومصر وغيرها. ولم يبق عبد العزيز لدى المؤتمرين شكا في انه سيد الحجاز ولن يسمح بالتدخل في شؤونه. وقد استاء البعض وغادروا المؤتمر ولكنهم لم يتمكنوا، بطبيعة الحال، من تغيير شيء. اما المتبقون فقد اقروا بالامر الواقع[٧٥].

وقد ادلى المفتي رضا الدين سحر الدينوف رئيس وفد مسلمي روسيا وتركستان، رئيس الدائرة الدينية المركزية للمسلمين، بتصريح لمراسل وكالة تاس تحدث فيه عن اعتراف المؤتمرين بابن سعود «حاميا للحرمين». ودعا المؤتمرون الى اعادة العقبة ومعان الى الحجاز، وبذا ايدوا عمليا الملك الجديد[٧٦].

لقد اصبح النقاش حول تولي حماية البقاع المقدسة امرا عقيما بفعل عوامل عديدة تتمثل في انتصار القوات النجدية وموقف الحياد والتغاضي من قبل بريطانيا التي اختارت اهون الشرين اثناء غزو ابن سعود للحجاز وضحّت بالحسين، والسياسة الذكية للملك الجديد الذي جمع بين التشدد والمرونة.

جاء في رسالة صادرة عن القنصلية العامة السوفييتية في جدة عام ١٩٢٩: «ان الاستيلاء على الحجاز وعائداته من الحج والجمارك وما شاكلها (العائد السنوي من الحج وحده يصل الى مليوني جنيه استرليني) يتيح لابن سعود امكانية استثمار كل هذه الموارد الضخمة للحصول على منفعة سياسية كبيرة في نجد (اعانة المستوطنين الجدد ودفع مخصصات لشيوخ العشائر البدوية)... والتجار الذين يمثلون القوة الرئيسية في الحجاز يميلون الى الامبراطورية البريطانية ويدعون الى الاتفاق مع الانجليز. البدو مستاؤون: فهم يدفعون زكاة مقدارها ٢,٥ بالمائة، والغزوات ممنوعة، وحرمهم استيراد السيارات من مداخيلهم، وليس ثمة اعانات من

السلطان، كما أن الاستياء سائد في اوساط المطوفين الذين كانوا ينهبون الحجاج، لأن الدولة تنظم الحج وتستولي على عوائده»[٧٧].

احدق بعبد العزيز الخطر، ولكنه لم يكن خطرا خارجيا، بل داخليا مصدره الاخوان اياهم الذين الحقوا الحجاز بممتلكات السلطان.

الفصل الثاني عشر

توطد المركزية الاقطاعية وحركة الاخوان (١٩٢٦ - ١٩٣٤)

الوضع في الحجاز. واجهت ابن سعود، بعد غزوه الحجاز، ضرورة ادارة بلد بلغ من التطور شأنا يفوق بكثير شأن نجد، بل حتى الاحساء ايضاً. فقد تكون الجهاز الاداري البيروقراطي في الحجاز وفقا للمعايير العثمانية وكان ارقى الاجهزة في الجزيرة. وعلى عهد الملك حسين صدرت حتى ميزانية تتضمن شرحا للنفقات، على الرغم من انه لم يجر التقيد بها، بطبيعة الحال. كما ظهرت هناك النواة الاولى لجيش نظامي، وافتتحت مدارس ثانوية. وصدرت صحيفة رسمية هي «القبلة» تنم كتاباتها عن دراية بالعالم الخارجي، وغالبا ما كانت تولي اهتماما كبيرا للاحداث في اوروبا، وتنشر انباء عن الاشغال العمومية مثل توسيع شبكة الهاتف وتنظيف الشوارع.

وقد استقر رأي عبد العزيز على ابقاء الهيكل الاداري الذي اقامه الحسين وابنه علي كما هو، على ان يوظفه لخدمته[١].

وكان على ابن سعود ان يوفق بين علماء الدين في نجد والحجاز ويحمل علماء مكة على التنازل لعلماء الرياض. وفي محاولة لازالة الاشكالات عقد علماء الرياض سلسلة من الاجتماعات مع زملائهم المكيين، زعموا بعدها انه لا توجد خلافات جدية بين الطرفين.

وقد استمرت بعض الاشغال العمومية التي تولتها شركات اجنبية وبدأت بتنفيذها على عهد الحسين[٢].

عند غزو الحجاز كان ابن سعود يدرك اهمية التلفون والراديو لتعزيز سلطته، واهمية السيارات للاغراض الاقتصادية والعسكرية. غير ان البدو والعلماء السلفيين كانوا يعتبرون التلفون والراديو منكرا من عمل الشيطان. وقد حلّ هذا الاشكال بعد ان تليت عبر التلفون، ثم من الراديو آيات من القرآن(٣).

كما اعتبر الاخوان السيارة من بدع المشركين، ان لم تكن من عمل الشيطان. وقد احرقت اول شاحنة ظهرت في مدينة الحوطة، وكاد سائقها يلقى المصير نفسه. ولم تكن الطائرة اوفر حظا. الا ان احتياجات المجتمع العملية كانت اقوى من الجهل والتحجر الذهني، لذا فان السيارة والراديو والتلفون اخذت تنتشر على نطاق متسع في مملكة ابن سعود. وبعد عقدين او ثلاثة اخذ علماء الدين انفسهم يمتطون الطائرات(٤)،الا ان الحظر ظل مفروضا على الحاكي والسينما، وعلى الرغم من منع استيراد هاتين الآلتين فانهما انتشرتا في البيوت الخاصة(٥).

ادرك الملك ان عليه اقامة اعتبار لمصالح وجهاء الحجاز. وعندما عين ابنه فيصل نائبا للملك في الحجاز (آب ـ اغسطس ١٩٢٦) اصدر في الوقت نفسه «التعليمات الاساسية للمملكة الحجازية» بمثابة «دستور». وقد حددت وضع نائب الملك ومجلس الشورى والهيئات الادارية(٦).

كان مجلس الشورى المؤلف عقب اعلان «الدستور» يضم كلا من الامير فيصل بوصفه نائبا للملك واربعة مستشارين وستة من وجهاء الحجاز. ولا شك في ان كل اعضاء المجلس من ممثلي الارستقراطية الحجازية لم يكونوا من قبل مناصرين للحسين او ابنه علي، حتى وان كانوا قد محضوهما التأييد فقد تخلوا عنهما. وفي عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥، كانت توجد في مكة جمعيات لها وظائف استشارية تضم الوجهاء وعلماء الدين والتجار، وكان بوسعها ان تطمح الى الاستقلالية وترفع مطالب الى الملك. ولكن ايا من اعضاء هذه الجمعيات لم يعين في مجلس الشورى عام ١٩٢٦، لذا فمن المنطقي الافتراض بان نشاطها قد اثار انزعاج ابن سعود(٧).

ان البون شاسع بين الجمعيات الاولى وبين مجلس الشورى المؤلف من اعضاء لا صوت لهم. لذا احكم عبد العزيز سيطرته على الحجاز دون منازع، واعترف به

ملكا على الحجاز داخل البلد وفي العالم الاسلامي كله، كما لم يكن بحاجة الى ما يجمّل به واجهة حكمه. وعلاوة على ذلك يبدو ان عبد العزيز احس بأن «دستور» الحجاز قد يصبح قدوة يطمح اليها اهل نجد، لذا قام بـ«وأد الوليد».

في الاعوام التالية صار لحكومة فيصل في الحجاز طبع حكومات الشرق الاوسط البيروقراطية بشكلها البدائي، ولكنها كانت بعيدة عن الحكم الملكي الدستوري. واعتمدت هذه البيروقراطية على الحجازيين المتفوقين على النجديين من حيث مستوى التطور، رغم انها عملت تحت اشراف الامير فيصل ومستشاريه المقربين.

وفي الوقت الذي حاول عبد العزيز ومجموعة من مستشاريه المتنورين الى هذا الحد او ذاك توظيف الجهاز الاداري في الحجاز لمصلحته، كان الاخوان قد عقدوا العزم على «تطهير» الحجاز من «البدع المنكرة» وهدم القباب التي اعتبروها مخالفة للاسلام. ويذهب حافظ وهبة الى ان حماس الاخوان الجهلة للوهابية كان اكبر ما ابتليت به هذه الدعوة الاصلاحية على حد قوله[8]. وقد واجه عبد العزيز، اثر غزوه الحجاز مشكلة التعامل مع الاخوان.

إذ إن الاخوان ازالوا في مكة الشاهد المقام عند موضع ولادة النبي وهدموا منزلي خديجة وابي بكر[9]. واشار فيلبي الذي حضر موسم الحج ١٩٣١ الى هدم كل الاضرحة والقباب في الحجاز وذكر ان ذلك سيجعل الاجيال القادمة تنسى الوقائع التاريخية المرتبطة بهذه الاماكن[10]. والى جانب الدافع الاخلاقي الديني، تأصل لدى الاخوان العداء البدوي لكل ما يبجله ويستأنس به الحضر في مدن الحجاز الذين اعتبروهم متنكرين للاسلام. ولما احتل الاخوان الطائف ومكة اخذوا يهشمون المرايا ويستخدمون اطر الابواب والنوافذ كوقود للنار[11]. وعلى الرغم من ان هذا واحد من طباع الغزاة المعتادة، فإنه كان تعبيرا عن حقد البدو الدفين على «ترف» المدن. وقد اقترنت نزعة «الاخوة» لدى الاخوان بالتعصب الديني والعادات البدوية.

في عام ١٩٢٤، امر خالد بن لؤي باحراق كمية كبيرة من التبوغ العائدة ملكيتها

لمستوردين مكيين اثرياء، فشكوه لعبد العزيز الذي الغى الامر الصادر عن ابن لؤي ولكنه حرم استيراد التبغ مستقبلا.

وفيما بعد سمح ثانية باستيراد التبغ. ولكن استمر ايقاع العقوبة بالمدخن(١٢).

حينما اقصي خالد بن لؤي عن منصب حاكم مكة، عقب سقوط جدة في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥، كان هذا يعني تصميم عبد العزيز على عدم ابقاء المناصب الادارية الهامة في الحجاز بيد قادة الاخوان. وقبل ذلك، في ايلول (سبتمبر) من العام نفسه، حظر رسميا في مكة حمل الاسلحة النارية لتقييد تحركات الاخوان(١٣).

كان عبد العزيز يخشى تعدي الاخوان على الحجاج المسلمين، وبالفعل فقد جرحوا عددا من الحجاج مما اثار احتجاج القناصل الاجانب، وحاولوا قتل عدد من المسلمين العاملين في القنصليات الاجنبية (١٤). وسعى الملك لتوجيه طاقة الاخوان نحو غزو المدن والموانىء الواقعة بين جدة وخليج العقبة، ولكن سرعان ما اصبح الحجاز كله تحت سيطرته فلم يعد لجنوده عمل يؤدونه.

في مطلع موسم الحج صيف ١٩٢٦، وصل مكة المحمل المصري تصحبه الموسيقى، وعند اقترابه سمع الاخوان الذين كانوا بدون سلاح وليس عليهم سوى الاحرام، الموسيقى لاول مرة فاعتبروا ذلك ضربا من الزندقة واستبد بهم الغضب فهبوا ليمنعوا تقدم الجمل الذي يقل المحمل. وهنا اعطى ضابط مصري امرا باطلاق النار فقتل زهاء ٢٥ شخصا. وعلى الفور ارسل عبد العزيز الذي كان قريبا من المكان ولديه فيصل وسعود لتهدئة ثائرة الاخوان. وامر الملك باحتجاز الضابط المصري ومنعه من مرافقة الحجاج علاوة على منع المحمل من دخول مكة(١٥)، ولكنه لم يقدم على ايقاع عقوبة شديدة نظرا لانعقاد المؤتمر الاسلامي في مكة آنذاك (١٦). وقد انقطعت العلاقات مع مصر اثرذلك. غير ان الاخوان ظلوا امدا طويلا يلومون عبد العزيز لانه لم يعاقب «المشركين» المصريين على قتلهم ٢٥ من الاخوان، وفيما بعد تذرع كل من فيصل الدويش وسلطان بن بجاد بهذا الحادث معتبرينه السبب الاول للخلاف مع الملك(١٧)، واكدا على ان ابن سعود لم يسمح للاخوان بهدم المحمل فحسب، بل بسط حمايته على «الصنم».

شرع الملك بتطبيق ما يدعو اليه المذهب الوهابي بصرامة، وذلك لغرضين اولهما كسب رضا الاخوان وثانيهما تعزيز هيبته وسلطته. فان المنقطع عن الصلاة يعاقب بالحبس مدة تراوح من ٢٤ ساعة الى عشرة ايام وبغرامة. ومن يتعاطى الخمر يحبس لمدة شهر ويدفع غرامة، واذا ما عاودها فيحبس لمدة قد تصل الى سنتين. والعقاب الصارم يطال كل من يصنع الخمر او يبيعها. وقد حظر التدخين ولكن لم يرد ذكر للمتاجرة به.

واقترن هذا التقيد الصارم بالوهابية بممارسة العنف والتنكيل بالخصوم السياسيين لآل سعود. ويتعرض كل من يشارك في اجتماع الغرض منه نشر «الافكار المنكرة» و«الاخبار الكاذبة» و«الاراجيف»، وكل من يشارك في اجتماعات مناوئة لسياسة الحكومة، يتعرض لعقوبة الحبس لمدة تراوح بين سنتين وخمس سنوات، او الطرد من مملكة الحجاز. وكان ينبغي استحصال رخصة من السلطات لعقد اي اجتماع حتى وان كان لاغراض خيرية[١٨].

غير ان التقيد الشديد بالاحكام الشرعية لم يدم امدا طويلا. فبعد مغادرة الاخوان الحجاز خففت القيود المفروضة على المدخنين وصار بوسع الراغبين الحصول حتى على الخمر، ولم يعد احد يهتم بطول الشارب.

أراد عبد العزيز ان يؤكد حرصه على نقاء الدين، ويحد في الوقت نفسه من تعسف الاخوان، فأسس صيف ١٩٢٦ جماعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت اشراف عالمين من آل الشيخ[١٩]. وأمر ابن سعود الاخوان بان يبلغوا الجماعة بكل منكر يرونه على الا ينزلوا العقاب بالناس وفق هواهم.

وبالتدريج تحولت الجماعة الى ما يشبه الشرطة الدينية، وفيما بعد وضعت هيئات الامر بالمعروف التابعة للجماعة تحت اشراف مديرية الشرطة. وعهدت الى الهيئات القضايا المتعلقة بالغش والخداع في الاعمال التجارية والامتناع عن اخراج الزكاة والافطار العلني والخروج عن اصول الحج وسفك الدماء وتعاطي او بيع الخمر[٢٠]. وعند صيف ١٩٢٨، كانت الهيئات تساهم بنشاط في اجتماعات

الحكومة وتشدد من رقابتها على اهالي الحجاز[٢١]. وقد وجد عبد العزيز هذه التجربة جديرة بان تشمل سائر انحاء البلاد، فأسس في الرياض مديرية الامر بالمعروف في صيف ١٩٢٩، حينما بلغت انتفاضة الاخوان ذروتها[٢٢].

وقد ندد القيمون على الجماعة بالرئيس التركي مصطفى كمال (اتاتورك) والملك الافغاني امان الله بسبب ما اجرياه من اصلاحات. وقال توررياكولوف القنصل العام السوفييتي في جدة: «يصعب على المرء ان يتوقع موقفا آخر ازاء كمال باشا وامان الله من بلد يقوم وجوده ذاته على حساب الحرمين ويشكل كل «ابتداع» خطرا يهدد المصالح المادية للاغلبية» (٢٣).

صارت هيئات الامر بالمعروف اداة انتزع بواسطتها من الاخوان حق مراقبة تمسك الناس باصول الدين. وقدمت الديمقراطية العشائرية، بشكلها الديني المتعصب، قربانا لجهاز الحكم في دولة اقطاعية مركزية.

كانت تصرفات الاخوان تبدو للوافدين الاوروبيين وللمتعلمين من مستشاري الملك نوعا من «الغلو في التعصب» وحتى «الوحشية»، غير انها مع ذلك كانت تنم عن سعي الجماهير الواسعة من عرب الجزيرة الى الحياة البسيطة التي دعت اليها الوهابية. وتمسكت الجماهير بالدعوة الى المساواة التي تضمنتها الوهابية، وحاولت تحقيق مثلها عمليا وفق ما ترتئيه. وقد اصطدمت طموحات الاخوان وممارساتهم بالمصالح الفعلية لعلية الاقطاعيين. لذا فان تسمية هبات الاخوان بأنها «رجعية سافرة» تبدو مغالاة في ابراز جانب واحد، بل حتى غير صائبة، فقد كانوا «رجعيين» بالقدر نفسه الذي كانت عليه «رجعية» المشاركين في الانتفاضات الفلاحية في عصر الاقطاع باوروبا، بكل ما شهدته من بطش ويأس.

وعندما خابت آمال الاخوان وعادوا من الحجاز الى هجرهم وقبائلهم في وسط الجزيرة، غدا واضحا ان اشتباكهم مع دولة ابن سعود الاقطاعية المركزية بات وشيكا.

المرحلة الاولى لانتفاضة الاخوان: بلغت العلاقات بين السلطة الاقطاعية

المركزية والاخوان درجة الغليان بسبب تعاون عبد العزيز مع الانجليز عند رسم الحدود مع الكويت والعراق والاردن، وبسبب سياسته في الحجاز. فقد اعتبر الاخوان ان غبنا اصابهم عند توزيع الغنائم في الحجاز، كما ان موافقة عبد العزيز على منع الغزوات على اراضي الكويت والعراق والاردن حرمهم من امكانية تحسين اوضاعهم المادية عن طريق سلب «المشركين». وفي ظروف تعمق ازمة تربية الابل وتخلف الزراعة في الهجر، كان الغزو المتستر بذرائع دينية يبدو للاخوان مخرجا طبيعيا يدفع عنهم غائلة الفقر والجوع[٢٤]. وأدى تسامح عبد العزيز مع الشيعة في الاحساء والقطيف الى زيادة الطين بلة[٢٥].

من تناقضات حركة الاخوان ان قادتها كانوا من شيوخ العشائر الاقطاعيين الطامحين الى ان يصبحوا حكاما اقطاعيين مستقلين. وبذا صارت حركة الاخوان «الديمقراطية» من حيث تركيبها وعدد من مطالبها، اداة لخدمة النزعة الانفصالية الاقطاعية العشائرية. وكان من أبرز قادة الاخوان القائد العسكري والمقاتل الجسور، شيخ قبيلة مطير فيصل الدويش الذي عاد بعد سقوط جدة في اواخر عام ١٩٢٥ الى مقره في الارطاوية مستاء استياء شديدا من عبد العزيز، اذ انه لم ينصب حاكما للمدينة المنورة كما كان يأمل[٢٦].وأضيف الى ذلك التناحر بين مطير وآل سعود الذي خفت بعض الشيء قبل عام ١٩٢٥. يقول المؤرخ خالد الفرج:«اذا راجعنا تاريخ نجد وجدنا قبائل مطير دائما في صفوف اعداء آل سعود. وهم اول من تلقى طوسون باشا في الحجاز، ونقل حملته الى القصيم. وانضموا الى حملة ابراهيم باشا على الدرعية، وقاتلوا في صفوفه... وهم الذين هللوا لمقدم خورشيد باشا، وجاؤوا معه الى ان ضربهم ابن سعود في وقعة جولبن فكسر شوكتهم». وحتى بعد انضمام فيصل الدويش الى ابن سعود، فان ١٥٠ رجلا مسلحا كانوا يصحبونه كلما يقدم الرياض. وكان الملك، كما يقول حافظ وهبة، «يعتبره صديقا قديما وقائدا من عظام قواده. واذا جلس لا يجلس الا في جوار الملك... واذا استاذن في الرجوع الى الارطاوية قدم للملك قائمة تبتدىء من حبال الآبار.. الى السلاح والجواري، وما بين ذلك من ملابس له ولاولاده وزوجاته»[٢٧].

وكان من المعارضين لابن سعود ضيدان بن حثلين شيخ العجمان وهم من اشد واقدم خصوم آل سعود ولم يقهروا وينضموا الى حركة الاخوان الا منذ عهد قصير، وكذلك شيخ عتيبة سلطان بن حميد بن بجاد رغم ان عبد العزيز بن سعود هو الذي ساعده على ان يكون شيخا. وقد آمل ابن بجاد ان ينصب حاكما للطائف ولكن كان للملك رأي آخر[٢٨]. وقد كانت عتيبة اقوى واكبر قبائل وسط الجزيرة بعد عنزة. وفيما بعد انضم الى الحركة المناوئة لابن سعود واحد من مشايخ الرولة. وبذا فان القبائل القاطنة الى الشرق والشمال والغرب والجنوب الغربي من الرياض صارت معادية للسلطة المركزية. ومن المهم الاشارة الى اننا لا نجد في معسكر المعادين لعبد العزيز ممثلي القبيلة الاكثر بأسا وقوة وهي عنزة (باستثناء فخذ الرولة) وكذلك آل حرب، والقسم الاكبر من شمر. اي ان انتفاضة البدو لم تكن شاملة الامر الذي انقذ النظام الملكي.

في مطلع عام ١٩٢٦ اجتمع فيصل الدويش وابن حثلين وابن بجاد في الغطغط واعدوا قائمة بمآخذهم على عبد العزيز، وصارت هذه القائمة اساسا للتهم التي وجهت للملك في الاجتماع العام الذي عقده زعماء الاخوان من مطير وعتيبة والعجمان في تشرين الثاني ـ كانون الاول (نوفمبر ـ ديسمبر) ١٩٢٦ في الارطاوية. وقد وجهت للملك سبع تهم:

١) سفرة ابنه سعود الى مصر(اثر حادث المحمل).

٢) سفرة ابنه فيصل الى لندن (في آب (اغسطس) ١٩٢٦ للتفاوض مع الانجليز)، الامر الذي يعني التعاون مع بلد الشرك.

٣) استخدام التلغراف والتلفون والسيارة في اراض اسلامية. وكانت هذه النقطة خليطا من الاحتجاج الشعبي على تعزيز السلطة المركزية والعصبية البدوية.

٤) فرض رسوم جمركية على مسلمي نجد، وكان هذا في الواقع احتجاجا على تشديد استغلال السكان عن طريق الضرائب التي تجبى مركزيا.

٥) منح قبائل الاردن والعراق حق الرعي في اراضي المسلمين ـ وهذا انعكاس للصراع بين القبائل في سبيل الحصول على المراعي.

٦) حظر المتاجرة مع الكويت. فلو كان سكان الكويت كفارا فان على عبد العزيز اعلان الجهاد ضدهم، وان كانوا مسلمين فلا يجدر به الوقوف ضد المتاجرة معهم.

٧) التسامح مع الخوارج (الشيعة) في الاحساء والقطيف. فقد اراد الاخوان لعبد العزيز اما ان يهديهم الى الاسلام او يقتلهم[٢٩].

شعر عبد العزيز ان استياء الاخوان قد يتخذ طابع انتفاضة صريحة، فغادر الحجاز على عجل وعاد الى الرياض في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٧. وفي اواخر هذا الشهر دعا الى العاصمة زهاء ثلاثة الاف من الاخوان، وفي هذا الاجتماع قدم فيصل الدويش وابن بجاد وغيرهما من زعماء الاخوان المنشقين بنودهم السبعة. لم تكن الانتفاضة قد اتخذت طابعا صريحا بعد، لذا اخذ ابن سعود يبحث عن حل وسط فوافق على تقليص الضرائب ولكنه رفض نبذ اللاسلكي والسيارة. بل انه اقنع الحاضرين بمبايعته ملكا لنجد والحجاز فاصبح لقبه «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها»[٣٠].

في شباط (فبراير) ١٩٢٧، اصدر علماء الرياض الذين اقلقتهم مطالب الاخوان فتوى اشتهرت فيما بعد. وقد وقعها ١٥ عالما الامر الذي يدل على مدى تعقد الوضع. وتظاهر العلماء بان موقفهم محايد ازاء التلغراف، ولكنهم نصحوا الامام بهدم مسجد الحمزة وارغام الشيعة على دخول الاسلام او طردهم من البلد. (نذكر بان الوهابيين لا يعتبرون الشيعة مسلمين). وطالب العلماء الملك بمنع شيعة العراق من الرعي في اراضي المسلمين. كما طالبوا بان يعيد الملك الضرائب المستوفاة خلافا للشرع، ولكنهم اشاروا في الوقت نفسه الى ان فرض ضرائب غير شرعية ليس سببا كافيا لتصديع وحدة المسلمين. كما اكدوا على ان الامام هو الشخص الوحيد الذي يمكنه اعلان الجهاد [٣١].

في مطلع نيسان (ابريل) ١٩٢٧، قرر عبد العزيز ان يعقد اجتماعا آخر لشيوخ القبائل وزعماء الاخوان، فوفد الى الرياض ما يزيد على ثلاثة آلاف من الاخوان، ولم يحضر ابن بجاد. وفي هذه المرة حاول عبد العزيز عزل فيصل الدويش الذي اعتبره

خصمه الرئيسي. ويبدو ان عبد العزيز تمكن في هذا اللقاء من استمالة فخذ من مطير وجعله معاديا لفيصل[٣٢].

لكن الحركة المعارضة لابن سعود لم تقتصر على الاخوان. ففي صيف ١٩٢٧، اكتشفت مؤامرة تهدف الى اغتيال سعود بن عبد العزيز في الرياض وعبدالله بن جلوى في الاحساء. وزعم ان بين المتآمرين شقيق عبد العزيز محمد وابنه(ابن محمد) خالد[٣٣].

لم يجرؤ فيصل على تحدي الملك جهارا، فاخذ يستعد لشن غزوات على العراق. وكان يأمل من وراء ذلك توزيع الغنائم على اتباعه وحمل الملك على مساندته او،بخلاف ذلك، البرهنة على انه لم يعد مجاهدا في سبيل الله[٣٤]. ظل الملك يترقب، اذ ان«الحذر كان دوما السمة المميزة لعبد العزيز بن سعود ـ كما يقول غلوب ـ وكان واثقا من قدرته على هزيمة خصومه من امراء الجزيرة، ولكنه لم يكن مستعدا لخوض معارك حربية ضد بريطانيا. اما الاخوان فقد كانوا مستعدين لايراد اقوال عبد العزيز السابقة كحجة ضده. واعتبروا العراقيين خوارج واعداء الله وقالوا إن ارواحهم وممتلكاتهم مباحة للاخوان باعتبارهم المؤمنين بالدين الحق. غير ان عبد العزيز كان مثالا للحذر والتبصّر ولئن ايد العصبية فقد كان ذلك لغرض وحيد وهو استخدامها كاداة لبلوغ مآربه، بينما لم يكن هو نفسه متعصبا قط»[٣٥].

على الرغم من ان وضع ابن سعود في المملكة صار مهزوزا فان الدبلوماسية البريطانية ظلت ترى فيه القوة الفعلية الوحيدة في الجزيرة، القوة التي تعتزم التعاون معها. وتخلت بريطانيا عن آمالها في فرض او ابقاء الحماية على الحجاز ونجد وملحقاتها. وكانت مملكة الجزيرة المترامية الاطرف والقليلة السكان محاطة بمستعمرات او محميات او بلدان تابعة للندن. وقدر الانجليز ان المملكة، حتى وان ظلت مستقلة، ليس بوسعها اتخاذ اي خطوات تضر بالمصالح البريطانية.

في ايار(مايو) ١٩٢٧، اجرى المندوب البريطاني كلايتون مفاوضات مع عبد العزيز في جدة، وفي العشرين من الشهر عقدت «معاهدة صداقة وحسن تفاهم».

وقد الغت هذه المعاهدة النافذة لمدة سبعة اعوام، اتفاقية عام ١٩١٥ واعترفت «بالاستقلال التام والمطلق» لممتلكات ابن سعود. ومن الناحية الشكلية لم تنص المعاهدة على اي امتيازات خاصة لبريطانيا، ولكن ابن سعود التزم بالاعتراف بان لها(اي لبريطانيا) علاقات خاصة مع امارات الخليج ومحميات عدن. ولم يعترف الملك بالحاق العقبة ومعان بشرق الاردن، الا انه التزم بمراعاة الامر الواقع لحين رسم الحدود بين الحجاز وشرق الاردن بشكل نهائي[٣٦]. وكانت المعاهدة نجاحا هاما للدبلوماسية السعودية وقننت استقلال الدولة الجديدة.

وسرعان ما اعطى الانجليز الاخوان ذريعة لغزو اراضي العراق. ففي ايلول(سبتمبر) ١٩٢٧، ارسلت مجموعة من الشرطة العراقية الى آبار البضية الواقعة على الاراضي العراقية على مقربة من الحدود لبناء مخفر هناك. وقد احتج عبد العزيز استنادا الى اتفاقية المحمرة والبروتوكول رقم واحد الموقع في العقير. وردت الحكومة العراقية بان البضية تقع داخل العراق على بعد ٨٠ ميلا عن الحدود، وان المخفر للشرطة وليس للجيش، في حين ان النجديين لم يكونوا يفرقون بين الشرطي والجندي[٣٧]. ولم يأبه الانجليز باحتجاجات ابن سعود الذي طالب بإزالة المخفر، وذلك تحت ضغط الاخوان.

في ليلة السادس من تشرين الثاني(نوفمبر) ١٩٢٧، اباد مطير كل رجال الشرطة العراقيين باستثناء واحد. وتدخلت الى جانب العراق الطائرات البريطانية التي القت قنابلها على البدو[٣٨].

وفي مطلع كانون الاول(ديسمبر) هاجم ٣٠٠ من مطير اراضي الكويت الى الشمال الشرقي من الجهراء. وفي ١٣ من الشهر نفسه طلب ابن الصباح مساندة الطائرات البريطانية لمجابهة الغزوات. ولكن ابن سعود كان قبل ذلك قد ابلغ الحكومتين العراقية والكويتية بان هذه الغزوات تجري خلافا لاوامره[٣٩]. وفي ١٦ كانون الاول، اعيد بناء مخفر البضية ورابطت فيه فصيلة من الجيش العراقي[٤٠]. ومن كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٧ استخدمت الطائرات البريطانية على نطاق واسع ضد الاخوان، ولكن كان من الصعب في الصحراء تمييز الاخوان عن غيرهم،

فادت الغارات الى مصرع سكان مسالمين. وقد استمرت غزوات الاخوان حتى شباط(فبراير).

وقد قال غلوب الذي عاصر تلك الاحداث وشارك فيها:«عام ١٩٢٧ لم يعد ابن سعود مسيطرا على الوضع سيطرة تامة. فقد اغترّ الاخوان، اثر انتصاراتهم في الحجاز، بقوتهم وزعموا ان سيوفهم هي التي اعلت كلمة ابن سعود. وادرك الاخوان انهم عماد جيش الملك الذي لم يكن لديه قوات نظامية لضبطهم. وكانت الانتفاضة الصريحة ضد ابن سعود صعبة، فهو الامام ويحظى بتعاطف اهل نجد. ولكنهم اعتبروا ان من الواجب المقدس محاربة الشيعة العراقيين، لانهم خوارج ولكونهم تحت حماية الانجليز. واتهم ابن سعود بالتسامح في الدين ورفض محاربة اعداء الله. ولم يكن النجديون، رغم مساندتهم لابن سعود، مستعدين لاستخدام القوة بهدف منع الاخوان من شن الغزوات على العراق التي تعني الاصطدام ببريطانيا. كما لم يكن بوسع ابن سعود ان يعترف للدول الاخرى بانه لا يسيطر على رعاياه، وفي الوقت نفسه فان الادعاء بانه سيطر تماما عليهم كان ليعني تحمل مسؤولية غزوات الاخوان. وقد اعطاه بناء مخفر البصية ذريعة لاتهام العراق بالعدوان. وهكذا اصبح العراق بمثابة العدو المشترك لابن سعود والاخوان»[41]. وفي هذا الظرف آثر ملك الحجاز ونجد الاستمرار في تريثه. وفي(مارس) ١٩٢٨، عاد مطير الى هجرهم بعد غزوات موفقة[42].

في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨، التقى حافظ وهبة بالمندوب البريطاني هنري دوبس في الكويت، بعد ان حذر الانجليز ابن سعود من ان الطيران سوف يستخدم بكل ضراوة ضد الاخوان اذا لم يوقف الملك الغزوات. ولكن الانجليز استمروا في تزويد الملك بالذخائر. وفي آذار (١٩٢٨) اعلن ناطق باسم الحكومة البريطانية في مجلس العموم ان بلاده اعطت خلال الاشهر الاخيرة ثلاث مرات ترخيصا بتصدير الذخيرة الى ابن سعود[43].

في مطلع نيسان(ابريل) ١٩٢٨ عقد في بريدة لقاء آخر مع الاخوان، ولكن فيصل الدويش وابن بجاد لم يحضرا الى المدينة، بينما رفض عبد العزيز الالتقاء

بهما في البادية. ووعد الملك الاخوان بانه سيجري مفاوضات مع الانجليز ويحتج على اقامة المخفر[٤٤].

في ايار(مايو) ١٩٢٨، جرت مفاوضات بين عبد العزيز والمندوب البريطاني كلايتون، ولكنها لم تسفر عن شيء، كما لم يتمخض عن نتيجة اللقاء الآخر الذي عقد في آب(اغسطس) من العام نفسه. وقد احس الانجليز بان عبد العزيز اخذ يفقد السيطرة التامة على البلد. وادرك الطرفان انه لم يتبق لديهما سوى ستة اشهر يحل بعدها موسم الرعي الجديد الذي تعود فيه مناطق الحدود الى حالة الفوضى[٤٥].

امضى عبد العزيز صيف عام ١٩٢٨، كله في مكة يشن هجمات اعلامية ضد العراق، يبدو ان الغرض منها اقناع الاخوان بتمسكه باصول الدين. ويقول فيلبي«ان ابن سعود شعر بالحاجة الى الحد من تعصب اتباعه. وكان يعرف ان الحرب مع العراق، مع القوات البريطانية تعني كارثة، فقرر تحاشيها بأي ثمن. ولكنه كان يحس ايضا ان الغليان في البادية بلغ حد تحديه لتسامحه مع المشركين»[٤٦].

وضع كبار زعماء الانتفاضة الاخوانية خطط اقتسام ممتلكات ابن سعود. فقد استقر الرأي على ان يكون فيصل الدويش حاكما لنجد وابن بجاد للحجاز وتعطى الاحساء لابن حثلين. ووعد نداء بن نهير، وهو من ابناء احد افخاذ شمر، بتنصيبه حاكما للحائل اذا ما انضم الى قادة الاخوان ولكنه آثر التريث وظل وفيا لابن سعود[٤٧].

في ايلول(سبتمبر) ١٩٢٨، عاد الملك الى الرياض ووجد ان بعضا من افخاذ العجمان قد اتحد مع فيصل وابن بجاد. اخذ الملك يعمل على عقد الجمعية العمومية للحضر والاخوان وحدد شهر تشرين الاول (اكتوبر) موعدا لها ولكن الجمعية لم تنعقد الا في ٦ كانون الاول(ديسمبر) ١٩٢٨[٤٨]. حضر الجمعية العمومية زعماء الاخوان وشيوخ العشائر واشراف المدن وعلماء الدين، وتجاوز العدد الاجمالي للحاضرين ومرافقيهم الـ ٨٠٠ شخص، وتغيب عن الجمعية فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين، ولكن فيصل اوفد ابنه عزيز لحضورها. تحدث عبد العزيز في الحاضرين طويلا وعدد منجزاته ومنها توحيد الجزيرة واقامة صرح

السلام. ثم لجأ الى حركة مسرحية باقتراحه التنازل عن العرش شريطة ان يبايع المجتمعون واحدا من آل سعود ملكا، وقال انه سوف يساعد من يختارونه. وتحدث عبد العزيز عن مفاوضاته مع الانجليز وقال ان غزوات فيصل الدويش هي سبب تعنتهم.

فعلت الحركة المسرحية فعلها في الحاضرين، وخصوصاً سكان الحواضر وواحات نجد، الركيزة التقليدية لآل سعود، والذين كانوا يعرفون حق المعرفة ما قد يعنيه بالنسبة لهم غياب عبد العزيز وانتصار فيصل الدويش وابن بجاد. ووسط صياح«لا نريد بك بديلا» اعرب كل الحاضرين عمليا عن تأييدهم لسياسته و«انكارهم» لزعماء الاخوان الثلاثة[٤٩]. ومن الواضح ان المجتمعين كانوا يدركون ان ابن سعود لا يتنازل عن العرش طائعا، وانه كان قد بلغ من القوة والذكاء حدا كبيرا واصبح مستعدا لمحاربة الاخوان. وتيقن اعيان الحواضر من ضرورة محاربة الاخوان، وقد لعب دورا في ذلك السعي لحماية مصالحهم في مواجهة البدو الثائرين، الى جانب نفور الحضر من البدو[٥٠]. غير ان الصعوبة تمثلت في ان حركة الاخوان اتخذت طابعا دينيا وزعم قادتها الثلاثة انهم حماة الدين الحقيقيون وان عبد العزيز يقدم مصالحه الشخصية على الاسلام ويتعاون مع الانجليز الكفار[٥١].

ومع بداية موسم الرعي غدا واضحا ان الحرب الاهلية قائمة لا محالة، رغم ان قبائل كثيرة اتخذت موقف التريث. وعوضا عن الوقوف جهارا ضد عبد العزيز آثر زعماء الاخوان الثلاثة شن غزوات على العراق، لكي لا يتهموا بالعصيان.

هاجم بن بجاد قرية الجميمة على الحدود مع العراق، وقتل كثيرا من التجار بينهم عدد من اهالي نجد، ثم هاجم شمر. وقد جعل الاخوان اكبر القبائل وهي عنزة وقبيلة حرب الحجازية تتألبان ضدهم. وحصل ابن سعود الذي كان قبل شهر مهتز الثقة بنفسه، على دعم من البدو والحضر في نجد. وابدى فيصل الدويش كياسة سياسية اكثر من ابن بجاد فاقتصر على مهاجمة العراقيين متظاهرا بانه من رعايا الملك الاوفياء ولم يقطع الاواصر معه بشكل لا رجعة فيه، كما ان الخلافات بينه وبين ابن بجاد تزايدت. وبعد مذبحة الجميمة وصل ابن سعود الى القصيم حيث جهز

حملة من المتطوعين النجديين الذين التحقوا بقواته عن طيب خاطر لان المزارعين والتجار لم يشعروا بالامان طالما استمر الاخوان البدو في نهبهم وتقتيلهم. وسار في ركب ابن سعود فخذ من العتيبة على رأسه عبد الرحمن بن ربيعان منافس ابن بجاد، ومشاري بن بصيص من مطير ودليم بن براك من هتيم وعدد كبير من قبيلة حرب وكل شمر نجد تقريبا وجزء كبير من قبيلة الظفير وجزء من عنزة الحجاز، وكذلك ولد سليمان وغيرهم. وصار حضر نجد العمود الفقري لقوات الملك(٥٢).

في مطلع آذار(مارس) ١٩٢٩، بدأ ابن سعود حملته، وكان ابن بجاد وفيصل عند آبار السَّبْلة(٥٣).

جرت سلسلة من المفاوضات، وزار فيصل الدويش معسكر عبد العزيز ثم عاد الى جماعته(٥٤). وفي اليوم الثاني، في ٣١ آذار(مارس) ١٩٢٩، نشبت معركة السبلة. فقد حشد ابن سعود في الوسط مشاة من اهالي نجد، وجعل اخوانه وابناءه على رأس مجموعات وبدأ الهجوم؛ وكان المتطوعون من البدوعلى الميمنة والميسرة. خسر الاخوان المعركة واصيب فيصل الدويش بجرح بالغ في بطنه، وتقدم سعود بن عبد العزيز على رأس مجموعة من اهالي الرياض وحرس الملك، ليكمل الانتصارات. وتحمل حضر نجد العبء الاساسي في المعركة(٥٥).

هرب فيصل الجريح الى الارطاوية واوفد نساءه الى الملك لكي يطلبن منه الرأفة والعفو. وحينما علم عبد العزيز بان فيصل اصيب بجرح شديد لان وعفا. وبعث بطبيبه الخاص الى فيصل. ويبدو ان الغرض لم يكن المداواة فقط، بل معرفة مدى خطورة الاصابة. وعلى اي حال فقد ادرك عبد العزيز ان فيصل لم يعد له وجود كمنافس له(٥٦).

اما ابن بجاد فقد عاد بعد المعركة الى الغطغط. وبعث اليه الملك رسالة يطلب منه فيها ان يستسلم هو وشيوخ القبائل الذين شاركوا في الانتفاضة. وقد انصاع ابن بجاد فحُبس وسواه من زعماء الانتفاضة في سجن بالاحساء وهناك قضوا نحبهم. وامر عبد العزيز بتجريد هجرة الغطغط من السلاح وهدم بيوتها. وما زالت انقاضها قائمة حتى اليوم(٥٧).

اعتقد الملك ان انتفاضة الاخوان قد قمعت، فقصد المدينة ثم مكة للحج في ايار - حزيران(مايو- يونيو) ١٩٢٩.

المرحلة الثانية من الانتفاضة. غير ان فيصل الدويش ظل على قيد الحياة ولم تحبط عزائمه، فعاد الى تدبير غزوات ضد العراق.

وفي تلك الاثناء، كان ابن جلوي قد قرر معاقبة العجمان(٥٨). ورغم عدم اشتراك ضيدان بن حثلين وقبيلته في معركة سبلة، الا ان ابن جلوي اعتبر تصرفات العجمان السابقة حجة كافية لضربهم. واوفد عبد الله بن جلوي ابنه فهد لاسر ضيدان بن حثلين بالقرب من هجرته في الصرار. وقام فهد باستدراج ضيدان الى لقاء في البادية حيث اسره. وحينما اكتشف الاخوان من جماعة ابن حثلين ان زعيمهم لم يعد،طوقوا فورا معسكر فهد الذي امر بقتل ضيدان وخمسة من صحبه. وتلت ذلك معركة قتل ابانها فهد، بينما انضم الى المتمردين نايف بن حثلين وهو من اقارب ضيدان وكان سابقا من المعارضين للاخوان. وادرك زعماء هجرة الصرار ان عبد الله بن جلوي سيعمل فور سماعه بمقتل ابنه على مهاجمتهم، لذا لّموا ماشيتهم وحوائجهم ونزحوا الى الشمال(٥٩). ويقول ديكسون ان الغدر بضيدان الب بدو المناطق الشمالية الشرقية من الجزيرة ضد عبد العزيز رغم انه لم يكن مسؤولا عن ذلك(٦٠). وعاد جمع كبير من العجمان الذين هجروا اراضي الكويت بضغط من الانجليز، الى الاحساء وانضموا الى افراد قبيلتهم.

بيد ان حلول الصيف وضع حدا للمعارك الكبرى، وكان العجمان قد تمكنوا من الحصول على بعض العون من الكويت حيث اشتروا مؤنا وذخائر في اسواقها. واحتج عبد العزيز فيما بعد لان الانجليز تغاضوا عن هذه المشتريات(٦١). ولكن كان في العراق والكويت من يتعاطف مع الثائرين لذا لم يكن بوسع الانجليز السيطرة على كل الامور. وازدادت قناعة الانجليز من ان تحقيق اهدافهم في الكويت والعراق والاردن يتطلب منهم ان يساعدوا ابن سعود في قمع انتفاضة الاخوان وتوطيد نظامه.

انضم فيصل الدويش الذي قرر ان يرفع راية الانتفاضة مجددا، الى العجمان،

وفي منتصف تموز(يوليو) عمل واياهم على قطع الطريق بين الرياض والهفوف. وقطعت عتيبة سبل الاتصال بين الحجاز ونجد. وفي البدء كان العجمان يرومون مهاجمة القطيف والمدن الساحلية في الاحساء ولكن العوازم اعترضوا طريقهم.هاجم العجمان العوازم لسلبهم ولكنهم ردوا على اعقابهم. وكانت تلك هزيمة نكراء مني بها العجمان ومطير لان العوازم يعتبرون من «مجهولي النسب» او الهتمان.

دارت في البلد رحى حرب اهلية، وصار جامعو الخراج عرضة للقتل في كل مكان. ولم تعد طرق القوافل في الحجاز ونجد والاحساء آمنة[٦٢].

عاد الملك الى الرياض في تموز(يوليو) ١٩٢٩ ومعه ٢٠٠ سيارة لاستخدامها ضد المنتفضين. واتفق في الحجاز على شراء اربع طائرات وخطط لاقامة شبكة من محطات الاذاعة في البلد. ولم يرس طلب اقامة الاذاعات على شركة ماركوني الا في اواخر عام ١٩٣٠، اما الطائرات فقد وصلت إلى سواحل الاحساء في نهاية عام ١٩٢٩ حيث انتفت الحاجة لاستخدامها ضد البدو[٦٣].

في ايلول(سبتمبر)قرر ابن سعود القضاء على الثائرين، ودعا امراء القطيف والاحساء والقصيم وحائل الى تزويده بالرجال والمال والسلاح، واستنفر اهالي نجد من بدو وحضر، كما حصل على مؤازرة الهجر التي لم تنضم الى فيصل الدويش.

انزلت ضربة قوية بفيصل الدويش في ايلول(سبتمبر)، حينما الحقت قوة يترأسها ابن مساعد، الهزيمة بقوات مطير بقيادة الشاب عزيز بن فيصل الدويش الذي قتل هو ونخبة من مطير في المعركة[٦٤].

وبعد بضعة ايام مني الدويش بهزيمة اخرى، اذ ان فخذا من عتيبة له علاقة بالاخوان هزم من قبل فخذ آخر من القبيلة نفسها ظل مخلصا لعبد العزيز وساندته وحدة بقيادة ابن لؤي من الخرمة[٦٥].

انتهى امر الانتفاضة. وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٩، هرب فيصل الى

الكويت آملا في الحصول على حق اللجوء له ولرجاله ولابقاء افراد عائلته هناك واخذ وعد من الانجليز بعدم قصف مطير. ولكن الانجليز ظلوا يسوفون ولم يعطوا اي ضمانات. وكثرت حالات عبور الاخوان الحدود مع العراق في مجموعات غير منظمة هربا من ابن سعود. وكانت القوات العراقية محشدة الى الشمال من الكويت، وقامت المصفحات البريطانية بطرد الاخوان ليعودا الى الاراضي السعودية(٦٦).

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٩، اعلن عبد العزيز ان كل من اشترك في«الفتنة» يؤخذ ماله وجميع ما لديه من ابل وخيل وسلاح، وان كل من مالأ المنتفضين تؤخذ منه الذلول والفرس والبنادق، على ان يقسم كل ما ينتزع من المنتفضين على المشاركين في المعارك الى جانب الملك . وامر بان كل هجرة«غلب الفساد على اهلها يطردون منها... ولا يسمح لفريق منهم بالاجتماع في مكان واحد»(٦٧).

في كانون الاول(ديسمبر) عام ١٩٢٩ جمع عبد العزيز قوة من حضر العارض والوشم والقصيم وبعض الافخاذ الموالية له من مطير وعتيبة وحرب ووحدات من قبائل سبيع وقحطان والدواسر، وبدأ بمطاردة فيصل. وجرت اشتباكات ادت الى هزيمة الاخوان، وفي اواخر الشهر نفسه بعث فيصل الدويش رسالة الى عبد العزيز يطلب فيها العفو والامان. ورد الملك بان فيصل لم يعد له الحق في العفو. غير ان المكاتبات استمرت بين الجانبين(٦٨). وفي الوقت نفسه بعث فيصل رسالتين الى ملك العراق والى الكابتن البريطاني غلوب يزعم فيها بان مطير من رعايا العراق المخلصين. ولكن الانجليز كانوا يميلون الى القضاء على الاخوان. وفي نهاية كانون الاول، اصبحت فلول قوات الدويش محصورة بين قوات عبد العزيز والقوات البريطانية على الحدود بين نجد والعراق والكويت. وكانت قوات عبد العزيز ومدرعاته اكثر بكثير من المتمردين(٦٩).

في احدى المعارك هزم آل حرب نفرا من مطير ففر هؤلاء الى الكويت(٧٠). وحينما نما الخبر الى فيصل عبر في مطلع كانون الثاني ١٩٣٠ حدود امارة الكويت. وحالما علم عبد العزيز بذلك كتب الى المقيم البريطاني في الكويت ديكسون

يحتج على السماح للاخوان بالالتجاء الى الكويت والعراق والاردن. وفي اليوم التالي تلقى تعهدا بان المتمردين سوف يُطردون[٧١].

ولكن لا يستبعد أن السلطات البريطانية والعراقية والكويتية كانت تريد الابقاء على زعماء الاخوان كاداة في يدها للضغط على ابن سعود.

استسلم فيصل الدويش وسواه من زعماء الاخوان إلى السلطات البريطانية في العاشر من كانون الثاني(يناير) ١٩٣٠، فنقلوا بالطائرات إلى البصرة حيث وضعوا على متن بارجة بريطانية في شط العرب[٧٢]. وبعد يومين طالب عبد العزيز بتسليم زعماء الاخوان. وكان ملك العراق فيصل يدعو الى منح حق اللجوء للاخوان ولكن البريطانيين لم يتفقوا معه في الرأي. وصل الى معسكر ابن سعود وفد بريطاني وجرت مفاوضات تم بعدها التوصل الى اتفاق حول تسليم زعماء الاخوان للملك. ووعد الملك بالابقاء على حياتهم، ومنع الغزوات على العراق والكويت. كما ان عبد العزيز تعهد بتعويض العراق والكويت عما الحق بهما من اضرار ودفع عشرة آلاف جنيه تعويضا عن الخسائر التي سببتها غزوات الاخوان، وان يعين في اي وقت مندوبين الى المحكمة المشتركة وفقا لاتفاقية بحرة[٧٣].

في ٢٧ كانون الثاني (يناير)، نقل زعماء الاخوان الثلاثة الى مخيم عبد العزيز حيث استقبل الملك عدوه اللدود المهزوم باللوم. ورفض فيصل الاعتراف بانه ارتكب معصية او خطأ. وقد نقل المعتقلون الى سجن الرياض[٧٤] ،وتوفي فيصل في الثالث من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣١ في السجن. وظل حتى الرمق الاخير ثابت الجنان ومات وهو يقسم بمحاسبة عبد العزيز في يوم القيامة[٧٥]. وهكذا انتهت حياة فيصل الدويش، واحد من ابرز زعماء البدو، ولعله آخر واكبر ممثلي عهد انصرم. وسرعان ما توفي الباقون من زعماء الاخوان في السجن، ولعل السجانين قد «اعانوهم» في ذلك[٧٦].

في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠، انتهت انتفاضة الاخوان عمليا. وبذا انهزمت وتلاشت حركتهم التي لعبت دورا هاما في تعزيز سلطة ابن سعود وغزواته.

وتوقفت حتى عملية تحضر البدو وانتقالهم الى الزراعة[٧٧]. وكانت للدولة الاقطاعية المركزية الغلبة على الحركة الشعبية للبدو الذين قاوموا، بشكل غريزي، تشديد الاضطهاد ووقفوا ضد التطلعات الاقطاعية الانفصالية لزعمائهم[٧٨].

اصبح بدو الجزيرة ولعقود طويلة تحت رحمة السلطات المركزية. ولكن لا يستطيع احد ان يجزم ويحدد بثقة الجانب الذي سيلتزمه البدو في حالة الصراعات المحتملة مستقبلا.

في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٣٠ وصل عبد العزيز الى رأس تنورة، واستقبل على متن بارجة بريطانية حيث التقى بالمندوب السامي البريطاني في العراق همفرز والملك فيصل. وخلال اللقاء الذي دام ثلاثة ايام تبادل العاهلان العتاب، ولكن المصالح المشتركة كانت لها الغلبة في آخر الامر، فاتفقا على عقد معاهدة للصداقة وحسن الجوار وقعت بعد اسابيع بالحاح من البريطانيين. والى بضع سنوات خلت، كانت الاسرتان المالكتان تتحاربان في الحجاز الذي اعتبره الهاشميون ملكا متوارثا لهم. ولم تنس اسرة الشريف قط فقدانها مكة والمدينة والهزائم المنكرة التي ألحقها بها ابن سعود. بيد ان متطلبات السياسة الواقعية كانت الاقوى. وقررالعاهلان تبادل الاعتراف بينهما كملكين للدولتين وتبادل المبعوثين الدبلوماسيين واحترام كل طرف لحقوق العشائر والاراضي المشمولة بسيادة الطرف الآخر[٧٩].

بدا ان النظام السعودي قد انجز بنجاح حل مشاكله الخارجية والداخلية، وصار بوسعه الخلود الى عهد من الاستقرار النسبي. وكان على ابن سعود ان يمر، قبل حلول هذا العهد، باختبارين جديدين هما الحركات المسلحة في الحجاز وعسير والحرب مع اليمن، وان لم يشكلا خطرا على سلطته.

التحركات المسلحة ضد ابن سعود في الحجاز وعسير. اثار نظام ابن سعود الذي فرض بقوة السلاح في الحجاز استياء شطر من اعيان المنطقة. وحافظ أعيان كثيرون وخصوصاً من عائلة الشريف على صلاتهم باشقاء علي وهو آخر ملك هاشمي. ولم ينس عبد الله بن الحسين عاهل الاردن قط هزيمته على يد الاخوان في معركة تربة. وقد اثارت غيظه معاهدة الصداقة بين ملك العراق فيصل وعبد العزيز.

وعلى الرغم من الوجود البريطاني في شرق الاردن واعتراف بريطانيا الواضح بالنظام السعودي، فقد قرر عبد الله مساعدة العناصر المعارضة في الحجاز وتزويدها بالمال والسلاح.

بدا ان وضع الاستياء العام الذي عم الحجاز في اواخر العشرينات كان في صالح المعارضين. وتعرضت نجد والحجاز لجفاف خلال عامين متتاليين. وادت الحرب الاهلية بين الاخوان ونظام ابن سعود الى دمار شامل وزعزعت الاقتصاد. واحدثت الازمة الاقتصادية العالمية لاعوام ١٩٢٩ـ١٩٣٣ آثارا موجعة في الجزيرة. فقد هبط تصدير المواشي والجلود والتمور، ولم يكن ثمة مال لتغطية استيرادات المواد الغذائية، وتقلص عدد الحجاج بشكل مأساوي(من ١٩١ الفا عام ١٩٢٦ الى ٢٩ الفا عام ١٩٣٢)[٨٠]. وخوت الخزانة. وشرع الموظفون الذين لم تدفع رواتبهم لعدة اشهر بفرض اتاوات على السكان وتوقف دفع المخصصات لشيوخ العديد من القبائل. وبدأ الجوع يجتاح البلد[٨١].

غير ان الوضع الاقتصادي المزري واستياء السكان لم يكونا كافيين بحد ذاتهما لكي تحرز الحركات المناوئة للسعوديين داخل البلاد نجاحات تذكر. وكانت قد انشئت في مصر، بعيد سقوط جدة رابطة الدفاع عن الحجاز ومن قادتها عبد الرؤوف الصبان والشقيقان الدباغ. وكان النزاع بين ملك مصر فؤاد وابن سعود قد دفع المصريين إلى تأييد هذه المنظمة المهجرية[٨٢]. في اواخر العشرينات اسس المعارضون الحجازيون، بتشجيع من الملك عبد الله، حزب الاحرار الحجازي لطرد النجديين من الحجاز واقامة دولة مستقلة. وتزعم الحزب طاهر الدباغ الذي كان في زمن الملك سكرتيرا للحزب الوطني الحجازي. وكان بين قادة الحزب الجديد الشريف شاكر والشريف خالد وحسين الدباغ وعلي الدباغ ومحمد امين. وحاول الاحرار الحجازيون تأسيس فروع للحزب في مختلف مدن العالم العربي. وتوجه حسين الدباغ إلى القاهرة مزوداً بمبلغ كبير من المال، حيث اقام صلة بحامد بن سالم ابن رفادة الملقب بالاعور وهو من شيوخ قبيلة بلي التي غادر عدد من افرادها الحجاز إلى مصر بعد التحركات المناهضة لآل سعود عام١٩٢٩[٨٣].

وجرت مساع لايجاد انصار في جنوب الجزيرة، فزار حسين الدباغ عدن حيث التقى بعدد من الادارسة القاطنين في المهجر. وكان يأمل أن تؤازر العمليات المسلحة في الشمال بانتفاضة في عسير، تليها انتفاضة شاملة في الحجاز. ولما عاد حسين الدباغ الى القاهرة اكد لابن رفادة ان الاستياء يعم الجنوب وان الناس هناك في انتظار اشارة البدء.

في اواسط ايار (مايو) ١٩٣٢، عبر ابن رفادة وقبيلته الحدود المصرية قرب العقبة حيث زوده سعود الدباغ بالمؤونة. وسرعان ما ظهر ابن رفادة ومسلحوه في شمال الحجاز[٨٤].

ويبدو ان نشاطات«احرار الحجاز» لم تكن خافية على ابن سعود. فما ان علم بظهور قوة ابن رفادة، حتى امر في حزيران(يونيو) ١٩٣٢ باعتقال جميع المعارضين في مكة فوراً، وكان بينهم عدد من آل الدباغ، وحظر نشاط كل الاحزاب السياسية في الحجاز[٨٥].

وفي الوقت نفسه، ارسل عبد العزيز وحدات محمولة بالسيارات الى ضبا والبدع لتطويق ابن رفادة. وتولت القوات البريطانية اغلاق الحدود بين شرق الاردن والسعودية ووصلت إلى العقبة باخرة بريطانية للحيلولة دون مرور المؤن والذخائر الى الحجاز. واغلق عبد العزيز الحدود من جهته[٨٦].

لم يحصل ابن رفادة ومسلحوه من قبيلة بلي على دعم السكان فاحتموا بجبل شار على بعد ٥٠ كيلومترا من ضبا. واستدرجهم عبد العزيز من هناك بعد ان اوعز الى اعيان ضبا بان يبعثوا رسالة الى ابن رفادة يعربون فيها عن استعدادهم للانضمام الى حركته. فنزل زعيم البلي من الجبل ووقع في الكمين وطوقت وحدته وبعد معركة قصيرة دمرت تماما. وفي هذه المرة استخدم عبد العزيز السيارات والمصفحات على نطاق اوسع مما كان اثناء قمع انتفاضة الاخوان[٨٧].

بذا منيت مغامرة ابن رفادة و«احرار الحجاز» بالهزيمة قبل ان تبدأ حركة انصارهم المسلحة في عسير.

نصت المعاهدة المعقودة مع ابن سعود عام ١٩٢٠ على احتفاظ محمد الادريسي بالسيادة على جنوب عسير وجزء من تهامة اليمن. ولكن الوضع اخذ يتغير بشكل جذري بعد الاستيلاء على الحجاز. ففي ظل الدولة السعودية القوية تحول «استقلال» امارة الادارسة الى مسألة شكلية صرف. واستغل امام اليمن يحيى انشغال النجديين في عمليات بالحجاز، فضم الى ممتلكاته الحديدة وجزءا من تهامة في نيسان (ابريل) ١٩٢٥، مما ادى الى تأزم العلاقات بين ابن سعود ويحيى.

وبعد الاستيلاء على الحديدة تقدمت قوات احمد بن يحيى نحو الشمال مهددة مراكز عسير الاساسية وهي جيزان وصبيا وابو عريش. وكان من الواضح ان الامام يحيى يعتزم الحاق جنوب عسير كله باليمن.

انتابت امير عسير الجديد، الحسن الادريسي، مخاوف من اليمنيين، فعقد في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٦ معاهدة حول الحماية السعودية لامارته، وتخلى الادارسة عن الاستقلال في السياسة الخارجية ولكنهم احتفظوا باستقلال ذاتي في الشؤون الداخلية. وكانت تلك بداية النزاع السعودي اليمني. سحب يحيى قواته المرابطة بالقرب من جيزان وصبيا، وفي حزيران (يونيو) ١٩٢٧، وصل صنعاء وفد سعودي للتفاوض. واصر يحيى على ان عسير جزء من اليمن اقتطعه الادارسة «الغاصبون والطارئون» فيما مضى. وسعى السعوديون للبرهنة على ان هذه المنطقة لا ترتبط باليمن وطالبوا باستعادة جزء كبير من اراضي عسير التي احتلها الجيش اليمني عام ١٩٢٥، وصولا الى باجل.

لم يكن اليمن مستعدا لتوسيع شقة الخلاف. فقد كانت حدوده الجنوبية تشهد اشتباكات متواصلة مع قوات بريطانيا ومحمياتها. وفي عام ١٩٢٨ قصفت الطائرات البريطانية عددا من المدن اليمنية.

في ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٠، فرض ابن سعود على الحسن الادريسي معاهدة جديدة حولت سلطة الامير الى مسألة شكلية صرف. ونصت المعاهدة على ان السلطة بكاملها ستنتقل الى ابن سعود بعد وفاة الحسن. وعند ذاك شرع الادارسة باقامة اتصالات سرية مع الامام يحيى و«احرار الحجاز».

شهد عاما ١٩٣١و ١٩٣٢ نزاعات مسلحة على الحدود السعودية اليمنية[٨٨].

كان حسين الدباغ قد وصل الى مدينة اللحية الساحلية عام ١٩٣٠ مندوبا عن حزب الاحرار الحجازي، واتفق مع الحسن على القيام بعمليات مشتركة، وبدأ تزويد امير عسير بالمؤن والذخائر. وفي عام ١٩٣٢، حاول التحرر من الحماية السعودية.

بدأت الانتفاضة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢، وبعد بضعة ايام دمرت قوات الحسن ففر الى صبيا. وجاء في تقرير للقنصلية السوفييتية في جدة:«ان الحركة في الجنوب قد هيئت من قبل المنظمة نفسها التي وجهت نشاطات ابن رفادة صيف ١٩٣٢، والتي عملت بايعاز من عمان (شرق الاردن)... وكان نشاط المنظمة، كما في حالة هجوم ابن رفادة على الحجاز، يهدف الى اقامة اتصال مع سواحل عسير واذكاء الدعاية المناوئة للسعوديين وارسال موفدين الى«بعض البلدان الاوروبية» لشراء الاسلحة ونقل المؤن والذخائر الى سواحل عسير بالقوارب الشراعية... وبعد بدء الانتفاضة وصل الى جيزان قارب شراعي وعلى متنه علي الدباغ وعبد العزيز اليماني، وجلبا كمية من الارز والطحين والتمر... ولكن بعد ثلاثة ايام من الحادث وصلت الى جيزان وحدة حكومية القت القبض على اليماني. وحاول علي الدباغ الهرب على متن القارب الشراعي... وفيما بعد تلقت السلطات ابلاغا بان علي الدباغ غرق في البحر»[٨٩].

اثر ذلك بقليل احتلت قوة سعودية بامرة خالد بن لؤي وعبد العزيز بن مساعد عسير باكملها. وحاول الادارسة والقبائل الموالية لهم المقاومة في الجبال، ولكنهم فروا فيما بعد الى اليمن. وطالب عبد العزيز بتسليم المتمردين ولكن الامام يحيى اشترط لذلك ان يعد الملك بالعفو عنهم. وفي ايار (مايو) ١٩٣٣، عاد عدد من الادارسة الى مكة حيث ظلوا تحت المراقبة ويتقاضون مرتبات[٩٠]. واصبح حاكم عسير يعين من قبل الرياض.

منذ صيف ١٩٣٢، اصبح واضحا ان النظام السعودي توطد وتحول الى السيد غير المنازع في كل الاراضي الشاسعة لمملكة الحجاز ونجد وملحقاتها. وما السهولة

التي تم بها قمع الانتفاضات في شمال الحجاز ومن ثم في عسير، سوى تاكيد على ذلك.

في ١٨ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٢، اصدر ابن سعود في الرياض الامر الملكي بنظام«توحيد المملكة» التي تقرر ان تعرف من ذلك الحين باسم المملكة العربية السعودية. ويشير النظام الى ان هذا التحويل لن يكون له اي اثر على المعاهدات والاتفاقات والالتزامات الدولية التي تبقى على قيمتها ومفعولها، شأنها النظامات والتعليمات والاوامر السابقة (الزر كلي ٥٦٥). ويلزم النظام مجلس الوكلاء (الوزراء) الذي شكل في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣١ بوضع النظام الاساسي للمملكة ونظام توارث العرش(٩١). وفي عام ١٩٣٣، عين عبد العزيز ابنه سعود وليا للعهد(٩٢).

ظل ابن سعود متمسكا بتكتيكه المعتاد في العفو عن الخصوم الذين كفوا عن محاربته في الوقت المناسب وشراء المعارضة، واعلن عام ١٩٣٥ العفو العام. وفي الوقت نفسه حل«حزب الاحرار الحجازي» نفسه. وعاد كثيرون الى السعودية، فاصبح طاهر الدباغ مديرا للمعارف والشيخ الصبان عضوا في مجلس الشورى(٩٣).

الحرب السعودية اليمنية(٩٤): ثمة امور كثيرة كانت تجمع بين الحاكمين السعودي واليمني. فان كلا منهما تزعم في نفس الوقت تقريبا حركة توحيد بلده. وكل منهما حارب الاتراك وتمكن من الحصول على الاستقلال بعد الحرب العالمية الاولى. وشعر كلاهما بضغط الامبريالية البريطانية. ولكن الصراع على عسير ادى بهما الى الاشتباك العسكري.

في نيسان (ابريل) ١٩٣٣، واثناء قمع انتفاضة القبائل المناوئة للامام في شمال اليمن، استولى الامير احمد على نجران بحجة ان عشيرة يام التي تعتبر فخذا من قبيلته همدان اليمنية قد ساعدت المتمردين. وفشلت المفاوضات التي اجراها وفد سعودي في صنعاء لتسوية النزاع. وقام الايطاليون بتحريض الامام ووعده بالمساعدة، وذلك سعيا منهم لتعزيز نفوذهم في اليمن، كما حرضه البريطانيون

الذين كانت لهم مصلحة في صرف اهتمام يحيى عن محمياتهم في عدن.

عاود اليمنيون الهجوم في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣، واحتلوا بدر. وبدأ الادارسة يستنهضون انصارهم من قبائل عسير ضد ابن سعود. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) امر ابن سعود بتعزيز القوات على الحدود ووجه انذارا الى يحيى بوجوب الجلاء عن الاراضي المحتلة واعادة الحدود الى سابق عهدها وتسليم الادارسة.

وخشية من ضربة سعودية قدم الامام يحيى تنازلات جزئية لبريطانيا لحماية حدوده الجنوبية. وفي شباط (فبراير) ١٩٣٤، وقع الحاكم العسكري البريطاني في عدن ريلي معاهدة في صنعاء«حول الصداقة والتعاون المتبادل» فسرها البريطانيون فيما بعد على انها تعني موافقة الامام على السيطرة البريطانية في جنوب الجزيرة.

في اواخر شباط (فبراير) واوائل آذار (مارس) عام ١٩٣٤، عقد في ابها لقاء جديد بين مندوبي المملكتين. وقرر ابن سعود التخفيف من مطالبه وعرض ان تكون منطقة نجران المتنازع عليها محايدة. وبما ان يحيى لم يعط جوابا محددا، فان السعوديين بدأوا الهجوم.

كانت السعودية متهيئة للحرب افضل من اليمن. اذ كانت قد حصلت على قرض من شركة «ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا» وتمكنت من شراء السلاح. وظهرت لديها اول وحدات الجيش النظامي.

شن السعوديون هجومهم بطابورين: بمحاذاة تهامة وفي الجبال. وتمكن طابور بامرة سعود من الاستيلاء على نجران بسرعة، ولكن تقدمه تباطأ في الجبال حيث كانت كل قرية قلعة حصينة.

وتقدمت قوة بامرة فيصل في تهامة وفي الثاني من ايار (مايو) استولت على الحديدة دون ان تخوض معركة. وظهرت بعض الوحدات السعودية قرب تعز. ورفض ابن سعود اقتراح ابنه فيصل بالزحف على صنعاء. وقد اعاقت وعورة المنطقة تقدم السعوديين الذين لم يعتادوا خوض معارك في الجبال. اضف الى ذلك

ان سفنا بريطانية وفرنسية وايطالية اقتربت من الحديدة، وانزل الايطاليون المؤيدون للامام قوة في الحديدة. وادرك السعوديون انه لن يسمح لهم بالحاق الحديدة ناهيك عن اليمن كله[٩٥]. وقرر ابن سعود الاكتفاء بالقليل.

في ١٥ ايار (مايو) ١٩٣٤، وقع الامير فيصل وعبد الله الوزير، وهو من اقرب مساعدي الامام، الهدنة واتفقا على شروط معاهدة الصلح. وفي العشرين من الشهر نفسه وقعا بالاحرف الاولى في الطائف على «معاهدة الصداقة الاسلامية والاخوة العربية». وابرمت المعاهدة في اليمن والسعودية. وفي ٢٣ حزيران (يونيو)، نشرت الصحف الرسمية في مكة وصنعاء وفي القاهرة ودمشق في وقت واحد نص المعاهدة. تضمنت المعاهدة ٢٣ مادة وعهد تحكيم. وحددت مدة المعاهدة بعشرين سنة قابلة للتمديد. واشارت المعاهدة الى ان الشعبين السعودي واليمني هما من امة واحدة، ونصت على اقامة علاقات سلمية وودية بين البلدين واعتراف كل منهما باستقلال الآخر وسيادته. وتخلى الامام عن ادعاءاته باراضي امارة الادارسة، وفي المقابل تنسحب القوات السعودية من الاراضي التي احتلتها. وتقرر تدقيق رسم الحدود. والزم الامام بدفع مائة الف جنيه استرليني ذهبي كتعويضات.وانجز رسم الحدود عام ١٩٣٦.

بدأت العلاقات بين البلدين تأخذ مجراها الطبيعي، رغم ان ثلاثة حجاج يمنيين حاولوا في العام التالي قتل عبد العزيز بالخناجر في مكة لعقد المعاهدة. وقد اصيب الامير سعود الذي حما ابيه بجسده بجرح في ظهره وكتفه وقتل الحراس الاشخاص الذين قاموا بالهجوم.

بعد حرب ١٩٣٤، صارت العلاقات بين آل سعود وبيت حميد الدين ذات طابع ودي، وبدأ التعاون السياسي بين العاهلين السعودي واليمني.

الفصل الثالث عشر

البنية الاجتماعية السياسية للمملكة العربية السعودية اثر قيامها

شغلت المملكة العربية السعودية الجزء الاكبر من شبه الجزيرة العربية وشملت عدداً من الكيانات الاقطاعية القبلية التي كانت تربطها علاقات تبعية متفاوتة بالامبراطورية العثمانية. وكان قيام الدولة المركزية يستجيب لمصالح الصفوة وشيوخ العشائر عموماً، وكذلك التجار ومعظم أهالي البلاد، إذ يوفر مستلزمات الأمن ويدفع ويلات النزاعات القبلية.

إلا أن مجيء الدولة المركزية اقترن بتزايد الضرائب وتضخم الجهاز العسكري البيروقراطي وتقييد الحريات «الديمقراطية» البدوية.

وقد اتخذ آل سعود من التبشير بالاصلاح الديني على الطريقة الوهابية ركيزة وراية في صراعهم من اجل توحيد اراضي نجد بزعامة الرياض. وفي حقبة تاريخية حرجة تزعم حركة الانبعاث الجديد لامارة نجد زعيم ورجل دولة وقائد عسكري يعتبر فذا في الاطار المحلي، ألا وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن (ابن سعود).

وكان ينبغي ان تتوفر ظروف خارجية ملائمة ووضع دولي مناسب، لكي يصبح الطموح الى المركزية وقيام الدولة المستقلة في نجد أمراً واقعاً، ولكي تتمكن هذه الدولة من ضم بعض المقاطعات المجاورة. وقد ساعد على نجاح ابن سعود في المرحلة الاولى دعم بريطانيا له في كفاحه ضد الامبراطورية العثمانية وولاتها،

وانهيار هذه الامبراطورية نتيجة للحرب العالمية الاولى، كما ساعده بعد ذلك عجز بريطانيا التي اخذ الوهن يدب في اقتصادها، عن فرض سيطرة مباشرة على جزء كبير من الجزيرة العربية التي بدت للبريطانيين باهظة الثمن ومثقلة.

ان الباحث الموضوعي الذي يتعامل مع الوقائع لا يجد تغيرات جديرة بالاهتمام في مستوى تطور قوى الانتاج في مجتمع الجزيرة خلال الثلث الاول من القرن العشرين بالمقارنة مع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بل يمكن الافتراض بان الدمار الاقتصادي الذي احدثته الحروب والانتفاضات المتتالية، بالاضافة الى الازمة المتفاقمة في تربية الابل، قد اديا الى انتكاس اقتصادي. وعند متابعة عملية نشوء العربية السعودية في القرن العشرين لا نجد فيها طبقات او فئات او شرائح جديدة تختلف مبدئيا من حيث طابعها وموقعها في المجتمع عن القوى الاجتماعية التي كونت الدولة السعودية الاولى في القرن الثامن عشر تحت لواء الوهابية. بعد الحرب العالمية الاولى طرحت في عدد من البلدان العربية- مصر، سوريا، فلسطين، العراق، الجزائر، المغرب - مسألة نيل الاستقلال الوطني للسير في طريق تطور مستقل يرتهن طابعه بتناسب القوى بين العناصر الاقطاعية والبرجوازية وبمستوى الاقتصاد ودرجة «التحديث» ونشوء عناصر الطبقة المتوسطة العصرية ونمو الطبقة العاملة. وفي هذه الاثناء لم تكن في العربية السعودية المستقلة سياسيا حتى اجنة العلاقات الرأسمالية، بل ان الدولة تكونت على اساس اقطاعي قبلي بدائي في مجتمع قروسطي من حيث الجوهر. ولكن العربية السعودية لم تكن البتة معزولة عن العالم المحيط بها، لذا كان من المتعذر ان يبقى تركيبها الداخلي بمنأى عن التأثيرات الخارجية. وقد تجسد ذلك سواء في الادوات الفنية لاقامة الدولة المركزية والإدارة(اللاسلكي، التلفون، الطيران، السيارات) او في الاشكال التنظيمية: استحداث الجيش النظامي والوزارات والمديريات والنظام المدرسي. غير ان التصادم بين المؤسسات الاجتماعية السياسية التقليدية النابعة من مجتمع العربية السعودية نفسه والمناسبة للاقطاع الشرق اوسطي، وبين نزعات التحديث المستقدمة من الخارج، لم يخل بالاستقرار الاجتماعي السياسي في الدولة خلال العقد الاول.

ويعزى ذلك، في المقام الاول، الى الضعف المطلق والنسبي لنزعة التحديث الوافدة من بلدان شرق اوسطية اكثر تطورا بمراحل. كما يعزي الى الهيمنة التامة للبنى التقليدية. ولم يبدأ التغير الجذري في الوضع الا في اواخر الاربعينات حينما اخل«انفجار» العوائد النفطية بالتوازن الاجتماعي القديم في البلد.

ان تسمية البلد نفسها ـ المملكة العربية السعودية ـ تعني انها واقعة تحت سيطرة آل سعود. ويرمز لون علم الدولة الاخضر الى الجنة، وهو اللون الاثير لدى النبي محمد. وقد نقشت على العلم عبارة«لا اله الا الله محمد رسول الله» ورسم سيف ابيض يرمز الى الجهاد.

سلطة الملك. العلاقات بين الصفوة الاقطاعية العشائرية وعلماء الدين. ان تغير القاب الحاكم السعودي هو انعكاس لما حدث من تغيرات في سلطته السياسية. ونعيد الى الاذهان ان الاتراك كانوا يخاطبون ابن سعود بعبارة«حاكم نجد والقائد عبد العزيز باشا» بينما خاطبه الانجليز بعبارة «الشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد الرحمن آل سعود». وفي عام ١٩٢١ بايعه الامراء والشيوخ وعلماء الدين سلطانا لنجد وملحقاتها واصبح يلقب بصاحب الجلالة في المكاتبات الرسمية. وفي عام ١٩٢٦، اصبح«ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها»[1] وبعد عام«ملك الحجاز ونجد وملحقاتها»، ومن ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٢، ملك العربية السعودية. ولكن هذه الالقاب جميعا كانت في المرحلة الاولى للاستهلاك الخارجي اساسا، ولتعزيز الهيبة الدولية للبلد وحاكمه.

اما داخل البلد فقد ظل ابن سعود بالنسبة للحضر اميرا، اي حاكما اقطاعيا، لنجد والاراضي التي فتحها، لذا كان تحول لقبه الى «سلطان» و«ملك» امرا طبيعيا بالنسبة لهم. هذا بينما اعتبره البدو«شيخ المشايخ».

وقد اراد آل سعود تعزيز مكانتهم«كشيوخ للمشايخ» فأكدوا نسبهم الى قبيلة عنزة وهي اكبر قبائل الجزيرة واشدها بأسا. وتمكن عبد العزيز من السيطرة على البدو الكثيري العدد والصعبي القياد في السابق، وذلك باستخدامه الحاذق

لارستقراطية القبائل والجمع بين اساليب الضغط والتنكيل وبين توزيع الهبات واغداق العطايا على الاعيان.

خلعت على سلطة السعوديين المسوح الابوية- الديمقراطية. فقد كان بامكان افقر البدو مخاطبة الملك بكل بساطة وبدون القاب. وكان عبد العزيز يحب ان يسمى ابن فيصل تذكيرا بجده، او ابن مقرن تذكيرا بواحد من اسلافه واصل الفخذ السعودي، او اخا نورا، وهي اخته الكبرى التي كنّ لها الحب والاحترام.

ثمة مثال اعلى للعربي القح ابن الجزيرة. انه مثال البدوي الذي تضفي عليه مسحة رومانسية في مجتمع الجزيرة وفي بعض البلدان العربية الاخرى: فهو محارب شجاع، يسهر على حماية الاسلام وسموح مع المغلوب، علاوة على انه رجل فحل. وقد تعمد ابن سعود ان يخلع على نفسه هذه الصفات طلبا للهيبة والجاه(٢).

لكن «ديمقراطية» و«ابوية» الملك لم تخدعا كل من ادرك الموقع الحقيقي للملك الشديد البأس في نظام الدولة المركزية.

لقب عبد العزيز، شأن اسلافه، بالامام. ولم يكن ذلك يعني ان يؤم المصلين فحسب، بل يعني ايضا زعامته لجميع «الموحدين» المناهضين «للمشركين» من مسلمي البلدان الاخرى. ورغم انحسار روح العصبية لدى الجماهير بعد فشل انتفاضة الاخوان، فان اتباع الامام بوصفه الزعيم الديني كان عامل توحيد للمجتمع وقد جعل من الدين هالة تضفى على اعلى سلطة في الدولة.

لقد كان رئيس دولة «الموحدين» في الوقت نفسه قائدهم العام الذي يستنهضهم ضد«المشركين». وادى عبد العزيز هذه المهمة بنجاح اثناء حروبه الاغتصابية.

حذا عبد العزيز حذو اسلافه في اتخاذ التقاليد الاسلامية، وبخاصة تعاليم ابن تيمية، مصادر يستمد منها الحجج لتدعيم السلطة المركزية. وكان ابن تيمية يرى ان المجتمع المثالي هو الذي يكون الرأي المطاع لفئتين: العلماء المتمسكين بالشريعة والامراء الحائزين على السلطة السياسية اللازمة لتطبيق احكام الشرع(٣).

ويجب على رعايا الامير اطاعته دون قيد او شرط(٤). والامير هو المشرف على

التطبيق السليم لاحكام الشرع التي تشمل المسلمين كافة، وهو الذي يتولى تنفيذ الاحكام القضائية ويقوم بعمل الخير والاشراف على الاشغال وتوفير الامن للرعية وضمان عمل الخدمات العامة بشكل طبيعي، وهو اخيرا الجهة التي تصدر عنها التوجيهات الاجتماعية والاقتصادية التي تكفل لكل فرد العزة في اطار الشريعة وطبقا لموقعه في المجتمع[٥].

يتشاور الامير مع العلماء في ادارة اعماله، ولكن من حق الامراء التصرف وفق ما تمليه عليه ضمائرهم[٦]. والامير ملزم بالتمسك باحكام الكتاب والسنة وفقا لتفسيرات العلماء. وهذا يوفر للعلماء وسائل هامة، وان كانت محددة، للتأثير والرقابة. ومن الناحية النظرية فان الامراء احرار في تصرفاتهم في كل ما لا يتعلق بالدين، ولكن من الناحية العملية يتخلل الاسلام كل ميادين الحياة في السعودية. لذا يلعب العلماء في المجتمع الوهابي دورا هاما ومما يزيد من هيبتهم ان الكبار منهم ينتسبون الى آل الشيخ الذين تصاهروا مع آل سعود منذ امد طويل.

ابان الازمة التي سببتها عصبية الاخوان عامي ١٩١٤ـ ١٩١٥، اصدر عبد العزيز مرسوما، واصدر العلماء فتوى، يدينان تعصب الاخوان ومغالاتهم[٧]. غير ان علاقات ابن سعود بالعلماء شهدت فترات تأزم. وحسبنا التذكير بان العلماء وقفوا ضد استخدام التلغراف واللاسلكي[٨]. وعلى اي حال فقد كانت الغلبة لارادة عبد العزيز عند حصول نزاعات حول قضايا كبرى ومبدئية. فذات مرة عارض العلماء زواج عربي غير وهابي على فتاة من احدى عوائل الرياض العريقة، ولكن عبد العزيز لم يحفل برأيهم بل طرد ثلاثين عالما من نجد[٩]. ولعل النزاع حول هذه المسألة كان مجرد حجة اتخذها الحاكم للتخلص من علماء لا يستأنس بهم.

وكان يطلب من كل فرد في البلد اطاعة الامير واسداءه النصح عند الاقتضاء[١٠]. وفي عام ١٩٥٠، قال فيصل في خطاب القاه عند افتتاح مجلس الشورى ان«واجب الرعية هو مساعدة الجهات المنوط بها امر التنفيذ، لتسهيل مهمات السير بحسب الاوامر والتوجيهات التي توجه اليهم»[١١].

كان عبد العزيز يتظاهر دوما باحترام العلماء ولهم في مجلسه كلمة مسموعة، كما، انه كان يستمع الى نصحهم.

وقد اظهر العلماء سلطتهم حينما قرر ابن سعود الاحتفال بالذكرى الخمسين لجلوسه على العرش. ورد العلماء بان الاسلام لا يعرف عيدا من هذا القبيل فوافق الملك على رأيهم. وفي بعض الحالات كان عبد العزيز يتعامل مع ملاحظات العلماء بروح النكتة. فقد روي انه كان يتمشى في قصره بالرياض وعليه ثوب طويل يمس الارض، فدخل عليه احد العلماء وقال«الله يا عبد العزيز! لقد دخلك الكبر وصرت تجر ذيلك وراءك». التفت عبد العزيز الى الخدم في الحال قائلا:«هاتوا المقص». فلما جاؤوا به اعطاه الى الشيخ وقال:«قص ما تراه مخالفا للدين!»[١٢].

كتب فيلبي عام ١٩١٨ يقول ان عدد العلماء ستة في الرياض وثلاثة في القصيم وثلاثة في الاحساء وهناك عالم واحد في كل من مناطق نجد الاخرى، ويقرب عددهم الاجمالي من العشرين[١٣]. ويبدو انه يقصد كبار العلماء فقط. وعلى اي حال فان عددهم في العاصمة كان يتغير من عام لعام.

كان العلماء في السعودية يعتبرون متضلعين في الفقه والشرع بفضل عمق ايمانهم وانكبابهم على الدراسة. ومن الطبيعي ان العلماء ينتسبون في العادة الى قبائل «كريمة المحتد» او من السادة، الذين يعتبرون من سبط النبي. الا ان اكثر علماء السعودية هيبة وثقة هم افراد آل الشيخ، على الرغم من انهم ليسوا من السادة. وكانت تربط آل الشيخ صلات قربى مع عبد العزيز تعود الى زمن عبد العزيز الاول وابن عبد الوهاب. وكان الملك فيصل الذي قتل عام ١٩٧٥ ابنا لعبد العزيز من زوجة من آل الشيخ.

حينما حان الوقت لاجراء تحديث ولو جزئي في الدولة الاقطاعية وقف العلماء وقفة حازمة ضد التغيير، وما برحوا متمسكين بموقفهم حتى يومنا هذا. وفي حزيران (يونيو) ١٩٣٠، احتج العلماء الذين اجتمعوا بمكة على ادراج مواد مثل الجغرافيا واللغات الاجنبية والتخطيط الهندسي في برنامج مديرية المعارف

المؤسسة حديثا. وزعموا ان التخطيط الهندسي هو تصوير بكل حال، اما اللغات فاعتبروها وسيلة لمعرفة الافكار الدينية للمشركين، واثارت الجغرافيا نقمتهم لقولها بكروية الارض. بيد ان عبد العزيز تجاهل احتجاجاتهم(١٤). وفي حالات اخرى وقف علماء الرياض الى جانب عبد العزيز مناهضين لتعصب الاخوان.

في مطلع الخمسينات تكون نوع من السلم الوظيفي بين علماء الدين. فقد اعتبر مفتي الديار السعودية بمثابة رئيس للعلماء. وحظي بهيبة خاصة رئيس جماعة الامر بالمعروف في الرياض وقاضي القضاة في مكة وقاضي الدلم وقاضيا المحكمة الشرعية في الرياض وعضو لجنة الامر بالمعروف في الرياض(١٥).

لعب عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، وهو فقيه وخطيب شهير من آل الشيخ، دورا هاما في ارساء الركيزة الدينية للدولة المركزية. وقد درس في المدينة وتونس والقاهرة وطاف المغرب واسبانيا والهند وافغانستان وايران والعراق. وقد انضم الى آل سعود ابان فترة نفيهم في الكويت وتتلمذ عليه عبد العزيز. وظل عبد الله حتى وفاته عام ١٩٢٥ زعيما لا ينافس لآل الشيخ(١٦). ويقول فيلبي انه كان يلقي خطب الجمعة في مسجد الشيخ عبد الله بحي العلماء في الرياض ومواعظ في المسجد الجامع بالرياض، كما انه كان قاضي القضاة في العاصمة(١٧).

ادى قيام المملكة العربية السعودية وتوطد استقلالها وانبعاث بعض المؤسسات الاجتماعية السياسية الاسلامية الى استثارة الاهتمام بالوهابية من جديد خارج حدود المملكة. ففي مصر وجدت مجموعة محمد رشيد رضا التي كانت مجلة «المنار» اساسا لها، وجدت في الوهابية آراء مماثلة لما تدعو اليه. فقد كانت هذه المجموعة تدعوالى«تحديث» المجتمع الاسلامي بالاستفادة من منجزات الحضارة الغربية (الاوروبية، الرأسمالية) وتطالب من جهة اخرى بالعودة غير المشروطة الى القيم الاسلامية وبعث الافكار والمؤسسات التي كانت قائمة في صدر الاسلام، واعتمادها في كل مناحي الحياة. وقد هيأت مجموعة رضا التربة لانتشار افكار حسن البنا مؤسس حركة «الاخوان المسلمين». والف رضا نفسه عدة كتب يثني فيها على الوهابية. وفي داخل مصر كان يمكن اعتبار ذلك تعبيرا عن الميول المعارضة للملك

فؤاد، لان العلاقات بين مصر والسعودية ظلت مقطوعة حتى عام ١٩٣٦ بسبب حادث المحمل.

تنظيم سلطة الدولة والادارة في نجد. في معرض الحديث عن اوضاع نجد والحجاز في الدولة الموحدة قال فؤاد حمزة:«اما من الوجهة الحقوقية والقانونية فان كلا من الحجاز ونجد كان مملكة مستقلة عن الاخرى لا تجمع بينهما الا رابطة العرش المشتركة وشخص الجالس على هذا العرش»[١٨]. ومن جهة اخرى اشار المؤلف الى انه لم تكن بين المملكتين حدود مرسومة ولا رسوم، ولهما سياسة خارجية موحدة، ناهيك عن القوات المسلحة الموحدة وهي بيت القصيد. وفي فترة ١٥ـ٢٠ عاما الاولى كانت الفروق في الادارة بين شقّي المملكة ملموسة، ولكنها تضاءلت بالتدريج. وكانت السلطة الفعلية كلها في يد الملك ابن سعود وحاشيته.

قام البلاط الملكي في الرياض بوظائف الحكومة في البلد كله وفي الوقت نفسه كان يؤدي وظائف حكومة نجد. ويفصل الزركلي الوثيق المعرفة بالبلاط تركيبه على النحو التالي[١٩]:

١ـ المجلس الخاص وكان الملك يسمي اعضاءه بالجماعة او «الربع». وكان هؤلاء يعقدون، برئاسة الملك، اجتماعين في اليوم: قبل الغداء وفي المساء. ويحضر المجلس شقيق عبد العزيز الامير عبد الله بن عبد الرحمن وولي العهد سعود ونائب ملك الحجاز فيصل، ان كان متواجدا في الرياض. ثم كان يحضره الوزراء والمستشارون وكبار العلماء وسائر الوزراء والسفراء السعوديين المتواجدين في الرياض. وقد يضم المجلس امراء المناطق وشيوخ القبائل.

٢ـ الشعبة السياسية واختصاصها الشؤون الخارجية.

٣ـ الديوان الملكي واختصاصه الشؤون الداخلية .

٤ـ شعبة الشفرة والبرقيات.

٥ـ شعبة البادية واختصاصها داخلية نجد.

٦ـ شعبة المحاسبات والاعطيات.

٧. شعبة الوفود والضيافة. واختصاصها السهر على راحة الوفود والاشراف على القصور الملكية المخصصة لضيوف الملك. وكان الوافدون يقسمون الى ثلاث فئات: كبار الضيوف، ووفود الحضر، ووفود البلاد.

٨ ـ الخاصة الملكية واختصاصها ما يتعلق بشؤون القصر الملكي.

٩ ـ شعبة اهل الجهاد واختصاصها النظر في شؤون الجند غير النظامي.

١٠ ـ شعبة الخزينة الخاصة.

١١ ـ شعبة المخازن الخاصة (المستودعات).

١٢ ـ شعبة الحاشية.

١٣ ـ شعبة الخيل.

١٤ ـ شعبة الابل واختصاصها النظر في ابل «الخاصة الملكية».

١٥ ـ شعبة السيارات.

١٦ ـ شعبة الاذاعة التي اسست بعد ظهور اللاسلكي في البلد، وكانت تتولى ايضا الانصات بالعربية واللغات الاجنبية وتعد نشرات موجزة للملك.

١٧ ـ شعبة الحرس الملكي.

١٨ ـ الشعبة الصحية واختصاصها طبابة القصر الملكي.

ويتطابق وصف الزركلي للبلاط الملكي مع ما اورد نالينو عموما[٢٠]، ولكن هذا ادرج ضمن سلسلة وظائف الديوان الملكي شؤون الحجاز وعسير والاحساء، وذكر شعبتي الزكاة والخزانة العامة اللتين الغيتا شكليا بتأسيس وزارة المالية، وشعبة التلاوات والمؤذنين التي لم يذكرها الزركلي. ولكن لا يعتقد ان هناك تعارضا بين المؤلفين. فالارجح ان شعب البلاط الملكي كان يمكن ان تظهر وتختفي وتدمج، يعلو شأنها او تصبح ثانوية تبعا لوزن مسؤوليها وعمق صلتهم بالملك. ولم تكن توجد

اي قواعد مكتوبة او احكام مدونة تثبت بنية البلاط الملكي، وظلت الكلمة الفصل في كل القضايا للملك[٢١].

اما بالنسبة للمحافظات الرئيسية فان الملك كان يعين امراءها للفترة التي يرتئيها. ولم توجد في الثلاثينات قوانين او اصول للادارة المحلية في نجد وملحقاتها. وكان امراء التقسيمات الادارية الاصغر يعينون من قبل حكام المقاطعات، ولكن بوسع الملك التدخل في اختيارهم. وفي البدء كان البلد، باستثناء الحجاز، مقسما كما يقول فؤاد حمزة[٢٢]. الى خمس مقاطعات كبرى هي نجد التي ضمت اليها العارض والمناطق المجاورة، والقصيم وجبل شمر والاحساء (حيث يحكم آل جلوي)وعسير. ومن الناحية العملية فصلت عن جبل شمر مقاطعة وادي سرحان، بينما قسمت عسير الى عسير وعاصمتها ابها وتهامة ونجران[٢٣].

واسندت الى سلطات المحافظات مهمة الاشراف على قبائل البدو. ويذكر ماكاي فرودا ان قبائل عتيبة وجزءا من مطير والدواسر وقحطان وسبيع كانت تابعة لحاكم العارض، وان العجمان وبني هاجر وبني خالد والحوازم والمناصير وآل مرة وجزءا آخر من مطير تابعة لحاكم الاحساء، وجعلت شمر وشرارات وجزءاً ثالث من مطير تحت اشراف امير جبل شمر[٢٤]. وتجدر الاشارة الى ان قبيلة مطير المتمردة على آل سعود قسمت الى ثلاثة اقسام.

لم يقنن الحكم الذاتي للمنطقة الشرقية بمراسم خاصة، ولكن في اواخر الثلاثينات كان قد تم هناك استحداث مؤسسات بيروقراطية خاضعة لابن جلوي، وجعل اقارب بن جلوي حكاما لاهم الواحات وشكلت في الهفوف مديريات الشرطة والمالية والجمارك وخفر السراحل وفرع لمديرية المعادن في جدة[٢٥].

ادارة الحجاز. اقام ابن سعود في الحجاز نظاما معقدا للسلطة والادارة. ففي آب (أغسطس) ١٩٢٦، اصدر الملك وثيقة تعرف باسم«التعليمات الاساسية للمملكة الحجازية» وهي تسمى احيانا «الدستور». وتنص الوثيقة على ان «المملكة...مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً لا يقبل التجزئة ولا الانفصال بوجه من الوجوه» و ان الحجاز «دولة ملكية شورية اسلامية مستقلة في داخليتها وخارجيتها» وان «مكة المكرمة

عاصمة الدولة الحجازية». وان«ادارة المملكة بيد صاحب الجلالة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود وهو مقيد باحكام الشرع».

ونصت الوثيقة على أن يعين الملك في الحجاز نائباً عاماً (نائب الملك) له ورؤساء الشعب الذين يكونون تابعين لنائب الملك الذي يتبع بدوره الملك [٢٦].

ونصت الوثيقة على أن تتولى تصريف شؤون الدولة الحجازية ست شعب أساسية:

١) الشرع

٢) الداخلية

٣) الخارجية

٤) المالية

٥) المعارف

٦) الجيش.

وأكدت مادة خاصة على أن الشؤون الحربية وكل ما يتصل بها من وظائف خاضعة لإشراف الملك [٢٧].

كما نصت الوثيقة على تأسيس مجلس شورى يضم نائب الملك ومستشاريه وستة من إشراف الحجاز يعينهم الملك. كما تشير الوثيقة الى وجود نية لإنشاء مجالس إدارية في المدن الرئيسية تمنح صلاحيات البلديات، ولكن قراراتها لا تسرى إلا بعد مصادقة الملك. وتقرر أيضاً انشاء مجالس في الوحدات الادارية الصغيرة[٢٨].

بدا لإبن سعود أن بعض «التعليمات الأساسية» تتناقض وسلطته المطلقة. لذا فإن المواد ٢٨ ـ ٣٧ المتعلقة بمجلس الشورى والمجالس المحلية تجوهلت بعد مضي عام، في حين أن المواد ٤٣ ـ ٤٥ حول تشكيل هيئات لها حق الاشراف على نفقات الخزانة لم تطبق قط وقد بطل مفعولها فيما بعد.

ثمة خاصية جوهرية لـ«دستور» الحجاز تتمثل في الغياب التام للأحكام المتعلقة بالحقوق الفردية والعامة، وكذلك الأحكام التي تحد من سلطة الملك المقيد بأحكام الشرع فقط [٢٩].

ويقول الزركلي الذي درس النشاط العملي لهيئات السلطة في الحجاز، إن مجلس الشورى كان يعالج القضايا المتعلقة بميزانية دوائر الدولة والبلدية، ويتولى إعطاء الرخص للشروع في عمل مشاريع إقتصادية وعمرانية، ويسن القوانين والأنظمة، ويبت في استخدام الموظفين المحليين والأجانب، ومنذ عام ١٩٣٢، أضيفت إلى اختصاصاته العناية بشؤون الحجاج [٣٠].

ويشير الزركلي إلى أن صلاحيات المجلس تشريعية واستشارية، وكان بوسعه أن يلفت نظر الحكومة (يقصد بذلك مجلس الوكلاء ـ مجلس الوزراء ـ الذي شكل في الحجاز) إلى أي خطأ في تطبيق القوانين والأنظمة، وإقرار أو نقض أو تعديل مشاريع الحكومة [٣١].

وفي تموز (يوليو) ١٩٢٨، صدر مرسوم ملكي يقضي بتشكيل مجلس شورى للحجاز ونجد سوية، ولكن هذا المرسوم لم يطبق [٣٢]. كما لم تصدر قرارات تقصر صلاحيات مجلس الشورى على الحجاز، أو تقضي بشمول سائر أرجاء المملكة بها. وقد انجز المجلس حتى عام ١٩٥٠ مئات من الأنظمة والتعليمات حول مختلف القضايا لتحديد وضع الهيئات الحكومية والعامة والقضاء الشرعي والصحة والبرق والبريد والتلفون. وفي الواقع طبق العديد من انظمة وتعليمات مجلس الشورى الحجازي في سائر أرجاء البلد [٣٣].

قبل الاستيلاء على الحجاز كانت الروابط بين نجد والعالم الخارجي تجري بأكملها تقريبا عن طريق الخليج. وتولى الملك المكاتبات ومتابعة الاتصالات وكان يعطي الإيعازات لمندوبيه في المفاوضات. وبعد ضم الحجاز تعقدت الروابط الدولية للمملكة الجديدة. وكان في جدة عدد من القناصل الاجانب الدائمين. كما أن وفود الحجاج كان يضع أمام حاكم الحجاز عددا من القضايا الحساسة. لذا ظهر منذ عام ١٩٢٥، شيء أشبه بمديرية الشؤون الخارجية وترأسها يوسف ياسين السوري

المولد الذي كرس نفسه لخدمة ابن سعود. وقد شارك مع المصري حافظ وهبة في مفاوضات بحرة وحدة عام ١٩٢٥، وشارك في بعثات دبلوماسية أخرى فيما بعد وقد ترأس في مكة تحرير صحيفة«أم القرى» وتولى رئاسة الدائرة السياسية لدى الديوان الملكي. وفي عام ١٩٣٠، أصدر ابن سعود مرسوماً بتشكيل وزارة الخارجية التي أسندت لابنه الثاني فيصل نائب الملك في الحجاز[٣٤].

اقامت العربية السعودية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٦، وفي الاول من آذار (مارس) ١٩٢٦ مع بريطانيا العظمى وفي الشهر نفسه مع هولندة وفرنسا وتركيا، وفي عام ١٩٢٨ مع المانيا وفي عام١٩٢٩ مع ايران وبولندة، وفي ١٩٣١ مع الولايات المتحدة الامريكية وفي ١٩٣٢مع ايطاليا وفي ١٩٣٦(بعد وفاة الملك فؤاد) مع مصر. وكان في السعودية عام ١٩٥٠ سفارتان: امريكية وبريطانية، اما الدول الاخرى فقد تمثلت ببعثات دبلوماسية[٣٥]. وغادرت البعثة السوفييتيةجدة في ١٩٣٧/١٩٣٨، ولكن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين لم تقطع رسميا، وظلت مجمدة عقوداً طويلة من السنين.

تولى كل شؤون الخزانة في امارة الرياض خلال الحقبة الاولى شخص يدعى عبد الله السليمان ولم يكن لديه ملاك خاص من المساعدين. وأنشئت في كل بلدة ادارة لجباية الزكاة مستقلة عن غيرها ومحاسبة امام الامير والملك. وقد كانت على غرار هيئات الضرائب في الدولتين السعوديتين الاولى والثانية. وأسست في مكة عام ١٩٢٧ مديرية المالية وترأسها عبد الله السليمان نفسه[٣٦]. ومن عام ١٩٢٩ جعلت المديرية وكالة، اي صارت وزارة عمليا. وفي عام ١٩٣٢قرر الملك تحويل الوكالة إلى وزارة المالية ذات الصلاحيات الواسعة وأسندت إلى عبد الله السليمان إياه[٣٧]. واضطلعت الهيئة الجديدة بصلاحيات وزارة الاقتصاد. وربطت بالوزارة ادارات التموين والحج والزراعة والاشغال العامة والسيارات. كما كان من صلاحيات الوزارة توقيع عقود الامتياز لاستخراج الذهب والنفط، وشكلت ادارة المعادن والنفط تابعة لها. وعمل سوريون ولبنانيون ومصريون وعراقيون كخبراء في الوزارة.

استمر توسع الوزارة وبلغ عدد العاملين فيها عام ١٩٤٩ زهاء ٥٤٠٠ شخص(٣٨).

يعود تاريخ مجلس الوزراء في الحجاز برئاسة فيصل نائب الملك، إلى كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢(٣٩) حينما شكل مجلس الوكلاء بصلاحيات مماثلة لصلاحيات مجلس الوزراء، ولكنها غير مطابقة لها كلياً. وقد ضم المجلس الرئيس، أي نائب الملك ووكلاء الخارجية والمالية والداخلية واعضاء مجلس الشورى.

وكانت وزارة الداخلية تضم ادارات الصحة والمعارف والبرق والبريد والتلفون واللاسلكي والقضاء والحربية ومديرية الاوقاف والكعبة والبلديات والثروة المائية والمحاجر الصحية وخفر السواحل والشرطة العامة(٤٠).

تأسست في مكة عام ١٩٢٥«ادارة الامن العام»التي عرفت فيما بعد باسم«مديرية الشرطة العامة». وقد شكلت شرطة حماية الاخلاق وشعب التفتيش والمحاسبة ومراقبة الاجانب. وشمل نشاط ادارة الامن العام كل انحاء العربية السعودية، وانشئت ادارات وتشكيلات لها في كل مدينة كبيرة. وفي مطلع الاربعينات انشئت في مكة مدرسة للشرطة(٤١).

كان لنائب الملك (فيصل) ديوان بمكة يضم مكتباً خاصاً للمكاتبات السرية والخاصة، ومكتباً لتلقي المعلومات والاوراق الرسمية، ومكتب اللجنة الدائمة لمجلس الوكلاء، وشعبة الخيل وشعبة البادية وشعبة الجيش - الابل - وشعبة السيارات(٤٢).

إن كلمة «وزير» ليست غريبة عن النجديين، ولكنها خلافاً للعالم الخارجي، تعني لديهم «السكرتير». فحتى الآونة الاخيرة كان لكل أمير وزير، ولدى كبار الامراء عدة وزراء يتولون الحسابات والمراسلات وغيرها من الشؤون. لذا فإن كلمة «وزير» بمفهومها الاوروبي والعام تنطبق أكثر على مسؤولي ادارات الديوان الملكي الذين تولوا تصريف الشؤون العامة بإشراف الملك(٤٣).

منذ عام ١٩٢٥ انشئت مصلحة الصحة العامة التي أخذت صلاحياتها

ووظائفها بالاتساع. وبعد مرور بضع سنوات انشئت ادارات للصحة في كبريات المناطق[٤٤].

عام ١٩٣١ انشئت مديرية خفر السواحل ومركزها جدة واوكلت إليها شؤون الموانئ وخفر السواحل ومكافحة التهريب وتنظيم الملاحة[٤٥].

عام ١٩٢٦ انشئت بلدية مكة بميزانية خاصة. وسن لها نظام خاص عام ١٩٢٩ (عدل عام ١٩٣٨)[٤٦].

عند حلول عام ١٩٣٤، كان الحجاز قد قسم إلى ١٤ محافظة، ويخضع امراء كل منها لوزير الداخلية شكليا ولنائب الملك (فيصل) عمليا[٤٧]. واوكل إلى المحافظين الاهتمام بشؤون البدو[٤٨].

حينما اصدر ابن سعود في ١٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٢، مرسوماً «حول توحيد أجزاء المملكة العربية» أصبحت هذه المملكة كلا واحدا من حيث التسمية وسلطة الملك المركزية، ولكنها لم تغد واحدة من حيث التركيب الاداري. فقد اشارت المادة الخامسة من المرسوم إلى أن تشكيلات الحكومة الحاضرة في الحجاز ونجد وملحقاتها تظل على حالها مؤقتاً إلى أن يتم وضع تشكيلات جديدة للمملكة كلها على اساس التوحيد الجديد. وكلف مجلس الوزراء الحجازي بان يشرع فوراً في اعداد النظام الاساسي (الدستور) للممكلة ونظام تشكيلات الحكومة[٤٩]. ولم ينجز ذلك قط. وظلت الفوارق الادارية بين الحجاز ونجد قائمة لفترة طويلة ولم تزل بشكل نهائي حتى الوقت الحاضر.

مهما تعقد الجهاز الاداري البيروقراطي في العربية السعودية، فان كل القرارات الاساسية تتخذ من قبل الملك وحاشيته. لذا فان المقربين للعاهل كان لهم القدر الاكبر من السطوة في الدولة. ويقول فيلبي «إن الاشخاص الذين كان ابن سعود ينتقيهم للمناصب الادارية في مملكته ظلوا في مناصبهم حتى نهاية حياته عملياً. وكان ذلك تعبيراً عن سمة محددة في مزاج الملك: العزوف عن الاختلاط مع الغرباء، وان كان متستراً بالضيافة الرائعة والاهتمام الودي الخالص بالضيف.

وكان يؤثر أن يرى دوماً من حوله، ليلا ونهاراً، سنة إثر سنة، نفس الاشخاص أو افراد العائلة أو الاداريين أو الخدم أو رفاق السلاح. فهو لا يستطيع أن يصبح على سجيته بشكل كامل الا معهم. وكان بوسعه أن يثق بهؤلاء الاشخاص لمعرفته بهم عن كثب، ولعلمه بمزاياهم ونواقصهم. وكان يغدق على هؤلاء بلا حدود، كلما تزايدت موارده»(٥٠).

فعلى سبيل المثال لم يستقل عبد الله السليمان من منصبه كمسؤول عن المالية الا بعد وفاة عبد العزيز وتولى محمد سرور الصبان مسؤولية المالية.

وكان من بين مستشاري ابن سعود شخص يدعى عبد الله الدملوجي، وهو عراقي من مدينة الموصل، إستقدمه ابن سعود عام ١٩١٥ بصفة مستشار طبي وطبيب. ولالمامه بالفرنسية أوكل إليه استقبال الضيوف الاجانب في ديوان ابن سعود بالرياض. وبعد الاستيلاء على الحجاز عين ممثلا شخصياً للملك في جدة،ثم صار نائباً لوزير الخارجية (وكان فيصل الولد الثاني لابن سعود وزيراً آنذاك) وظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٣٠. وقد خلفه فؤاد حمزة، وهو فلسطيني، وعمل في وزارة الخارجية حتى وفاته. وعمل مع ابن سعود حافظ وهبة ويوسف ياسين. وحافظ وهبة مصري احتجزه البريطانيون فترة من الوقت في مالطا بسبب ثورة١٩١٩ في مصر. وصار مديراً للمعارف ثم ممثلا للسعودية لدى الكرسي البابوي، ثم سفيراً في لندن(٥١). اما يوسف ياسين، وهو سوري من اللاذقية، فقد عمل سكرتيراً سياسياً للملك وترقى حتى صار وزيراً للدولة. وتولى الاشراف على المراسلات الدبلوماسية مع الممثليات السعودية في الخارج. هذا وكان قد وصل إلى الجزيرة في ١٩٢٣/ ١٩٢٤ وحظي باعجاب ابن سعود(٥٢).

في بداية حكمه كان ابن سعود يتحاشى اشراك ابنائه وسائر افراد عائلته في قيادة الشؤون الادارية. ولم يستثن من ذلك سوى أكبر ابنائه وهما سعود وفيصل اللذان عينا نائبين له في نجد والحجاز على التوالي. ولم ينس ابن سعود المصير المفجع الذي آلت إليه الدولة في زمن جده فيصل، الذي قتل بسبب التنافس بين

ابنائه. وبمرور الوقت زال التقليد المذكور واصبح افراد العائلة المالكة يتبوأون أهم المناصب في جهاز الدولة.

الشرع والوهابية. ان الاسلام بتفسيره الوهابي هو الايديولوجيا التي إعتمدت في السعودية. ان الاقرار بوجود اله واحد (الله) وملك ومذهب ديني واحد(الحنبلي)، تطلب وجود نظام قانوني وقضائي واحد. ولم تكن تلك مهمة سهلة في مجتمع متباين يضم فئات وشرائح إجتماعية مختلفة (البدو والحضر على اقل تقدير) ظلت طوال قرون تعتمد مدارس فقهية مختلفة، وتطلب تنفيذها ايجاد حلول وسط.

عند ابتداء القرن العشرين عادت العادات والعرف لتبوء مكان الصدارة إلى جانب الشرع الذي حاول الوهابيون تطبيق احكامه في قبائل البدو في القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر(٥٣). وكانت الممارسات القضائية تختلف من قبيلة لاخرى. فقد كان لدى البدو، كما يذكر الزركلي، نظام قضائي يشبه المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف والتمييز(٥٤). وكان القضاء قائماً على الاستشهاد بالسوابق التي يجب أن يكون قد مضى عليها، في بعض الاحيان، ما لا يقل عن خمس سنوات كما لدى الرولة(٥٥).

من البديهي أن يحدث صدام بين النظامين القضائيين بظهور الدولة الاقطاعية المركزية التي طبقت احكام الشريعة وكان لديها جهاز قسري لانفاذ القرارات القضائية. فالعرف، مثلا، ينص على منح المطارد حق اللجوء بشروط معينة، ولكن الدولة المركزية لم تعترف بهذا الحق. والبدو يعتبرون بعض الاعمال جريمة إذا اقترفت داخل القبيلة، مثل النهب أو القتل، في حين أنهم يعتبرونها بطولة وبسالة اذا ارتكبت خارج القبيلة، في حين ان هذا يتناقض مع احتياجات الدولة وسياستها، ونشأت مشاكل بسبب الغزو والبت في أمر الماشية التي تغنم إبانه(٥٦). كما ظلت معلقة مسائل الثأر الذي حاولت الحكومة باستمرار تحديد مداه(٥٧).

منذ عام ١٩١٤تقريباً بدأ اتخاذ خطوات عملية للحد من نفوذ «العارفة» في القبائل، وبدأ تعيين المطاوعين والقضاة. وانزلت ضربة بامتيازات العوارف ولكن لم تجر في السنوات الاولى محاولة لاستبدالهم بالقضاة. وأخذ باحكام العرف

والشرع على قدم المساواة في القبائل، وجرى تحديد الوظائف بينهما مؤقتاً. واستمر العوارف في الاهتداء بالعرف في القضايا التي تقع ضمن احكامه كالعلاقات بين القبائل، اما قضايا مثل الارث فقد كانت تنظر من قبل القضاة على اساس الشرع(٥٨). ومن المهم الاشارة إلى أن حركة الاخوان سرعت في عملية احلال القضاة محل العوارف.

آثر حكام المقاطعات السعوديون عدم التدخل في القضايا العشائرية الداخلية. فعلى سبيل المثال تضمن كتاب «مذكرة الحكومة السعودية» ثلاثين قرارا إجرائياً قضائياً وكلها تتعلق بالعلاقات بين القبائل واعادة الممتلكات المغتصبة وخصوصاً الماشية(٥٩).

وجرى تدريجياً فصل الوظائف القضائية للحاكم (المحافظ) والقاضي. فاوكلت إلى القضاة المنازعات الشخصية والقضايا التجارية والشرعية والاحوال الشخصية والارث. أما الأمراء فقد تولوا قضايا النزاعات بين القبائل وجباية الضرائب والتجنيد والمشاكل الادارية، ويكون الامير بمثابة قاضٍ عند معالجة هذه الامور(٦٠). ولكن الشرع خول الامير النظر في منازعات لا علاقة لها بالامور العسكرية والادارية والمالية.

إن الصراع من أجل تثبيت احكام الشرع بصيغتها الحنبلية لتحل محل العرف العشائري لم يكن العقبة الوحيدة في طريق اقامة نظام قضائي وقانوني موحد في البلد. فبعد قيام الدولة السعودية ظل المذهب الحنبلي سائداً في نجد بينما كان المذهب الشافعي هو السائد في الحجاز، في حين أن المذهب الحنفي كان السائد في المدن المرتبطة بالسلطات العثمانية(٦١). وكانت الادارة العثمانية تعين، عادة، أربعة قضاة، واحدا من كل مذهب، رغم إعطاء الاولوية للمذهب الحنفي. ويشير الباحث الامريكي وايدل إلى أن المدرسة الحنفية في القضاء ظلت قائمة طوال عقود في المراكز الادارية العثمانية السابقة بالاحساء مثل الهفوف(٦٢).

بعد الحاق الاحساء واجهت الحكومة المركزية مشكلة الاقلية الدينية- الشيعة. ولاتوجد أرقام عن عدد الشيعة في بداية القرن ولكن تقديرات وايدل لعام ١٩٥٥

تفيد بان عددهم بلغ في الاحساء ١٣٠ الفاً[٦٣]. وقدر حافظ وهبة عدد الحضر في الاحساء في الثلاثينات بزهاء تسعين الفاً، قال ان ستين الفاً منهم شيعة[٦٤].وهذا لا يختلف كثيراً عن رقم الباحث الامريكي الذي ربما قد يكون قد أدخل في حساباته شبه الرحل. وبالاضافة إلى ذلك شهدت المنطقة الشرقية زيادة كبيرة في عدد السكان اثر اكتشاف النفط. ويقول وايدل ان نسبة الشيعة إلى السنة في واحات الاحساء هي ٤٥ إلى ٥٥ أو ٤٠ إلى ٦٠[٦٥]. ونظراً لأن الشيعة غالباً ما كانوا يخفون معتقداتهم الدينية، فمن المحتمل ان عددهم في المحافظة الشرقية كان أكبر مما ذكر الباحثون.

يقول هاريسون ان السنة (الوهابيين) كانوا الاقلية في الاحساء وهم من الحكام والتجار والمزارعين. اما الغالبية، من صيادي اللؤلؤ والحرفيين والفلاحين، فهم الشيعة[٦٦]. واشار وايدل أيضاً الى ان غالبية الحرفيين كانوا من الشيعة ايضاً[٦٧]. وكان مجتمع المنطقة الشرقية ينطوي على تناقضات إجتماعية خطيرة مبرقعة بغلاف ديني.

كما سكنت مجموعات شيعية صغيرة في مكة والمدينة، وقطن عسير ممثلو إحدى الفرق الشيعية وهي الزيدية.

وكان في الحجاز أعضاء من مختلف الفرق الصوفية: السنوسيون والادارسة والقادريون والبكتاشيون، ولكن هذه الفرق إنحسرت بفعل ضغوط الوهابية التي رفضت الصوفية من حيث المبدأ[٦٨].

كانت أوضاع الشيعة صعبة في دولة اسلامية سنية «خالصة». وفي عام ١٩٢٧، أصدر العلماء الوهابيون، بضغط من الاخوان فتوى تطالب عبد العزيز بمنع الشيعة من إداء الصلاة في الاماكن العامة والدعاء لاهل بيت النبي والاحتفال بذكرى وفاة النبي واهل بيته وزيارة كربلاء والنجف، وارغامهم على إداء الصلوات الخمس في الجوامع. ورأى العلماء ان على الشيعة ان يدرسوا «دين الله» على كتاب محمد بن عبد الوهاب «الاصول الثلاثة»[٦٩]. ودعت الفتوى إلى هدم كل الاضرحة الشيعية[٧٠]. ولكن عبد العزيز رأى ان هذه المطالب متطرفة ورفض تلبيتها. غير ان الوهابيين اعتبروا شيعة المنطقة الشرقية «كفاراً» ومن «أهل الذمة»[٧١].

صدرت عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧ أوامر ملكية انشىء بموجبها نظام قضائي موحد للدولة واصبح القضاء قائماً على اساس الفقه الحنبلي. واصدر الملك امراً ألزم القضاة بأن يتقيدوا بستة مراجع أساسية هي:«الاقناع» للشيخ موسى الحجاوي، و«كشف القناع عن متن الاقناع» لمنصور البهوتي الحنبلي و«منتهى الارادات» للفتوحي و«وشرح منتهى الارادات» لمنصور البهوتي و«المغني» للشيخ عبد الله بن أحمد بن قدامة و«الشرح الكبير» للشيخ عبد الرحمن بن أبي عمر بن قدامة. ويبدو ان اعتماد الفقه الحنبلي واجه مصاعب في الحجاز وعسير والاحساء.

ولم يحدث الاصلاح القضائي تغييرات تذكر في نجد، إلا أنه جرى في الرياض وبعض المدن الكبيرة الأخرى فصل محاكم البدو والحضر(٧٢).

بعد إعادة تنظيم القضاء في الحجاز عام ١٩٢٧ أسست ثلاثة أنواع من المحاكم(٧٣):

المحاكم المستعجلة والمؤلفة من قاضٍ واحد، واختصاصها النظر في القضايا المدنية التي لا يتجاوز المطلوب فيها ثلاثين جنيهاً إسترلينياً، وفي قضايا الجنح والجنايات التي لا تصل إلى حد القطع أو القتل. ويرى القانوني العربي صبحي المحمصاني أن في ذلك عودة إلى الشرع بصيغته الكلاسيكية لأن القضايا المدنية سابقاً كانت مفصولة عن الجنح والجنايات(٧٤).

المحاكم الكبرى وتضم قاضياً ونائبين له، وهي تنظر في القضايا التي لا تدخل ضمن اختصاص المحاكم المستعجلة، بما فيها الجرائم التي تستوجب القطع أو القتل، ولكن لا بد من صدور إجماع كل القضاة عند إصدار قرار بهذا الشأن.

هيئة المراقبة القضائية في مكة، وهي بمثابة محاكم الاستئناف، وتتألف من مدير وأربعة أعضاء. وتولي المدير الاشراف على سائر المحاكم والقضاة في الحجاز، وكان بمثابة وسيط بين الحكومة والمحاكم. وتكتسب الاحكام درجتها القطعية عند تأييدها من قبل الهيئة خلال عشرين يوماً (عشرة أيام وفق مصادر اخرى) من صدورها(٧٥). اما الاحكام التي تنقضها الهيئة فتعاد إلى المحاكم التي

أصدرتها لاعادة النظر فيها. وذكر الزركلي أن تركيب الهيئة تعقد فيما بعد وزادت عدد القضايا التي تنظر فيها .

كانت في الحجاز المحاكم التالية: في مكة اثنتان من المحاكم المستعجلة ومحكمة كبرى وهيئة للمراقبة القضائية، وفي المدينة محكمة مستعجلة ومحكمة كبرى، وفي جدة محكمة مستعجلة(٧٦).وفي عام ١٩٣٢ انشئت في مكة محكمة مستعجلة لقضايا البدو(٧٧).

ونظراً لطابع مكة الدولي فقد ظلت فيها المدارس الفقهية الاربع، على الرغم من أن الحنبلة كانت السائدة بطبيعة الحال(٧٨).

وكانت رواتب القضاة من اموال الزكاة، ولكن المدعي يدفع رسوم خدمة تستوفي لصالح الخزانة(٨٠).

في عام ١٩٢٧ أسست في الحجاز أول دوائر كتاب العدل التي كانت تتولى تسجيل الوثائق القانونية باستثناء ما يتعلق بالاوقاف(٨١).

وفي عام ١٩٢٦، أي قبل الاصلاح القضائي أسس في جدة المجلس التجاري المؤلف من رئيس وخمسة أعضاء من ذوي الخبرة في الشؤون التجارية لىنظر في المنازعات بين التجار والصيارفة والوكلاء وأصحاب الحوانيت، والبت في القضايا المتعلقة بتصريف العملة ودفع الحسابات التجارية عبر البنوك، والنظر في المنازعات بين التجار واصحاب السفن في حالة فقدان الامتعة أو اصطدام السفن أو تعرضها للهجوم، وفي الخلافات الناشئة عن تحرير العقود أو اتفاقات الاسعار. وفيما بعد أخذت هذه المحكمة تعمل وفق «نظام التجارة» لعام ١٩٣١ الذي وضع على غرار نظام الامبراطورية العثمانية، واستثنيت منه القضايا الخاضعة لاحكام الشرع(٨٢).

ومن المهمات التي انيطت بالمحاكم الشرعية في شبه الجزيرة خلال فترة العشرينات والثلاثينات، محاولة قطع دابر الثأر بفرض دية عن دم القتيل وحمل أهله على قبولها. وحددت مبالغ معينة عن كل نوع من التشويه الجسدي(٨٣). وكما كان الحال إبان الدولة السعودية الاولى، كانت تلك محاولة تهدف إلى أضعاف النزاعات بين العشائر والتقليل من احتمالات التجارب فيما بينها. وبعد صدور قرار

قضائي كان أهل القتيل يرغمون على الأعلان عن عفوهم عن القاتل[٨٤]. هذا علماً بان الافخاذ الارستقراطية، بما فيها آل سعود، استمرت ترفض الدية وترى أن الدم لا يغسله الا الدم.

فيما يخص السرقة وقطع يد السارق، تجدر الاشارة إلى أن مثل هذه العقوبات تطبق أقل كثيراً مما قد يبدو لغير المطلع، وذلك لوجود عدد من التقييدات. فيجب أن تكون السرقة مثبتة والسارق بالغاً سن الرشد وفي كامل قواه العقلية وقد عمل بمحض إرادته. وينبغي أن يكون المسروق ذا قيمة اذ إن الماء والخمر والآلات الموسيقية والصور وكتب الفقه لا تعتبر ذات قيمة. ويجب الا تقل قيمة المسروق عن ثلاثة دراهم. كما أن المسرق يجب أن يكون قد سرق من محل يحفظ فيه عادة مغلقاً بمفتاح. وإذا ما كسر سارق القفل وقام آخر بالسرقة، فلا تقطع يد أي منهما. ولا تحتسب سرقة الاقارب. وينبغي أن يكون هناك شاهدان على واقعة السرقة. ويلغى قطع اليد في سنوات الجوع أو الغلاء[٨٥].

ويعتبر الزنى جريمة بحق الاسرة والاخلاق العامة، ويرجم الزاني والزانية[٨٦].

كان الجلد عقوبة تعاطي الخمر[٨٧]. كما حددت الممارسات القضائية جملة من العقوبات الصارمة عن نهب القوافل[٨٨].

الواردات والنفقات. كان خمس غنائم الغزوات، التي يحالفها التوفيق دخلا لخزانة الدولة. ولكن خلافاً للدولة السعودية الاولى كانت تمر في إمارة نجد، ومن ثم في مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، سنوات عديدة دونما غزوات تذكر،وأخذت الغزوات نفسها تكلف مبالغ طائلة وحتى إذا كانت موفقة، فإن الغنائم لا تسد النفقات كل مرة. لذا فإن مداخيل الدولة اخذت تعتمد أكثر فأكثر على جباية الضرائب بانتظام، وأهمها الزكاة.

إن الصلاة بين المؤمن وربه، في حين ان الزكاة، هي بمثابة دليل على الولاء للحاكم الذي «ينفذ مشيئة الله»[٨٩]. لذا فالزكاة ليست مجرد فرض من الفرائض الدينية، بل هي أيضاً دليل ولاء للحاكم.

في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٥، أصدر أبن سعود مرسوماً يحدد مقادير الزكاة وطرق جبايتها.

ونص المرسوم على أن الزكاة لا تستوفى عن الدواب المستخدمة للاغراض الحربية وللنقل. وكانت الزكاة تستوفى عن الابل إذا زاد عددها على خمسة، وعن الاغنام إذا زاد عددها على الاربعين، وعن الابقار إذا زاد عددها على ٣٠[٩٠]. وتدفع الزكاة عن كل محصول الحبوب والفواكه التي يمكن قياسها وحفظها كالتمر والزبيب واللوز والفستق والجوز، ولاتستوفى عن سائر أنواع الفاكهة أو الخضروات. وتستوفى الزكاة عن الاراضي المروية بنسبة ٥٪ من المحصول وعن أراضي الديم بنسبة ١٠٪. وتستوفى عن الفضة بنسبة ٢,٥٪ من قيمتها وعن الذهب بنسبة ٢,٥ بالمائة وترتفع النسبة إلى ٥٪ إبتداء من وزن معين. ويستوفى عن الرأسمال التجاري وريعه ٢,٥٪[٩١].

وكلف أمراء المقاطعات بالاشراف على استيفاء الزكاة[٩٢]. وفي زمن عبد العزيز كان جباة الزكاة ينقسمون إلى فئتين رئيسيتين، تعمل إحداها في المدن والواحات، وتستوفي الاخرى الزكاة من البدو. وكان العاملون ضمن الفئة الاولى يحصلون على نسب من المجموع العام المستوفى، بينما عينت للعاملين ضمن الفئة الثانية رواتب محددة. ومن الناحية الشكلية كان مقررا أن تجبى الزكاة في نهاية كل عام هجري، ولكن من الناحية العملية كانت الجباية تجري في موسم معين، حتى وإن لم يتطابق مع نهاية العام الهجري. ففي المقاطعة الشرقية كانت الزكاة تجبى في الربيع أو الصيف. وكان جباة الزكاة يعرفون الطرق التي تسلكها القبائل واماكن تجمعها فيقصدونها[٩٣]. وعندما كانت حركة الاخوان في ذروتها تولى المطاوعة جباية الزكاة في الهجر[٩٤]، وكانوا يمثلون الامام - الامير في ذلك. وفي بعض الاحيان كان أفراد آل الشيخ يشرفون على جباية الزكاة إلى جانب المطاوعة[٩٥].

إن جباة الزكاة كانوا عيون الحكومة بين البدو وركائز لهيبة السلطة المركزية ولكنهم كانوا يتجاوزون صلاحياتهم، وقد اعترف عبد العزيز لفيلبي ذات مرة، أنه لا يحصل إلا على ثلث الضرائب[٩٦].

وكما كان الحال إبان الدولة السعودية الاولى، فقد ألغيت في امارة الرياض الخوة التي تدفعها القبائل الضعيفة للقوية.ولكن ديكسون أشار الى ان الخوة كانت تدفع باشكال أخرى[٩٧].

ثمة مسالة كبرى مختلف عليها وصارت لها أهمية عملية ابان النزاع على الحدود مع العراق ثم أثناء الخلاف على واحة البريمي ومفادها: هل ان إداء الزكاة من قبل القبائل يعتبر اعترافاً بسيادة حكومة الرياض، وبالتالي الدولة السعودية، على اراضي هذه القبائل؟ واجاب فقهاء الرياض على هذا السؤال بالايجاب، في حين اعطى الفقهاء، من مختلف المدارس الاسلامية، والاوروبيون تفسيرات متباينة.

فقد رأى ديكسون المعتمد البريطاني في الكويت والباحث في قضايا الجزيرة ان لرئيس الدولة الحق في ان يجند أثناء الحرب كل من يدفع له الزكاة لكي يقاتلوا تحت لوائه، وله ان يصادر ماشية من لاينصاع له. ووفقاً للعرف الوهابي فان القبيلة اذا لم تؤد او لم تتمكن من اداء الزكاة لحاكمها الشرعي فان بوسع الحاكم ان أ)يصادرممتلكاتها ب) يتخلى عن مسؤولية حمايتها من سائر القبائل الخاضعة له ج) لا يؤازرها عند تعرضها لغزو اعداء خارجيين. اما اذا كانت القبيلة تؤدي الزكاة فان الحاكم او رئيس الدولة ملزم بحماية هذه القبيلة من العدوان الداخلي او الخارجي وليس لرئيس الدولة الحق في جباية الزكاة من قبيلة لا تأتمر بأمره ولكنها ترعى ماشيتها في اراضي دولته ولا تعتزم المكوث الا فترة قصيرة تعود بعدها إلى أراضيها وتؤدي الزكاة لحاكمها الشرعي. ويقول ديكسون ان هذا قانون قديم ومحكم في الجزيرة ويفهمه الجميع[٩٨]. ويذهب مؤلف«مذكرة الحكومة السعودية» إلى ان رأي ديكسون هذا يمكن ان يكون مدخلا لفهم الجوانب السياسية لاداء الزكاة إبتداء من القرن الثامن عشر[٩٩].

بعد الاستيلاء على المنطقة الشرقية فرضت رسوم جمركية مقدارها ٨٪ ، وان كان فيلبي قد أشار إلى ان رسوم الدخان وصلت إلى ٢٠٪[١٠٠]. وفرضت الجزية على الشيعة والمسيحيين واليهود في الاحساء[١٠١].

واثر الاستيلاء على الحجاز ظهرت ضريبة جديدة تستوفى من الحجاج وكانت

ترفد خزانة الدولة بعوائد كبيرة. ولكن الدولة ظلت فقيرة إلى حد كبير، ومن ادلة ذلك ان عوائدها الاجمالية من الضرائب عام ١٩٢٧ بلغت ١,٥ مليون جنيه استرليني(١٠٢).

جرت المحاولة الاولى لوضع ميزانية السعودية عام ١٩٢٩، ولكن وضعها لم يتم الا عام ١٩٣٤. ولاول مرة قامت الدوائر الرسمية للدولة بوضع مشاريع للنفقات وقدمتها إلى وزارة المالية. ثم احيلت المشاريع إلى مجلس الشورى الذي أحالها بدوره إلى مجلس الوكلاء(الوزراء). وبديهي انه لم يجر التقيد بالميزانية، ولكن من المهم الاشارة إلى ضآلتها، اذ ان باب النفقات بلغ ١٤ مليون ريال(كان الجنيه الاسترليني الواحد يعادل ثمانية ريالات تقريباً)، وبلغ باب الواردات مقداراً مماثلاً(١٠٣).

يذكر الزركلي انه وقع على تقرير لوزارة الخارجية المصرية عن واردات الدولة السعودية في أواخر الثلاثينات. ويشير التقرير إلى ان الموارد الرئيسية تتلخص في رسوم الحج والعوائد من البترول والذهب والزكاة. ولم تتجاوز الميزانية مليوني جنيه مصري سنوياً(١٠٤).

وكانت الضرائب المستوفاة تذهب إلى بيت المال، اما النفقات فان للجيش حصة الاسد منها. كما كانت تدفع مخصصات لارامل وايتام الشهداء وللجرحى والمرضى. ومن بيت المال ايضاً جرى الانفاق على العلماء والمدارس وتنشئة الجيل والموظفين(١٠٥).

واشار حافظ وهبة في معرض حديثه على حكام الجزيرة إلى انهم يعتبرون ايديهم مطلقة في خزانة الدولة. وقال عن امارة الرياض ان«ما يدخل خزانة الحاكم يصرف منه على حاجاته الشخصية وعلى الاعطيات التي يجود بها على الوافدين. اما المدارس والصحة ووسائل تنظيف البلد وتجميلها فانه، مع استثناء الحجاز، نجد الاهالي والحكام مشتركين في عدم الشعور بالحاجة إليها»...(١٠٦).

وكان في الرياض جيش من الفقراء يعيله الملك. وكان ما يراوح بين الالف والالفين يأكلون في القصر مرتين كل يوم. وعلاوة على ذلك كان في العاصمة زهاء

مائة من عوائل الاسرى تكلف عبد العزيز بنفقات بيوتها وخيلها وابلها وثيابها وجواريها وعبيدها [١٠٧]. ويذكر حافظ وهبة ان عدد الضيوف الدائمين لا يقل عن خمسمائة، وقد يبلغ عشرة آلاف[١٠٨].

وكان بدو كثيرون يجتازون مئات الكيلومترات للحصول على هبة من الملك. وتجدر الاشارة إلى ان هذه الهبة غدت بمثابة واجب مفروض على الحاكم. وكل اعرابي يمنحه عبد العزيز منحة، كبيرة ام صغيرة، نقداً او كسوة او مؤونة، تصبح في نظره، كما يقول الزركلي، «حقاً» له واجباً كل عام. وإذا نقص النقد ريالاً او الكسوة غترة او المؤونة بعض الشيء طالب به والح، وإذا منعت عنه المنحة غضب.

وكما كان الحال في عهد السعوديين الأوائل، صارت الضيافة لدى إبن سعود الوسيلة المركزية لاعادة توزيع الواردات على الصفوة في المجتمع. وإن من تدول دولتهم من شيوخ القبائل وامراء الحواضر كانوا يحلون«ضيوفاً» تحت المراقبة. اما اطعام الفقراء ومنحهم بعض العطايا فانهما كانا يؤديان وظيفة«حلقة الوصل الوثيرة» بين المالكين والمعدمين، ويعززان سمعة الملك كعاهل سخي مضياف و«أب للشعب» وشيخ«ديمقراطي».

عند حلول الثلاثينات كانت **القوات المسلحة في العربية السعودية** قد شهدت تطوراً ملحوظاً. شكلت قوات حاكم الرياض في الاعوام الاولى التي أعقبت قيام الامارة على غرار ما كان يجري في زمن اجداده. فقد كتب سليمان الدخيل عام١٩١٣ يقول ما معناه: «متى اراد الحاكم ان يغزو استنفر قومه، فنفر معه الكبير والصغير. اللهم الا ذاك الهرم العاجز، او ذاك الصغير الضعيف او من كان يعنى بالفلاحة والزراعة. وإذا كان في البيت الواحد أخَوَان يذهب احدهما ويبقى الثاني. وكذلك قل عن ابني العم او ابني الخال، فإن احدهما ينفر للقتال والآخر يبقى عوناً لاهل البيت. والامير في ابان الحرب لا يقوم بشيء من المؤن او الذخائر الحربية. لأن كل من يخرج للغزاة مكلف باعباء نفسه، من اتخاذ الاسلحة اللازمة والمتاع وكل ما يضمن له القتال مدة من الزمن. فإذا طالت المدة، فالحاكم يجدد له الخيل والركاب والاسلحة إذا تلف منها شيء. وهو يمدهم بالاطعمة»[١٠٩].

وجاء في جريدة «أم القرى» ان «كل فرد في نجد محارب بطبيعته، يحمل السلاح منذ نشأته، ويتمرن عليه، فإذا دعي تقلد بندقيته وركب ناقته ومضى إلى المعركة. وكل نجدي من سن الثالثة عشرة إلى السبعين صالح للقتال... ولم يكن في نجد تكنات عسكرية، لان بلاد نجد كلها... تؤلف ثكنة تضم الرجال جميعاً...»(١١٠).

ويذكر مؤلفو كتاب «الجزيرة العربية في عهد ابن سعود» ان القوات المسلحة النجدية كانت تنقسم إلى أربع أصناف ١) أهل العارض ٢) الحضر ٣) الاخوان ٤) البدو(١١١).

وامتاز من بين «أهل العارض» الحرس الملكي الذي تولى حماية الملك والامراء من أفراد الاسرة المالكة، ومنتسبو الحرس الملكي لا يفارقون السلاح حتى أثناء نومهم. ومن أهل العارض أيضا موظفو الحكومة(باستثناء الاجانب) الذين كانوا يستنفرون عند الضرورة، و«جيش الجهاد» المسلح. والحرس الملكي أيضا من «جيش الجهاد» لكنهم يختلفون عن سواهم بملازمتهم للملك او الامراء. وكان في ديوان الملك دائرة خاصة للجهاد مسؤولة عن هؤلاء الجند وسلاحهم ومؤونتهم.

أما فئة الحضر فتضم سكان الحواضر والمدن النجدية. وهم يشكلون أثناء المعركة الميسرة والميمنة، في حين ان «أهل العارض» يقاتلون في الوسط. وكانت درجات الاستنفار أربعا.

الدرجة الاولى: عندما يسود السلام فترة طويلة وليس ثمة خطر حرب، فإن كل حاضرة ملزمة باستنفار عدد معين من الرجال باسلحتهم ومؤنهم لمدة أربعة أشهر سنوياً. وإذا لم تكن حاجة لهم فإن اهل الحاضرة يدفعون لبيت المال مبلغاً معادلا لكلفة إعالة الجند.

الدرجة الثانية: تجرد كل حاضرة عددا من المقاتلين مع مؤنهم للمشاركة في الحملات العسكرية الصغيرة. وتوفر لهم الخزانة السلاح والذخائر، اما إذا استمر بقاؤهم في الخدمة العسكرية أكثر من أربعة أشهر فإن الخزانة تتولى تزويدهم بالمؤن للمدة المتبقية.

الدرجة الثالثة: بغية خوض حملات عسكرية طويلة الامد او صعبة يعلن الجهاد الاصغر فتلزم المدن والقرى بمضاعفة عدد الجند المستنفرين.

الدرجة الرابعة: في الظروف الطارئة، وإذا تعرضت الدولة للخطر، يستنفر الحاكم كل رجل قادر على حمل السلاح.

وخلافاً لسكان الحواضر فإن كل رجل قادر على حمل السلاح من هجر الاخوان كان يشارك في الحروب والحملات الحربية.

وكانت لكل وحدة رايتها، وللقائد العام رايته الخاصة وموقعه عادة في الوسط، ولكل منها صيحة حرب خاصة بها يتعرف بواسطتها كل من أفرادها على الآخر، وصيحة حرب مشتركة للقوات السعودية كلها.

كان الحرس الملكي و«جيش الجهاد» في وضع متميز عن سواهما، ولهما الافضلية في التموين والتسليح، ويزودان بالخيول الملكية. وإذا كان منتسبو هاتين المؤسستين مسجلين في قوائم مديرية الديوان الملكي فإنهم يتقاضون مرتباً، وفي الحالات الاخرى يحصلون على هبات ومخصصات[١١٢].

وكان لدى الملك مجموعة من الحراس الشخصيين الذين يتم انتقاؤهم خصيصاً. وإذا سار عبد العزيز راجلا فإن حارساً يتبعه كظله مسلحاً ببندقية ومسدس وخنجر، ويقف خلفه في كل المجالس. ولا يصلي الحارس مع الجماعة حين يكون في المسجد، وإنما يستمر واقفاً يراقب كل حركة حوله. وجرى عبد العزيز في هذه العادة على سنن أسلافه، منذ ان قتل الامام عبد العزيز الاول في مسجد الدرعية عام ١٨٠٢[١١٣].

ومن البديهي ان تنظيم القوات لم يكن على المستوى المبالغ فيه الذي أورده كتاب «شبه الجزيرة في عهد ابن سعود». فحسبنا تذكر الحملات العسكرية لامير الرياض، الذي صار سلطاناً وملكاً، وتباين تركيب قواته المسلحة وكون الاغلبية فيها كانت تارة للحضر وتارة للبدو والاخوان. ولكن من المؤكد ان العارض والمناطق المجاورة لها كانت الركيزة الرئيسية للقوات المسلحة والمصدر الدائم الذي يمده بالمقاتلين الاشداء.

ذكرت صحيفة «ام القرى» ان«الجيش الذي كان يعتمد عليه الملك عبد العزيز في فجر حياته، هو جيش الجهاد الذي كان مكوناً من حاضرة أهل نجد، مضافاً إليه جيش «الاخوان» الذي كان مكوناً من القبائل البدوية الرحالة التي وضع لها نظام «الهجر» وأنزلها من البادية إلى الحاضرة، وأصبحت هجرها كثكنات عسكرية. وظل هذا سائداً إلى عام ١٣٤٨ هـ(١٩٣٠م) حين رأى الملك مجاراة تطور التسلح فأمر بتكوين إدارة للامور العسكرية، فكان ذلك ايذانا بغرس النواة للجيش النظامي»[١١٤].

كانت فكرة تأسيس جيش نظامي قد راودت ابن سعود قبل هذا التاريخ. فقد شاهد القوات الانجلو هندية المسلحة في العراق إبان الحرب العالمية الأولى، وكان قبل ذلك قد حارب ضد الوحدات النظامية المسلحة التركية، فتأكدت لديه أفضليات القوات الحديثة المنضبطة والمدربة.

وبعد استسلام جدة عرض عبد العزيز على كل ضباط الجيش الهاشمي الانتقال إلى الخدمة لديه، فعين عددا منهم في شرطة مكة أولا، ثم أخذ يشكل من بينهم اولى الوحدات النظامية. واستقدم الملك ضباطا من سوريا والعراق للعمل في الدائرة العسكرية[١١٥].

شهدت جدة عام ١٩٣٠ أول استعراض عسكري شارك في ثلاثة افواج: من المدفعية والرشاشات والمشاة، وهي نواة الجيش النظامي.

ونظَم الجيش على شكل كتائب والوية، ووزع على خمس مناطق عسكرية وتم توحيد الزي العسكري وشارات الرتب، وافتتحت في الطائف مدرسة عسكرية. وفي عام ١٩٣٥ أسست وكالة (وزارة) الدفاع ومقرها في الطائف ومديرية الامور العسكرية. وفي عام ١٩٣٨ ألغيت المديرية وفي العام التالي شكلت«رياسة الاركان الحربية». وفي عام ١٩٤٦ أنشئت«وزا رة الدفاع»[١١٦].

ان أهمية الطيران، العسكري والمدني، لبلد مترامي الاطراف وقليل السكان، كانت واضحة للعيان، لذا أرسل عام ١٩٣١ إلى ايطاليا عشرة شبان سعوديين لتعلم الطيران، وبعد عودتهم تم شراء عدد من الطائرات. وفي زمن الحرب اشترى الملك

خمس طائرات أميركية من طراز«داكوتا» ثم تسعا اخر. وبدأت اولى الرحلات الجوية داخل السعودية، ثم إلى مصر وسوريا ولبنان. وانشئت في الطائف مدرسة للطيران. واستقبل عبد العزيز نفسه الطائرة لاول مرة في تشرين الاول(أكتوبر) عام ١٩٤٥ بالقرب من الطائف[١١٧].

أدرك الملك بسرعة أهمية اللاسلكي للعمليات الحربية وحفظ الامن فانشئت أربع مدارس لتعليم الهاتف اللاسلكي في مكة وجدة والمدينة والرياض، وأرسل بعض خريجيها إلى بريطانيا وبلدان أخرى لمواصلة الدراسة. وخلال عهد عبد العزيز أنشئ في المملكة ستون مركزاً لاسلكياً ثابتاً، منها ثلاثة مراكز رئيسية في جدة والرياض والظهران[١١٨].

وتجدر الاشارة إلى انه إلى جانب الجيش النظامي في السعودية كان يوجد«جيش الجهاد» و«جيش الهجانة» المكون من البدو «الاقحاح» المخلصين للملك. ويرجع تركيب القوات المسلحة على هذا النحو إلى طابع ومستوى تطور مجتمع الجزيرة، ولكنه في الوقت نفسه كان عاملا يقلل من خطر الانقلاب العسكري.

التعليم والتربية الدينية. اثر انهيار دولة آل سعود في وسط الجزيرة في اواخر القرن التاسع عشر، بدأ تدهور التعليم الديني التقليدي، ونقل قسم كبير من مكتبات الرياض إلى القصيم وحائل. وسافر نفر قليل إلى الخارج لغرض الدراسة. ولم يكن في وسط الجزيرة كله مدرسة واحدة، على الرغم من وجود بعض الحلقات الدراسية الخاصة في مساجد عدد من المدن. كما ان البعض كانوا يعلمون التلاميذ القراءة والكتابة في منازلهم مقابل اجر[١١٩].

وقد افتتحت مدرسة دينية في العاصمة اثر عودة عبد الله الشيخ إليها[١٢٠]، واخذ الكثيرون من كبار علماء الدين يقيمون مدارس منزلية[١٢١]. وبديهي ان التركيز جرى على حفظ القرآن وتعليم أصول الفقه الحنبلي لكي يتمكن الدارس من ان يصبح قاضياً[١٢٢]. كما كانت تقرأ في مجالس أمير الرياض الاحاديث النبوية وتاريخ الطبري او السيرة النبوية[١٢٣].

واشار حافظ وهبة إلى ان امراء الجزيرة نادراً ما كانوا يهتمون بتعليم أبنائهم، واعتبر بعضهم التعليم شيئا لا يليق بمقامهم[١٢٤]. وتغيرت هذه الآراء مع تطور حركة الاخوان حينما صارت تلاوة القرآن تحظى بتأييد من الاوساط العليا وبتأييد الاخوان انفسهم.

حينما استولى النجديون على الحجاز وجدوا ان نظام التعليم فيه ارقى بكثير. فقد كان عدد القادرين على القراءة في وسط الجزيرة ضئيلا للغاية، في حين انه كانت تصدر في الحجاز صحيفة وتوجد عدة مدارس مماثلة للمدارس التركية، علاوة على المكتبات الخاصة الكبيرة نوعا ما. وبدأ ابان الحكم العثماني في اواخر القرن التاسع عشر، إصدار صحيفة «الحجاز»(صدرت حتى عام ١٩٠٩، باللغتين العربية والتركية). وأسست في مكة مطبعة أهلية[١٢٥]. وكانت توجد مدرسة حكومية تدرس باللغة التركية ومدرستان دينيتان اهليتان[١٢٦]. وبعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ افتتحت مدرستان اهليتان واحدة بجدة والاخرى بمكة[١٢٧].

اثر اقامة سلطة الشريف حسين المستقلة شهد الحجاز نوعا من النهضة في مجال التعليم، رغم ان المؤلفين السعوديين المعاصرين لا يميلون إلى الاقرار بذلك. وانقسمت المدارس في عهد الحكم الهاشمي إلى قسمين: الاميرية والاهلية. كما أسست مدرسة عسكرية وما يشبه المعهد الزراعي. وكانت غالبية المدارس في مكة[١٢٨]. وفي عهد الحسين بدأ صدور صحيفة «القبلة» التي نشرت مواد كثيرة عن جهود الحسين في مجال التعليم. واستمر صدورها من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٢٤. كما صدرت لفترة قصيرة مجلة يعدها طلبة المعهد الزراعي[١٢٩]. وفي الاشهر الاخيرة لحكم الملك علي صدرت في جدة نشرة«بريد الحجاز»[١٣٠].

أعجب عبد العزيز بنظام التعليم في الحجاز، فأسس عام ١٩٢٦ «ادارة المعارف العامة» التي شرعت باستقدام المدرسين من الخارج. وفي العام نفسه أسس في الرياض والمناطق المتاخمة لها ١٢ مدرسة حكومية واهلية (بلغت ميزانيتها زهاء ستة آلاف جنيه في عام ١٩٢٨ـ ١٩٢٩ و٢٣ الفاً في عام ١٩٢٩ـ ١٩٣٠). وفي

الثلاثينات انشئت مدارس جديدة في كبريات مدن الحجاز وفي الرياض، ثم في حائل وبريدة وعنيزة والقطيف والجبيل[١٣١].

وحتى الخمسينات كان زهاء ٢٢ ساعة من مجموع ٢٨ ساعة دراسية في المدارس الابتدائية مكرسة للمواد الدينية. وحتى في السنة المنتهية من المدرسة الثانوية كانت هذه المواد تشكل ٢٥٪ من الحصص[١٣٢].

وعلى الرغم من مقاومة علماء الدين، فقد ايد عبد العزيز ادراج مواد مثل الرسم الهندسي واللغة الاجنبية والجغرافيا في المناهج المدرسية[١٣٣]. ولكن علماء الدين تمكنوا من احكام رقابتهم على ادارة المعارف، وذلك من خلال نظام تعيين المعلمين والمطاوعة. ولم تطبع، عادة، في مطابع مكة الا الكتب الدينية.

وانشئت في المنطقة الشرقية مدارس شيعية شبه علنية انفقت عليها الطوائف الشيعية[١٣٤].

وابتداء من كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٤، بدأ في مكة صدور جريدة اسبوعية شبه رسمية هي «ام القرى» وهي المرجع الاساسي للبلاغات الحكومية الرسمية. وقامت الجريدة بنشر اخبار تنقلات الملك وخطبه ونصوص المعاهدات والاتفاقيات التي تعقد مع الدول الاجنبية، واخبار الحياة الادبية. وبمرور الزمن تقلص حجم الجريدة واقتصرت على البلاغات والاعلانات الرسمية.

وفي عام ١٩٣٢ صدرت في مكة ايضاً جريدة «صوت الحجاز» الاسبوعية التي دامت سبعة اعوام. وحلت محلها صحيفة «البلاد السعودية» التي اصبحت عام ١٩٥٣ اول جريدة اسبوعية في البلد. وصدرت في المدينة عام ١٩٣٨ جريدة «المدينة المنورة». وصدرت مجلات بشكل غير منتظم في مكة. اما بالنسبة لنجد فإن اول ما وكما صدر هي مجلة «اليمامة» الاسبوعية التي بدأت بالصدور عام ١٩٥٣ في الرياض. ولم يكن للصحافة السعودية تأثير يذكر على تكوين الرأي العام وتطور الاحداث[١٣٥].

لم تتوفر لدينا معلومات موثوقة عن نظام التعليم السعودي قبل الخمسينات.

ويذكر الزركلي انه في عام ١٩٥٠ كان هناك زهاء ٥٠ مدرسة قروية (الفا طالب) و٩٠ مدرسة ابتدائية (١٢ الفا) وعشر مدارس ثانوية (٦٠٠ طالب). وبذا بلغ العدد الاجمالي للطلاب زهاء ١٦ الفا[١٣٦].

* * *

عند دراسة إصلاحات ابن سعود نتوصل، حتما، إلى استنتاج مؤداه ان سعيه لبناء سلطة الدولة وادارة شؤونها وفقا للقيم السائدة في صدر الاسلام كان اكثر تطابقا مع مستوى التطور الاجتماعي للمملكة من «البدع» المأخوذة عن «المشركين»(«الكفار»). فعقارب الساعة في شبه الجزيرة العربية كانت في موضع مغاير لما هي عليه في البلدان الاكثر تطورا في الشرق الاوسط. ولكن ابن سعود نفسه بوصفه من حكام الاقطاع المبكر، ومذاهب«الاسلام الخالص المجدد» التي ظهرت في شبه الجزيرة المتخلفة، قد ولدا بعد بضعة قرون مما ينبغي. فإن مجتمع العربية السعودية ما كان بوسعه ان يصمد امام الافكار الجديدة الكاسحة للنظام القديم، حتى لو لم تهدم البنية الاجتماعية السابقة بفعل تدفق النفط، ومن ثم امواله.وخير مثال على ذلك مصير اليمن في الستينات. فإن البنى الاجتماعية التقليدية تغدو في العالم المعاصر المترابط بعضه ببعض عاجزة عن البقاء في مواجهة ضغوط العالم الخارجي الجاري عبر روابط السوق وعبر تسرب الافكار وعبر المحاولات الرامية لتغيير ولو جزء من المجتمع (القوات المسلحة مثلا) لصد الخطر الخارجي.

وقد غدت العربية السعودية عرضة لتأثير خارجي عات. فقد شاءت الجغرافيا والجيولوجيا والتاريخ ان تصبح السعودية أكبر منتج للنفط. وان صناعة استخراج النفط نفسها والفروع المرتبطة بها، والاهم من هذا وذاك عوائد النفط الاسطورية التي سيطرت عليها الصفوة السياسية، هذه العوامل جميعاً أثرت في البنى الاجتماعية التقليدية للبلد تأثيراً بالغاً جعلها تتهدم وتتبدل.

الفصل الرابع عشر

امتيازات النفط

كان الحج المصدر الرئيسي لعائدات المملكة، لذا فإن تقلص عدد الحجاج بسبب الازمة الاقتصادية العالمية جعل المالية السعودية في حالة يرثى لها. وقد اقامت الحكومة محطات الاذاعة وحسنت اسالة المياه في جدة واشترت سيارات، فبلغ اجمالي ديونها ٣٠٠ ـ ٤٠٠ الف جنيه استرليني، وتوقفت عن تسديد ديونها، ولم تفلح محاولاتها للحصول على قروض جديدة(١).

في هذه الاثناء استغل فيلبي صلاته الشخصية بالملك فاقنعه ان يلتقي بالمليونير الامريكي كراين الذي كان يقوم بجولة في البلدان العربية بحجة سعيه إلى القيام باعمال البر والاحسان. ويبدو انه كان على صلة بشركات البترول الامريكية ويعمل على جس النبض تمهيداً لتوغلها في منطقة جديدة عليها تماماً. ورافق كراين بصفة مترجم في جولته ج. انطونيوس الذي الف فيما بعد كتاب «يقظة العرب». كما أوفد المليونير الامريكي الخبير الجيولوجي تويتشيل إلى السعودية تحت ستار التنقيب عن الماء(٢).

في ربيع ١٩٣٢، اكتشف تويتشيل ترسبات نفطية واعدة في منطقة الظهران، فعاد إلى الولايات المتحدة ليحيط شركات البترول علماً بذلك(٣).

بدأت تباشير عهد جديد في تاريخ العربية السعودية،عهد سيحدث في مجتمعها تأثيراً لا يمكن مقارنته من حيث ابعاده الا بتأثير الاسلام. غير ان القوى

المحركة لهذه التحولات كانت خارج الجزيرة العربية، إذ ان أصلها يعود إلى تحول اقتصاد القرن العشرين إلى وقود جديد هو النفط الذي بدأ البحث عنه في كل بلدان العالم.

الشركات الامريكية في الشرق الاوسط في العشرينات. قبل عام ۱۹۲۰ كانت الشركات الأمريكية اما غير مكترثة بالاحتياطات النفطية خارج بلدها او تمنى باخفاقات في محاولاتها للحصول على امتيازات في النصف الشرقي من العالم بسبب قيود السياسة الوطنية والاستعمارية للدول الاوروبية وشركات النفط الخاصة. ولكن الشركات الامريكية اخذت تهتم اهتماماً كبيراً بعد عام ۱۹۲۰ بالرواسب النفطية في الخارج، بدافع مخاوف ذات طابع مزدوج: فهي تخشى نضوب النفط في الولايات المتحدة من جهة وتخاف احكام السيطرة الانكلو-هولندية على موارد النفط العالمية من جهة اخرى. ولكن السبب الرئيسي هو ان الشركات المذكورة لم تشأ ان تظل بمنأى عن استثمار حقول النفط الرخيص الموجود في مواقع قريبة من الاسواق الهامة(٤).

عام ۱۹۲۰ قال فيريش الذي صار فيما بعد رئيساً لشركة «ستاندارد اويل اوف نيوجرسي» ان النفط يوشك على النضوب في تكساس واوكلاهوما. وفي العام نفسه تنبأ وايت، كبير خبراء الادارة الجيولوجية في الولايات المتحدة، بان احتياطات النفط الامريكي سوف تنضب خلال ۱۸ عاماً. وبهذا الصدد ابدت مديرية الاسطول البحري الحربي قلقها لان الخبراء زعموا أن على الولايات المتحدة تقليص استهلاك النفط او الشروع باستيرابه. وحذر السناتور هنري كابوت لوج الكونغرس من ان«بريطانيا آخذة في السيطرة على صادرات النفط في العالم»(٥).

وليس من المعروف ما إذا كانت الشركات مقتنعة فعلا بان احتياطات النفط الامريكية محدودة إلى هذه الدرجة، او ان ذلك كان ذريعة لجر الحكومة الامريكية إلى المساهمة النشيطة في عملية توسع الشركات خارج البلاد. ان اساليب الضغط على الحكومة وغسل دماغ الرأي العام خدمة لمصالح الشركات الكبرى متقنة في الولايات المتحدة إلى حد كبير، لذا فمن الارجح ان السبب الثاني هو الذي ادى إلى انتشار المزاعم المذكورة.

خشيت الاحتكارات الامريكية من ان تكون قد تخلفت عن عملية اقتسام «كعكة» النفط في الشرق الاوسط. ووضعت وزارة الداخلية سياسة لمساندة الشركات الامريكية في صراعها من اجل الحصول على امتيازات في الخارج، ولحث كل الدوائر والوكالات الامريكية على مساعدتها. وكان مصير الامبراطورية العثمانية موضع بحث في مؤتمر السلام بسان ريمو في نيسان (ابريل) ١٩٢٠، حيث اتفقت لندن وباريس على اقتسام نفط العراق. وتدخلت الحكومة الامريكية من اجل الحصول على حصة لشركاتها النفطية.. واخذت تتحدث عن «تمييز» تتعرض له الولايات المتحدة في العمليات التجارية على اراضي المانيا وحليفاتها وتطالب بسياسة «الانفتاح».

ولما حاولت حكومة اتاتورك اثارة قضية لواء الموصل وارتباطه بالعراق، توفرت للولايات المتحدة فرصة ممارسة تخويف حلفائها بتأييد مطالب تركيا. لذا تم عام ١٩٢١ـ ١٩٢٢ الاتفاق على إعطاء الامريكان ٢٠ـ ٢٥٪ من أسهم شركة النفط المزمع إقامتها. وفي عام ١٩٢١، وبعد ان قرر مجلس عصبة الامم ضم الموصل إلى العراق قدمت الحكومة العراقية امتيازاً لمدة ٧٥ سنة لشركة «تركيش بتروليوم» ولكن حينما بدأ استخراج النفط في الموصل عام ١٩٢٧ لم يكن الامريكان قد حصلوا على حصتهم بعد. وفي تموز (يوليو) ١٩٢٨ تم اخيرا التوصل إلى اتفاق عرف فيما بعد «باتفاقية الخط الأحمر» وبموجب هذا الاتفاق كانت ملكية «تركيش بتروليوم»(منذ عام ١٩٢٩«ايراك بتروليوم» او«شركة نفط العراق») موزعة في الاساس بين الشركة الانجلو فارسية للبترول (صارت فيما بعد الشركة البريطانية الايرانية ومن ثم«بريتيش بتروليوم») و«رويال دوتش شيل» البريطانية الهولندية وشركة النفط الفرنسية و«نيراسترن ديفلوبمنت» التي تضم «ستاندارد اويل «سوكوني موبيل» فيما بعد) ومنحت ٥٪ من الاسهم لكالوست غولبنكيان، وهو احد مؤسسي شركة النفط التركية[٦].

توغلت الشركات الامريكية في «ايرك بتروليوم» على الرغم من ان دورها كان ثانويا. ولكن «اتفاقية الخط الاحمر» وضعت قيوداً كبيرة على حرية تصرف

الشركات، اذ ان المساهمين في «شركة نفط العراق» التزموا بان تكون الامتيازات التي يحصلون عليها في اراضي الامبراطورية العثمانية السابقة بذات النسب المعتمدة في العراق. ونذكر ان نجد والاحساء كانتا عشية الحرب العالمية الاولى تعتبران شكلياً جزءاً من الامبراطورية العثمانية.

الحصول على الامتيازات السعودية. كانت شركة «ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا»(سوكال) من شركات البترول الامريكية التي قامت بعد الحرب العالمية الاولى بمحاولات جادة للاسهام في عملية استخراج النفط خارج الولايات المتحدة.

ولكن كما ارتبط مصير«ايراك بتروليوم» بشخص غولبنكيان، فإن البحث عن النفط وامتيازاته في عدد من بلدان الجزيرة العربية ارتبط باسم الميجر النيوزيلاندي الدؤوب فرانك هولس. فقد وصل إلى البحرين في العشرينات بحجة المشاركة في البحث عن الماء. وفي عام ١٩٢٢ قصد نجد للتفاوض مع عبد العزيز نيابة عن شركة «استرن اند جنرال سنديكات» البريطانية. وقد وافق ابن سعود على منح الشركة امتيازا في ٣٠ الف ميل مربع في الاحساء. وطبقاً للاتفاقية التزم اصحاب الامتياز بدفع الفي جنيه استرليني سنوياً لقاء حق الاستثمار. وفي عام ١٩٢٥ حصل هولس على امتياز آخر في البحرين(٧).

كان المسؤولون عن شركة «سنديكت» أناساً لا تعوزهم روح المغامرة. إذ لم يكن لدى الشركة رأسمال كاف، واملت ان تثير اهتمام شركات النفط البريطانية بالامتيازات، ولكن هذه كانت واثقة من انها ليست بحاجة إلى وسيط. ولما لم يجد هولس دعماً توقف عن تسديد الاقساط بعد دفع أربعة آلاف جنيه استرليني فالغى عام ١٩٢٨ الامتياز في أراضٍ توجد فيها أغنى احتياطات النفط في العالم(٨).

اما الامتياز في البحرين الذي منح لمدة سنتين فلم يلغ لان«سنديكات» تمكنت من تمديده. وبعد ان اخفقت «سنديكات» في محاولات استمالة شركات النفط البريطانية اتصلت بشركة «غالف اويل» الامريكية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٧ بعثت «غالف»جيولوجياً لدراسة أراضي البحرين ووضع خارطة جيولوجية،

واثر ذلك قرر الامريكان ان المسألة تستحق المجازفة، فاشتروا الامتياز من «سنديكات».

غير ان «غالف» واجهت تعقيدات، إذ انها كانت آنذاك مرتبطة بشركة «تركيش بتروليوم»، و«اتفاقية الخط الاحمر» سارية المفعول على البحرين. عند ذاك نقلت «غالف» في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٨ حقوقها المشتراة من «سنديكات» إلى سوكال(٩).

إن عدم اهتمام شركات النفط البريطانية بالامتيازات في البحرين والجزيرة العربية يعزى إلى اعتقادها بانه لا وجود للنفط هناك، لذا لم تعتزم المجازفة. فقد كان إستخراج النفط في العراق وايران يتم من طبقات جيولوجية غير الطبقات الموجودة في البحرين والجزيرة العربية. ولم يتم العثور على النفط في طبقات مماثلة بجزيرة القشم عند سواحل ايران، فاعتبر البريطانيون البحرين والجزيرة العربية مناطق غير واعدة. ولكن تاريخ الصناعة النفطية يعرف حالات عثر فيها المنقبون الجدد على النفط في مواقع أهملتها شركات سابقة لاعتبارات جيولوجية.

عارضت بريطانيا وجود شركة نفط أمريكية في الخليج. وقد التزم حاكم البحرين، حسب اتفاقية عام ١٩١٤، بعدم منح امتيازات في أراضيه والامتناع عن قبول عروض اي كان دون موافقة بريطانيا. حينذاك تحايلت سوكال على القيود الشكلية البريطانية وأسست في آب (أغسطس) عام ١٩٣٠ شركة «بحرين بتروليوم» وسجلتها في كندا، أي انها جعلتها شركة بريطانية من الناحية الشكلية. وفي هذه الاثناء قام اثنان من موظفي سوكال هما دافيس (صار رئيساً لمجلس إدارة أرامكو فيما بعد) وتايلور بدراسة البحرين في ربيع ١٩٣٠ واوصيا بإجراء أعمال الحفر(١٠).

أثارت الطبقات الجيولوجية في البحرين الحاوية على دلائل تشير إلى وجود نفط، اهتمام سوكال بالجزيرة العربية المجاورة. وقد تم اكتشاف النفط في البحرين بعد عامين، في حزيران (يونيو) ١٩٣٢. عندها قررت سوكال الاتصال مباشرة، أي